

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

هذه الرواية الجزء الثاني
من صانعة الدمى



إلى ابني،

الذي له قرأتُ له هذه الحكاية

قبل أن يفهمها أيٌّ منا.

الشّيءُ طويلٌ، فابنوا لكُم بيوتًا واسكُنوا،

واغرُسوا بساتينَ وكُلوا مِنْ ثَمرِها.

—إرميا، ج ٢٩: آية ٢٨، حددتها مارين براندت

في الكتاب المقدس الخاص بعائلة براندت

كل امرأة هي مهندسة حظها.

—عبارة كتبتها صانعة الدُّمى إلى نيلا

براندت في خريف عام 1686م

العام 1705م

ميراث

1

بلغت تِيَا الثامنة عشر من عمرها اليوم، وغدت أكبر من أن تحتفل بعيد ميلادها. لقد أدركت ريبيكا بوسمان الثلاثين في كانون الأول ولم تذكر ذلك قط: ذاك هو الرقي.

في جو مظلم من شهر كانون الثاني، كانت تيا ترتجف تحت الشراشف في فراشها، وتسمع زوج خالها وكورنيليا تتجادلان في الصالون في الأسفل.

كان والدها يجرُّ الطاولة، ليتناولوا الفطور على البساط. فهم دائماً يبدؤون عيد ميلاد تِيَا بالجلوس على ذلك البساط، وتلك عادة لا تنقطع، فهم يجدون متعة في التظاهر أنهم مُغامِرون، يُسيِّرون أمورهم بالزاد الذي جمعوه. لقد صار هذا خيالاً مُزرياً، لأنَّ أحداً منهم لم يغادر أسوار المدينة منذ أعوام. وأيضاً: ما العيب في استخدام طاولة؟ لقد استبقوا أجمل طاولاتهم، لذلك يجدر بهم استخدامها. الكبار يستخدمون الطاولات، و لو كان على ريبيكا بوسمان أن تضَّمِّل فطورًا مُخصصًا لعيد ميلادها، فسوف تتناوله إلى طاولة.

لكن تِيَا لا يمكنها أن تفصح عن أي من هذا. لا يمكنها أن تنزل إلى الطابق السفلي وترى زوج خالها نهلا تُدير ظهرها، وهي تزيل سلاسل الورق المهترئة، التي كانت بلا شك قد علَّقتها على النوافذ الضخمة المكسوة بالجليد، ووالدها يحدّق في

البساط الرث. وكورنيليا، مربّيتها العجوز، تنظر في بؤس إلى الفطائر الحُلاة الصغيرة التي ظلت مستيقظة تمقها طوال الليل. لا تملك تِيا رغبة في الزجّ بهم إلى الحزن، لكنها لا تعرف كيف تخلص نفسها من هذا الدور الذي وضعوها فيه، ابنة الجميع. لقد أصبحت امرأة اليوم، لكن الفرح في هذا المنزل دائماً ما يخلله خوف من الفقد.

وها هو يأتي، على هيئة طعام، الرائحة المُبهرة الحلوة من الطابق السفلي تصل إلى عقب باب غرفتها، فالفطائر مغموسة في ماء الورد، وقد كُتب عليها من دون شك حروف اسم تِيا خشية أن تنساها. يهض كورنيليا المش بالكون لاستبقائها، والخبز الساخن المدهون بالزبدة لتدفئتها. زبدة دلفت، كمكافأة، وعقلة إصبع من النبيذ الحلو للكبار.

رمت تِيا الشراشف عنها، لكنها تظل عاجزة عن حمل نفسها على النهوض، لأن الوعد بالزبدة المخصوصة لم ينجح في رفع معنوياتها، وكل ما ترجوه هو أن يكونوا قد اشتروا لها تذاكر للسخاوبيرغ (المسرح)، حتى يسعها أن تشاهد ريبيكا بوسمان وهي تؤدي عرضها مرة أخرى. ثم بعد انتهاء المسرحية، يمكنها أن تتسلل إلى والتر، الشخص الوحيد الذي يستطيع حثها على مغادرة الفراش.

فكّرت تِيا، قريباً نكون معاً، ويصبح كل شيء على ما يُرام. أما الآن: فطفولة آسنة ومطوطة.

و أخيراً، استجمعت تيا الإرادة لارتداء نعليها ومبذلها، ونزلت السلالم ببطء حتى لا تُسمع، كان عليها أن تشعر بالامتنان، و تبذل جهداً في ألا تخيب آمالهم. لم تكن من قبل تنزعج من التهليل المُبالَغ الذي تظهره عائلتها بعيد ميلادها،

ولكن شتّان مابين الطفولة وسن الثامنة عشر. سيتوجّب عليهم أن يبدأوا في معاملتها كشخص راشد. وربما هذا العام، لأول مرة في عيد ميلادها، يمنحونها هدية تريدها حقًا، ويتحدثون عن والدتها، يهبونها قصة، أو مجرد طُرفة! أجل، جميعنا يعلم أن اليوم هو أصعب يوم في روزنامة عائلة براندت. أجل، في مثل هذا اليوم من ثمانية عشر عاماً، ماتت مارين براندت في هذا المنزل نفسه، وهي تمنح الحياة لتِيَا. كانت تيا هي أكثر من يشق عليها هذا اليوم، إذ راحت تفكر وهي تتحرك عبر بلاط الدهليز" أنا، التي كبرتُ يتيمة الأم".

في كل عام، لا يتحدثون سوى عن عمر تِيَا، وكم صارت تِيَا أكبر في اثني عشر شهرًا؟ كم صارت أجمل، أو أذكى؟ وكأنما تِيَا فتاة جديدة في الكلّية! وكأنها، في الثامن من كانون الثاني من كل عام، والذي هو بارد دائماً وحزين دائماً، قد خرجت عليهم من بيضة. لكن تِيَا لا تحب أن يستعرضوا أمامها مظاهر نموّها. فهي تملك مرآة تفعل ذلك. إنها في عيد ميلادها، تريد أن تنظر في الزجاج وترى والدتها، أن تعرف من كانت ولماذا يمتنع والدها عن التحدث عنها؟ ولماذا يجيبون عن معظم أسئلتها بتبادل النظرات الكئيبة وهم يزمون شفاههم. فكرت، وظهرها ملتصق بالحائط "ربما هم الآن يتحدثون عن مارين براندت"!

وقفت تِيَا في الظل خارج الصالون، فقد كان لديها خبرة في التنصت، لذلك كتمت أنفاسها على أمل أن تسمع شيئاً، لكنهم كانوا يتجادلون حول ما إذا كان لوكاس القط سيقبل ارتداء طوق عيد الميلاد. قالت زوج خالها:

- إنه يكرهه، يا كورنيليا، انظري إلى عينيه. سوف يتقيأ على البساط.

- لكنه يُضحكها.

- لن يُضحكها عندما تأكل الفطائر وإلى جوارها كومة من القيء».

ماءَ لوكاس، إله بقايا الطعام ذو العينين الصفراوين، في استياء. فتدخل والد تِيَا قائلاً:

- كورنفلاور، اتركي لوكاس يتناول فطوره من دون طوق. اسمحي له بذلك. ربما يرتديه في العشاء.

فردّت كورنيليا:

- كلاكما لا يملك حسًّا بالاحتفال. إنه يحب الطوق.

لم تكن تيا تعرف إلا نادراً سوى هذه الإيقاعات والأصوات المألوفة. أغلقت عينيها. كانت في الماضي تحب الاستماع إلى كورنيليا، وزوج خالها نيلا، ووالدها، وتجلس عند أقدامهم أو تتعلق برقابهم، حيث تنال الإعجاب والملاطفة، الأحضان والمداعبة. لكن هذه الأصوات لم تعد نوع الموسيقى الذي يعجبها، لم تعد أعناقهم هي ما ترغب في التعلق بها. كما أن هذه المحادثة حول قطهم الضخم وهل يرتدي طوقاً أم لا، منح تِيَا رغبة شديدة في أن تكون في أي مكان آخر. أن تبتعد عنهم، وتبدأ حياتها الخاصة، لأنه لا أحد منهم يعرف ما الذي يعنيه أن يكون المرء في الثامنة عشرة.

أخذت نفساً عميقاً، ونفثته قبل أن تدخل. فالتفت إليها أفراد عائلتها وكأنهم شخص واحد، برقت أعينهم. وأقبل لوكاس خبباً، متغنّجاً على الرغم من وزنه. كانت تعلم أنّ ورق الزينة يغطي النوافذ، وعائلتها ماتزال مثلها، مازالوا يرتدون ثياب النوم، وكان هذا تقليد آخر من تقاليد عيد ميلادها، على الرغم من أن

رؤية أشكال أجسادهم الهرِمة محزناً. صحيح أن زوج خالها نيلا ما تزال تحتفظ بقوام ملائم مقارنة بأعوامها السبعة والثلاثين، لكن والدها في الواحدة والأربعين، ورجل في مثل سنه عليه أن يرتدي زيًّا كاملا قبل أن يأتي إلى مائدة الفطور.

فكرت تيا في كورنيليا التي تملك ردفين عريضين جداً، وتساءلت في نفسها: "ألا تخجل من الطريقة التي يكشف بها الضوء عمّا تحت قميصها؟ لو كنت في مكانها كنت سأخجل من ذلك، ولن أترك جسدي يترجرج بهذا الشكل قط". كانت كورنيليا تقول دائماً: "يكبر المرء، ويعرضّ ردفاه، ثم يموت."

لكن تِيَا تريد أن تكون مثل ريبيكا بوسمان، التي ما يزال في وسعها أن ترتدي ملابسها نفسها عندما كانت في مثل عمر تِيَا.

كانت ريبيكا تقول إن السر يكمن في الإسراع بالسير عند المرور أمام أي مخبز، لكنّ كورنيليا لم تكن توافق على هذا القول، فقالت وقد تهلل وجهها

- عيد ميلاد سعيد، يا تيپوت!

فردت تِيَا، محاولةً ألا تجفل من اسم التدليل:

- شكراً لكِ. وحملت لوكاس متوجهة إلى حيث تحلّقوا على البساط.

قال والدها:

- يا لطولك! متى ستكفين عن النمو؟ لا يمكنني مجاراتك.

- بابا، إنه طولي نفسه منذ عامين.

فأخذها بين ذراعيه وعانقها طويلا، وقال:

- أنتِ كاملة الأوصاف.

فتدخلت زوج خالها قائلة:

- إنها تِيا فحسب.

التقت عينا تِيا بعيني زوج خالها وهي تُنزل لوكاس. كانت الخالة نيلا هي من يبعد والدها عن شفير المغالاة في المديح دائماً، و أول من يجد العيوب.

قالت كورنيلا:

- دعونا نأكل

فردّ لوكاس،

- لا، فالقطُّ، بلا طوق أو أعباء.

كان فعلاً يحمل شريحة من البيض في فمه، وينسلُّ مبتعداً برشاقة إلى الركن، ساقاه الخلفيتان مثل سروالين رطبين. يُشاع بين الأمستردامیین أنهم لا يحبون الحيوانات في منازلهم، خوفاً من آثار أقدامهم التي تتلف الأرضيات حديثة التلميع، وفضلاتهم التي يتركونها في الأماكن النظيفة، والأثاث الذي يشوهونه. لكن لوكاس لا يهمه رأي العامّة. إنه يملك كمالاً شخصياً، وهو العزاء الدائم لتِيا.

قالت الخالة نيلا:

- إنه المخلوق الأكثر شراهة في تناول الهمبرغر. لا يصطاد الفئران، إنما يسعد بالأكل من فطورنا.

فردت تِيا:

- دعيه.

فقالت كورنيليا:

- تيوت. هاكِ فطائر عيد ميلادك. وقدمتها إليها، كل واحدة على شكل حرف من حروف اسمها، تِيَا براندت: يوجد دبس ماء الورد، أو ربما ترغبين في شيء أكثر ملوحة منها؟

- لا، لا، الدبس جيد. شكراً لكِ. قالت تيا وهي تجلس على البساط، تطوي ساقيها تحتها وتقرمش فطيرتين بتلاحق سريع في فمها.

فوبختها كورنيلا قائلة:

- على رسلك!" والتفتت مخاطبة أوتو:

- أوتو، خبز زبدة بالبيض؟

فأجابها:

- من فضلك. لن تحتمل ركبتاي النزول إلى البساط. سأجلس على كرسي، إذا لم يمانع أحدكم.

فقالت الخالة نيلا:

- لستَ في الثمانين من عمرك! لكن والد تِيَا تجاهلها.

جلست النسوة على البساط. شعرت تِيَا بالسخافة، ولكنها سُرّت، لأنّ لا أحد من المارة الذي ينظرون إلى داخل منزلهم يمكنه أن يراهم. سألتها الخالة نيلا:

- عقلة نبيذ من أجلك؟

فاعتدلت تِيَا في جلستها، ووضعت صحنها على ركبتها، وقالت:

- حقًّا؟

- إنكِ الآن في الثامنة عشرة. لم تعودي طفلة. هاكِ. وناولتها كأسًا صغيرًا.

قال والدها:

- إنه من جزر ماديرا. كان في القبو برميل غير مُدرج، بنصف السعر."

فقالت زوج خالها:

- حمداً للرب على ذلك، إذ ليس في وسعنا شراء براميل ماديرا بهذه البساطة.

تجهم وجه والدها، وتضرج الخالة نيلا خجلاً، فخفضت بصرها، وراحت تحدّق في الأشكال الدوامية للبساط.

فاستأنف والد تِيَا القول:

- لنشرب نخباً، في صحة حبيبتنا تِيَا. فلتكن دائماً آمنة.

فردت كورنيلا:

- وشبعانة.

أضافت تِيَا:

- وسعيدة.

فرددت زوج خالها:

- وسعيدة.

تجرعت تِيَا الخمر، فشعرت بنارٍ تتأجج في معدتها، ولكنها أمدتها بالشجاعة. فتسألت: "كيف كان اليوم الذي وُلدتُ فيه؟"

خيم الصمت على الجالسين على البساط، وكذلك الجالس على الكرسي. مدّت كورنيليا يدها إلى قطعة خبز أخرى وأخذت تحشوها بالبيض المش. فقالت تِيَا:

- حسناً؟ جميعكم كان موجوداً.

التفتت الخالة نهلا إلى والد تِيَا، وتلاقت أعينهما.

تابعت تِيَا القول:

- كنتَ موجودًا، أليس كذلك، يا بابا؟ أم أني جئتُ وحيدة إلى العالم؟

فردّت زوج خالها:

- جميعنا يأتي إلى العالم وحيداً.

التزم والد تيا الصمت كعادته، وراحت عينا كورنليا تدوران في محجريهما.

وفجأة تنهدت تِيَا، وقالت:

- لم تكونوا سعداء بولادتي.

انتفض أفراد عائلتها، والتفتوا إليها، مشدوهين، وأسرعت كورنليا تقول:

- آه، لا، بل كنا في غاية السعادة! كنتِ نعمة."

- كنتُ نهاية شيء!

أغمضت الخالة نهلا عينيها، وقال والدها:

- بل كنتِ بداية. أفضل بداية على الإطلاق. والآن، أعتقد أنه وقت الهدايا."

تعرف تِيَا أنها غُلبت، مرة أخرى. وأسهل طريقة للتعامل مع هذا هو أن تتناول قطعة ثانية من خبز الزبدة وتفتح الهدايا التي قدّموها إليها. علبة من البسكويت بالقرفة، وهو المفضل لديها، قدّمته كورنليا، أمّا والدها وزوج خالها، فقد كانا يوليان

اهتماماً إلى جزء من روحها على الأقل، فقدما تذكرتين لعرض تيتوس عصر اليوم، فقالت ودقات قلبها تعلو:

- مقاعد الشرفة! إن هذا سخاء في الحقيقة. آه، شكراً لكما

فابتسم والدها قائلاً:

- إنكِ لا تبلغين الثامنة عشرة كل يوم.

أردفت كورنيليا:

- سنجعل منه يوماً مميزاً، أنتِ وأنا.

نظرت تيَا إلى تعابيرهم المُبتهجة. وخمنت أنهم قد قرروا من سيرافقها فعلاً - إنه منطقي، كما تفترض، إذ أن والدها سيكون عليه الانصراف بعد قليل إلى عمله في الفوك، وزوج خالها لا تحب المسارح. همست: «شكراً لكِ، يا كورنيليا» فضغطت مربيتها القديمة على يدها.

إنّ تيتوس مسرحية عنيفة إن صحّ التعبير، لكن تيَا تفضّل قصص الحب. قصائد في الغابة، أحلام في الجزيرة، حيث تعم الفوضى كل شيء قبل أن يعود إلى نصابه. منذ أن كانت في الثالثة عشرة، وتيَا تجر زوج خالها أو كورنيليا إلى مسرح المدينة. فتصلان مبكراً، وتدفعان رسوم الدخول وستايفران زيادة للكراسي الاحتياطية، التي لا توفر مكانا مُتسعا للفستان، فضلاً عن علبة، ثم تنتظران امتلاء المكان بستمائة وتسعة وتسعين جسداً آخر. إن فرارها إلى الكوميديا أو التراجيديات شبيه بلحظات العودة إلى الوطن. وعندما صارت في السادسة عشرة، وبعد الكثير من الاستجداء والمداهنة، وعلى الرغم من المعارضة العنيفة من جهة كورنيليا، وافقت عائلتها على أن في إمكانها بين الحين والآخر أن تقطع الخمس دقائق سيراً

إلى المسرح لوحدها، طالما أنها ستعود مباشرة إلى المنزل، حافظت تِيا على الجزء الذي يخصها من الصفقة، إلى أن قابلت والتر خلف الكواليس منذ ستة أشهر. تغيرت الأوضاع. كان الخداع ضرورياً. فأطالت من مدد العروض حتى تختلس الوقت الزائد معه، وبلغ بها الأمر أيضاً أن اختلقت عناوين مسرحيات وهمية وأيام عروض كاذبة، حتى تذهب وتقابله خلف الستار. لم تشك عائلتها فيها قط. لم يحققوا هل هذه المسرحية الهزلية أو تلك التراجيدية قد عُرضت فعلا أم لا. ومع أن تِيَا تشعر أحيانا بالذنب، إلا أن الحب الذي يربطها بوالتر مهم جداً، فقصة حبهما رومانسية مُرتجلة تُعرض في الممرات الخلفية للسخاوبيرخ، كلماتها لا تُمحى، منقوشة كما هي في القلب. تعرف تِيَا أنها لن تتخلى عنها أبداً.

قالت زوج خالها:

- لا.

فرفعت تِيَا عينيها من على التذكرتين في يدها، وتساءلت:

- هذا المساء؟

لاحظت تيا النفس السريع والضيق الذي صحبته زوج خالها التي قالت:

- هل نسيتِ الحفل الراقص الذي تقيمه عائلة ساراخون بمناسبة عيد الغطاس؟ تِيَا، إنها لمعجزة أننا حصلنا على دعوة. إنني أتودد إلى كلارا ساراخون منذ عيد القديس ميخائيل من أجل أن يحدث ذلك.

اختلست تِيَا نظرة إلى وجه أبيها الجامد، وقررت المجازفة:

- إنكِ لا تحبين أولئك الناس. لماذا نذهب من الأساس؟

فقالت الخالة نيلا، وهي تنقل عينيها إلى النوافذ الطويلة والعريضة للصالون، وتنظر من خلالها إلى الناحية الأخرى من قناة هيرين:

- لأننا مضطرون.

- ولكن، لماذا نحن مضطرون؟

صمت الجميع، فقررت تِيَا أن تلعب ورقتها الأخيرة:

- أليست كلارا ساراخون تمتلك مزرعة في سوريبام؟

احتدم الجو في الغرفة. كانت تِيَا تعرف أن والدها قد أُخذ إلى تلك المستعمرة عبداً، وعندما صار في السادسة عشرة جاء به خالها، الذي مات منذ وقت، إلى أمستردام. كانت كورنيليا قد أخبرتها قصة واحدة فقط عن تلك الفترة، عن نساء أمستردام اللاتي كن يضعن عصافيرهن في شعر أبيها، صورة كانت دائماً تسبب لتِيَا ضيقاً عميقاً. ولكن بعيداً عن ذلك، فإن كل الحقائق التي تخص ماضي أبيها مُخبَّأة في بئر لا يمكنها نبشه. أين كان والدها قبل سوريبام؟ أو أي شكل اتخذته الفترة التي قضاها في المستعمرة؟ كل ذلك لا تعرف تِيَا عنه شيئاً. لم يتحدث عنه قط. إنه فراغ عميق عمق الصمت المحيط بأمها البيضاء، شيء آخر من الأشياء المسكوت عنها والتي تتغلغل في هذا المنزل كالضباب. أوتو براندت: لربما هو أيضاً قد خرج من بيضة.

ضاقت تِيَا ذرعاً بصمتهم، ففي كل مرة تحثّ كورنيليا على الكلام، تتلقى الرد نفسه، فتقول كورنيليا:

- أنا جئتُ من الملجأ، ووالدكِ أُخذ من وطنه الأصلي. هكذا سارت الأمور بالنسبة إلينا. هذا المنزل هو مرفأنا. إنه حيث

نقيم، حيث ننتمي.

"ولكن، ماذا لو أنني لم أعد أرغب في البقاء في المرفأ"؟ تساءل تِيَا سراً، لكنها لا تجرؤ أبداً على الجهر بذلك. ماذا لو أنني لا أشعر بالانتماء؟

قالت زوج خالها بصوت صارم:

- لا دخل لكِ بما تملكه كلارا ساراخون أو لا تملكه."

وأشاح الجميع بنظرهم عن والد تِيَا: "لا تنسي، السادسة مساءً. سنكون جاهزين في الدهليز ونحن نرتدي أفضل ملابسنا.

قالت تِيَا:

- ما تبقى منها.

تنهدت زوج خالها، وقالت:

- بالضبط.

فقالت كورنيليا وقد أشرق صوتها:

- اذهبي وارتدي ملابسكِ، يا تيبوت. سآتِ وأساعدكِ في تصفيف شعرك.

اختلست تِيَا نظرة إلى والدها الذي يتطلع الآن من النافذة، ودارت على عقبيها، فقد شعرت بومضة خزي خافتة، مُخلفة عائلتها في منأى داخل الصالون. وبينما كانت تصعد الدُّرج إلى عتمة الممر العلوي، أزاحت تِيَا من تفكيرها حفل ساراخون الراقص وحديثها المتهور عن سوريام، وأخذت تفكر في الهدية الحقيقية لعيد ميلادها. ستكون سعيدة بمشاهدة ريبيكا تحلق عمراً على المسرح، ولكن خلف ذلك الديكور المطلي، ينتظر شيء أكثر واقعية. حب حياة تِيَا، السبب الذي من أجله

تعيش. لن تسمح لمجرد حفلة غبية تقيمها إحدى نبيلات أمستردام بأن تفسد موعدها مع والتر ريبيك.

2

حينما أعلنت الساعة بلوغها الحادية عشرة والنصف، كانت تِيا وكورنيليا قد غادرتا في عاصفة من الوشائج والثرثرة، تاركتين نيلا وحدها مع أوتو، فعاد الاثنان، بعد تبديل ملابسهما، إلى الصالون، مُرهقين من تجهيزات الفطور، لاستعراض أنقاض التحضيرات. بدا المنزل من حولهما هادئاً وشاغراً، مع أن لوكاس، كان مُتخماً بالبيض، لكنه استغرق سريعاً في النوم.

وضعت نيلا وسادة فوق وسادة. وألقت رأسها عليهما وراحت تجول بعينيها على الجدران العارية، والنار الضعيفة. إنهم يظلون شهوراً طويلة لا يلقون بالاً إلى هذه الغرفة، إذ تصعب تدفئة مساحتها الكبيرة، وتلميع سطوحها الواسعة. في أواخر كانون الأول، تجمدت سطوح القنوات، وتسللت روح الانسحاب المُنكمش للمدينة إلى داخل المنزل.

كان الخروج من المنزل مكابدة، مطر يبلل قلنسوات الصوف، والرياح الباردة تجعل الأصابع تتجمد. كانت نيلا تتوق إلى صباحات أخف، ونهارات أطول، لتدفن الفرو البالي لعام آخر في صندوق المتاع المصنوع من خشب الأرز.

تقلص الحطب الفاخر إلى كومة صغيرة بعد الحفلة البسيطة هذا الصباح، لكن النار لا توقد عادة إلا في مطبخ الخدمة وغرف النوم. إذاً لا جدوى من تدفئة هذا المنزل الهيكل، بحجمه الكبير، والصدى الذي يتردد فيه بعد أن قللوا الأثاث وباعوا المعلقات الجدارية. مازال لديهم مخزون من الخشب، لكن الرائحة فظيعة. إنها تتوق إلى الربيع.

- لا أتخيل أننا سنفعل هذا في عيد ميلادها التاسع عشر، هل رأيت التعبير على وجهها؟

فردّ أوتو:

- لقد أعجبها.

أجابت نهلا، في محاولة لتغيير الموضوع:

- يجدر بنا المواظبة على استعراض أنفسنا هنا. حدقت عبر النوافذ الأمامية الضخمة، وتابعت: يجب أن نطمئن المواطنين أن كل شيء في الداخل يسير بلا مشكلات.

- صار هذا المرض سمجًا.

- أدرك ذلك جيداً.

- إننا في حاجة إلى التعامل بحكمة أكبر مع مخزون المنزل، يا نهلا. ومع ذلك تنفقين النقود على شمع العسل؟

- كان عيد ميلادها! قالت نهلا، وهي تتحاشى نظرة أوتو، رافضةً الاعتراف بأن تلك الشموع كانت من أجلها هي، لتذكرها بالوقت الذي كان المنزل كله يعج برائحة العسل. ترددت قليلاً، إذ أن أوتو لا يحب استذكار الماضي، لكنها قالت:

- هل تتذكر كيف كنا نحرق زيت الورد؟

- هل كنا نفعل؟

- إنّ أجود نوع في المدينة، كان يجلبه تاجر من دمشق. كنا نُغرق المكان به. توقفت نهلا لحظة، ثم تابعت القول: إنني لا أندم على ذلك. أو ربما أفعل؟ وأشارت إلى الجدران، لأننا الآن نبيع لوحاتنا حتى نسدد للجزار.

تنهد أوتو، ونفضت نيلا واحدة من الوسائد المتبقية، فانتشر الغبار الخفي مشكّلاً دوامات في الهواء، ثم جلست ووضعت الوسادة على حجرها كأنها ستهدهدها، وأحاطت رأسي الأسد المنحوتين على ذراعي الكرسي براحتيها. كانت اللبدتان المألوفتان مجدولتين بورق الأقنثوس. أسبلت نيلا جفنيها، بينما تمرر أصابعها على الخطمين الخشبيين، وترفع خاطرة إلى الرب، وأيضا، لم لا؟ إلى أفروديت: "اجعلا الليلة تأتِ بفائدة، اجعلا أحداً يرغب فيها".

فتحت عينيها لتجد أوتو يرمقها. كانت نظرته تنمّ عن الرفض، فقالت:

- أعرف أنك لا تريد الذهاب إلى الحفل الراقص.

- لا تقولي أنكِ تجدين متعة في رفقة كلارا ساراخون.

- لا يهم إن كنت أجد هذا ممتعاً أم لا. أما كلارا ساراخون، فسوف أتجنبها قدر المستطاع. سنذهب من أجل تِيا.

- لكي يحدّق إليها الناس ويتهامسون حولها من خلف أيديهم؟ لقد جاهدتُ طوال حياتي حتى لا تصبح ابنتي فُرْجة. هم سيجعلون منها فُرْجة. ولحن من سيضعها هناك."

- ربما هو أمر جيد أن يراها الناس. تِيا جميلة، وماهرة، إنها تستحق أن تحظى بفرصة.

- فرصة في ماذا؟!

لم تجرؤ نيلا على قول الكلمة الكبيرة: الزواج.

حدّق أوتو في موقد المدفأة الفارغ، وهو يزم فمه، ثم قال:

- إنكِ لا تعرفين معنى أن يلاحظكِ الناس كما يلاحظونني، كما يلاحظون تِيَا. إن الأمر ليس كما يُخيَّل إليكِ.

فالتزمت نيلا الصمت.

إن أمستردام مدينة ساحلية، عامرة بالتنوع. ففيها الفرنسيون البروتستانت الذين جاؤوا هربا من المجازر الكاثوليكية، ولاقت مهاراتهم في النسيج ترحيبا من هذه المدينة العملية منذ الأزل، فاستولوا على الحرير القادم من الشرق، وصنعوا ملابس جميلة يتبختر فيها الأمستردامبون. وفيها العمالة الجوالة من ألمانيا، والسويد، والدنمارك، وإنجلترا، الذين يبحثون عن عمل في الخدمة أو البناء. وفيها التجار البرتغاليون من اليهود الأغنياء القادمين من مزارعهم في البرازيل لشراء منازل قرب الجودين بوخت، مالئين الشوارع بألحان راقصة طلسمية من لغتين. في الموانئ يقيم رجال من جاوه واليابان: بحّارة، أطباء، تجار، رحّالة، بائعو حلي. وفي حارة اليهود يعيش صبيان وبنات بدأوا حياتهم في القارة الأفريقية، في أماكن لم تعلم نيلا أساميها قط، وصاروا الآن يقضون المشاوير على الأراضي الهولندية، أو يحملون حقائب الآلات الموسيقية ليعزفوا في حفلة تلو حفلة، إذ يمدّهم الضيوف إضافة مثيرة.

ولكن على الرغم من هذه التعددية العشوائية، فقد كانت نيلا ترى الحلقات الخاطفة، والنظرات المُتلكئة على رأس تِيَا إن تراخت قلنسوتها قليلاً، وقفزت من خارجها الخصلات الداكنة والمتموجة، التقويم الوغ والدقيق لتشكيلها الجسماني. تِيَا، بعينيها البنيتين الغامقتين، وبشرتها البنية المصفرة التي تغمق مع شمس الصيف، بينما نيلا وكورنيليا تحوردان. رأت نيلا تلك الحلقات، لكنها لم تشعر بها، وهذه الحقيقة قد وضعت

حاجزاً بينها وبين أوتو لثمانية عشر عاماً، كان يقول لها:

- إنّ هذه المدينة بارعة في المراقبة. عليكِ أن تحافظي على السلام بيد وتنبشي ما يكمن تحت السطح بأظفار الأخرى. لذا تذكري وضعها.

- إنني أتذكر فعلاً. لقد فعلنا أفضل ما في وسعنا. أي خيار تملك، يا أوتو؟ هل تريد منا أن نخفيها إلى الأبد؟ الطفلة الوحيدة التي سينجبها أي منا، لم نضع كلوريجي من الورق والدانتيل على باب المنزل، لنعلن أننا أنجبنا فتاة.

فنظر إليها مستغرباً، وقال:

- أنجبنا!

تجاهلته نيلا، وقالت:

- لم تعتمر قبعة الآباء، فيمازحك الناس ويربتوا على ظهرك. لم نحصل على فترة سماح من الضرائب، ولا وليمة، لا رقص، لا موسيقى. لم نرفعها أمام النوافذ حتى يهنئنا الجيران بصحتها وجمالها. لم نحصل على أمّ أيضاً.

لقد تمادت، وها هي أمّ تِيا قد صارت في الغرفة معهما. مارين، تقف طويلة القامة ومنتصبة، تراقبهما بعينيها الرماديتين الوديعتين. مارين، التي ماتت بعد ساعات من ولادة تِيا، و تركتهم عالقين في بحر وليدة، بلا خريطة، بلا بوصلة، بلا تكهنات. لم يحدث قط أن تكلموا في مجموعة مُختلطة عن هوية أمّ تِيا. كل ما تعرفه المدينة، أن تِيا يتيمة ورثت عن أمها بشرتها الغامقة، هذا السر الذي كانت الأسرة لغز هم على استعداد للموت دفاعاً عنه. لم يهتموا قط بالإيغال في التفصيل، ولم يكونوا في حاجة إلى ذلك. لكن نيلا ما تزال تستغرب كيف

اعتقل أثر مارين إلى ملامح ابنتها، وكيف أن تِيَا عندما تدير وجهها، أو تمطّ شفتيها، أو تطلق تنهيدة من فمها، فإنها تستحضر أمّها الغائبة.

حينما كان عمر تِيَا ستة أشهر تقريباً، اجتمعت نيلا وأوتو وكورنيليا على أن أكثر الخيارات حكمة وعطفاً هو عدم إخبار تِيَا قدرا كبيرا عن الطريقة المُحَرَّمة التي تكوّنت بها، وتفاصيل موت والدتها، وما تبع ذلك من إخفائها. كان التحدث إلى طفلة عن أمور كهذه أمرا شاقا، وبمرور السنوات، توقفوا عن الكلام في ذلك تماماً. لم يرغبوا أن تقترن تِيَا بالذنب والعار، أو في الحقيقة، الرعب المرتبط بذلك الوقت. وسواء كان ذلك صوابا أم لا، فقد أصبحت تِيَا ابنة لأبيها، وابنة صهرة لزوجة خالها، وعهدة لمربيتها. لم تكن مُحَرَّمة. كانت تِيَا. فلتكن تِيَا هي تِيَا.

لقد تعلموا أن يعيشوا بالقرب من موضوع مارين المسكوت عنه إلى أن انكمش الصمت وصار عدما، متلاشياً في الجدران، ومُندمجاً في الأثاث. دفعوا بمارين إلى الظل. كانت تِيَا لفترة وجيزة تملك أمّا: هي ميتة الآن. لا أسئلة يمكن طرحها، لأنه لا مكان لمثل تلك الاستفسارات. كان قرارًا وُلد من رحم الذعر الذي سببه العيش في مجتمع اعتقادي. كانت مارين عزباء عندما أنجبت طفلة. مارين وأوتو لم يكن ممكناً أن يتزوجا، ليس في ذلك العالم، وقد أنجبا طفلة لم يرَ الجودين بوخت مثلها إلا قليلا. وأمام هذه المستحيلات، كان عليهم بطريقة أو أخرى أن يخلقوا بنتا قوية وواثقة من نفسها.

تساءلت نيلا في سرها:" أين كانت عقولنا؟ لا يمكن للمرء أن يدفن أمّا ويفترض أنها لن تقوم من جديد. كان جديرا بي أن

أعرف"

لم تهتم تِيَا قط بسؤال زوج خالها مباشرة: كيف كانت أمي؟ وعوضا عن ذلك، كانت تقلب الأمر عليها - لم ترغبوا في مجيئي. لم تكونوا سعداء لأنني وُلدت. إن هذا أسوأ، من نواح كثيرة. إنه يعني أنهم لم يضحوا قط.

قال أوتو، الذي بدا كأنه قرأ أفكار نيلا:

- لقد فعلنا ما فعلناه لحمايتها.

- هي الآن في حاجة إلى نوع مختلف من الحماية. دعني أجده لها، يا أوتو. دعني أعثر لها على بعض الولائم والحفلات. لقد استغرق الاعتراف بدأ مرة أخرى في هذه المدينة وقتاً طويلاً. لقد بذلتُ جهداً مُضنيا في العام الماضي، واحتسيت الشاي مع أناس كنتُ أفضّل لو أزج بهم في القناة.

شعرت نيلا باليأس، إذ لم تكن هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها في هذا الأمر. قال أوتو:

- إن الأمر يزداد سوءاً الآن، بعد أن صارت أكبر. صار الناس أجرأ. قلَّ الفضول، ولم يعد أحد يُخفي صدمته. لسنا فريدين من نوعنا، هي وأنا، في هذه المدينة. على العكس. ولكن ربما نكون من القلائل الذين يرتدون ثياباً فاخرة، وهذا ما يكرهه الناس.

أخذت نيلا تتذكر حينما كان عمر تِيَا لا يزيد عن السادسة، حيث كانت تتشبث بتنورة كورنيليا في سوق الخضار. وكان إلى جوارهما امرأة تتسوق، وقد خفضت عينيها، وما لبث أن تحول الفضول في ملامحها إلى شعور أقرب إلى الجوع، وهتفت، بينما تزج أصابعها في الهالة السوداء لشعر تِيَا، وتقول:

- عجباً، يا لها من مخلوق! لا أستطيع تحديد جنسها. هل هي - آه، غير معقول!

فأجابت كورنيليا بغضب:

- إنها ليست من شأنك! أبعدت تِيَا وتناولت ملفوفة في يدها مثل قنبلة.

كان قد مر عليهم في السنوات الثمانية عشر الماضية العديد من الرجال والنساء الذين يشبهون الملفوف: برأس كبيرة وبشرة شاحبة، وبلادة في التفكير. وفي وسع المرء أن يقول إن أناس الملفوف كانوا جيشًا. ثم هناك الصبيان والبنات الذين يملكون بشرة أغمق من تِيَا، الخادمات البرازيليات من أصل إفريقي اللاتي يقفن خارج المعابد اليهودية، وينتظرن من وقت مبكر حتى يحجزن مقاعد جيدة لسيداتهن، زوجات التجار البرتغاليين. كانت تِيَا وهي طفلة تحب سماع الفتيات تنادي بعضهن بعضا، بأسمائهن البرتغالية أو ذات الوقع العبري - فرانشيسكا، بيزكا، غراتسيا. أكثر من مرة، كانت تشدُّ يد نيلا حتى يتوقفا ويشاهدا. وعندما كبرت تِيَا، رأت نيلا محاولاتها في الالتقاء بأعين أولئك الخادمات، أملاً في أن ينتبهوا إليها في المقابل. باستثناء واحدة أو اثنتين، لم تبادلها الفتيات النظرات، إذ كنّ يبتعدن عن المشكلات، كما افترضت نيلا.

التداخل الأبيض الذي ورثته عن والدتها جعلها مُختلفة عنهن. أو ربما هي ثياب تِيَا، كما يقول أوتو: "بسيطة التفاصيل، لكن بجودة أعلى وأمتن" أو ربما لا هذا ولا ذاك. لقد شعرت نيلا دائماً بجهل شديد في هذه الأمور.

قالت نيلا:

- الثروة، سوف تحمي تِيَا، حال وجدتها في الحفل الراقص. ترددت قليلاً، وأردفت: الزواج سوف يحميها.

أردف أوتو:

- الزواج! إنَّ الزواج لا يضمن حياة آمنة. وأنتِ من بين كل الناس تعرفين ذلك جيدا.

تلاقت أعينهما. لقد ولجا منطقة خطرة. قال أوتو:

- إن ابنتي أفضل حالاً هنا.

- وهل سألتها من قبل إن كان هذا ما تريده؟ إنك ترى دفاتر حساباتنا. تعرف كم الأرقام سيئة. أنت وأنا لن نظل هنا إلى الأبد؟ هل تريد لها أن تعيش وحدها في هذا القبر العملاق، بلا دخل أو حماية؟

نهض أوتو، وقال:

- طبعاً لا.

فاستأنفت نيلا حديثها، مُحاولة كسر التوتر: "كما أن كورنليا على الأقل لن تموت أبداً. ستعمِّر أكثر من الجميع."

كانت ابتسامة أوتو الحيادية تمنحهما لحظة سلام. كانت هي وأوتو يحملان أثر السنوات الثمانية عشر الماضية في وجهيهما، أما كورنليا فكانت تحرِّك قدور المطبخ وكأنها ما تزال في العشرين من عمرها، تستعد لمعاركة الدواجن والأسماك، وأي درنة عنيدة. إن خلود كورنليا يبدو في الواقع أمراً قابلاً للتصديق.

قال أوتو:

- إن تِيَا ليست هنا لإنقاذنا، يا بترونيلا. إنها لا تدين لنا بشيء.

- يا إلهي، إنني أعلم ذلك.

- هل أنتِ متأكدة؟ نظر أوتو في عينيها مباشرة، وتابع: لو أنكِ تؤمنين في أعماقكِ أن الزواج سيؤمّن مستقبلها، فلماذا لا تتزوجين؟ لن يكون عليكِ حينها أن تقلقي في شأن تربيتها. إنكِ في السابعة والثلاثين، بينما هي في الثامنة عشرة فقط.

- كنتُ في الثامنة عشرة حينما تزوجت.

- انظري إلام آل ذلك.

- أوتو...

- إنكِ امرأة واعدة تملك الإمكانات. لقد دعتكِ ساراخون إلى حفلها. الناس يرونكِ أرملة ثرية، بشائبة من فضيحة، ومنزل في الهيرغراخت.

- الذي تركه يوهانس لك! أنا شخصياً لا أملك ثروة."

تنهد أوتو قائلاً:

- سيأتي شخص يمنحكِ ما تريدين.

وسار مُبتعداً إلى النافذة، فرنت نيلا لتنضم إليه، وقالت:

- وما الذي أريده؟

لم يقل أوتو شيئاً، لكن نيلا تعرف ما يدور في ذهنه. إنها تريد أطفالاً. ولا بد من أنه يعرف أنها ستفعل. تعرف نيلا كيف يراها الآخرون في هذه المدينة: أنها ليست شابة، فقد بلغت سبعة وثلاثين عاماً. إنها أرملة منذ زمن، عزباء، ومن دون أطفال، متحفظة، محدودة الحركة، متواضعة الملبس. لكن نيلا لا تعرف، إلى حد كبير، من تكون. لقد خُيّل إليها أنها ستكون راجحة، ثابتة، واثقة من نفسها. لكنها في

داخلها شخص سائل يمكن جرفه أو صبه إلى بحيرة. هل كان الطبيب سيصفها بأنها كئيبة؟ إن عمرها كالماء، ينساب من بين أصابعها. ذهنها متبلِّد، لا تساؤلات محومة. كانت في الماضي تشعر بأفكارها محبوسة داخل صدفة نوتيلوس، حلزونات لا نهائية تلألأ، مُتصاعدة من قاع جمجمتها.

قال أوتو:

- تريدين بيتا خاصا بك؟

- إن هذا هو بيتي، زواجي من يوهانس غيَّر حياتي إلى الأفضل

- ليس هذا ما تقولينه في العادة.

تظاهرت أنها لم تسمع ما قاله، وقالت:

- في هذه الدنيا رجل سيفعل الشيء نفسه مع تِيَا.

- لقد كذب عليكِ وصوَّر لكِ حياة وهمية، وظللتِ تتعاملين مع هذه الكذبة طوال الأعوام الثمانية عشر الماضية. هل تظنين أنه الرجل الوحيد الذي فعل ذلك؟

تلقَّت نيلا الضربة، وقالت:

- مارين أيضاً كذبت. ومع ذلك لا أراك تلومها قط.

سار أوتو إلى منتصف الصالون، وهو يقول:

- لماذا لا تبيعين تلك الخرابة وحسب؟ سوف تجني بعض المال من ذلك.

شعرت نيلا بخفقان مظلم في معدتها:

- إلا هذا. إلا الخرابة.

كان أوتو يروقه بين الحين والآخر، أن يستحضر في الحديث منزل طفولتها في أسِدلفت، والذي لم تعد إليه قط منذ اليوم الذي أُحضرت فيه إلى أمستردام لتصبح زوج يوهانس براندت. حتى بعد أن ماتت شقيقتها أرابيلا، آخر من تبقى من إخوتها، منذ أربعة أعوام، ظلت نيلا تقاوم الرحلة إلى الماضي. عوضاً عن الذهاب بنفسها، استأجرت وكيلاً لتفقد المنزل وكتابة تقرير عنه. وكانت النتيجة دامغة، كما يعرفها أوتو جيداً: السقف مليء بفجوات كبيرة، والطابق العلوي لا يصلح للسكنى، والبحيرة مسدودة بالحشائش، والبساتين ربما قاحلة. كانت الأبقار قد احتلَّت ما كان في السابق حديقة أعشاب، وتراءى للوكيل أن مجموعة من قطاع الطرق قد اتخذوا لهم مخبئاً في المطبخ وغرف الطابق الأرضي لأشهر، فأشعلوا النيران فوق السجاجيد، وحطموا النوافذ. وزعم أهل القرى في الجوار أن المنزل مسكون. وهكذا اكتفت نيلا بما قرأته، وأمرت أن يغلق المنزل. قررت أنها لن تعود إلى هناك أبداً.

ولكن، حتى عندما تركت بيت عائلتها منذ أعوام مضت، كان فعلاً مكاناً يعلق بالفقد والخوف والإهمال، ولم تخبرهم لماذا. لقد اجتهدت حتى تغير نفسها من نيلا التي عاشت هناك إلى المرأة التي تعيش هنا. العقار ملكها، فعلاً، مُحيطًا بعنقها مثل حجر: حجرها، لا حجر أحد آخر.

خاطبته قائلة:

- أخبرتك من قبل، أسِدلفت ليس للبيع.

- نيلا، إنكِ لا تذهبين إلى هناك أبداً.

- إنه ليس للبيع.

- أعطني سبباً واحداً لذلك؟

جلست نيلا على الكرسي، ووضعت رأسها بين يديها، لكنّ أوتو ألح قائلاً:

- لا أفهم لماذا ترفضين الحديث في هذا الأمر.

رفعت رأسها بحركة سريعة، وقالت:

- هذا لا يختلف كثيراً عن رفضك الحديث عن مارين، أو أيامك في سوريتام، أو طفولتك في داهومي. كلانا له ماض، يا أوتو. كلانا يملك أشياء يعزف عن ذكرها. إنني لا أسألك أبداً، فلماذا تسألني؟

التفت إليها، وقال:

- شتّان بين هذا وذاك. أتقارنين منزلاً في الريف بحياتي؟

- كلنا لديه جحره.

- ماذا تقصدين؟

عضّت نيلا على شفته، وقالت:

- لا شيء. تجهم وجه أوتو، فتابعت القول:

- أوتو، لا أحد سيشتريه. لا أحد يمكنه العيش فيه. الأرض بائرة.

سار نحو الباب، وهو يقول:

- عليّ أن أذهب.

- إنك تبدأ متأخراً اليوم.

- لقد حلّ بيرت شيبرز مكاني في الوردية حتى نتمكن من تناول الفطور.

- علام تعملون حالياً؟

- شحنة جوزة طيب، وصلت لتوّها من جزر الملوك.

- وهل...

لكن أوتو كان قد ذهب فعلاً، لقد سمعت نيلا حركته في الدهليز، وهو يتناول معطفه وقبعته، ويتوجه نحو الباب الأمامي، ليغلقه ويخرج من المنزل. "تذكرتُ الحفل،" قالتها موجهة حديثها إلى الجدران العارية.

تراجعت في مجلسها، وهي تضمُّ لوكاس المدهوش بين ذراعيها. هذه المحادثات مع أوتو تدلع مُثيرة ذكريات قديمة كانت تفضل لو تظل كامنة، ولكن، يبدو من المحال ألا يُستحضر الماضي عند محاولة الجدل حول المستقبل.

كان زوجها، يوهانس، وشقيقته مارين، قبل أن يقضيا نحبهما منذ ثمانية عشر عاماً، قد كتبا وصيتيهما، لأنه على الرغم من الأسرار التي أخفاها كل منهما، إلا أنهما كانا مواطنين واعيين ومستقيمين. فكُتب المنزل القائم في الهيرغراخت باسم أوتو، أما أسهمهما في الفوك، وقطع الأراضي الصغيرة خارج المدينة، وجميع المنقولات فقد أوكلت إلى نيلا. في ذلك الوقت، بدا أن أرملة براندت وأوتو وكورنيليا وتيا لربما يتجاوزون خسارة يوهانس ومارين في نعيم نسبي. كان ذلك الرجاء ساذجًا.

على الرغم من عمل أوتو إلى جوار يوهانس قرابة عقد من الزمان، إلا أن التجار الذين تعاملوا مع يوهانس، والزبائن الأجانب والمحليين الذين اتكلوا عليه، أصابتهم جفوة. انتهت العلاقات والعقود. وتقلّصت دعوات العشاء الخاصة، وانقطعت دعوات النقابة. كان للطريقة التي مات بها يوهانس

ودونية أوتو المحسوسة، أثر كارثي على وضعهم المالي. ربما لو كان زوجها رجلاً آخر، كان من الممكن أن تُؤخذ نيلا على محمل الجد كوصيّة على ميراثه المالي، مثل بعض أرامل أمستردام. لكن زوجها الراحل قد وُصِم بالعار، واتُّهِم باللوطية، وفُضح على الملأ، والفضيحة شيء برّاق. أبرزتهم في أعين الآخرين، الذين تخلوا عنهم، متأثرين بقوة بريقها.

ومع العام الثالث لتبدلهم، تضاءلت مكانتهم بشدة في المدينة، ونضبت أموالهم الجارية في الوقت الذي بدأت تيَا تخطو أول خطواتها الطفولية في أرجاء المنزل، كانت تحتاج إلى إطعامها وكسوتها. باعوا الأرض وأسهم الفوك، وفي النهاية قالت كورنيليا إنه لم يعد لهم من ملجأ سوى الدعاء. وجد أوتو عمله في مخازن الفوك، بعد أن عرضه عليه موظف هناك تذكَّر محنة عائلة براندت، وكان أكثر تعاطفا مع والد تيَا من كل أفراد الفوك والنقابات مجتمعين. كانت الوظيفة أقل من إمكانيات أوتو، لكنها كانت الوظيفة الوحيدة التي أمكنه أن يجدها. بعض من الصبية الذين يعملون معه لا تتجاوز أعمارهم الثالثة عشرة: لا بد من أنهم نظروا إليه وظنوه مُتَوشالَح زمانه. كان أوتو مخزناً للمعرفة بوسعهم استغلاله لتعزيز مصالحهم الخاصة، لكن الأسرة كانت على شفير اليأس، والنقود التي جناها أوتو ساعدتهم إلى حد كبير في الوفاء بالتزاماتهم. وبعد أن بدأ العمل، سرعان ما اقترح أن تتزوج نيلا مرة أخرى لتأمين مستقبلها. وظل على مدار الأعوام الثمانية عشر الماضية، أن يتطرق إلى الأمر أكثر مما تحبُّ نيلا: "ربما على نيلا أن تتزوج من رجل ثري."

مضت السنون ببطء، وتغيرت الحياة، باتت أكثر ضيقاً وغماً، بدأت نيلا ترى كل هذا من منظور واحد فقط: لقد ربَّت

مارين زواجها من يوهانس كوسيلة لحماية نفسها، فعاملت نيلا مثل ضرورة مكروهة. ويوهانس، الذي أعجزه تنشئته وأنانيته عن التصدي لشقيقته المُتسلطة، ترك زوجته الشابة تحبه من دون أي تقدير للثمن الذي قد يكلفه مثل هذا الحب. عندما كانت نيلا تحظى بشيء من النوم في الأشهر التي أعقبت موت يوهانس ومارين، لم تتمحور أحلامها حول رجل يغوص في قاع البحر بحجر حول عنقه. بل أحسّت في المقابل بثقل الحجر على كتفيها، ومع وصول تِيا، صارت حياتها تضحية، كانت مارين ويوهانس على استعداد لتقديمها. ما الذي تملك التباهي به في الأعوام الثمانية عشر الماضية؟ وهي المواطنة في دولة تفتخر ببناء نفسها، لم تبنِ شيئاً في الداخل أو الخارج. ومع ذلك فقد تألمت دائماً بسبب ظن أوتو أنها ستجد السعادة لو أنها فقط غادرت منزل الهيرغراخت، لو أنها هجرت تِيا. لماذا كان واثقاً هكذا أنها ترغب في بداية جديدة؟

الحق أن الشيء الذي جذب عيني نيلا على مدار السنوات التي أعقبت موت يوهانس، كنّ الأرامل الثريات. النساء اللاتي اخترن ألا يتزوجن مرة أخرى. لم يكنّ في حاجة إلى ذلك. كنّ يملكن أموالهن الخاصة، وثروات أزواجهن الراحلين. وبصفتهن أرامل، لم يعدن شخصيات اعتبارية تقع تحت سيطرة الزوج. كانت نيلا تمر بهنّ في الجودين بوخت، أو تراهنّ في العبّارات، ولآلئ بحجم بيض الدجاج تحيط بأعناقهن أو تتدلى من آذانهن، في طريق عودتهنّ إلى قصورهن الناعمة في مثاليتها وندرة الالتزامات، وأسهمهن الصامتة تطفو بهن في مياه أمستردام المتقلبة إلى أن يأتي اليوم الذي يقابلن فيه ربهن. لا رجل لإمتاعه في الفراش. لا أطفال يخاطرن بالموت من أجلهم. عجزت نيلا أن تنفي أولئك النسوة من تفكيرها،

على الرغم من علمها بأنها لا تملك لآلئ ضخمة، أو أسهماً، وبدت لها حياتها مليئة بالقلق والالتزامات.

لماذا قد أترك رجلاً غريباً آخر يحطُّ على شاطئ منزلي، ويطالبني بتسليمه إليه لإدارته؟ هكذا فكرت نيلا ، وهي تشاهد امرأة معطَّرة أخرى تتوارى خلف الباب الضخم لمنزلها. وكيف سيعامل تِيَا؟ كيف سينظر إلى أوتو أو كورنيليا؟ لماذا أجازف؟ كانت حياتها صعبة، لكنها كانت ملكها. لقد حاربَتْ ودفعت ثمن مساحتها الضئيلة من السيطرة.

لكن، هناك دائماً الوجه الآخر للعملة. وهو أنها في الحقيقة لم تصادف شخصاً آخر قد ترغب في الزواج منه. لم يعترض طريقها رجل لائق. مع تقلص دائرتهم الاجتماعية، واهتمامها الذي أولته بالكامل إلى تِيَا، كانت فرص الزواج خلال الأعوام التي تخللت ذلك نادرة، وأكثر ندرة وهي تتقدم في السن، مع لقب عائلة كالذي تملكه وميراثها من الخزي والتدهور المالي. ما تملكه هو وحدة شخصية، ولا مستقبل في وسعها أن تراه لنفسها. كان أوتو يظنّ أنها ترغب في الأطفال، ولكن، ماذا يعرف هو عن الأشياء التي ترغبها؟ حتى هي نفسها لاتكاد تعرفها.

وضعت نيلا لوكاس على مقعدها، وأسرعت تحثّ الخطى إلى داخل الدهليز الذي يردد صداها، وواصلت صعودها إلى الطابق الأخير الضيق والدرجات المُفضية إلى العليّة. كانت ترفع تنورتها بيد، وفي اليد الأخرى تحمل شمعة، توقفت قليلاً في الظلام، يلفها البرد والرطوبة. لم يكن هناك أحد يعرف أنها تصعد إلى هنا دائماً في الذكرى السنوية لرحيل مارين. إنه سر آخر.

كان الصندوق الذي يحتوي على متاع مارين يستقر في الركن المظلم. وكانت كورنيليا على الأرجح ستجد فتحه أمرا مُريعاً ومُؤذياً. وأوتو سيقول إنه ليس من حقها. أما تيا فلا تعرف أصلاً أن هذا الصندوق موجود، وأن لغز والدتها يكاد يكون متجسداً في تُحَفِه المخفيَّة. كانت نيلا وكورنيليا قد عزمتا على أن ترياه لها وتخبرانها، لكنهما، بصورة ما، لم تجدا الوقت المناسب قط. تشعر نيلا بالعزاء، في كونها الوحيدة التي تركع أمام صندوق مارين، وتُرخي الأقفال القديمة إلى جانبيه، وترفع الغطاء.

انبعث رائحة نشارة خشب الأرز، وخفق قلب نيلا بعنف. إن النظر في صندوق مارين يشبه تأمل نعش صغير عدا أن الجثمان يكون غائباً، وتحل مكان الكفن عدة صحائف ملفوفة. حينما رفعت شمعتها، رأت نيلا البذور المتناثرة المألوفة، والريشات الزاهية التي كانت ذات يوم تزيّن غرفة مارين الخاصة. البتلات الجافة، جماجم الحيوانات. هنا كتب مارين، مصفوفة ومربوطة بدوبارة. لمحت نيلا عنوان أول كتاب: الرحلة المنحوسة لسفينة باتافيا، واحد من كتب مارين المُفضَّلة، حكاية عن الترحال والعصيان، عن التعطش للدماء والاستعباد. أخرجت المجلد الأكثر تصفُّحاً، الروايات المأثورة عن رحلة نوهورن، وراحت تمرر إصبعها على الصور القديمة المألوفة لحطام السفن والسواحل، وتتخيل يد مارين النحيلة على كتفها، وسمعتها تقول" عدنا إلى التلصص، يا بترونيلا؟ هذه الأشياء لا تخصك".

صحيح أن صوت مارين مدفون بعيداً خارج هذه الجدران، إلا أن نيلا دائماً تشعر به كامناً في أعماق جسدها.

هنا خرائط مارين: تبسط نهلا كل خريطة منها، فتغطي ألواح الأرضية بالعالم. في هدوء العليّة هنا أفريقيا، وهنا جزر الملوك. هنا جاوه وباتافيا. هنا إنجلترا، وايرلندا، وفرنسا، والأمريكيتين. وهناك الكلمات التي خطّتها يد مارين: طقس؟ طعام؟ دين؟ أسئلة لم تجد مارين لها إجابة قط.

راحت نهلا تدقق النظر في قارة إفريقيا، في الخطوط المتعرجة، التي تُظهر السواحل والجبال الصخرية، الصحاري والبحيرات، متأملة هذا الحيز الجديد بحثاً عن جواب لصمت أوتو الطويل، عن المكان الذي أتى منه قبل أن يصل إلى أمستردام. تنتقل إلى خريطة سوريام، فتمرر إصبعها فوق الاسم، وتفكر فيه، في السكر يكرمل الهواء، في حفل الليلة يعج بالحرارة والموسيقى. أليست كلارا ساراخون تمتلك مزارع في سوريام؟

وضعت نهلا شمعتها على الأرض، وغمست يدها في نشارة خشب الأرز تلمس ما كانت تبحث عنه من البداية.

كانت قد حافظت على هندام هذه الدُّمى على الرغم من مرور السنين. هذه الدمى الثلاث لأوتو ومارين، والرضيعة المصنوعة من الشمع التي سرقتها من ورشة العمل في ذلك، اليوم منذ ثمانية عشر عاماً، حينما انقلبت حياتها رأساً على عقب. أخرجت نهلا الدمى واحدة تلو الأخرى. كان الزمن رفيقاً بأجسادهم الصغيرة. وتساءلت عمّا إذا كانت قد حافظت على سلامة أوتو، من خلال المحافظة على دميته من دون أي شائبة؟ لقد اعتقدت دائماً أن أعمال صانعة الدُّمى تحوي قوة خفية، لكنه بدا قولاً وحقاً بعد هذه الأعوام الثمانية عشر.

وكان أوتو سيقول الشيء نفسه. إذ إنّ حياته، مثل حياة نهلا،

لم تكن تتمتع بالأمان قط.

دمية مارين أيضاً ظلت على حال أقرب إلى الكمال. محدِّقة في زوج أخيها، وجهها نحيل وشاحب، عيناها رماديتان، ذلك الجبين العالي، والعنق المستقيم والممشوق. بدت كأنها مارين الحقيقية، لكن حجمها تقلَّص. لم يكن موتها إلا سوء فهم. كان ثوب مارين وقوراً ولكنه ثمين، نُسج من صوف ومخمل أسودين. تحسست نيلا النسيج، المبطن بفرو السمور، وعنقه الموشّى بطوق كبير من الدانتيل، لم يعد من النوع الرائج منذ زمن طويل. كانت تعجز عن إبعاد عينيها عن النظرة الثاقبة للدمية. فقد كانت هذه الدمى متقنة ودقيقة الصنع، إلى درجة يصعب تجاهلها. شعرت برجفة تمر على ظهرها، وهمست: "ماذا سنفعل، يا مارين؟

وانتظرت الرد، لكن الدمية ظلت بكماء.

ومن دون تهيُّب، أعادت نيلا أوتو ومارين برفق إلى قاع الصندوق، حيث وجدتهما. ووضعت الخرائط والجماجم، البذور السوداء البراقة، الزهور المجففة، والقرون المشوهة، والريش الملون بالأزرق المتدرج والأحمر الياقوتي. ثم أعادت كتب مارين، وأخذت تتفقد الخيوط التي تربطها لتتأكد من سلامة أغلفتها.

ولكن، عندما أرادت أن تعيد الرضيعة، تريثت نيلا. وحملتها في راحتها. فقد كانت هذه الدمية الصغيرة تمثل لها تيا، وعلى الرغم من انعدام وزنها، تشعر وكأنها تصدر همهمة مقابل جلدها، كانت ملابس الرضيعة بدقتها وتفصيلها، مصنوعة من قصاصات رفيعة من أجود أنواع الكامبريه المبيَّض. لقد أحبت نيلا حملها. فعندما وُلدت تيا، شعرت أن علامة تخبرها أن

تِيا قُدِّر لها دائماً أن تكون، بذرة أمل، طمأنة، أنموذجاً لمهارة صانعة الدمى، وعداً بتجدد الأشياء.

ضمت نيلا كفها حول الوليدة برفق، وكأنها تحاول استخراج سر قوتها. على الرغم من حجمها الضئيل، وقماطها المشدود، وطولها الذي لا يتجاوز نصف خنصر نيلا، كان وجهها يحدق من بين الأربطة البيضاء مثل جوزة. لم تعد تِيا طفلة منذ زمن طويل، ولكن، يبدو لنيلا وكأن هذا هو كل ما تملك، هذه الهبة المسروقة من العزاء والإرشاد، إحساس بأنها مرئية.

همست وسط الظلام: "عودي إليَّ."

لكن الرضيعة تستقر في كفِّها، بلا حراك. العلية ساكنة. لا صوت سوى الخش الذي يحدثه لوكاس أسفل درج العليَّة، كأنه مشغول بما تفعله سيِّدته في الظل. تحركت نيلا نحو النافذة، وراحت وتتأمل القناة المتجمدة في الأسفل، ولكن لا أثر لامرأة وحيدة تراقب المنزل، لا أثر لرأس أشقر مكشوف. وإن كان شعر صانعة الدمى صار رمادياً الآن. ثمانية عشر عاماً هو زمن طويل. طويل جداً. لا يمكن أن يتكرر ما حدث بالطريقة نفسها التي حدث بها في ذلك الوقت. لا أحد في ممشى القناة على الإطلاق.

إلا أنها من دون مزيد من التردد، لأنها لو توقفت لتفكر فيما قد تقوله كورنيليا وأوتو إذا اكتشفا ما فعلته، فسوف تخونها الشجاعة، تدس نيلا الرضيعة في جيبها. أغلقت غطاء صندوق مارين وعلى ضوء شمعتها الوحيدة نزلت رويداً رويداً درجات العليَّة. تنفض عن تنورتها خيوط العنكبوت، ويدور لوكاس حولها. إنه قطٌّ حكيم، على الرغم من شراهته المُضحكة، إنه يعلم أن فوضى ما قد حدثت، أو سرقة جديدة، تغيير. ولكنه

كسيِّده، لا يمكنه استنتاج العواقب.

3

كانت تيَا مأخوذة بالمناظر التي تظهر في ضوء الشموع. تيتوس، كما تُسمَّى في الهولندية: مبنية على مسرحية لويليام شكسبير التي تؤدي فيها ريبيكا دور لاڤينيا. لا يَرى الجمهور اغتصاب لاڤينيا على يد الشقيقين ديميتريوس وكايرون، لكنه يرى ما يلي ذلك من بتر يديها ولسانها. يَرى الإمبراطور تيتوس، الذي يؤدي دوره ممثل قوي البنية، وهو يحشو الفطائر بأبناء شعبه. مناظر جميعها تروِّع الأعين، تطلق لها التأوهات والتنهدات من بين الجماهير. عندما يُبتر لسان لاڤينيا، ويتقيأ فمها شرائط حمراء - ولاحقاً، عندما تشرع الشخصيات في تناول الفطائر المحشوة بالأطفال، فيحملون عالياً أعضاء مبتورة قبل التهامها، تطأطئ كورنليا برأسها وتهمس: «لا يمكنني تحمل المزيد من هذا. أعتقد أنني سأتقيأ.»

فتجيبها تيَا همساً: "إنه ليس حقيقياً." لكنها كوّرت لسانها فوق جدار فمها، كأنها تتفقد اتصاله بمنبته. لأن تيَا وعلى الرغم مما تقوله لكورنليا، تشعر أنه حقيقي. كلا، إنه يبدو أكثر حقيقة من الحياة. إن ريبيكا بوسمان هي الممثلة الأفضل في جميع الأقاليم المتحدة وما وراءها. ولا يوجد أحد يضاهيها. إنها تجعل ما يحدث هناك، بعيداً عن الجمهور، يبدو وكأنه العالم الحقيقي، وأن ما هنا، وسط الأجساد المتعرقة والمراوح الخفّاقة، هو مجرد فاصل، منظر تجريدي، استراحة حزينة في مواجهة الألوان والعاطفة. بعض الناس يأتي إلى السخاوبيرغ حتى ينسوا أنفسهم بضع ساعات، لكن تيَا تأتي لتكتشف نفسها، لتبني روحها بوساطة الكلمات والنور. لقد رأت ريبيكا

تفقد النطق أربع مرات، وفي كل مرة يحدث ذلك، تبدو كمفاجأة.

اغرورقت عينا تيا بالدموع، بينما لافينا التقيّة والحاقدة، تخبر عن محنتها من دون استخدام الألفاظ. شعرت بنفسها داخل ريبيكا، وأحسّت أن ريبيكا داخلها. تشعر بالجرأة في الانتقال إلى مكان أكثر صدقاً، إذ تحدّت امرأة أغلال الصمت. عندما تنتهي المسرحية وينحني الممثلون احتراماً، يشرع المتفرّجون في الخروج من القاعة، متدفقين من أسفل الأقواس الثلاثة في السخاوبيرخ إلى سماء الكيزرغراخت التي توشك على الدخول في الظلام. نهضت كورنيليا، محتقنة الخدّين، لكن تيا شدّتها حتى تعود إلى الجلوس. وطلبت إليها:

- انتظري لحظة، هلا فعلتِ؟

كانت تيا تفكر بوالتر، وكيف تستطيع تدبير ذهابها إلى الكواليس ورؤيته، قالت:

- أريد الاحتفاظ بالمذاق.

ردّت كورنيليا:

- أنا لا أريد. كان ذلك كابوساً من البداية وحتى النهاية. ولكن، لأنه عيد ميلاد طفلتها المحبوبة، فقد عادت إلى الجلوس، وقالت: لماذا لا يعرضون مسرحية كوميدية؟

- لأن العالم قاسٍ جداً.

دارت عينا كورنيليا في محجريهما، وقالت:

- لا أحتاج إلى ساعتين في المسرح لإخباري بذلك.

- ولكن، ألا تجعلكِ تلك الساعتان تشعرين بالحياة؟

ارتعدت كورنيليا، وقد شحب وجهها وغار الدم منه:

- لم يجعلني أفكر سوى في الموت. رجاءً، يا تيبوت. دعينا نذهب.

أخذت تِيَا نفساً عميقاً، وقالت بحزن:

- أما أنا، لجعلني أفكر في أمي.

تجمّدت كورنيليا، لقد عجزت عن الربط بين الأمرين، لكن تِيَا مع ذلك تنتظر. كانت كورنيليا على مر السنين هي الوحيدة التي تقدم لها نُتفًا من حياة مارين براندت وشقيقها. من خلال كورنيليا، عرفت تِيَا كيف كانت أمها تجبر أسرتها على أكل الرنكة على الرغم من قدرتهم على شراء أنواع أفضل من اللحم. كيف أخفت تنوراتها بطانات من أنفر أنواع السمور. كم كانت ماهرة في الحسابات. وعلى الرغم من أن تلك المقتطفات كانت ممتعة، إلا أنها فشلت في تكوين صورة كاملة.

كانت تِيَا تسأل: لماذا أجبرتكم على أكل الرنكة؟ لماذا أخفت عن الجميع نعومة تنانيرها؟

كانت كورنيليا تغلق فمها وتصمت، وكأن الحقائق الأولية كافية، ولا يحقُّ لها أن تعطي أي معلومات أخرى. ومع ذلك، كانت تِيَا تشعر أن لدى كورنيليا رغبة مُلحَّة في قول المزيد، والتحدث عن سيدتها الراحلة، لكن، لم يكن يُسمح لها بذلك.

خاطبتها تيا بهدوء كأنها تُفهِم شخصاً ضعيف العقل:

- كورنيلا، إنني امرأة الآن.

رفعت كورنيليا حاجبيها، وتابعت ليا القول:

- لماذا لا يمكنني أن أعرف من كانت؟ إن بابا لا يخبرني

بثي، كيف كانت العلاقة بينه وبين أمي؟

بدا الضيق والتبرم على ملامح كورنيليا، وقالت:

- تيَا، نحن في مكان عام.

- لا أحد ينصت إلينا.

اختلست كورنيليا نظرة من فوق كتفها، وقالت بصوت يشبه الهمس:

- لو أنَّ والديكِ قد جملا أمورهما في الداخل، فما الذي يدفعكِ إلى الظن بأنني قد أتحدث عنهما في الخارج؟

قالت تيَا وهي تميل إليه:

- أخبريني عن خالي، إذن. هل كنتِ موجودة لحظة إغراقه؟

راحت كورنيليا تلفّ خيوط حقيبتها في غضب لكن تيَا لا تيأس:

- هل حضر أحد؟

عضّت كورنيليا على شفتها، وقالت:

- إن هذه بأكملها ليست محادثة تناسب أعياد الميلاد.

فهمست تيَا:

- أعرف ماذا كان.

رفعت كورنيليا يدها، ووضعتها ببطء على خد تيَا. كان كفها نحيلاً وبارداً، فنظرت تيَا في عيني مربيتها العجوز التي قالت:

- كان رجلاً. أحب عائلته، واحترمه الناس. وقد عملنا جهدنا لنستعيد تلك الدرجة من الاحترام. لم نعد نعيش محاطين

بالخوف والعار، لأن والدكِ وزوج خالتكِ قد أبعدا العفريتين.

قالت نيا وهي تلوي شفتها:

- عن طريق تملّق أمثال كلارا ساراخون؟

أجابت كورنيليا، وهي تهز كتفيها في لامبالاة:

- إن المرء يفعل ما يلزم. السمعة أمر مهم في مثل هذه المدينة.

- لماذا إذن نعيش في مثل هذه المدينة؟

- لأنه لا مكان آخر في العالم نعيش فيه.

أطلقت نيا تنهيدة،وقالت متسائلة:

- كورنيليا، كيف جلستِ معي في مسرحية تلو مسرحية، تنظرين إلى ديكورات من المناطق الاستوائية، أو مُقترح لشارع في لندن، أو قصر في باريس، ثم تقولين إنه لا مكان آخر في هذا العالم في مقدور المرأة أن تخلع فيه قيمتها وتسميه وطناً؟

ردّت كورنيليا:

- لندن قذرة. وباريس أسوأ منها أيضاً.

قالت نيا بلهجة تنمّ عن الاحتجاج:

- ولكن لماذا يجب أن يعتمد كل شيء على النظرة التي يرانا بها أشباه كلارا ساراخون؟ إن كلارا ساراخون لا تملك أية موهبة. إنها ليست شخصاً أحترمه. إنها غنية، هذا كل شيء. وأومأت إلى المقاعد الخالية: إن ساراخون لن تستطيع أبداً أن تملأ مسرحاً كهذا، إنها ليست ريبيكا بوسمان. لا تملك روحاً.

- الجميع يملك روحاً.

- لن تستطيع أبداً أن تنشر الحب. لا شيء تقدمه إليّا

لكن كورنليا ألِفت هذه النوبات من الغضب لذلك لم تكن تخيفها:

- تِيا، مازلتِ ستذهبين إلى ذلك الحفل. كل خطبكِ لن تغير من ذلك شيئاً. ولا أظن كلارا ساراخون ترغب في حبِّك. إنها مُنخرطة في عالم المال والنفوذ، وفتيات المدينة، بحسب زوج خالك، يبلين حسناً تحت مظلتها.

فردّت تِيَا باحتقار:

- فتيات المدينة المُعتبرات. أعرفهن جيداً.

أشاحت كورنليا بوجهها. هي أيضاً تعرفهن، الفتيات ذوات الأعناق البيضاء والخدود الوردية في المدرسة التي ارتادتها تِيَا حتى الثانية عشرة من عمرها. لم يكن بينهن من حاولت التقرب إلى تيا.

- تِيَا، علينا العودة إلى المنزل.

- ما زال الوقت مبكراً، لقد وعدتُ ريبيكا بزيارتها خلف الكواليس. هي من طلبت مني ذلك في المرة السابقة.

تنهدت كورنليا، فهي لا تحب أن يحنث المرء بوعده، كانت تِيَا تعرف ذلك، قالت:

- سأرافقكِ إذن.

- لا حاجة بكِ لذلك.

نهضت كورنليا وهي تسوّي تنورتها:

- ربما أحب مقابلة ممثلة مشهورة؟ أرى كيف تبدو عن

قرب؟

- لسنا في حديقة حيوان.

كانت كورنيليا، في أيام فراغها، تذهب غالباً إلى حديقة حيوان "بلو جون" على ضفة قناة الكلوفينورش بورخوال، حيث يروقها أن تتجول حاملة كأساً من الجعّة وشيئاً من الطعام، وتحيط بها طيور تبدو عليها الوحدة ومخلوقات بأشكال وأحجام غاية في العجائبية من الأمريكتين وجزر الهند، انتهى الأمر بمعظمها أن يُعرض في حال أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، قالت بسخرية:

- أجرؤ على القول: إنها لا تجذب الانتباه كفرس البحر الذي رأيته في عيد الميلاد المجيد.

- سنرى.

***

قبل ستة أشهر، في عصر يوم دافئ من أيام تموز، كانت تِيَا قد حضرت عرضاً للمسرحية الكوميدية بيراموس وثيسبي. دار رأسها بسبب الضحك طوال المسرحية، وجاش فرحها بداخلها وانسكب في أرجاء القاعة. كانت ريبيكا تؤدي دور إلهة الصيد ديانا، تحمل على رأسها قرناً فضياً كبيراً تعجبت تِيَا من قوة ثباته، وبعد انتهاء المسرحية، تلكّأت في الانصراف، فقد كرهت العودة إلى أجواء المنزل الكئيبة في الهيرغراخت، وبينما كانت تتسكّع في ساحة السخاوبيرخ الأمامية قبل أن تنطلق في مسيرة العشر دقائق إلى المنزل، عبرت من أمامها ريبيكا بوسمان، بجلالة قدرها.

فقالت تِيَا:

- كنتِ رائعة جداً، يا مدام. غلبتها الرغبة في قول شيء، إذ ربما لا تحظى بفرصة أخرى. "خطابكِ للعاشقين كان أفضل أداء رأيته."

فتوقفت ريبيكا، التي كانت قد خلعت ملابس الصيد، لكنها احتفظت بملامح من ذلك العالم الغريب، والتفتت، لتتأمل تيا: فتاة لا تشبه النسوة اللاتي يأتين لتسوية هندامهن في المقصورات، بين الضحكات المكتومة واختلاس النظرات إلى غيرهن من سكان المدينة. سألتها:

- شاهدته من قبل؟

- مرات عدّة. هكذا أجابت تيا، وهي أكثر دواراً الآن، وقد توقفت الإلهة لتتحدث إليها، لكنها تابعت القول: لكن الممثلات الأخريات لم ينجحن قط بالكامل في إضفاء الصدق عليه. لا بد من أن دور ديانا صعب في أدائه. ما أعنيه هو -أنه لا يصعب عليكِ، طبعاً، ولكن المرء لا ينجح دائماً عندما يحاول التعبير عن مثل هذا التباين.

فظهر بريق جذل في عيني ريبيكا، وسألتها:

- ما اسمكِ، يا مدام؟

كانت هذه أول مرة يخاطبها أحدهم بكلمة مدام. فأجابت وهي تثني ركبتيها في انحناءة كبيرة:

- أنا تيا براندت.

- وأنا ريبيكا.

- أعرف.

سألتها ريبيكا إن كانت جاءت إلى السخاوبورغ وحدها،

فتبدّل الفرح إحراجاً على وجه تِيَا، وأجابت، محدّقة في قدميها:

- أجل. كنت لآتي برفقة صديقة لولا...

فأجابت ريبيكا:

- آه، إنّي أذهب إلى المسرح وحدي دائماً. سويعات من السلام الفردي. أنتِ محقّة تماماً.

- أنا؟ كان يُفترض بي الذهاب إلى سوق السمك."

- أنا متأكدة أن سمك القد سيتفهم.

وهكذا بدأ الأمر. قامت ريبيكا بدعوة تِيَا إلى الكواليس الخلفية لمقابلة بقية الممثلين. رأت تِيَا كيف رُكِّبت جميع المناظر مرة أخرى في الأماكن التي رُسمت لها لبداية العرض التالي، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن كل شيء يحدث لأول مرة، الجميع يُمنحون بداية جديدة، كل الأخطاء تُنسى. كان مُدهشاً أن ترى آليات تلك الصناعة، حرفيتها الروتينية الباهرة. صحبتها ريبيكا إلى غرفة تغيير الملابس الخاصة بها، وفُتنت تِيَا بطبيعتها الخاصة، رائحة خشب الصندل، إبريق ماء الليمون، الكلبة الصغيرة التي أخبرتها ريبيكا أنها سمّتها زمردة إكراماً لعينيها الخضراوين. كانت ريبيكا فنانة، تعيش وفقاً لأمواج موهبتها، لا تلبية مطالب مجتمع كان في العادة سيزوِّجها من رجل ما، طامساً موهبتها في الظلام. كانت تِيَا مسحورة بها. سألت تِيَا عن رأيها في المسرحيات التي شاهدتها، والكتب التي قرأتها. كانت عطوفاً وكريمة. بدا ذلك مثل حلم لم ترغب تِيَا في الاستيقاظ منه.

والآن، في هواء كانون الثاني البارد، تأتي ريبيكا إلى باب المسرح الخلفي بذراعين ممدودتين، مُخضّبتين بدماء التمثيل،

وفمها وذقنها ملطّخان. إنه مشهد آسر، لكنها تبتسم في وجه تِيَا وكورنيليا، سعيدة برؤية أكثر معجبيها حماسة. كانت جميلة، في الثلاثينيات من عمرها، قصيرة القامة ومُهندمة، بخطوات واثقة، وشعر أحمر طويل ينسدل على كتفيها. كانت ما تزال في زي التمثيل، بتنورة أوسع من مقاسها بقليل، نسيجها يلمع بحرير يجاوز ما يحمله ثوب نسائي عادي، وصُمِّمت كسراته واستواءاته لاجتذاب كل ومضة من ضوء الشموع.

قالت، وقد استجمعت شتاتها:

- تفضّلا

اندفعت تِيَا نحوها بحماس، وقالت:

- كيف تفعلينها، في كل مرة؟ أنتِ ساحرة.

فردّت ريبيكا بتكشيرة حمراء:

- ليس سحراً، يا عزيزتي. إنها الممارسة."

فقالت تِيَا:

- هذه هي خادمتنا، كورنيليا. فتقدمت كورنيليا إلى الأمام، وقد بدت ضئيلة فجأة.

ابتسمت ريبيكا مجدداً، ومدّت كفيها مرحبة:

- مرحباً، يا كورنيليا. هل كنتِ ضمن المُشاهدين أيضاً؟

أجابت كورنيليا، وهي تنظر إلى يدي ريبيكا، ثم إلى وجهها الملطخ:

- عمتِ مساءً، يا سيدة بوسمان.

حاولت تِيَا أن تخفي ضيقها، وفكرت: "ألا تلطخ ذراعا

كورنليا في نهاية كل يوم تقريباً بدم يصل إلى مرفقيها، من إخراج أمعاء سمكة، أو ذبح دجاجة؟ لماذا لا تقبل يدي المرأة المصريين وتُنهي الأمر؟

قالت ريبيكا، مُخفضة يديها:

- آنسة بوسمان. لقد لعبتُ ما يكفي من أدوار الزوجة على المسرح حتى جافتني الرغبة في أن أصبح واحدة في الحقيقة."

ثم ضحكت. لكن كورنليا ظلت جامدة، فتمنت تِيَا لو تنشق الأرض وتبتلعها.

حاولت كورنليا أن تصلح خطأها بنبرة جافة:

- آنسة بوسمان.

دارت ريبيكا على عقبيها، وانطلقت إلى داخل المسرح، فأسرعت تِيَا وكورنليا لتلحقا بها. قالت كورنيلا:

- إنه دم خنزير فحسب. عليّ يومياً أن أفرك يدي ووجهي، حتى أصبح كمن قضت ساعات في سلخانة، تنزع الأحشاء. لنذهب إلى غرفتي. إنها أكثر دفئاً. هذا الطقس سيكون فيه هلاكنا جميعاً.

قادت كورنليا تِيَا مارّة بغرفة واسعة حيث كان عدد كبير من الممثلين يرتاحون، فيزيلون باروكاتهم، ويمسحون أحمر الشفاه من على وجوههم. وجدت تِيَا نفسها تخفف من سرعتها، أملاً في أن يكون والتر هناك. كان إبريق القهوة قد بدأ في الغليان، وانتشرت الرائحة في الممر. وتناثرت نسخ من جريدة أمستردام كورانت على طاولة، إحداها بين يدي تيتوس نفسه، الذي رفع حاجبيه من فوقها حينما مرّتا، و في أحد الأركان جلس الولدان الصغيران اللذان يغنيان في الفواصل

الموسيقية، ووظيفتهما أن يرفعا من درجة توتر تيتوس بغنائهما المتواصل. لا يتعدى عمرهما سبعة أو ثمانية أعوام، رفع أحدهما عينيه إلى تِيَا، وراح يتأملها بفضول جائع، وبادلته هي نظراته الفضولية. كان الصبيّان يجلسان مع ما يبدو أنه وصي، امرأة بيضاء، منهمكة في إخراج خبز وجبن من أجلهما. لم يكن هناك أثر لوالتر في أي مكان.

في غرفة ريبيكا، كانت النار تموج بقوة وهناك بسط وكراسي، بينما كانت زمردة مُستغرقة في النوم داخل سلتها حتى أنها لم ترفع رأسها، و هناك نصوص مسرحيات مكومة على الطاولات والأرضية، وقد عُلِّق على الباب معطف وغطاء رأس، وهناك ثلاثة أزياء تتمايل بأناقة على قضيب خشبي مثبت بين جانبي فجوة في الجدار. على المنضدة علبة طعام صغيرة، وفنجان قهوة، وإبريق من النبيذ الأحمر. تحمل الغرفة طابعاً عائلياً مرتَّباً، وترى تِيَا أن كورنيليا بدأت تلين، وقد أعجبها أن ترى التراب المُختفي، والنوافذ النظيفة وعطر الليمون وماء الورد. وكادت أن تستشعر الاستحسان ينبعث من الخادمة على شكل موجات.

- الغرفة تعمها الفوضى. قالت ريبيكا، وهي تتوجه بخطى واسعة إلى الإبريق والحوض وتشرع في غسل وجهها ويديها وفرك الدم عنهما.

اعترضت كورنيليا:

- إنها على العكس مما تقولين.

- إنها صغيرة، لكنها ملكي.

قالت ريبيكا وهي تنشف جسدها في فوطة نظيفة جداً،

وتومئ إلى المقعدين الشاغرين، قائلة:

- تفضّلا بالجلوس. سمعتُ عنكِ كثيراً، يا سيدة كورنيليا. البوفرت، والمتسبوت اللذان تعدينهما. أريد استخلاص الوصفات منكِ."

تضرج وجه كورنيليا بحمرة الخجل، وقالت:

- جميعها موجود في ذا سينسيبل كوك، يا مدام." ترددت قليلاً، ثم تجرأت على استخدام عبارتها نفسها: "أنا أيضاً لست ساحرة. إنني أعدُّها منذ ثلاثين عاماً."

أشرق وجه ريبيكا،وقالت:

- أفضل ردّ يؤيد الممارسة.

قالت كورنيلا:

- أنا واثقة أن أي شخص يمكنه صنعهما.

فأجابتها ريبيكا:

- إنما، قليلون هم من يملكون الاستعداد لبذل الوقت.

يا له من أمر يثير العجب: إن كورنيليا لا تتواضع أبداً عندما يتعلق الأمر بطهيها، إنها تترع في الثقة بالنفس في كل مرة تقريباً تقدِم فيها صنفاً، ولكن ها هي الآن، تجول، متلهفة للحديث، وقد لانت نتيجة أريحية ريبيكا وانفتاحها في دقائق. قلة من الناس هم من يستطيعون الارتقاء إلى معايير كورنيليا العالية، ولكن، يظهر أن ريبيكا قد نجحت في ذلك. إن كورنيليا تبدو كمن تعجز عن تحمل وجودها داخل شعاع إشراقة كتلك، لكنها كمن تعجز أيضاً عن تأبيد فكرة تركه، وبدت أنها على وشك أن تضيف شيئاً، لكنها انتزعت نفسها،

وسارت صوب الباب، قائلة:

- عليَّ العودة إلى المنزل، لديّ عمل."

قالت ريبيكا بإحباط صادق:

- الآن؟

فأجابت كورنيليا:

- دائماً، تِيا، عليكِ ألا تتأخري عن الساعة الخامسة، وإلا، ورمت ريبيكا بنظرة سريعة، وضعتكِ زوج خالتكِ في فطيرة.

ضحكت ريبيكا، وذهلت تِيا من نجاح مزحة كورنيليا، وقالت:

- أعدك.

- قد تكونين امرأة الآن، يا تِيا، لكن جميعنا سيدفع الثمن إذا لم تذهبي إلى حفل ساراخون.

ثم التفت إلى ريبيكا، قالت:

- شكراً لكِ على هذا الوقت، يا مدام، استمتعتُ كثيراً، أعرف وصفة جيدة لصابون يزيل أكثر بقع الدم عناداً، إن احتجت إليها."

وقبل أن يُتاح لريبيكا أن تردّ، أحكمت كورنيليا ربط وشاحها حول عنقها، واختفت في الممر.

تشاهد تِيا الباب يُغلق. "لقد أثرتِ إعجابها، لهذا لم تستطع البقاء، إنها تحار دائماً فيما تفعل عندما تتأثر حيال شيء."

سكبت ريبيكا كأسين صغيرين من النبيذ: - إنها تعجبني كثيراً، أنتِ محظوظة، يجب أن يظل للمرء مربية وهو في الثامنة

عشرة.

- لا أحتاج إلى مربية.

فهزت ربيكا كتفيها، وقالت:

- كنتُ شخصياً لأحب أن يكون لي واحدة.

- لكنكِ تملكين كل شيء.

- أمتلك أشياء كثيرة. ليس من بينها مربية مُحبَّة، تنهدت ربيكا، وتابعت: حفل ساراخون؟ يا لها من دعوة.

- لو أنكِ تحبين هكذا أشياء.

اتسعت عينا ربيكا، وقالت:

- ستكون مشوّقة. ليتني أستطيع الذهاب.

شعرت تِيا بدفقة أمل صغيرة:

- هل دُعيتِ؟

"نعم. لكن لديَّ عرض. أفضّل دم الخنزير على اللآلئ. وبأية حال، سيكون أفضل الضيوف قد غادروا في الوقت الذي أتمكن فيه من الوصول إلى هناك. ولكن، يا تِيا، اسمعي... ثم سارت صوب علّاقة فساتينها وانتزعت من بينهم ثوباً من الحرير الذهبي، وقالت: خذي هذا لارتدائه في الحفل.

حدقت تِيا بابتهاج في الفستان الذهبي الذي تحمله صديقتها، وقالت:

- لا يمكنني.

- بل يمكنك.

- سوف تبرز ساقاي من أسفله.

تهز ريبيكا كتفيها في لا مبالاة. "لقد ثُنيت حاشيته من أجلي. توجد في الأسفل طيَّة كبيرة. سأطلب من فابريتسيوس أن ترخيها وتكبسها. سيلائمكِ أكثر. ارتديته لدور جولييت، لكن لونه كان كامداً.

تقدمت تِيَا نحو الثوب، ولامست القماش، قائلة:

- "أنتِ طيبة جداً معي. تمنيتُ لو تذهبين إلى الحفل.

- لا أظن أن زوج خالتكِ سيوافق. قلتِ إنها لا تحب الممثلين. لماذا، في حين أننا مُسالمون تماماً؟

قالت تِيَا، وهي تترك الفستان وتعود إلى الطاولة:

-ريبيكا، سمعتِ بنفسكِ كيف أني لا أملك متسعاً من الوقت. هل هو هنا؟

عبر ظلٌّ ملامح ريبيكا، فوضعت الثوب الذهبي على ظهر الكرسي، وقالت:

- أخبريني، يا تِيَا براندت: لماذا تأتين إلى المسرح؟ هل ترين أنكِ تأتين من أجله؟

- إنني أحبه.

أصبحت ريبيكا جادَّة فجأة، وقالت:

- أعلم أنكِ تفعلين. ووالتر رسام ماهر. مدّت يدها إلى الخبز على الطاولة وانتزعت منه قطعة، وأردفت: لكنه ليس إلهاً، يا تِيَا. إنه رجل فقط.

- إلا أنه يستحق أن أعبده.

مررت ريبيكا يدها خلال شعرها، وملامحها تشي بالانزعاج:

- أعلم أن الوقت يبدو لكِ قصيراً. لكنكِ سترين أنه سيتمطّى. ما تزال تنتظركِ أحداث كثيرة.

- ماذا تقصدين؟

- لا أريد أن أملي عليكِ أفعالكِ، ولكن...

- تماماً. وجدت تِيا نفسها تدير عينيها في محجريهما، وتهمس: «لستِ أمي.»

- أريدكِ أن تكوني سعيدة.

- إنني في أسعد أوقات حياتي.

- كل ما أعنيه هو: توخّي الحذر.

- من ماذا؟

تنهدت ريبيكا، وقالت:

- لقد وعدتُ نفسي ألا أتدخل. أعلم أنكِ سعيدة. لكن كم عمر والتر - خمسة وعشرون، ستة وعشرون؟

- سيتمُّ السادسة والعشرين في نيسان.

- أي أنه يكبركِ بثمانية أعوام تقريباً.

ثمانية أعوام هي لا شيء. السن أمر غير مهم. إنكِ لا تعرفينه مثلما أعرفه. إنكِ لا تفهمين.

- أفهم أنكِ من عائلة براندت. وهذا يعني شيئاً.

فردّت تِيا:

- ربما في الماضي. لكنه لا يعني شيئاً الآن. خلتُكِ لا تكترثين بقواعد المجتمع؟ إنكِ لم تتزوجي قط. تملكين غرفتكِ الخاصة هنا. حريتكِ.

قالت ريبيكا:

- ما تزال هناك قواعد ينبغي عليّ الالتزام بها، سواء أعجبتني أم لا. كل ما أطلبه منكِ هو ألا تسرعي في خطواتكِ مع نفسكِ، أو معه. أنتِ أكبر مما تظنين، ولا تستحقين سوى الأفضل.

فأجاب صوت أتى من جهة الباب: -

- والأفضل هو ما ستحصل عليه.

استدارت المرأتان في الوقت نفسه، وارتعدت فرائص تيا، بينما أشاحت ريبيكا بوجهها، نهضت تيا. لقد جاء من أجلها، رسَّام المناظر الرئيس في السخاويبرخ. إنها شيهانة على معصمه، تحلق حال رؤية حبيبها.

4

لم يكن والتر ريبيك أول رجل يسكن خيال تِيَا، حينما كانت في السادسة عشرة، كانت تعتقد أن روبرت هوفت، الذي يوصل البيض إلى كورنيليا، هو أجمل رجل في العالم. ومن قبله، إبراهام مولينار، بائع المكانس في الربيع - كان أيضاً أجمل رجل في العالم. ومن قبله، وهي في الخامسة عشرة، ديرك سفيرتس، الذي ينظف نوافذ الصالون: كان أيضاً جميلاً. في الرابعة عشرة، كان هناك خيبرت برينيك، مندوب تسليم الخنازير المملحة من كلاس الجزار: كان أيضاً ما قد تسميه العين هدية من الرب. لم يكن لتِيَا حيلة في رؤية جمال الفتيان من حولها، فتيان لم يدركوا أنها رأت جمالهم، فتيان لم يعطوا بالاً. كانت هذه العينان هما ما وهبهما الرب لها، لكن التحديق كان من جهة واحدة فقط. تلك الكائنات لم تبادلها النظرات قط.

لكن والتر كان مختلفاً، منذ البداية. كانت تِيَا هي من تعثّرت داخل المرسم ذات يوم، وهي تستكشف الممرات أثناء انشغال ريبيكا في إعادة تثبيت قرطها الفضي من أجل عرض المساء. وهناك كان والتر، واقفاً في ضوء ظهيرة أحد أيام الصيف الأخيرة الذي غمر الأرضية آتياً من النوافذ العالية، ويتأمل في مُسطّح شاهق من الجمال الريفي، وفرشاته في يده، تلامس شجيرة فراولة.

التفت إليها إثر سماعه صوت الباب، فتجمّدت تِيَا، وقطّب حاجبيه، كأنه لا يرغب في مقاطعته، لكنه عندما رآها تبدّلت

ملامحه. من المفاجأة، إلى الاهتمام، وتِيَا، التي لم ينظر إليها رجل بهذه الطريقة من قبل، تسمَّرت في مكانها.

قال:

- لديكِ وجه حسن. هل أنتِ جديدة؟

تلاشت كل أفكارها حول روبرت هوفت وبيضه.

لقد لاحظ والتر وجودها، كما فعلت ريبيكا من قبل. كان استحسان والتر لها يعانق، بصورة ما، عطف ريبيكا. كل هذا يحدث تحت سقف واحد، داخل العالم الافتراضي اللامتناهي للمسرح. خلفيات والتر وديكوراته لا مثيل لها. بوسع المرء أن يقطف إحدى ثمراته ويسكن داخل واحد من مناظره. لا يوجد إنسان يفوقه موهبة على أرض الرب، لكن الأمر لا يتعلق فقط بجماله، أو صوته، أو يديه، أو موهبته. إنها تركيبته بأكملها، حتى الأجزاء التي مازالت تِيَا لا تستطيع الوصول إليها. إنه أزرق العينين وفي الخامسة والعشرين من عمره، رجل يحلم بالترحال إلى مدن أوروبا، ببناء ديكورات تمثيل لم تُرى من قبل في مسرح دروري لين أو الأوبرا، مفاخره الهولندية من الألوان والخشب.

أصغت تِيَا إلى أحاديث والتر عن الحرب، والبدايات الجديدة التي فيها سيجني أعلى درجات الاحترام، وبين هذه السطور ترى مكاناً لجسدها على فراشه الباريسي، ومشجباً لملابسها على ظهر بابه اللندني. يسهل تكليل والتر بمستقبله، لأن الفرشاة في يده فعلاً. يسهل تخيله يرسم عالماً من لا شيء. تعرف تِيَا أن أحلامه ستتحقق، من خلال الطريقة التي تربت بها فرشاته على المسطحات، من خلال الطريقة التي تنبت فيها الأشجار والشواطئ، وأيائك الغابات، وقصور فينيسيا والبيوت الريفية

البسيطة، تنبت من لا شيء عبر عمر مهارته. إعجابها بموهبته جزء لا ينفصل عن لهفتها إليه كرجل. لا تستطيع تِيَا فصل الشعورين، لا تستطيع أن تنقض الغَزْل الذي يلف بسرعة أكبر من قدرتها على مواكبته، ولا هي أيضاً ترغب في ذلك. تمر أيام تشعر فيها أنها مهووسة بكل أشكال المستقبل في داخله، المستقبل التي سينتظرها أيضاً، لو ظلت الأمور تسير على الحال نفسه. حتى السحب في السماء أثناء سيرها إلى المنزل بعدها، تحمل خيوطاً من ملامح وجهه. أعمق ما يثير فرحها هو أن والتر يبادلها الشعور ذاته. إنهما زوجان متناغمان في جرمهما، إلى الأبد، مُتلاصقان ومحبّان.

***

تركا ريبيكا في غرفة ملابسها، و سارت تِيَا خلف والتر عبر عتمة ممرات السخاوبيرغ، وهما يدوسان على الحبال الملفوفة والأزياء المرميّة من العرض السابق، وكأن شخصيتها تبخرت. إنها تعرف الطريق إلى المرسم جيداً حتى إنها تستطيع أن تذهب إليها مغمضة العينين. فتح والتر الباب ووقف جانباً حتى تدخل أولاً. إنها تحب هذه الغرفة، رائحة بذر الكتّان والطلاء، والخشب المنشور حديثاً. راقها أن تتنقل بين المناظر التي لم تكتمل بعد، من تحت قوس لم يُطلى بعد، أو عبر باب صغير لا يُفضي إلى شيء عدا حزمة من الخرق. إنها تبدو كبهو دخول إلى حياتهما المستقبلية. كانت تشعر أنه في يوم قريب، سيخرجان من هذه الغرفة ويتغيّر شيء ما، شيء سيكون قد بُني، وطُلي، وقام منتصباً.

قال والتر:

- إنني أصنع أشجار نخيل. ديكور جديد. الحياة حلم

لكالديرون.

- آه، فهمت، قالت تِيَا، على الرغم من أنها لم تقرأ هذه المسرحية من قبل. لكنها وطن نفسها أن تفعل.

- يريد المُخرج إضفاء أجواء حارة، لذا اقترحتُ النخيل. فيشعر المتفرجون برغبة في خلع ملابسهم الصوفية.

وقفت تِيَا أمام مُسطّحات والتر الثلاثة الشاهقة المُترامية. كان الساحل الذي رسمه والتر لا يشبه أي مشهد بحر هولندي - لا مياه بلون بني أو رمادي داكن، لا حواجز رملية مليئة بالأعشاب. الماء أقرب إلى اللون الفيروزي، يمتد بلا نهاية إلى أفق بعيد. قواقع ضخمة مجروفة بامتداد خط الساحل، وهي في استكانتها تكاد تشبه كائنات حية، وباطنها الغامض يلمّح إلى حميمية خفيّة. الرمال بلونها الأصفر الباهت تقود إلى شريط من الأشجار الضخمة، رُسمت في أوضاع ميلان مختلفة، سعفها يرمي بظلال كثيفة.

أشار والتر بيده نحو قمم المسطحات، ويقول:

- هذه أشجار جوز الهند. ومما يبدو أنكِ إذا وقفتِ تحت شجرة منها وسقطت جوزة على رأسك، فسوف تموتين على الأرجح. هل تتخيلين؟ لا أعرف إن كنتُ رسمتُها بشكلها في الحقيقة بعد. لم أرَ إحداها من قبل.

كان والتر يمتلك موهبة خارقة في خلق حقائق موازية، حتى إن تِيَا لربما تقتلها حقاً تلك الأطايب، الكامنة في أغصانه المرسومة. قالت:

- من المثير للشفقة أن تقتلك شجرة، حتى لو كنتَ من رسمها. إنها رائعة المنظر.

التفت إليها، وضمها بين ذراعيه. إنه يحب سماع ثناءها، وقال وهو يدفن وجهه في جانب عنقها:

- ليست في مثل روعتك.

بدأ جسد تيَا بأكمله يضج من أعماقه، فشدّ والتر الوشاح عن رأسها، وتمتم:

- دعيني أخلع عنكِ ملابسكِ الصوفية.

- والتر...

شعرت بالبهجة وهو يحل وثاق معطفها، وسرت قشعريرة في جسدها كله، كان إحساساً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. الإحساس الذي يكمن داخل ذلك

كانت تيَا تعرف أن نساء أخريات كنَّ قبلها في حياته، وكان يؤلمها أن تفكر في خبراتهن الأفضل. كانت تيا تشعر أنها في عالم سحري، وتخشى من أنها قد لا تستطيع التوقف هنا. همست:

- لا يمكننا الاكتفاء بهذه اللحظات المسروقة. أخشى دائماً أن أحدهم سيقتحم المكان، تقول ريبيكا...

قاطعها والتر بلهجة غاضبة:

- إن ريبيكا بوسمان تحب خلق البلبلة فحسب، إنها امرأة وحيدة وغريبة. لا يمكنها التمييز بين الأدوار التي يدفعون لها مقابل أن تؤديها وبين حياتها خارج تلك الأدوار.

- والتر! ليس هذا قولاً طيّباً.

تراجع وهو ينظر إليها.

- وتؤمنين أن ريبيكا طيبة؟ إنها لا تفكر سوى في عروضها

المسرحية.

- ولكن...

- صه... قالها والتر، وهو يرفع ذقن تِيا ويقترب منها، فهمست:

- في وسعي المجيء إلى مسكنك. لماذا نلتقي في المسرح بينما يمكنني القدوم إلى مسكنك؟

فهمهم قائلاً:

- أرغب في ذلك، لكن صاحبة المنزل لا تسمح لي باستقبال زوار، سوف تطردني، ولا عيب في هذا المكان، صحيح؟ إننا نحظى بالخصوصية، تكونين لي وحدي، وأكون لكِ وحدكِ، كل منا سر الآخر.

- نحن كذلك.

- هل تحبين أن أجعل الغرفة مريحة أكثر؟ سأضيف وسائد...

- والتر، إنها رائعة. وأفترض أننا هنا على الأقل، يمكننا الوثوق في أن الجميع سيحفظ سرنا.

- آمل أن يكون هذا صحيحاً." ثم يشيح بوجهه، أقرب إلى الخجل، هل... تظنين أنكِ ستخبرين عائلتكِ عني يوما؟

ردّت تِيا:

- رباه، كم أريد ذلك. أريد ذلك جداً. ولكن كيف لي أن أبدأ محادثة كهذه؟ أبي، زوج خالي... سيكون عسيراً جداً. أنت بيراموس وأنا تيسبي، ونحن عالقان في قبضة القدر الباردة، يفصل بيننا جدار سميك.

ضحك والتر، فقالت تيا في نبرة احتجاج:

- ليس هذا مضحكاً. تعلم أنني أحبك كثيراً.

- وأنا أحبك. أكثر من أي شيء..

- أكثر من الرسم؟

- ذاك سؤال قاسٍ. إنكِ لا تضمنين لي الفراش والطعام.

- أعرف. ترددت تيَا قليلاً، لكنها قالت:

- ولكن، في وسعك أن تضمني إلى فراشك.

نظر والتر إليها وبدأ في تقبيلها ثانية، أعمق من أية مرة سابقة، وغاب الاثنان في عالم آخر. وفجأة، فتح الباب وطرق سمعيهما صوت صداح، إنها ريبيكا:

- ثوبكِ لحفل الليلة، لقد فكَّ فابريتسيوس طيَّته من أجلك.

أطبقت تيَا يدها على فمها لتمنع نفسها من الضحك. كان والتر، أشعث ومحمرَّ الخدَّين، يختلس إليها نظرة شبقة.

قالت ريبيكا، وقد صار صوتها أكثر اقتضاباً:

- أفترض أنكِ هنا، يا تيَا. إنها الرابعة والنصف. في حال كنتِ لا تعرفين.

تناهى إلى مسامع تيَا صوت تنورة المرأة وهي تتحرك لتضع الثوب على كرسي والتر. ثم تقول:

-أتمنى لكِ أمسية ممتعة الليلة. و أن تُفيدي منها بأكبر قدر. تعالي لزيارتي قريباً؟ يا تيَا؟" صمتت لحظة، ثم قالت: "اعتني بالثوب."

أغلقت باب المرسم وخرجت، فسأل. والتر:

- ما كل هذا؟ أي لوب؟

دارت عينا تِيَا في محجريهما، وابتعدت عن الجدار، وقالت:

- حفل كلارا ساراخون الراقص بمناسبة عيد الفطاس. دبَّرت لنا زوج خالي حضوره.

اتسعت عينا والتر من الدهشة:

- إن هذه واحدة من أشهر الحفلات في المدينة. أعرف أنكِ تعيشين في الهبراخت ولكن هل تملك عائلتكِ معارف بهذا النفوذ؟

أجابت تِيَا:

- لا، إن زوج خالي تحاول أن تفعل. لا أعرف لماذا: ستكون مليئة بالتجار المملين الذين لا يملكون شيئاً أفضل يفعلونه. لقد دُعيت ريبيكا، لكنها ستؤدِّي عرضاً الليلة طبعاً. هل تلقيت دعوة؟

- آه، نعم. مكومة وسط غيرها من الدعوات التي أتلقاها من نبلاء هذه المدينة.

- طيب، لماذا لا يقومون بدعوتك، أنت فنان مشهور في هذه المدينة؟

- أنا رسَّام مسرح.

- أنت رسام المسرح الرئيس.

قال باقتضاب:

- إنه ليس عالمي. إنهم لا يفهمون أمثالي.

أجابت تِيَا:

- ولا أمثالي، صمت والتر، فتابعت القول: سيكون من حظهم أن تأتي حتى ولو لخمسة عشر دقيقة."

- لستُ مهتماً. يؤسفني فقط أنكِ مضطرة إلى الذهاب."

قالت تِيا بحسرة:

- وأنا كذلك. ثم أخذت ترتب قميصها، وتدس أطرافه في التنورة، وتعدّل وضع قبعتها.

قال والتر:

- مهلاً، لا تظني أنّي نسيتُ أن اليوم هو عيد ميلادك. لقد حضّرتُ شيئاً.

ابتهجت تيا. وفجأة، ينزل والتر على ركبتيه ويرفع تنانيرها. فسألته:

- ماذا تفعل؟

توقف، وأخرج رأسه من تحت تنورتها الداخلية:

- لا تريدين مني أن أفعل؟

- ولكن ماذا ستفعل؟

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

- انتظري وسترين.

ثم اختفى من جديد.

همس في داخلها: "أحبك." فارتجفت بشدة فيما يمسكها هو بإحكام. كانت هذه أكثر لحظة شعرت فيها تِيا بالصدق في شيء يخبرها به شخص ما.

خرج والتر، وفي عينيه نظرة راضية ولعوبة. فقالت تِيا:

- إنه أفضل عيد ميلاد حصلت عليه قط. وكله بفضلك.

قبلها مرة تلو مرة، وهمست: "هل آتي إلى هنا في الأربعاء القادم؟"

أجابها هامساً: "سأكون في انتظارك."

غادرت تِيَا، على مضض، عالمهما الصغير المتمثل في المرسم. لقد صدقت ريبيكا: سوف تتأخر. فراحت تركض، وهي تضم إليها ثوب ريبيكا الذهبي بإحكام. إنها لا تصدق ما حدث تواً، وأنها صارت تمتلك مثل هذا التعمق في التجربة، وأن هذا قد حدث في عيد ميلادها. أخيراً، أخيراً، قالت وداعاً لطفولتها.

ركضت تِيَا في الكيزرغراخت، ومنه إلى الليدزغراخت نحو منزلها، متمرِّدة على ثقل تنانيرها. لقد أخبروا تِيَا أنها لا تعرف شيئاً عن العالم، ومع ذلك فهي تعرف الكثير. تعرف الأماكن التي لم تطؤها حتى قدماها. في باطن رأسها بحيرة، والنجوم فوق سطحها مجهولة بعد. إنها ضوء في داخل نفسها، والحب الذي تكنُّه لوالتر يؤججها وهي تركض نحو الظلام المُحتشد.

5

علمت تيا في اللحظة التي دخلت فيها من الباب الأمامي، أن هناك خطباً ما. توقعت أن تظهر كورنيليا، وتوبخها على تأخيرها، لكن لا أحد يأتي. لم يكن الجو يضج بالمرح والمرج المُتوقع عند الاستعداد لحفل راقص، ولكن بشيء كئيب، أقرب إلى نذير سوء.

"مرحباً؟" نادت، وهي تقف في الدهليز، عاجزة عن استخدام حاستها في تحديد مكان بقية عائلتها.

فُتح باب الصالون، وخرجت منه كورنيليا في عجلة، ثم أغلقته خلفها بقوة. سارت على البلاط ذي اللونين الأسود والأبيض، وهي تقول:

- هيا، إلى الطابق العلوي. نحتاج إلى تجهيزك. نظرت إلى ثوب تِيَا المُستعار، وحافته التي تلامس البلاط، وأردفت: "إنكِ لن ترتدي هذا، أليس كذلك؟ لقد جهَّزتُ لكِ الثوب الذي سترتدينه...

- كورنيليا. وأشارت تِيَا برأسها نحو الصالون: "ما الذي يحدث هناك؟"

- لا شيء يستدعي قلقك. لكن وجه كورنيليا، الشاحب والمُنهك، يقول العكس.

توجهت تِيَا بخطوات واسعة صوب باب الصالون، فهمست كورنيلا بنبرة ملحَّة وآمرة أجبرت تِيَا على الانصياع: "مهلاً"

شعرت بالخوف يصعد إلى صدرها، وخطر لها أن علاقتها

بوالتر ربما انكشفت. إنها في ورطة أكبر مما تخيل. لكن زوج خالها كانت على الأرجح لتأتي حينها مُسرعة نحوها، خلفها والدها في حالة من الرعب الصامت.

قالت كورنليا:

- لقد وقعت أمور.

- أية أمور؟ إن منزلنا لا تقع فيه أمور أبداً.

مررت كورنليا يداً أبلاها العمل فوق جبينها، وقالت:

- لو كان ضرورياً أن تدخلي، وأعلم أنني لا أستطيع منعك...

- هذا صحيح. إنني في الثامنة عشر الآن...

- أعرف. ولكن لو كان ضرورياً أن تدخلي، فكوني لطيفة.

كان هذا توجيهاً مفاجئاً. لماذا عليها أن تكون لطيفة، وهي التي لا تعرف شيئاً؟ فسألتها:

- ومتى لم أكن لطيفة؟

حدجتها كورنليا بنظرة صارمة.

فقالت تِيا، وقد بدأ صبرها ينفد:

- هل مات أحدهم؟ مع أنها لا تستطيع تخمين من قد يكون. ولا يوجد في حياتها من تخسره، إلا والتر.

أغلقت كورنليا عينيها قليلاً، ثم قالت: -

- ادخلي فحسب. وإن كنتُ لا أظن والدكِ سيشكرني.

كانت الأحاسيس المُبهجة لآخر ساعات في المسرح قد تبخَّرت. على الرغم من أن ترغب في التشبث بها، لكنه مطلب مُحال في مثل هذا المنزل. وشعرت وكأن هدية والتر لعهد

ميلادها لم تحدث قط. لم تعد تطيق ذلك. لماذا يجب على عائلتها دائماً أن تفسد كل شيء؟

تركت ثوب ريبيكا الذهبي على الكرسي خارج الصالون ودخلت. كان والدها جالساً على أحد جانبي المدفأة الخالية، والبرد شديد في الغرفة الغائرة. وكانت زوج خالها تقف في الجانب الآخر من رف الموقد، ملامحها شاحبة. رفعت عينيها بدهشة، وقالت:

- تِيا؟ لماذا لم تستعدي؟

- من الذي مات؟ لا يمكننا أن نذهب إلى حفل راقص لو أن أحداً مات.

قال والدها:

- لم يمت أحد. حتى الآن، على الأقل.

سألت تِيا، برقة أكثر الآن، إذ تذكرت نصيحة كورنيليا:

- بابا...

- تعالي هنا، يا صغيرة. مدّ لها يده. فأقبلت تِيا نحوه وأمسكت بها، وقال:

- لا شيء يستدعي قلقك.

- كورنيليا قالت ذلك، ولم أصدقها.

- أصبتِ إن لم تصدقي. قالت زوج خالها وهي تتخذ مقعداً إلى الجانب الآخر من المدفأة: أوتو، أخبرها. لا يمكنك إخفاء الأمر عنها.

قال والد تيا بانفعال:

- لم أكن أنوي ذلك، إنه عيد ميلاد ابنتي، يا بترونيلا."

- بابا، إنك تخيفني.

رفع إليها عينيه، قائلاً:

- ليس هناك ما يُخيف. إنه أمر يمكن حلُّه. لقد خسرتُ وظيفتي في الفوك.

- ماذا؟ استقلت؟

بدا الألم على وجه أبيها، وقال:

- بل فُصلت.

لوهلة، عجزت تيَا عن الاستيعاب. فُصل؟ كيف يكون ذلك مُمكناً؟ إن والدها يعمل في أشهر شركة بالمدينة منذ وسعها أن تتذكر. إنه موظف ماهر، ماهر جداً، منذ خمسة عشر عاماً وهو يسجِّل جرد البضائع القادمة من الشرق. جوزة طيب، ملح، قرفة، قرنفل، حرير وقطن، نحاس، خزف، فضة، ذهب وشاي تعرفهم تيَا جميعًا، ألفاظ أمستردامية الطابع، تلك الرفاهيات والبدع التي لا حصر لها تفيض أمام عينيه، وتدونها يداه. هذا ما يفعله والدها.

نظرت إليه، والدها المجتهد والمتفاني، الذي فتح يديه أمامه، وكأنما ليرى الجواب في خطوط كفيه. وقالت:

- إنني لا أفهم.

- قالوا إني صرتُ عجوزاً

- عجوزًا؟ استرجعت تيَا، مع إحساس بالذنب، أفكارها الصباحية إثر رؤيته في منامته. وتمنت لو تستطيع محوها. "لستَ عجوزاً."

- يقولون إنني أبطأ من الباقين.

أطلقت الخالة نيلا صوتاً يعبر عن اشمئزازها.

شعرت تِيَا بانقباض في حلقها، ودوار طفيف. لقد أصبح والدها شيئاً مختلفاً عن كونه والدها:

- إنه الآن رجل يُمكن انتقاده. إنه إدراك صادم. تريد أن تركض إلى الفوك وتصرخ في وجه أحد ما. نظر صوب زوج خالها، والتي تبدو أكثر تسليماً من تِيَا، إنما بجهْم.

قالت تِيَا:

- لكن بعضاً من الرجال الذين تعمل معهم يماثلونك في العمر. بيرت شيبرز – إنه أثري. يوجد هناك عاملون في الستين من عمرهم.

قال زوج خالها:

- هذا ما قلته أيضاً.

دخلت كورنليا، ووقفت ببؤس في الركن تسأل:

- هل من أحد جائع؟

قال والدها:

- لم يخطر لي أن هذا قد يحدث. كان يجدر بي توقعه. كانوا يكلفونني بالمعاملات الصغيرة فقط. الواردات الأكثر تفاهة. لا شيء من المعاملات المهمة، على الرغم من خبرتي.

قالت كورنليا:

- الرجال في الفوك يروحون ويجيئون كأمواج البحر. لقد بقيت مدتك كلها.

حدجها بنظرة طويلة:

- وها قد جاء أجلها.

- إنه أمر يتجاوز الحدود. قالت الخالة نيلا، وهي تنهض مرة أخرى وتضرب بيدها حافة رف المدفأة. "كل المزاعم عن جزاء الطموح والإصرار التي لا تكف الفوك -وجمهوريتنا بأكملها في الحقيقة- عن الحديث عنها، بينما هذه المدينة في الواقع تُعلي من شأن بضعة رجال فقط من العائلات المناسبة.

قال والد تيا:

- العائلات المناسبة. هذا هو الظاهر.

خيم صمت طويل. يتأمل أربعتهم في مستقبلٍ أصبح ضبابياً فجأة. بدا كأن الحبال التي كانت تربطهم قد جُزّت، وأخذت تلوى مُبتعدة، وأما تيا وعائلتها فيغوصون في مياه مجهولة بلا دليل يفصح عن وجهتهم. إنها تعرف مالم يقله والدها لها، إن هذا الفصل ربما لا يكون له علاقة بسنِّه، ولا بسرعة أدائه في العمل، ولا بالانحدار من أسرة مناسبة. هذا هو الظاهر. ملامحه، المنهكة جداً، تنقل كل شيء لتيا. هي تعلم أن عائلتها آمنت بضرورة تحصينها من النظرات والتعليقات على مر السنين. آملين ألا تنتبه تيا إليها بنفسها يكاد يكون مثيراً للشفقة. أحياناً تتمنى لو أنهم ذكروا ما هو بدهي، عوضاً عن التظاهر بأن الناس لم يقصدوا مدّ أيديهم إلى شعرها، أو السؤال من أين جاءت، ولماذا تمتلك هذا الشكل، بينما لهجتها أمستردامية خالصة. ربما لم يكن سنُّ أوتو براندت هو ما شطب اسمه من سجل الفوك. لن يعرفوا أبداً على الأرجح.

قالت:

- حسناً. أنا واثقة أنك ستجد عملاً آخر.

صمت الجميع، وراح والدها يحدّق في موقد المدفأة.

قالت زوج خالها بنبرة مُقتضبة:

- تِيَا، إن ثوبكِ موضوع على فراشك. اذهبي لتستعدي.

فتحت كورنيليا باب الصالون، وأشارت إلى تِيَا حتى تتبعها، فنظرت تِيَا إلى زوج خالها في عدم تصديق، وقالت:

- أمازلنا سنذهب حقاً؟

- نحن في حاجة إلى دائرة ساراخون الآن أكثر من السابق.

- ولكن...

فقال والدها:

- تِيَا، رجاءً، افعلي ما تطلبه زوج خالك.

كانت تِيَا تشعر بالكره عندما يأخذان الجانب نفسه. لا تصدق أنه لا يمانع في أن يُخضع نفسه، ويُخضعها، إلى مهزلة هذا المساء. وعلى الرغم من الغضب الذي يعتمل في داخلها، تعود لتتذكر نصيحة كورنيليا باتخاذ اللطف سبيلاً، فتميل عليه وتقبله على خده. وإذ تغلق الباب خلفها، تظاهرت بأنها تتبع كورنيليا، التي كانت قد اتخذت سبيلها سريعاً بالفعل على السلالم صوب غرفة تِيَا، لتُعد بلا شك دهان شمع العسل بين أصابعها من أجل الأطراف المجعّدة لشعر صغيرتها. لكن تِيَا تعود على رؤوس أصابعها إلى ثقب المفتاح وتختفي لسماع ما لم يقله والدها وزوج خالها في وجودها.

كانت الخالة نِهلا تقول:

- ولكن لماذا الآن؟ بعد كل هذه السنوات؟ إنها جريمة. أن يظنوا بإمكانهم أن يعاملوك بهذه الطريقة.

- لقد عُيِّن كبير عمّال جديد. الجو مُتعكِّر. كانوا يتحيَّنون الفرصة ليفعلوا ذلك. قد تتعدد الأسباب. كلها لا تهمني. كلها باطلة.

- أوتو، ماذا سنفعل؟ من دون راتبك، لا أظننا...

- سأفكر في وسيلة ما. قال والدها بنبرة قاطعة، وكأنه يريد من الخالة نيلا أن تتوقف عن الكلام.

فردّت زوج خالها:

- من الجيد أننا ذاهبون إلى الحفل. طقطق نعلها الخشبي بصوت عالٍ فوق أرضية الصالون، وهي تذرع المكان جيئة وذهاباً، ثم توقفت وقالت: أنت توافقني فعلاً، أليس كذلك؟ ترى الصواب في ذلك، خاصة بعد يوم كهذا؟!

- بترونيلا، لا تستغلي هذه الخسارة في الترويج لمقاصدك. إن وضعي مع الفوك لا شأن له بِتِيَا.

- بل له كل الشأن.

شاهدت تِيَا من ثقب المفتاح والدها وهو يضع رأسه بين يديه، ويقول:

- سوف أُعاقب على قول هذا في مثل هذه الأيام، لكني سعيد لأن مارين لم تعش لرؤية هذا الهوان.

تشبثت بإطار الباب. إن رؤيتهما هكذا، يتبادلان التجريح بسببها، ووالدها يقول شيئاً كهذا عن أمِّها، كان يفوق احتمالها. لقد أرادت أن تسمعهم يتحدثون عن مارين براندت، ولكن

ليس بهذه الطريقة. لقد تحققت أمنية عيد ميلادها، ولكن بطريقة غاية في التحريف. وما هي بالضبط تلك المقاصد المُفترضة لزوج خالها؟

رغبت تِيَا في أن تركض إلى أبيها، أن تعده بأنها ستبحث له على وظيفة أخرى بنفسها، وأنها ستحصل على وظيفة لها. لكنها في أعماق نفسها تعرف أن هذا ليس صحيحاً. هذه الأمور خارج سيطرتها. تملكها الإحساس بالعجز. شعرت أنها تنظر من ثقب باب في عالم يغمره الماء. لا يمكنها أن تدخل هذه الغرفة وتقدم المساعدة، لأنها لن تكون قادرة على التنفس.

شعرت فجأة بيد تُمسك بذراعها، فاستدارت لتجد كورنيليا، بوجه أكثر صرامة، ترفع ثوب ريبيكا الذهبي عن الكرسي حيث كانت تِيَا قد تركته، وتهمس:

- تِيَا، تعالي.

- ولكن...

- كلا. حان الوقت لتستعدي. لقد سمعتِ ما يكفي.

6

كان قصر كلارا ساراخون هو الأحدث في شارع البرنسغراخت، إذ لم يكتمل بناؤه إلا في نهاية عام 1704م، في وقتٍ يوافق احتفال العائلة في عيد الميلاد المجيد. إنه ضخم، بمدخل يتوسط الواجهة، مبنياً بالآجر الأسود، قد نُقشت تحت كل نافذة عالية باقة زهور حجرية مُدلاة، ومن فوقها ملاك طفل. من وراء كل زجاج نافذة ثريات تتألق، وقناديل ضخمة تضطرم على جانبي الباب الزوجي المفتوح، يحدُّها من الطرفين خادمان في زي رسمي، يلمع جلدهما في ضوء النيران.

وقفت نيلا وأوتو وتيا في تردد عند أسفل السلم الحجري. إنهم يقفون على حافة جُرف إلا أنهم لا يملكون سوى الصعود.

قال أوتو:

- ساعة. سيتوجب عليَّ أن أفعل هذا مدة ساعة.

فردّت نيلا:

- حاول الاستمتاع بوقتك حالماً تدخل. فكر كم سيكون الطعام لذيذاً، لديها كتيبة في مطابخها على الأرجح.

قال:

- لدينا طعام ممتاز في المنزل. لماذا قامت بدعوتنا من الأساس؟ للفُرجَة؟

- أوتو، أرجوك. ليس الآن. تعال: إن منظرنا سخيف، ولكن علكاً على باب المنزل.

بدأ الثلاثة رحلة صعود الدرجات التسع، مارّين بالخادمين، اللذين يحدقان أمامهما وكأن الثلاثة متخفّين. غمغم أوتو في أثناء دخولهم إلى الدهليز الرئيس. "ما فائدتهما؟ تماثيل حيّة؟ جزء من التسلية؟"

تردُّ نيلا بهمس حاد:

- هل ستظل هكذا طوال الليل، أم في الساعة التي وعدتني بها فقط؟

ندمت على قولها في الحال. لأن وجهه تجهم لجأة، يا له من يوم بالنسبة إليه، أولاً الفوك، والآن هذا! أمسية مع كلارا ساراخون. قطبت نيا حاجبيها غاضبة، وهي تنظر في وجهها، لكن نيلا أدركت فعلاً أنها بالغت في قسوتها. فهمست: "أعتذر، أوتو، سامحني. إنه التوتر."

تظاهر أنه لم يسمع. كان المدخل الذي يقفون فيه يمنح شعوراً بأنه عالٍ مثل كاتدرائية، مُتلألئ بألف شمعة مُغلّفة بالعسل. الجدران مكسوة بجلد أحمر جديد، يبدو جلد خنزير من منظره، سميك الملمس بالتأكيد وخانقاً. تتدلّى لوحتان ضخمتان على كل جانب من جانبي الدهليز. خمنت نيلا، قبل أن يقترب منهم وصيف آخر ليأخذ قبعاتهم وعباءاتهم، أن اللوحتين تصوّران بشارة مريم وقيامة المسيح. اللوحتان كبيرتان بصورة مدوِخة، مُترعتان بالأشكال، والتفاصيل توحي بأنها من يد فنان. بينهما يظهر بابان ضخمان مغلقان.

عاد الوصيف بدليل مرقم من النحاس لتعيين أغراضهم. شكرته نيلا، وهي تضعه في جزدانها المخملي الصغير. وتأمل رفيقيها. أوتو، في صدريته الفاخرة من الصوف الأسود وقميصه المطرّز، وطوقه الأبلج العريض، بدا أنيقًا، لكن ملامحه تشي

بالضيق. ولا عجب، لأنها أيضاً تشعر بالضيق. شعرت بالرهبة نتيجة الهدير المكتوم المنبعث من خلف الأبواب المغلقة لقاعة الرقص، مئات الأصوات تعلو وتنخفض فوق عزف الأوركسترا. قد يكون أوتو ومارين قد رافقا يوهانس إلى مثل هذه الحفلات من حين إلى آخر، لكن نيلا لم تفعل قط. كانت التجمعات التي صحبها يوهانس إليها أصغر حجماً، تقتصر على التجار وأعضاء النقابات وزوجاتهم، حيث دار الحديث عن العمل. تتذكر حفل صائغي الفضة، الذي أقيم في مبنى منمنم مقارنة بهذا. لم يعد يوهانس هنا لحمايتها. تمالكت نيلا نفسها. إنها أكبر بثمانية عشر عاماً الآن. إنها ليست فتاة صغيرة.

اختلست نظرة إلى تِيَا، ورأت كم تبدو لامبالية تماماً أمام فخامة قصر ساراخون. وكأن تِيَا تنظر إلى هذه الأشياء المبهرة ولا تراها. كانت ترتدي ثوباً ذهبياً، مُستعاراً على ما يبدو من ممثلات المسرح، ومتلألأً مثل كنز من أجل لوحة المذبح. بوقفتها المستقيمة، بشبابها وجمالها، وهذا الثوب المتلألئ: كانت تِيَا تلائم هذا المكان أكثر من زوج خالها أو أبيها.

قمعت نيلا سهم غيرة، ونخزة أسف على شبابها. هي نفسها ترتدي أجمل أثوابها، فستاناً فضياً كان يوهانس قد أمرَ بصنعه لها منذ زمن طويل. لم تخسر أو تكسب وزناً خلال ذلك الوقت، ولكن لا يستوي أن يناسب الثوب مقاسها حتى الآن، لا يستوي أن ترتدي الفستان نفسه الذي ارتدته في حياة مختلفة. لوهلة، تمنت لو أنها في الثامنة عشرة مرة أخرى، وترتدي ثوباً ذهبياً لا فضياً.

قالت لنفسها: " لا. أنتِ هنا من أجل تِيَا، لا من أجل ذكرى قديمة".

- ارفعا رأسيكما. همست لهما، مع أن تِيَا لا تكاد تحتاج إلى التوجيه: نحن هنا مثلنا مثل أي ضيف آخر.

وصلت خلفهم موجة من البشر تدفعهم قُدُمًا نحو أبواب قاعة الرقص، التي فُتحت مع اقترابهم. هبت موجة من الحرارة، ولوهلة تنسى نيلا أن تتنفس. فلو أنَّ واجهة المنزل ومدخله جميلان، فإن هذه الغرفة رائعة الجمال.

غمغم أوتو وعينه تتنقلان بين الجدران المكسوَّة بالمرايا: "سينقلب الوُعَّاظ في منابرهم."

كان هناك مرايا في كل مكان، على كل الجوانب، والمُدهِل أيضاً، فوق رؤوسهم. لا يوجد في السقف ترومبلوي، أو إفريز، أو لوحات جدارية، بل ألواح مذهبة ضخمة من الزجاج العاكس. كانت أصوات الضيوف متنافرة، تمازج وتتلاحم ثم تعود وتتمازج مع عزف الكمان. تحرَّك الخدم وهم يحملون صوانيهم عالياً، محمَّلة بأباريق من نبيذ وكؤوس كريستال، في خط متعرِّج متفادين التنانير الكبيرة والرجال المُترنحين.

أكثر من يُحتفى بهم من الضيوف هم النبلاء والنبيلات، سلالات عريقة ورفيعة لعائلات تحكَّمت في محافظ هذه المدينة، وليس التجار الذين يضعون لهم الأموال في تلك المحافظ. فكرت نيلا في أسئلة أوتو: لماذا قامت بدعوتنا من الأساس؟ للفُرجة؟ ولحظات شعرت بالندم لأنها أجبرتهما على المجيء - إذ إنها بخلاف الخدم وبضعة عازفين، لا ترى أحدًا يشبه أوتو وتيَا. ربما يكون محقًّا: لقد تمت دعوتهم من أجل الإثارة الصغيرة التي تمنحها فضيحة، الرجل الأسود الذي يعيش في الهيرنخراخت، وابنته الهجينة، وأرملة الرجل الذي ألقت به المدينة في البحر بسبب خطاياه المزعومة. كان المجيء

إلى هنا فكرة مُريحة.

همّت بالتراجع، وأرادت أن تسحبهما من أيديهما وتعود إلى الهوبِهراخت، عندما ظهرت من بين الحشود كلارا ساراخون، وهي ترتدي من رأسها حتى أخمص قدميها حريراً فيروزياً زاهياً. وقالت بصوت ثاقب وقوي:

- مدام براندت. حللتِ أهلاً ونزلتِ سهلًا. ولكن ألا تتناولين شراباً؟

ثنت نيلا ركبتيها في انحناءة كبيرة:

- مدام ساراخون. سأجد واحداً بلا ريب.

- كلا: بل الشراب هو من سيجدكِ. أشارت كلارا بيدها إلى واحد من خدمها، وقالت: "إنه عملهم في النهاية." وابتسمت، مُظهرة صفّين من أسنان مُرتّبة. فكرت نيلا، لا يمكن أن تكون أسنان حقيقية. المرأة في الخمسين من عمرها على أقل تقدير. تقول الشائعات إنها تأكل فاكهة محلاة بالسكر من طلوع الفجر وحتى غروب الشمس.

التفتت كلارا إلى أوتو وتِيا، وقالت وهي تمد يدها إلى أوتو:

- وأخيرًا التقينا، لقد سمعت الكثير عنك."

شعرت نيلا برئتيها تنكمشان. لا تريد أن يظن أوتو أنها تتحدث عنه من وراء ظهره. تناول أوتو يد المرأة ورفعها إلى حيث لمسها بقبلة. وقال:

- مدام ساراخون. وأنا كذلك سمعتُ عنكِ.

ومض شيء في وجه كلارا، ولكنها سرعان ما دفنته، وقالت:

- هذه ابنتك، تِيا؟

- أجل.

نقلت كلارا عينيها على جسد تِيَا حتى أسفله، ثم عادت وصعدت إلى وجهها، تسألها:

- هل لديكِ شقيقات أو أشقاء؟

فأجابت تِيَا:

- لا، يا مدام ساراخون.

- لماذا تخفين مفاتنكِ إذن؟

- عفواً؟

أطلقت كلارا ضحكة:

- لهذا يأتي الناس إلى هنا، يا فتاة. ألم تخبركِ عائلتك؟ أنتِ هنا لتجدي زوجاً.

استدارت تِيَا إلى زوج خالها، مصدومة. تحدق في والدها، الذي أشاح بوجهه. وقبل أن يُتاح لنيلا أن تقول شيئاً، أو تفسّر، واصلت كلارا ساراخون الكلام:

- لم تخبراها حقاً؟ لم تقوما بإعدادها؟ آه، يا له من مقلبٍ قاسٍ!" وأطلقت ضحكة رنّانة: كان جديراً بكما تنبيهي، حتى لا آتي وأحدث هذه البلبلة. ثم التفتت إلى تِيَا: حسناً، يا تِيَا براندت، ستتعلمين سريعاً. بنتاي هنا سوف ترشدانك."

أشارت كلارا بيدها مرة أخرى، فاقتربت شابّتان، وكأنما استُدعيتا من الفراغ. قالت كلارا:

- إن هذا مكان يقوم فيه النفوذ بدور الوساطة. تُعقد فيه الزيجات. يأتي فيه من تمتعوا طويلاً بإحساس الانتماء ليواجهوا

الوصوليين." ترمي نهلا بنظرة سريعة. "إن وظيفتي لا تزيد عن العمل على إنجاح كل ذلك. تتراجع قليلاً، وتنظر إليهم: "ليس في وسعي دائماً تقديم ضمانات."

مع أن ملامحه ظلت جامدة، إلا أن نهلا يمكنها أن تجزم أن أوتو يستشيط غضباً. فكرت، ما كان ينبغي لنا قط أن نأتي. على الرغم من دفء الغرفة، تبدو تيا ممتقعة، ولكن ما باليد حيلة، لأن بنتيْ ساراخون حاصرتاهم فجأة.

أوضحت والدتهما:

- هاتان ابنتاي كاتاريتا وإيلونور. يا بنات، هل تعرفان تيا براندت؟

تلتفتُ كاتاريتا وإيلونور إلى تيا، وتقول كاتاريتا:

- لا أظن ذلك. كنتُ سأتذكر.

لكن لمعة حادّة تظهر في عينيْ إليونور، وتقول:

- أنا أتذكّر! لقد رأيتكِ من مقصورتنا في المسرح، يا آنسة براندت. غالباً ما تجلسين في المقاعد التي تُحجز في اليوم. ألقت الفتاة الأكبر سناً بنظرتها على ثوب تيا اللاّمع:

- أظنني أتذكر أن هذا كان زيّ إحدى الممثلات في دوقة مالفي. هل أمرتِ بصنعه بعد أن استوحيتِ الفكرة؟

شعرت نهلا أن أحشاءها تنهار. صلصلة الكؤوس، والمرايا، وهستيريا الأصوات التي تتحدث في وقت واحد، تمتزج معًا فتُشعرها بالدوار. تمنت لو كانت وحدها في غرفتها، مع نار مدفأة، وكتاب. لم تستطع أن تجزم، إن كان تعليق هاتين البنتين الخبيث مُتعمَّداً. أرادت أن تصدق أنه ليس كذلك، وأن هذه

ليست إلا النغمة التي يتحدث بها المجتمع، لكنها لا تجرؤ على النظر في عيني أوتو. هي المُلامة على هذا: هي وحدها.

في تلك اللحظة، صارت رغبة نيلا الوحيدة هي أن تُخرج تِيا من هنا. لكنها تُفاجئ بتِيا تقف بحزم و من دون أن تبادل البنتين ابتسامتهما السخيفة.

قالت تِيا:

- لقد جانبكِ الصواب. كانت المسرحية هي روميو وجولييت، وأما الثوب فأعارتني إياه ريبيكا بوسمان، التي لعبت الدور الرئيس.

بمجرد ذكر هذا الاسم يُبهر ابنتي ساراخون، بصورة تفوق صدمة تصويب كلامهما. جحظت أعينهما، لكنهما كلّتيهما، أخفتا مشاعرهما سريعاً. قالت إليونور: -

- جئتِ إذن في صورة بطلة مأساوية؟ وكتمت كاتاريا ضحكة.

حدّقت تِيا في إليونور وكأنها إحدى المخلوقات العجيبة التي يمكن رؤيتها في حديقة الحيوانات التي تذهب إليها كورنيليا. - ليست مأساة أن يموت المرء في سبيل الحب.

ارتفع حاجبا كلارا بشدة، لكن تِيا لم تنته بعد: لقد عاشت جولييت حياتها بصدق. كما أنني لا أرى الهدف من إهدار أموال على فساتين سيدوسها الناس من حولي. ونظرت صوب الحشود التي تتصبب عرقاً ثم عادت إلى البنتين، وكأنها تقول: هل هذه هي فكرتكما عن التسلية؟

قالت كلارا:

- إن عائلة براندت مُتمرِّسة في الاقتصاد. أنا واثقة أن في إمكانهم تعليمنا الكثير عنه.

وقبل أن يُتاح لنيلا أن تستأذن بالانصراف، لمحت كلارا شيئاً من وراء كتفها: "آه! ها أنت ذا! أقبل."

استدارت المجموعة، فأبصروا رجلاً متسمراً في مكانه. لو أنَّ نيًا مبهرة، بمظهرها الذي جاء رأسًا من على خشبة السخاوبيرخ، فإن هذا الرجل هو النقيض. إنه رث الهيئة، في عمر نيلا تقريباً، له شعر بني جامح يقفُ عن رأسه، قميصه فاخر لكنه يتهدَّل فوق جسده. يشبه في مظهره طائر اللقلق، كان نحيلاً وممشوق القامة. ويُخيَّل للرائي أن ركبتيه ستنكسران. بدا مُرهقًا، ويفضل أن يكون في أي مكان آخر، بدا نداء مدام ساراخون كأنه آخر مسمار يُدَق في نعشه. لحمل صينية فضية تحوي طعاماً، كان مظهره يوحي أنه ليس من الخدم. مظهره الأخرق والمهلهل لا يناسب مثل هذا المكان.

قال بلهجة تنم عن لقافة، وأسلوب حذر :

- مدام ساراخون.

فقالت كلارا، وهي لا تكاد تخفي خُيلاءها: - هذا هو كاسبر فينتسن. عالم نباتاتي الشخصي. ألستَ كذلك، يا فينتسن؟

رمق كاسبر فينتسن كلارا بنظرة سريعة قبل أن يثبت عينيه على الطبق:

- أنا كذلك، يا مدام.

- أنا مُصممة على أن تجربوا المربى الذي يصنعه. أو مربّاي، في الحقيقة. كانت كلارا تحث كاسبر فينتسن بيدها:

- حسناً، يا فيتسن؟ قدِّمها لهم. ولكن لا تخبرهم مما صُنعت!

اختلست نيلا نظرة إلى الطبق الذي يقدِّمه هذا الكاسبر، بينما تناولت المضيفة نفسها عيِّنة، ووضعتها في فمها. خشية أن يكون النقاش الذي وقع للتو أفسد فرصة تيّا في الحصول على مساعدة كلارا في سوق الزواج، أخذت نيلا واحدة من الطبق. كانت عبارة عن مربع من الخبز المحمص، وقد دُهن بشيء لونه أصفر يثير القلق، لكنها ستفعل أي شيء لتُصلح هذا الوضع، لذا أكلتها على مضض، وفعل أوتو وتيّا مثلها.

مهما كان هذا المربّى، فهو أكثر سكّراً ولذاعة من الفراولة أو البرقوق الأخضر. شعرت نيلا كأن فقاعات صغيرة تفرقع فوق شفتيها. نكهته أقوى من الليمون، لكنها بصورة ما كثيفة وخفيفة في الوقت ذاته. لم يعجب نيلا. أغلق أوتو عينيه. عندما نظر إليها، فشعرت أن ملامح الصدمة على وجهه تُسمِّرها في مكانها.

- أناناس! صاحت كلارا في انتصار، "لم تخمنوا! لذا أخبرتكم. هل ذقتِ الأناناس من قبل، يا مدام براندت؟

- لم أفعل. أجابت نيلا، وهي تبلع ما تبقى من المربى الكريه.

رفضت تيّا واحدة أخرى، فابتسمت كلارا، كاشفة مرة أخرى عن أسنانها المثالية:

- وهل ستُدهشين لو أخبرتكِ أنه لم يُزرع في سورينام، حيث تذوقته لأول مرة طبعاً، ولكن على أراضينا، على بعد بضعة أميال من هنا؟

- من دون شك! قالت نيلا بخضوع، جعلها تكره نفسها. "كلّي دهشة.

كانت كلارا تريد جوقة تردد ما تقول لا رفيقاً يناقش، جوقة يمكنها أن تتباهى أمامهم.

اقتربت منها كلارا، وهمست:

- لقد وجدته ينبش في أرجاء حديقة الجامعة. كانت نهلا تدرك على الرغم من الصخب المحيط بهم، أن كاسبر فينسن يمكنه سماع كل كلمة، تابعت كلارا: إن ابني يدرس هناك، وكنت أزور معلميه لأرى مدى الفائدة التي يقدمونها إليه. وهناك وجدتُ فينسن، يعالج بعضاً من أجمل الزهور التي رأيتها على الإطلاق. وسرعان ما أدركتُ أنهم مُقصِّرون في استغلاله، إنني أستثمر هذه الأمور. وتبيَّن أنني كنت مُحقَّة. إن فينسن يمتلك الأصابع الخضراء الأكثر خيميائية في زرع النباتات.

لم تستطع نهلا منع نفسها من اختلاس نظرة إلى أصابع كاسبر فينسن، وهي تكاد تتوقع أن تجدها بلون العشب. لكن كل ما تراه هو مدى السواد تحت الأظفار. لاحظ ذلك فتضرج وجهها، وهو يرفع يده اليمنى أمامها، مُوجِّها أظفاره نحوها. ويقول:

- متاعب المهنة. إنه مجرد طين، يا مدام، لا شيء يخيف.

فردت نهلا:

- أنا لا أخاف من الطين. شعرت بالحماقة عند قول هذه الجملة. فأنزل يده بسرعة، كمن أدرك حدَّة الإيماءة.

تدخلت كلارا:

- إنها تعزز من أصالته. وكأني أمتلك مُزارعي الخاص، لكنه مُزارع ذكي. إنَّ فينسن يعمل الآن على أرضي في آمرسفورت.

نحن نبني فرن أناناس أكبر بكثير من الذي تمتلكه الجامعة. ونفكر أيضاً في إنتاج المنجا والجوافة. إنني أحلم بهما فاكهة المستعمرات، على عتبة بابي، وفي حلقي!"

فسألها أوتو:

- وما الذي تنوين فعله بكل إنتاجكِ، يا مدام؟ هل ستقيمين حفلة كهذه كل أسبوع، لاتفاقات الزواج ومربى الأناناس؟

التفت إليه كاسبر بحدة، لكن كلارا ضحكت، مُثبِتة عينيها على أوتو:

- إن الزواج لعبة الصغار، يا سنيور، قالت، وهي تختلس نظرة إلى نيلا، أما الأناناس، فسوف أجني من ورائه مالاً. إنني أُعدُّ لتسجيل براءة اختراع الوصفات وبيعها في أوروبا.

يسأل أوتو: "هل هي وصفاتك؟"

لوّحت كلارا بيدها في الهواء، وكأنما هي فوق قوانين الملكية:

- صار لديَّ عينة مُحلاة، محفوظة ومعبأة هنا، تلك التي تذوقتموها الآن، وبخبرة فيتسن وعلاقات زوجي، حصلنا فعلاً على عدة عقود. الإنجليز يحبون المربى. دعكم من الأفيون، إنهم لا يأخذونه بجديّة.

فقال أوتو:

- وكل ذلك من دون الاضطرار إلى الذهاب إلى سوريتام."

أجابت كلارا، وعيناها تلمعان:

- بالضبط. إنه يختصر رحلة شاقّة.

قال أوتو:

- حقاً يفعل. ثم التفت إلى كاسبر فيتسن. "سنيور: كيف توصلتَ أنت لأول مرة إلى اكتشاف خصائص الأناناس؟

لأول مرة هذا المساء، يُثار حماس كاسبر فيتسن. فبدأ، وهو ما يزال حاملاً الصينية، في إخبار أوتو عن لقاءاته الأولى مع تلك الفاكهة، لكن نيلا انصرفت عنهما تحت التأثير المُبطِّئ للمحادثة التي جرت منذ قليل حول فرص زواج تِيَا. كانت بعد المجهود الكبير الذي شهدته للمجيء إلى هنا، قد استُنزفت جرَّاء تهكم كلارا وتجهمها، وخشيت أن يقول أوتو شيئاً قد يدمر الجميع عليه في وقته. إلا أن تِيَا دافعت عن نفسها بثبات عظيم، صفة تذكِّر نيلا بمارين. عليها أن تعترف أنه لم يكن شيئاً توقعته.

فكرت:" أنا لستُ كذلك. كيف لروح مارين أن تكون في داخلها، وهما لم تلتقيا لقاءً صريحاً من قبل قط؟

حاولت أن تنظر في عيني تيا نظرة تصالح، لكن تِيَا مُصممة ألا تفعل. كانت نيلا قد خططت لتمهيد تِيَا نحو فكرة مصيرها. أولا: رؤيتها تتأقلم على التراتبيَّة في حفل كهذا. أما الآن، فإنَّ إقالة أبيها من الفوك ورعونة كلارا حول الغرض الحقيقي من هذه الليلة، قد دفعا بالشكل الذي سيتخذه مستقبل تِيَا إلى العلن. إنَّ تِيَا في الثامنة عشر، لا بد من رصد زيجة ناجحة في الأفق من أجلها. إن هذه الأمسية قد تكشف عن عدة سبُل، لكن سيتعين على تِيَا في نهاية المطاف، أن تدرك أن قصتها لا يمكن أن تنتهي إلا بطريقة واحدة.

كان بوسع نيلا أن تصفع كلارا ساراخون، أن ترفع يدها الآن لتُنزل كفًّا مبسوطة قاسية على خد المرأة المُتغطرس. لكن تِيَا، على الرغم من هذا الفخّ والتداعي المفاجئ في وضع عائلتها، قد تمالكت نفسها. مقارنة بابنتي ساراخون، اللتين تضحكان

من خلف يديهما على مظهر كاسبر فينّسن المتناقض، كانت تِيا شاردة، عيناها سارحتان، ونيلا تراقب بافتتان الابتسامة الصغيرة التي بدأت تظهر على شفتيها، وكأن كل ما حولها هشّ، وهي نفسها بعيدة جداً.

وفيما هي تراقب تِيا، شعرت نيلا بضيق مفاجئ داخل قفصها الصدري، نسيان خاطف مضطرب لخطوات التنفس. يبدو، لأول وهلة، مثل نوبة ذعر. إحساس الخوف مُريع، خانق، وتعجز عن تحديد مصدره. على الرغم من الدفء الذي يملأ هذه الغرفة المزدحمة، إلا أن قشعريرة باردة أصابت رقبتها، ونزلت إلى ظهرها، انتصب شعرها، وشعرت بوخز في جلدها، وعرق تحت ثوبها الفضي. ومن دون أن تكترث لغرابة مظهرها، دارت نيلا حول نفسها، مُكبَّلة بذهولها. ولكن لا ... ذلك الإحساس القديم المألوف الذي لم يصبها منذ ثمانية عشر عاماً يستحوذ على جسدها وعقلها، كما فعل بالضبط في كل مرة دنت من صانعة الدمى.

إن هذا لا يُعقل. ولكن نيلا للالتفات عادت إلى حلقتها، ومرّ من خلفها طيف، كاد يلامس خصرها. لقد جاءت. إنها هنا. تساءلت نيلا، حتى وجزء منها يعرف أن الفكرة سخيفة، ما إن كان الرب لم يتجاهل طلبها في العليّة.

أقسمت أنها سمعت امرأة تتفوه باسمها، وتلفّ حول نفسها مرة أخرى لتواجه الحشد في قاعة الرقص، مارة بعينيها عليهم بحثاً عن الوجه الذي تعرف أنها ستميّزه، حتى الآن، بعد كل هذه السنوات التي تلت. تلك العينان العسليّتان، الأقرب للون البرتقالي، ذلك الشعر الأشقر—

- نيلا؟ هل أنتِ بخير؟ أنتِ شاحبة جداً.

التفتت إليهم، ذاهلة، فوجدت أن أوتو هو من يسألها، أوتو هو من يقول اسمها، وكلارا ساراخون، التي كان وجهها يبدي نفوراً، وبنتاها، تحملقان، وهنا كاسبر فينسن مع صينية مربى الأناناس، وتيًا، يحدقان فيها بحيرة. ابتلعت نيلا لعابها، وهي تحاول تهدئة روعها. إن آخر ما تريد فعله هو لفت الأنظار. لكنها لا تستطيع دفع المُحرِّك القوي في داخلها. لا يمكنها، بعد كل هذه السنوات، أن تفقد الشخص الوحيد القادر على إيقاف الشعر في مؤخرة عنقها.

أجابت، بصوتٍ ناءٍ:

- أنا بخير تماماً، ابتسمت باقتضاب ، والدم يفرُّ من رأسها، حتى كاد توازنها يختل: هلا أذنتم لي؟

وقبل أن يُتاح لأوتو أن يعترض، تركته نيلا هو وتيًا بين مخالب كلارا، التي سيسرها بالتأكيد أن تنتقد سلوكها الغريب. اندفعت داخل دوامات الحرير. تلكزها المرافق، حتى كادت أنفاسها تنقطع، ويدوس أحدهم على طرف ثوبها، ناثراً نبيذاً على صدرها، لكن نيلا لا تبالي. أصبحت أصوات الحشد أكثر فوضوية في رأسها، لكنها دارت بعينيها على كل ركن، طمعاً في لمحة من عباءة صانعة الدُمى.

إنها هنا، نيلا مُتأكدة من ذلك. الحرارة التي تأتي من مئات الشموع تخترق جسدها. الموسيقى تهيج داخلها مثل موجة، لكنها لا تستسلم. تواصل مُضيًا، عكس تيار السكارى، مُتوغلةً في قلب قاعة الرقص.

- اسمحي لي. خاطبها رجل.

أفاقت نيلا، فوجدت نفسها جالسة على كرسي في بهو دخول

صغير جدرانه مكسوة بألواح خشبية وملاصق لقاعة الرقص. قال الرجل:

- من حسن حظكِ أنني كنتُ واقفاً خلفك.

- كنت خلفي؟ متى؟

أمعنت نهلا النظر في وجهه. كان إحساس البرودة قد تلاشى. وحدهما الحرارة والعرق بقيا. شعرت أنها مُرهقة، وكأنما كانت تركض بسرعة كبيرة. تعرف أن صانعة الدُمى لم تعد هناك.

قال الرجل:

- لقد ملتِ عليَّ عندما فقدتِ الوعي، فوضعتكِ قرب نافذة.

- فقدتُ الوعي!

إنه شاب، قصير، في العشرينيات من عمره، يرتدي حُلّة داكنة أنيقة، تظللها هنا وهناك خطوط من الديباج الأصفر. له شعر بني يصل إلى كتفيه، وحاجبان كثيفان، وعينان بنيتان، ويحمل وجهه تعبيراً وديعًا.

أطلقت زفيراً:

- لم آكل كفاية فحسب. كم طال...؟

- لا يزيد عن دقيقة.

- وهل أحدٌ...؟

-لا أحد رأى شيئاً، قال، وهو يبتسم، متفهمًا قلقها الأمستردامي:

- كنتُ قريباً من الحائط. تهاويتِ عليَّ بصورة بسيطة،

وأجلستكِ في هذا الكرسي. لا شيء دراميّ. مظهركِ في الحفظ والصون.

تضرج وجهها، وقالت:

- شكراً لك.

نظر الشاب عبر الباب، حيث تواصل قاعة الرقص هياجها، قال:

- إنها حجرة حارّة جداً. أخشى في الواقع، مع عدد الشموع التي تشعلها كلارا ساراخون، وكمية الحرير سريع الاشتعال، أن النيران ستضطرم فينا جميعاً في أية لحظة. هل أستدعي لكِ أحدًا؟

قالت نيلا:

- لا، شكراً لك. كان عقلها يعمل بسرعة. "هل لي أن أسأل، ما اسمك؟

- ياكوب فان لوس. يسرني أن أكون في خدمتك.

- وأنا، بترونيلا براندت.

شعرت نيلا، حتى في حالتها المُتداعية، أن لاسمها تأثيراً. زاد اضطرابها، وخيم على ياكوب فان لوس السكون التام فيما ينظر إليها باهتمام جديد. بذلت نيلا جهداً هائلاً لتمالك نفسها، أرملة تاجر أمستردامي حقيقية، في ثوبها الفضي الفاخر، وقالت: "فان لوس عائلة أصلها من ليدن، أليس كذلك؟ هل تنتمي إلى ذلك الفرع الشهير؟

ابتسم، وقال:

- كيف لجميع نساء طبقتنا أن يحددن العائلة والمدينة التي

جاءت منها في السرعة نفسها التي يعدِّدن بها حروف الأبجدية؟

طبقتنا، تلك الكلمة منحت نيلا شعوراً غامراً بالراحة. إنها تحوي دفئاً وإحساساً بالاندماج! إنها تُشعرها بأن كل الجهود والشكوك التي ساورتها بشأن المجيء إلى هنا تستحق العناء. كان ياكوب فان لوس قد رأى فيها شيئاً مُشتركاً. تضحك، عازمة على كسبه. تقول:

- نحن لا نُدرَّب على أمور كثيرة، يا سنيور. إن عقولنا لا تُستغل جيداً مثل عقولكم.

- حسناً، ومع ذلك فقد أصبتِ. إن عائلتي تقيم في ليدن، لكنني أعمل في أمستردام. الابن الذي يحتل الترتيب الثالث في العائلة لا يملك صيتاً يغنيه عن العمل.

- تتحدث مثل هولندي حقيقي.

الابن الثالث. ليس بثراء الابن البكر، لكنه ربما أكثر ملاءمة لتيا، مع التسليم أن عائلة براندت لا تنتمي إلى العائلات الكبيرة في هذه المدينة، على الرغم من سكناهم في الهيرغراخت. أرادت نيلا استبقاءه هنا لأطول وقت ممكن:

- أتعمل وكيلاً عن عائلتك؟

- أدير شؤونهم في المدينة. أنا محام. أخي الأوسط في الجيش، والأكبر يشرف على ممتلكاتنا.

- عائلة عالية الكفاءة.

- هكذا كانت نية أبي."

إنه ضليع في تقديم نفسه. ولكن، على الرغم من دوشة قاعة الرقص، إلا أن نيلا تسمع نبرة في صوته، هي مرارة، ربما، أو

هو استسلام؟ ويظهر أنه يدرك هذه الزلّة، فيعود إلى توجيه دفة الحديث إليها. يقول:

- أنا أيضاً سمعتُ عن عائلتك. هل أنتِ بترونيلا براندت، زوج يوهانس؟

عندما يطرح عليها هذا السؤال، تشعر نيلا وكأن كل شيء يوشك أن يُسحب من تحت قدميها. إن هذا الرجل شاب: لذا سيُطريه على الأرجح أن تكون مُباشِرة معه. تجيب:

- إن الكلمة الصحيحة هي أرملة. ولا تصدق كل ما نسمعه.

يقول:

- لا أفعل. إنني أعرف عن عائلتك، لأنني درستُ القضية في الجامعة.

قالت بدهشة كبيرة:

- القضية؟

- قضية زوجك. محاكمته.

انعقد لسانها. لا أحد من قبل تحدَّث إليها جهاراً عن محاكمة يوهانس منذ تاريخها الذي مضى عليه ثمانية عشر عاماً. كانت الإشارة إليها -إلى يوهانس- هنا، في بهو دخول صغير يجاور أتون حفل ساراخون، بفم هذا الشاب، يفوق احتمالها.

قطّب ياكوب فان لوس حاجبيه، وقال:

- ما كان يجدر بي أن أتحدث. أنا آسف...

قاطعته:

- لا. الأمر وما فيه... أنني لم أكن أعرف أن أحداً يمكنه

أن يفعل شيئاً كهذا. أن يدرس القضية.

يقول:

- آه، أجل. إن الجمهورية تحتفظ بسجل لكل شيء، يا مدام.

طبعاً. حدقت نيلا في الأرضية الخشبية المصقولة، وفكرت، لن نتخلص من الماضي أبداً.

قال ياكوب:

- كان ذلك إخفاقاً للعدالة. إنه لا يتحدث إليها بلطف، إنما بالتجرُّد الواثق الذي يميز رجل قانون، وكأن يوهانس لم يكن أكثر من اسم مُدوَّن في الأرشيف، لا رجلاً حقيقيّاً أفلتته الدولة من بين أصابعها.

تسترجع نيلا صورة زوجها عندما كان حيّاً. مكسوّاً بملح البحر، وواقفاً في ظلال الدهليز، وكلبته الحبيبة ريزيكي إلى جواره. تتذكره مع عشيقه، جاك، ذاك الذي كذب في قاعة المحكمة ليرى دماره. تتذكر رطوبة زنزانة الستدهاوس. جسد يوهانس المُحطَّم. تلك الفواجع القديمة، التي كان يُفترض بمكان مثل حفل ساراخون أن يمحقها.

واصل ياكوب:

- لم يحصل زوجكِ على محاكمة عادلة. وبالنظر إلى الأدلة، ما كان ينبغي أبداً تقديمه إلى المحاكمة من الأساس.

سُرت نيلا لأنها كانت تحني رأسها، وأنه لا يرى تعابير وجهها. إن الكلمات لن تعيد يوهانس من الموت. تكبح دموعاً تهدد بالانهمار، واعتدلت في جلستها، وقالت:

- الأمر وما فيه أن هذا كان منذ زمن طويل جداً.

يبدو ياكوب فان لوس أقرب للفظاظة. "لا يسعني تخيل أن تصبح خسارة كتلك في طي النسيان...

- وأخيراً وجدتكِ! جاء الصوت من عند الباب. التفت كل من ياكوب ونيلا ليَرِيا تيَا، تضيئها من الخلف أنوار قاعة الرقص، فتضفيا عليها ألقاً في فستانها الذهبي. تُقبل عليها تيَا في لهفة، متجاهلة ياكوب فان لوس تماماً. تراقب نيلا ردّة فعل هذا الرجل: إنه ينظر إلى تيَا بمفاجأة لا يبذل جهداً في إخفائها. لا تستطيع نيلا منع نفسها: فتشرع في حساب مخاطر إبقائهما معاً هنا، وتعريف أحدهما بالآخر، ورؤية ما قد يحدث. إن هذا، في نهاية المطاف، هو الغرض من هذا الحفل. لم يسبق لها أن فعلت هذا من قبل، فكانت في العادة تُجنّبها النظرات، لكن ياكوب لا بدّ من أنه رجل نبيل إذ أنقذها من الوقوع.

سألت تيَا زوج خالها:

- هل أنتِ بخير؟ لقد أصابنا القلق من اختفائك!

أجابت نيلا بابتسامة مُشرقة:

- أنا بخير، تيَا، هذا هو سنيور فان لوس. يمكنكِ القول إنه أنقذني.

- من ماذا؟ ورمقته بنظرة لا تُذكر.

من ماذا حقاً؟ هكذا تتساءل نيلا، وهي تفكر كم أنها اقتربت جداً من صانعة الدُمى، وكيف أنها، مرة أخرى، فقدت أثرها. لكنها تشعر بضيقها يتزايد: لقد تكبّدت حديثاً عن محاكة يوهانس، أليس بوسع تيَا أن تتمّل سلامًا بسيطاً. تريد أن تصرخ، انظري الى هذا الشاب!

قالت، وهي تصطنع الضحك:

- لا أعرف. أفترض أن الجو كان حارًا جداً في الداخل، شعرتُ بتدهور.

- هل فقدتِ الوعي؟

ترددت نيلا قليلاً، وقالت: لا، كان ياكوب يتململ في مكانه، وكأنه يسوّي كذبتها بألواح الأرضية.

تنهد تِيَا، وهي تنظر عبر الباب إلى الجانب القصيِّ من قاعة الرقص. "ما زال أبي يتحدث إلى رجل الأناناس ذاك. منذ انصرفتِ وهما يتناقشان."

قال ياكوب فان لوس مُخاطباً تِيَا:

- سيدتي، سأذهب لإحضار كأس ماء لوالدتكِ.

التفتت إليه تِيَا بحركة سريعة:

- إنها ليست والدتي.

أدركت نيلا أن تِيَا غاضبة منها، لأنها أحضرتها إلى هنا، لأنها اضطرتها إلى مواجهة حديث كلارا ساراخون الصريح عن الزواج، فقالت، وهي تشرع في النهوض من كرسيها:

- يمكنني أن أذهب بنفسي. أنتما ابقيا

قاطعتها تِيَا: أنا سأذهب، واختفت قبل أن يُتاح لنيلا أن توقفها.

تنهدت نيلا، وقالت:

- إن والدة تِيَا ميتة. دُهشت من نفسها وشعرت، أنها تقدم هذه المعلومة لرجل قابلته لتوها، لكنها تريد أن تمنح ياكوب تفهًا من هذه العائلة، لترى كيف قد يستقبلها. ولكن عليها أن

تفعل ذلك بحذر.

يقول ياكوب:

- أنا آسف.

تواصل نيلا:

- لقد بلغت الثامنة عشر من عمرها اليوم، وكأن هذا قد يبرر تجاهل تِيَا الكبير لوجود ياكوب. إنها مُشتّتة جداً. تجمعها وابنتا ساراخون صداقة مُقرّبة، حسناً، يا سنيور، إنّ الشابات تمتلئ بطاقة من نوع خاص، ألا توافقني؟

يتراجع صوتها، وكأن الكلمات لا تنتمي إلى فمها.

ابتسم ياكوب فان لوس، قائلاً:

- إن تِيَا جميلة جداً.

- وماهرة جداً.

- هل تعرف أسماء العائلات الراقية، والمدن التي أتوا منها؟

كادت نيلا أن تقدم رداً سريعاً، لكنها أدركت أن ياكوب كان يمزح. المزاح إشارة جيدة. إنه يلمّح إلى حدوث شغف فعلاً، أو تقبّل، على الأقل. لقد انجذب ياكوب فان لوس إلى تِيَا، ووصفها بأنها جميلة.

تقول نيلا:

- إنها تعزف على العود. وتستمتع كثيراً بمشاهدة المسرحيات.

- حقاً؟

سألته نيلا:

-قد تظن هذا سابقاً لأوانه، يا سنيور. ولكن هل تقبل دعوة

إلى منزلنا في الهيرغراخت لتناول العشاء؟ ليلة الأربعاء المُقبل؟ كطريقة لشكرك على إنقاذي."

- كان الإنقاذ خالياً من أي مشقة، يا مدام. لم تكوني في خطر.

- أرجو أن تأتي فعلاً. إن طباختنا، كورنليا، هي واحدة من أمهر الطبَّاخات في المدينة.

واصل ياكوب فان لوس، هذا الرجل الذي ظهر لنيلا من العدم، النظر إليها. بماذا يفكر؟ ما الأمر الذي يزنه؟ إنه يعلم فعلاً عن الفضيحة التي تلطخ رأس شجرتهم، التاجر الشهير، يوهانس براندت، زوج نيلا لثلاثة أشهر، الذي أعدمته الدولة منذ ثمانية عشر عاماً. لقد قرأ أوراق المحاكمة في نهاية الأمر. ولكن هل كان يعرف عن تِيَا أيضاً قبل أن تقع عيناه عليها؟ هل يسمع التكهنات حول هوية والدتها؟ لقد وصف ياكوب تِيَا بالجميلة. ولكن هل سيجلس أمام أوتو ويجد في نفسه القدرة على أن يفهم كيف أنه، في هذا العام الجديد من أعوام الرب، 1705م، يملك رجل أفريقي ذو لكنة أمستردامية صك منزل في شارع الهيرغراخت، وإلى جانبه تقف ابنته، وأمها البيضاء مدفونة من دون شاهد في أرض الكنيسة القديمة؟ يجب أن تكون مخاطرة نيلا مُستعدة لخوضها.

قال:

- يسرني المجيء، وابتسم، فشعرت نيلا بارتفاع معنوياتها لأول مرة هذا اليوم.

هدايا غريبة

7

صباح اليوم التالي لحفل ساراخون، تأخرت تِيَا في النوم، فلم يوقظها إلا لوكاس وهو يدفع بابها ويقفز مُمتطيًا وسادتها. كانت كورنيليا قد بسطت الثوب الذهبي الذي أقرضته إياها رِيبيكا على الكرسي، فتدلى مُرتخيًا، وقد فقد وهجه السابق، وكأن كل السحر في نسيجه قد سُلِب إثر مجهود الليلة الماضية. لم تسكب عليه نبيذاً على الأقل، ولا لطخت ثنياته بمربى الأناناس. أسدلت جفنيها مرة أخرى، مسرورة ببُعدها عن حرارة المكان، عن ابنتي ساراخون الغبيتين، ووالدتهما الخبيثة، عن ضيق أبيها، واختفاء زوج خالها مثل امرأة مخبولة وسط الحشود. ولا عجب أن الخالة نيلا قد هربت من الخجل، من الكذب على تِيَا كما فعلت. تتذكر كلمات كلارا ساراخون: لم تقوما بإعدادها؟ آه، يا له من مقلبٍ قاسٍ!

كيف أمكن لزوج خالها أن تخفي عنها الغرض من اصطحابها إلى حفل كهذا؟ كيف تجرأت؟ إنه مهين. أجل، ربما يكون والدها قد فقد وظيفته في الفوك، لكنها ليست عجلًا يُباع في السوق لدرّ المال.

فكرت تِيَا، إنهم لا يحبونني. إنهم لا يبالون لأمري إلا قليلاً، حتى أنهم ليقايضون بي إلى أول من يُقدّم عرضاً.

كانوا قد غادروا الحفلة زُهاء العاشرة، زوج خالها بنظرة انتصار هادئة في عينيها، ووالدها مُستغرقًا في أفكاره الخاصة،

وتِيَا من الغضب حتى أنها تكاد تدق شارع القناة بقبضتيها من دون أن تبالي بمن قد يراها. و في أثناء دخولهم منزلهم، نظرت الخالة نيلا من فوق كتفها كمن تبحث عن شخص ما. أرادت تِيَا أن يصرخ، لا أحد هناك. من بحق السماء قد ينتظرك؟

وقفوا في دهليز منزلهم، وكان من المحال ألا يلاحظوا اختلافه عن منزل ساراخون. البلاط البسيط بلونيه الأبيض والأسود، ألواح الجدار متينة ولكنها جرداء، نقص الزخارف واللوحات الضخمة، والبرودة في الهواء. والخادمة الوحيدة كورنيليا، تنتظر في العتمة لتأخذ معاطفهم وتناولهم أغطية دافئة. لا يمكن أبداً إقامة احتفال بعيد الغطاس في هذا المنزل. جنازة، ربما، ولكن ليس حفلاً قط. ومع ذلك كانت زوج خالها مُنتعشة، على الرغم من البرد، والوقت المتأخر.

أرادت تِيَا أن تمكث في الفراش وحسب، أن تفكر في والتر والمرسم، يداه عليها، ولسانه - حياتهما أمامهما، صورة فوق صورة إلى أن يستغرقها النوم من جديد. لكن أمنيتها لا يُقدَّر لها أن تتحقق، إذ تدخل كورنيليا وتقف عند نهاية سريرها:

- آه، إصبع قدم صغير. قالت كورنيليا، وهي تمد يدها إلى أسفل وتمسك بقدم تِيَا كبائعة سمك تعاين روبياناً في السوق. "سمعتُ أنه كان هنا كاملاً. ربما لو أنني محظوظة، سأجد ساقاً غضّة جميلة؟

إنها واحدة من ألعابهما القديمة، تجميع أطراف تِيَا إلى محطة جسدها. لكن تِيَا لا تريد لعباً قديمة، ولم يعد جسدها جسد طفلة. تسحب قدمها بحدّة لتعيدها تحت الأغطية، و يقفز لوكاس إلى الأرض مجفلاً.

قالت كورنيليا:

- ليس بهذه السرعة. ماذا حدث ليلة أمس؟ سأنتظر هنا إلى أن تستيقظي وتتناولي الفطور معنا كشخص ناضج. قد يستغرق هذا فترة، لكنه الحل الذي كلّفني به الرب.

- لستُ جائعة. غمغمت تِيَا، وهي تدفن وجهها في وسادتها. ملمس الكتّان على شفتيها يذكّرها بفم والتر على فمها، وذكرى القبلة تسري نابضة في حلقها. ما فعلاه في المرسم بالأمس كان عيباً، حقاً. لم يكن أحد في تلك القاعة ليصدق ذلك، وتِيَا تريد أكثر. غياب الجوع كذبة. بل هي محضور جوعاً، لكل شيء. لكنها لو استدارت وواجهت اليوم، فقد ترى كورنيليا ما يحتمل في داخلها.

قالت كورنيليا:

- احكي لي عن الحفلة. جنة أم جحيم؟

رتبت تِيَا ملامحها ورفعت عينيها، قائلة:

- جحيم، جحيم، جحيم. عدد مهول من البشر، وكلارا ساراخون تكرهنا.

- تكرهكم؟ لقد قامت بدعوتكم.

- طبعاً، كنا هناك لمجرد الاستهزاء بنا. لا أعرف كيف لم تستطع الخالة نيلا أن ترى ذلك،جلست تِيَا في فراشها، وتابعت: هل كنتِ تعلمين أنها تخطط لتزويجي؟

ظهرت الدهشة على وجه كورنيليا:

- لم تكن لتفعل ذلك.

- لهذا السبب اصطحبتني معها. لم تخبرني، لأنها عرفت أنني سأرفض الذهاب. كنا من الضيق بما يكفي مع أخبار بابا،

لكن ما إن انقضت خمس دقائق على وصولنا، حتى أخبرتني ساراخون أنني هناك لأجد زوجاً. لم يقل والدي حرفًا."

بدت كورنليا مفجوعة:

- حسناً، لا أعتقد أن الوقت أو المكان كانا مناسبين للجدال. إن والدكِ وزوج خالتك لا يفعلان إلا ما فيه مصلحتك.

- إنهما لا يعرفان أي شيء عن مصلحتي. لا يعرفان شيئاً عني! لن أتزوج أبداً من شخص اختاراه.

تنهدت كورنليا، قاصدة النوافذ لتفتح الستائر، قالت:

- تِيَا، إنها تبذل ما في وسعها.

ثم غادرت كورنليا أخيرًا، فارتدت تِيَا جورباً من الصوف، و تدثرت برداء فوق منامتها، وشقت طريقها أسفل السلم الرئيس، في اتجاه الدَّرج الذي يفضي إلى مطبخ الخدمة. توقفت قليلاً، فقد تناهى إلى سمعها من القبو، صوت أبيها وزوج خالها يتجادلان.

كانت الخالة نيلا تقول:

- لو كُتب لتِيَا أن تنجب أطفالًا يومًا ما، فسوف يكونون أبناء شرعيين. لو أنها ستعلن حبها لشخص ما، فسوف يكون ذلك من داخل الكنيسة.

- بترونيلا، إن هذه الخيالات التي تتحدثين عنها ما تزال بعيدة بعد السنوات.

- خيالات؟ إنها أشياء عادية، يا أوتو. لقد انزلقنا بعيداً عن الثروة، لكن تِيَا سترتقي مرة أخرى إلى طبقة الأغنياء. لقد أبهرت الناس ليلة أمس. لقد أبهرتني. ربما هي تحمل خصلة

من عناد أمها، لكن التاريخ لن يعيد نفسه.

- وما الذي يعنيه ذلك؟

- أنت تعرف ما يعنيه. لا مزيد من غياب الشرعيّة. لا مزيد من العلاقات الخفية التي تفضي إلى كل أنواع المشكلات.

كادت تِيَا ألا تصدق أذنيها. خلال الصمت القصير الذي أعقب ذلك، حبست أنفاسها، وسمعت والدها يقول بصوت متوتِّر:

- إنني حتى لم أقابله. وتقومين بدعوته إلى منزلنا؟

- أوتو، مهما بلغت رغبتنا في بقائها قربنا، لا يمكن لتِيَا أن تذوي داخل هذا المنزل، في عشرينياتها، وربما ثلاثينياتها، وأبعد. وحدوث ذلك وارد، نظراً إلى لون بشرتها وخلو خزائننا.

- لا حاجة بكِ إلى تذكيري بلونها أو بخزائننا.

- الوحدة والفقر بائسان!

- أعي ذلك.

- كيف لا تعي إذن، أنه لا مستقبل في هذا المنزل لابنتنا؟

- ابنتي أنا.

ساد صمت طويل، ثم قالت الخالة نيلا، بصوت مختنق:

- إن هذا غير مُنصف أبداً، لقد كنتُ موجودة منذ البداية. وما أحاول فعله الآن ببساطة هو أن أجد لتِيَا مستقبلاً.

- أقدِّر اهتمامكِ.

- إنني أعجب إذن من أنك لا تشاركني إياه! ما الذي تظنه سيحدث، معجزة من نوع ما؟ إن هذه العائلة لطالما افتقرت

إلى ذلك الشيء." تنهدت، ونادته باسم التحبب: توت، نحن مضطرون إلى فعل هذا. خياراتنا... قد تكون محدودة."

- من قال إنها ستكون محدودة؟

- أتسألني هذا السؤال، وقد عشتَ خمسة وعشرين عاماً في هذه المدينة. ثم تُقيلك الفوك؟ إن تِيَا في حاجة إلى الأمان. خفضت صوتها: المال هو الأمان. ومن يملك المال قد لا يتزوجها، يا أوتو؟

- إننا لا نعرف شيئاً البتَّة عن نوايا هذا الرجل. لماذا يتملككِ الاقتناع بأنه يفكر في الزواج؟ أنتِ من تحدث معه، وليس هي.

- وهذا سبب أقوى لدعوته. لقد كان في حفل ساراخون، أليس كذلك؟ الجميع يعلمون الغرض من هذه الحفلات. الجميع ما عدا تِيَا، ربما.

- وأنا أيضاً كنتُ هناك، يا نهلا، لكنني لم أكن أبحث عن زوج. لقد عشتِ خارج عالم الرجال لفترة طويلة. أنتِ ساذجة.

لم تطق تِيَا سماع المزيد من حديثهما. فنزلت الدَّرج بخطى ثقيلة، وكما هو متوقع، توقف المحادثة. يلتفتان لتحيتها. والدها يبدو متعباً. وزوج خالها مُتأنقة بالفعل، في ثوب عميق السواد، وياقة بيضاء ناصعة.

قالت الخالة نهلا مبتسمة:

- تِيَا، تبدين في أفضل حال. أحلام سعيدة؟

- حلمت بأنكِ كنتِ تتزوجين، يا خالة نهلا.

تجمدت ابتسامة زوج خالها:

- أحقًّا؟

- أجل. وكان الطعام الوحيد هو جدار من الأناناس.

- أنتِ تسخرين مني.

قالت تِيَا:

- الحق أنني لا أتذكر أحلامي.

تنهدت زوج خالها، قائلة:

- يا لحظك...

فقال والدها:

- تعالي، تناولي شيئاً من الثريد.

مضت تِيَا إلى الطاولة المنصوبة على حاملين، وغرفت لنفسها شوفاناً وعسلاً في زبدية.

- تِيَا، قالت زوج خالها، أدرك أن ما قالته لكِ كلارا ساراخون ليلة أمس لا بد أنه كان مفاجِئاً لك. يؤسفني أنها طرحت الموضوع بهذه الطريقة.

ردت تِيَا:

- يؤسفني أنها طرحت الموضوع من الأساس. إنها تملك أكبر منزل في الجودين بوخت، وطيبة برغوث. كانت تسخر منا. يسرُّني أنني لم أرقص على لحنها.

ظهر عدم الارتياح على وجه الخالة نيلا.

- صحيح أنها ليست صديقة رائعة. لكن شيئاً واحداً جيداً نتج عن ذهابنا إلى الحفل. هل تذكرين الشاب الذي ساعدني؟

- لا.

- المحامي من لايدن، ياكوب فان لوس. المعطف المخطط بلون الخردل؟

- لا أتذكر معطفه. آه: تقصدين الذي ظنَّتْ أمي؟

- حسناً، جميعنا قد يخطئ في انطباعه الأول، يا تيَا. لكنني دعوته إلى العشاء، لنشكره على عنايته بي. سيأتي في الأربعاء المقبل، ونتناول الطعام جميعنا معاً.

- ليلة الأربعاء؟ قالت تيَا، التي عجزت عن إخفاء ضيقها. إن أيام الأربعاء مخصصة لوالتر، ولكن مع عشاء كهذا، سيتوقعون منها أن تكون موجودة طوال اليوم. دهش والدها وزوج خالها، أمام حدَّتها، وتبادلا النظرات، لكن تيَا انكبّت على صحن ثريدها.

سألتها زوج خالها:

- ألديكِ ارتباط مسبق ليلة الأربعاء؟ عشاء نقابة لا نعرف بشأنه؟ مأدبة في القوك أردتِ حضورها؟

تمتمت تيَا:

- لا، طبعاً، ليس لدي أي ارتباطات مُسبقة. إنني لا أفعل أي شيء..

فقالت الخالة نيلا وهي تمسِّد صدغيها:

- إنه مجرد عشاء، مع شاب مثقف ولطيف...

فقاطعتها تيَا:

- لن أتزوج منه أبداً. وحدّقت فيهما معاً. "لأنني عندما أتزوج، سأتزوج عن حب."

بدا على والدها الذهول، في البداية، وشعرت تِيَا بالإثارة جراء إصابته بصدمة، ثم تخشى أنها أفصحت أكثر من اللازم.

قالت الخالة نيلا، بصوت يبدو منهكاً:

- الحب. هذا مفهوم. ولكن ما الضرر في تبادل الحديث مع باكوب فان لوس في أثناء تناول عشاء لذيذ، و التعرف إليه بصورة أفضل؟

فقالت تِيَا:

- إنكِ لا تعرفين شيئاً عن الحب.

خيّم صمت مؤلم، وقالت زوج خالها:

- حقاً؟

- الحب الحقيقي ينبثق من الأرض، مكتمل التكوين.

- فهمت.

- إن المرء لا يجده في أثناء عشاء ممل، أو عند الجلوس على كرسي إثر إغماءة بين ذراعي أقرب رجل متاح.

- تِيَا، خاطبها والدها بغضب: "كفى."

حدّقت الخالة نيلا في طاولة المطبخ القديمة. وقالت:

- إنني لا أدعي خبرة في الحب. لكني أعرف شيئاً عنه. أكثر مما تظنين. أكثر من حب ممثّلكِ المسرحيين، تلوكه الألسن لساعتين و يتبدد في التصفيق.

تقول تِيَا:

- إنه لا يتبدد. إنه يدوم.

رفعت الخالة نيلا ملعقتها وأشارت بها زيادة في التوكيد:

إن الحب شيء يُدرك في إطارات أقل سحراً بكثير، يا تِيَا، من المسارح وقاعات الرقص. إنه يكتسب في الأفعال التي تقومين بها، في الكلمات التي تقولينها. إنه يتطلب ممارسة، صبراً، وقتاً. أعادت ملعقتها إلى ثريدها، وتابعت القول: أنا واثقة أنكِ ستتعلّمين الحب، لكنه قد لا يتخذ الشكل الذي توقعته في البداية.

أمسكت تِيَا بملعقتها، وقالت:

- لا تهمني فلسفتكِ الباردة عن الحب، حب أصحاب البنوك.

ضحكت الخالة نيلا، وأجابتها:

- ليتني كنتُ صاحبة بنك، لم نكن حينها سنتبادل حتى هذه المحادثة الخرقاء.

جرت كلمات المرأتين من أفواههما كالزبدة من مقلاة ساخنة، قالت تِيَا بازدراء: - تتحدثين عن التعلم بالتدريج، عن الممارسة المُتصنّعة للحب، أجد ذلك مقززاً، و غير طبيعي."

- أتساءل كيف أنكِ، مع سنكِ الصغير، خبيرة جداً فيه؟ قالت الخالة نيلا، والحرة تعلو خديها، أنتِ ابنة رجل نبيل في الهيرغراخت، إلا أنكِ تتحدثين كشعراء المقاهي. كيف تعرفين كل هذا المقدار عن الحب، يا تِيَا؟

شعرت تِيَا أنها وضعت نفسها في مأزق، فقالت:

- . إنه موضوع يثير اهتمامي، عندما يأتي الحب إلينا، عندما نختار أن نعطيه...

قاطعها والدها، قائلاً:

- كفى، كفى!

- بابا! أخبرها أن قدوم هذا المحامي أمر لا جدوى منه.

تتوجه المرأتان إليه. يمرر والد تيَا يده ببطء على رأسه، وكأنه بمساعدة كفه، سيجد الفكرة الصواب. ثم يقول: "لا يعجبني استقبال غرباء في منزلي." فتبتهج تيَا. لكنه يضيف: "عشاء واحد." فتشعر بسعادتها تعود وتضمحل. "واحد فقط. بشرط ألا أضطر لمقابلة كلارا ساراخون مرة أخرى. وإذا لم يرق لتيَا هذا الفان لوس، فلن يتوجّب علينا مقابلته مرة أخرى أيضاً.

***

لو أنَّ تيَا لن تتمكن من مقابلة والتر في الأربعاء القادم، فعليها إذن تنبيهه. عليها مشاركته الواقعة التي اسمها ياكوب فان لوس، ولا عذر أفضل للعودة إلى المسرح من إعادة الثوب الذهبي.

- عليَّ إعادته هذا الصباح. قالت لكورنيليا بعد ساعة من الفطور، وهي تبدل ملابسها في غرفة نومها. رأسها يصدح بقلق وإهانات الصباح، من يملك المال قد لا يتزوجها، يا أوتو؟ من؟ لقد انجرفنا بعيدا عن الثروة... خلو خزائننا. لكن تيَا خائفة أيضاً. الزواج من الرجل الخطأ يحدث طوال الوقت في هذه المدينة، وليس فقط في المسرحيات. حبها الحقيقي قد يُسلب منها. إنها في حاجة لرؤية والتر.

دارت كورنيليا حول تيَا، تفكُّ شعرها المعصوب لمعاينته، ثم تغمس أصابعها في دهينة شمع العسل، وتلف آخر خصلات من ضفائر تيَا الأمامية حول سبابتها لفًا محكماً للتأكد من أنها حسنة التموج، وليست مُجعَّدة. تأففت، وقالت:

- ما هذا الطقس؟ ما الذي يفعله الضباب ثم الحرارة! لقد عالجتُ خصلاتكِ ليلة أمس فقط.

تقول تِيَا بنفاد صبر:

- اجمعيه إلى الخلف وحسب اليوم. أدخليه تحت قلنسوتي، يجب أن أذهب.

- في وسعي أن آتي معك.

جمعت كورنيليا شعر تِيَا، بمراسٍ يجعلها لا تكاد تنظر إلى ما تفعله. يُخيَّل لتِيَا أحياناً أن كورنيليا تتعامل مع شعرها وكأنه تحدّيها الشخصي مع العالم.

- غير ممكن. أحبُّ أن تأتي، طبعاً. ولكن، ألا ترغبين في مناقشة عشاء الأربعاء مع الخالة نيلا؟

- كيف يبدو؟

تجهم وجه كورنيليا، وهي تدسُّ آخر خصلة من شعر تِيَا وتوثق أربطة قلنسوتها.

- من؟

- هذا الياكوب؟

- آه. لا أعرف. سنرى لاحقاً من دون شك.

أمسكت تِيَا يد كورنيليا وضغطتها:

- واحدة من موائد عشائكِ الفاخر سيكشف كل شيء، أعدك. وبعدها سيختفي.

قالت كورنيليا بتنهيدة:

- إن هذه العائلة تعقد صفقات غريبة أحدهم مع الآخر.

***

كانت الخالة نيلا في غرفتها تستريح، تلملم جراحها على الأرجح،

وإن كانت تِيَا في الحقيقة هي المجروحة. وكان والدها في غرفة الحسابات. مرت تِيَا من أمام بابها المفتوح، بدا مُستغرقاً، ممسكاً بقلمه في الهواء، ويقلب بين الصفحات في دفتر حسابات العائلة. لو أن ما تقوله الخالة نيلا عن أموالهم صحيح، فكم من الوقت سيدوم بهم الحال هنا؟ إن كل ما يملكونه هو هذا المنزل وسمعتهم المشروخة، والتي يُفترض بها أن تعيدها إلى مجد لم يسبق لها أن عرفته.

كانت كورنيليا قد قامت بكيِّ ثوب ريبيكا ورشه بماء الخزامى. بدا وكأنه جديد. تخفيه تِيَا في عباءتها الأخرى وتفتح الباب الأمامي الثقيل. لن ترتدي على الأرجح ثوباً مثله مرة أخرى، مثل جوليت في حفل كابوليت. عليها أن تعترف بالبهجة التي يمنحها أن تشع بتألق، أن تجتذب العديد والعديد من النظرات، انتقادية كانت أم لا. لقد بدت رائعة الجمال ليلة أمس، وكل ما يؤسفها هو أن الشخص الوحيد الذي أرادت أن يشهد بهاءها العابر لم يكن هناك. سوف تخبره: في وسعك أن ترسمه في عين عقلك.

فكرة رؤية والتر تبعث فيها الحياة، وتلج تِيَا الهواء البارد. القناة ليست مزدحمة أبداً، عدد المراكب والمارة قليل في هذا الوقت من العام. أولئك الذين يتنقلون بحراً أو براً مهرولين على امتداد شوارع القناة يخفضون رؤوسهم في مواجهة الريح. ليس الآن مناسباً للتجول. لا احتفالات مُنتظرة لمدة أسابيع، موسم حصاد الربيع بعيد، واحتفالات الصيف أبعد.

لكنها إذ تولي ظهرها إلى المنزل، تشعر بالتفاؤل. لم يسبق لها قط أن تجاوزت حدود هذه المدينة، لكنها بين الحين والآخر تشعر بثقة في أنها ذات يوم ستفرُّ من هذه الشوارع الضيقة

بمنازلها العالية الرفيعة. ذات يوم، ستفضي القناة من أجلها إلى البحر. إن القصة التي ترسمها لها عائلتها ليست قصتها، مهما واصلوا إصرارهم على أنها كذلك.

غاصت تيًا في هذه الأفكار حتى إنها وطئت الطرد الذي تُرك على قمة السلم الحجري، فتراجعت رافعة قدمها بسرعة. كانت الرزمة صغيرة، غلافها من ورق بني بسيط، محزومة بدوبارة. أصابها الذهول وهي ترى اسمها الكامل مكتوبًا بأحرف كبيرة سوداء أنيقة تحاذي الركن العلوي الأيمن. لم يسبق لأحد قط أن أرسل إليها طردًا. ومن دون تردد، رفعته. إنه خفيف، ومُكتنز، فعادت إلى دفء الدهليز النسبي لتفتحه، وتوقعت أن تسألها كورنيليا عمّا تفعله. أو الأسوأ، زوج خالها أو والدها. نظرت يمين القناة ويسارها علّها ترى أحداً يظهر عليه أنه قام بتسليم طرد لتوه. ولكن لا أحد هناك.

أغلقت تيًا الباب الأمامي، واتكأت عليه في الهواء البارد، ثم وضعت الثوب الذهبي على الدرج حتى تمزق الغلاف. وحينما رأت ما في داخله، أطلقت شهقة ابتهاج. بدا مستحيلًا، لكنه حقيقي.

إنه والتر، مصغّراً بإتقان مطلق. كان قد تحول إلى دمية صغيرة مُذهلة، ومقاسه يناسب راحة يدها.

وبذهول، راحت تنهل من كل تفاصيل وجه حبيبها، ذراعيه، حذائه. قد يقول المرء، أن تصغير الكمال يكون سهلاً، عندما يكون الرجل نفسه كاملاً فعلاً. لكن هذه الدمية الصغيرة شيء آخر. هنا حبيبها والتر بشعره الأشقر الداكن الذي يصل إلى كتفيه، لمعة لحيته الخفيفة، عيناه الزرقاوان متجمدتان في لحظة مرح، ذلك الفك القوي. شفتاه مطلقتان،

ويصعب تحديد هل يبتسم أم يتكلف الابتسام. إنها اللغن الوحيد الذي يصدر من هذه الصورة الحية التي تستقر في كفِّ تِيَا، فتوحي وكأن والتر مازال يكبت سعادته الحقيقية، والتحدي الذي يواجهها هو أن تجدها. إنه يرتدي مريوله الخاص بالرسم، ويمسك بفرشاة في قبضته اليمنى مثل رمح صغير. كانت أطراف الشعيرات قد غُمست في طلاء أحمر، ينبض بالحياة. وفي يده الأخرى، لوح ألوان، لكنه فارغ: مجرد خشب أجرد، شاحب، خال.

لا بد أنها هدية من والتر. وحده فنان بمهارته قد يصنع شيئاً كهذا، ويفكر فيها وهو يصنعه. لكن تِيَا عندما تضغط على عضلات ذراعيه المليحة، تدرك أن الجسد ليس منحوتاً من الخشب، بل مشكَّل بالشمع. هل يعرف والتر كيف يشتغل بالشمع أيضاً؟ هل تستطيع يده الكبيرة أن تصنع هذه الفرشاة الصغيرة، هذا اللوح الذي لا يتجاوز حجمه قطعة نقدية؟ هل قام حقاً بخياطة هذا المريول المُقلَّص؟ طبعاً، لقد فعل، هكذا تقول تِيَا لنفسها. لا نهاية لمواهب والتر.

إنه مثل مفتاح كنز، دعوة إلى الذهاب والبحث عن النسخة الحقيقية. قلّبت تِيَا الدمية بحثاً عن رسالة - قابليني في مسكني، أو أي تعليمات من هذا القبيل. لكنها لا تجد شيئاً. لا شيء سوى مؤخرة رأس والتر، وظهره، الذي تلمسه برقة. عندما ترفع تِيَا مريوله، وفي توقعها أنها ستجد ملابس داخلية، تكتشف أن والتر عارٍ. تحدق في هذا العري، في جسده الجميل المُشكَّل بتأمل ومعرفة، الاهتمام عميق، تشريحي لكنه فني.

فكّرت، هو الوحيد الذي قد يفعل هذا. لا أحد يستطيع أن يراه بالنقاء الذي يرى به نفسه.

هذه الدمية الهدية أثارت حماسة تيَا، لكنها أيضاً أثارت خوفها من أن يراها أحد، واقفة هنا، في البرد، تتأمل الجمال المُتجرِّد. لقد منحها والتر نفسه كهدية سرية. وبسرعة، أعادت تغليف جسده الغالي بالورق، ووضعته في جيبها. لا بأس لديها بالدمية، لكن تيَا تريد الأصل، ولا بد لها من الحصول عليه.

8

بعد أن منحت حارس باب السخاوبيرخ الخلفي قطعتي ستايفر رشوة ليتركها تدخل، وجدت والتر في مرسمه. وحالما فتحت الباب، ألقى والتر بكلمات من فوق كتفه، وهو يلون نخلة وظهره إليها:

- لقد طلبتُ أن تتركيني وشأني.

كان صوته قاسياً من أثر الانزعاج.

فقالت تِيَا:

- إنها أنا.

استدار والتر، وقد اختفى من وجهه كل أثر للسخط:

- تِيَا؟ إن هذه مفاجأة، كنتُ أظن أنكِ لن تستطيعي المجيء حتى الأربعاء؟

- كان عليّ إعادة ثوب ريبيكا.

انتظرت أن يسألها عن المفاجأة التي تُركت على عتبة بابها، لكنه لم يفعل، فأوصدت بابه، إذ كانت لا ترغب في أي مقاطعة.

قال والتر:

- آه، الثوب، وكيف كان عرض ساراخون الباذخ؟

وضعت تِيَا الرداء على ظهر كرسي، ولفّت ذراعيها حول كتفي والتر. أرادت أن تتحدث إليه عن المُنَمْنَمَة، أن تُخرج

الدمية ونشاركه الإعجاب بها، أن تمدح والتر على براعته، على ظرافته، أن تخبره أنها لم تهرع إلى هنا من أجل الثوب، ولكن تلبية له. قالت:

- كان الحفل مريعاً.

- لا أصدق.

- كان يعجُّ بنساء عجائز مفرطات في التعطُّر، وشيوخ يعتمرون الباروكات. مربى أناناس في كل مكان. عرق العزاب وبأسهم.

ضحك والتر، وهو يضع ذراعيه حول خصرها:

- يا للسماء، وهل أبهرتهم، يا ملاكي؟

تذكرت تيًا كلارا ساراخون، وهي تتفحصها من أعلى إلى أسفل. و تذكرت إليونور وكاتارينا، وهما تضحكان من ثوبها المُستعار. و ياكوب فان لوس، الذي ظهر من العدم لإسعاف زوج خالها. تتذكر كيف ضبطت الخالة نيلا وهي تحدق فيها، بإعجاب يقرِّضه الحسد. تقول:

- أنا واثقة أنني لم أفعل.

- في ثوب كهذا؟

- جميعهم هناك كانوا مزيفين.

رفع حاجبيه، وردد:

- مزيفون؟

- لقد رأيتُ مسرحيَّات أكثر صدقًا داخل هذا المبنى. إن التظاهر طوال الوقت أمر مرهقٌ جداً.

- وبمَ كنتِ تتظاهرين؟

- بالرغبة في الوجود في أي مكان آخر إلا هذا.

مرّر والتر قماش الثوب بين أصابعه، وهمس:

- ارتديه من أجلي.

شعرت تيَا بصدمة خفيفة، لأن ارتداء ثوب جوليت الخاص بريبيكا في المسرح الحقيقي الذي يُفترض أن يُلبس فيه، هو أكثر انتهاكاً من حفل راقص ترأسه امرأة وصولية جشعة:

- لا يمكنني أن أفعل ذلك.

- لماذا لا يمكنك؟ دعيني أرسمكِ في هذا الثوب.

لم يكن والتر قط قد اقترح أن يرسمها من قبل:

- ستفعل ذلك حقاً؟

- أرغب في ذلك. ولكنه قد يكون شبيهاً بمحاولة رسم الشمس.

تخيلوا ما قد تقدّمه كاثارينا وإليونور ساراخون، لارتداء هذا الثوب الذهبي الذي يعود لريبيكا بوسمان، للجلوس من أجل لوحة يرسمها شخص بموهبة والتر ريبيك. في حياة تيَا الآن لحظات لا يمكنها تصديق أنها حقيقة. ابتسمت، وحملت الثوب خلف مُسطح رسم طويل فارغ، وبدأت في حلّ أربطة ملابسها، وهي تفكر في المُنمنَمة بجيبها، كم ترغب في إخباره عنها. لكن عرض والتر قد لا يدوم وعليها أن تقبله طالما يمكنها.

كما أن هناك مسألة أخرى تحتاج إلى مناقشتها، فقالت:

- والتر، لن أتمكن من لقائك في الأربعاء المقبل. ستُقيم زوج خالي وليمة عشاء في منزلنا. ليتك تستطيع أن تأتي، ولكن...
وتداعى صوتها، في حيرة كيف تنهي الجملة.

خيم صمت قصير، ثم سألها:

- عشاء من أي نوع؟

دفعت تِيا ذراعيها في الثوب، داخل الكُمين المكويَّين بعناية. تخيل أن شيئاً من رباطة جأش جوليت قد انتقل من القماش إلى جلدها:

- لقد دعت رجلًا التقت به في الحفل.

- رجل؟

- أجل. ياكوب علّان.

كرر والتر:

- ياكوب علّان؟ آه، أظنني سمعتُ عن العلالنة. عائلة مشهورة، في النقل بالسفن.

ضحكت تِيا:

- لا أعرفه. إنه محام.

- ثري؟

- لا أريد الحضور، يا والتر...

- لكن الوقت حان لاصطياد زوج.

كانت المرارة في صوته، وترجمته للموقف، تصدمانها. كيف قنع والتر أنها ملكه، وستظل ملكه؟ خرجت تِيا من وراء الحاجز، وأربطة الثوب المُستعار ما تزال لم تُعقد، وقالت:

- لا أريد زوجاً عجوزاً، محامياً كان أو غيره.

تراجع والتر خطوة، مُقيّماً شكل سقوط الضوء على الحرير الذهبي. وتقدمت تِيا صوبه بذراعين ممدوين، متناولة كلتا يديه، وقالت:

- هل تصغي إليَّ؟ الشخص الوحيد الذي أريده هو أنت.

التقت عيناه بعينيها، وسألها:

- كيف أتأكد من ذلك؟ تذهبين إلى هذه الحفلات...

- ذهبتُ إلى واحدة! ولم أكن راغبة حتى في ذلك.

تنهد، وقال:

- أفترض أن عائلتكِ لا تريد إلا ما فيه خيرك.

- أنت هو خيري. إن عائلتي، حتى لا تعرفني.

تخلص والتر من يديها، وذهب إلى الطاولة حيث صُفَّت فرشه بصورة مثالية:

- اكوب وتِيا علاّن. حياة فخمة. إنني أراها. توقف لحظة، حاملاً إحدى الفرش في يده اليمنى: أراكِ وأنتِ تهجرينني.

شعرت تِيا بيأسها يتصاعد. لم يكن يجدر بها قط أن تأتي على ذكر هذا العشاء. وها هي الآن قد ضايقت أكثر شخص تمنيها سعادته. أغمضت عينيها، لم يكن والتر هو من ترى، وقطعاً ليس ياكوب. بل هي الخالة نيلا، مترقبة، ومقتنعة تماماً أن تِيا براندت ستطيع الأوامر.

قالت، وهي تفتح عينيها:

- والتر، بما أنني أحبك، وأنت تحبني، فلماذا لا تتزوج أنت

وأنا؟

تسمرت يد والتر في الهواء. أرادته أن يتكلم، أن يفك هذه التعويذة الغريبة، بالكلمات التي تخرجهما من هذه الغرفة إلى العالم الحقيقي.

جحظت عينا والتر:

- ماذا قلتِ؟

- قلت، لماذا لا نتزوج أنت وأنا؟

- أهذا ما تريدينه؟

- طبعاً، أليس هذا ما تريده؟ لقد كانت الأشهر الستة الماضية هي الأسعد في حياتي.

صمت، فشعرت تِمَا بالاضطراب:

- والتر، إن هذا هو ما يريده كلانا في نهاية المطاف، أليس كذلك؟

حاول أن يتمالك نفسه:

- طبعاً، هو كذلك. كل ما في الأمر أنني لم أكن واثقاً من مشاعرك.

فقالت وقد أخذتها الدهشة:

- أليست واضحة؟

- لا يلزم أن تكون النساء دوماً مُستقرّات.

وجدت ما قاله ساذجاً حتى أنه يجعلها تضحك:

- حسناً، أنا مُستقرّة. تعرف أني كذلك. وتخيل فقط، يا والتر. لن يكون علينا أن نستخفي من الأعين هكذا،

كاللصوص، وكأننا نرتكب إثماً.

قال، وهو يجول بعينيه في المرسم:

- أفترض أننا لا يمكننا الاختباء هنا إلى الأبد، أليس كذلك؟

- لا، لا يمكننا.

تنحنح والتر، وقال:

- إن الرجل في العادة هو من يعرض هذا الأمر. لقد فاجأتني. والدكِ، زوج خالتكِ. إنهما لن يوافقا.

- أنا من سيتزوجك وليس هما. وأعلم أنهما حينما يقابلانك، يا والتر، سوف يفهما. سوف يريا سعادتنا ويكونان سعيدين بدورهما.

بدا على والتر أنه يفكر:

- خِطبةٌ، إذن؟ تريدين خِطبة؟

سرى دفء في صدر تِيا، واقتربت من طاولة الفرش لتضم يدي والتر، وتهمس:

- اخطُبني.

- ولكن، ليس علينا أن نتزوج فوراً. ينبغي أن نخطط لحفل لائق.

- كلما عجَّلنا، كان ذلك أفضل، يا والتر. لأنه حينها تستطيع زوج خالي أن توقف عن مهمتها الحمقاء، ونستطيع أنت وأنا أن نبدأ حياتنا في النور.

مرر أصابعه خلال شعره، وهو يقول:

- أرى أن أنتهي من عقدي في السخاوبيرخ قبل أن نتزوج. لأننا حينها سيكون بحوزتنا مقدار أكبر من المال. وسيحسم ذلك أي مخاوف قد تشغل عائلتك."

- تلك فكرة جيدة. بعد ثلاثة أشهر، إذن. عرفت تيَا كل شيء عن عمل والتر: أمامه اثنا عشر أسبوعًا قبل أن ينال حرية جديدة له، ولها هي أيضاً الآن.

قال:

- حينها سيكون في وسعي أن أعمل في أي مكان أريده.

- لندن؟ باريس؟

- إن أردتِ.

- ولكن أيهما؟

قال والتر مبتسمًا:

- دعينا نقترع.

- ونذهب بصفتنا زوجين.

أجاب وهو يضع ذراعه حول خصرها:

- لن يسمحا أن نذهب بصفة غيرها.

ضمته تيَا بقوة. حبيبها، خطيبها، الذي يفوح بألوان الزيت والصابون، ورائحته الخاصة التي لا يمكنها تحديدها، رائحة تحبس الأنفاس في حلقها. تمتم ولها قبالة صدره:

- رباه، إنني سعيدة جداً. لم أكن أعرف أن الشعور بهذا القدر من السعادة أمر ممكن.

- أعرف. قالها، وهو يطبع قبلة فوق رأسها. يُبعدها لوهلة،

مُحيطاً وجهها بكفيه:

- - تفهمين إذن، أننا ما دمنا تواعدنا على الزواج، فقد صار بيننا عقد.

نظرت في عينيه، وقالت:

- قد لا أكون كاتب عدل أو قسيساً، يا والتر، لكني أعتقد أننا كذلك.

- نحن إذن، بطريقة ما، زوج وزوجته فعلاً.

- حسناً. إنني لم أصبح عروساً بعد، ولم نقف أمام المذبح."

- لا، لكننا متزوجان في نظر الرب. لقد تعاهدنا على الوفاء كزوجين.

جذبها والتر إليه. وقال:

- وهذا يعني أنه لا شيء يمنعنا، إن أردتِ، أن نعيش كزوجين.

داخل نطاق عناقه المحكم، تبقى تيَا من دون حراك، وربطة مريوله تضغط على خدها. تفكر: يوجد خطٌ هنا: خط مرسوم عند قدميَّ، لا يُرى فوق أرضية هذا المرسم. منذ أن وقعت عينا تيَا على والتر، وهي تتخيل، بطريقة أو بأخرى، هذا الخط، هذا الشريط المُغَبَّش الذي ستتحدد معالمه يومًا ما تحتها. هي ووالتر، مُتجردان من ملابسهما، معًا، كجسد واحد. وها هو الآن يطلب منها أن تعبر هذا الخط.

في هذه اللحظة، لا يكون من تفكر فيه هو والتر، ولا حتى نفسها، بل كورنليا، تكوي بعناية كُمّي هذا الثوب الذهبي، اللذين يمسكهما والتر الآن بيديه. ماذا قد تقول كورنليا لو

أمكنها أن تسمع كلمات والتر؟

لم تكن كورنليا لتوافق على زواج تِيَا من رجل لا تحبه. كانت كورنليا لتفهم استماتتها في أن تكفل وعد والتر.

أما والدها وزوج خالها، فتدفنهما تِيَا عميقاً تحت أرضية هذه الغرفة، وهي تخلع الفستان الذهبي الذي قال والتر إنه يريد أن يرسمه، تميل إلى الوراء وهي بين ذراعيه وتنظر في عينيه، وتقول:

- في نظر الرب، أنا زوجكَ.

ببطء، يُنزلها والتر إلى الأرض: فتسأله:

- هل ستفعل ما فعلته البارحة؟

يبتسم والتر ابتسامة عريضة:

- وما الذي فعلته البارحة؟

ضربته تِيَا برفق على كتفه:

- والتر ريبيك، تعرف ما فعلت.

همس:

- أنتِ كاملة الأوصاف، يا تِيَا براندت، أنتِ أكثر من مجرد عِلّان."

شعرت تِيَا أن كل ماحدث خيالي، وكأنها لم تأتِ قط إلى المسرح اليوم، وكأنها لم تجد دميته قط، ولا حبست نفسها داخل غرفته.

سألته:

- هل يفعل الأزواج والزوجات هذا كل يوم؟

ضحك والتر. كان في وسعها أن تقضي حياتها في إيجاد وسائل لإضحاكه: الفتاة خفيفة الظل، التي لم تأتِ من بيضة، ولكن من سر، سر عميق في مدينة المال.

قال، وهو يتناول خرقة مبللة ويبدأ في تنظيف ثوب ريبيكا:

- دونما شك يفعلون.

التفتت تِيَا لتواجهه. لقد شعرت أنها امرأة، مُتحكمة في مقاليد أمورها:

- هل سنعيش معاً في مسكنك؟

واصل والتر، مُقطِّباً، فرك البقعة التي صنعها:

- لا يمكننا بعد. تعرفين ذلك، صحيح؟

فكرت تِيَا في عائلتها. كيف بحق السماء ستخبرهم أنها وجدت لنفسها زوجًا من دون مساعدتهم؟

- أعرف طبعاً. أنا أفكر في المستقبل ليس إلا. أو ربما في وسعنا أن نبحث عن مسكن آخر؟ مسكن جديد لكلينا؟

- في وسعنا أن نفعل أي شيء تريدين.

- أريد أن أريكَ شيئاً.

نهضت تِيَا لتبحث في جيب تنورتها، وتُخرج دمية حبيبها، وهي تتوقع من والتر أن يبتسم ابتسامة المتواطئ. أن يقول، لقد وجدتِها! لقد فهمتِه، وجئتِ.

لكن والتر لم يبتسم. بل هو في الواقع نظر إلى الدمية في رعب، وقال:

- ما هذا؟! هل يُفترض أن يكون أنا؟!

- طبعاً، هو أنت. كفى مُزاحاً، يا والتر. لقد صنعتَه من أجلي.

لكن والتر تراجع مُنتفضاً، وبدأ الاضطراب يشمل تِيا:

- ألم تفعل؟

- من أين حصلتِ عليه؟

- كان على عتبة منزلنا هذا الصباح. داخل رزمة، تحمل اسمي من الخارج.

- هل تظنين حقاً أنني قد أصنع صورة من نفسي وأضعها على عتبة منزلك؟

تلعثمت تِيا:

- أنا ... لا أعرف. ظننتها هدية منك. رسالة تخبرني بها أنك أردت مني المجيء للقائك.

- هدية؟

بدا والتر مأخوذاً بمشهد الدمية التي على شكله. بحذر شديد، اقترب منها، وهي بعد في قبضة تِيا، ورفع الذراع التي تحمل لوح الألوان:

- لم أكن لأرسل شيئاً كهذا. ولم أكن قط لأمسك بلوح ألوان نظيف. إن لوحي دائماً مملوء!

حاولت تِيا أن تعيده إلى العاطفة الناعمة، إلى الحميمية:

- طبعاً، هو كذلك. إنها دمية جميلة جداً، سواء كنتَ من صنعها أم لا."

عاد والتر إلى التحديق في الدمية:

- إنها لا تعجبني، قالها وعيناه تقفزان نحو الباب: هل هناك من يراقبنا؟ من صنعها؟ ألقى بالمنحوتة الصغيرة فوق أغطية الغبار، ونهض على قدميه، مُرتديا حذاءه وسرواله. بدا متوتّراً، أصغر من أعوامه الخمسة والعشرين:

- هل أخبرتِ أحداً بأمرنا؟

- لم أفعل، طبعاً.

- لا زلة لسان في حفل ساراخون؟ هل شربتِ خمراً البارحة، مُتباهية بحبيبكِ الذي يعمل في المسرح؟

- والتر، لا. وحتى لو أنني تحدثتُ عنك، فما الخطأ في هذا؟ نحن مخطوبان الآن. سوف نتزوج.

وحينما صمت والتر، وبدا شديد الاضطراب، قررت تِيا أن تكذب، وتقول:

- أنا صنعتها.

حدّق فيها:

- ماذا؟

- أعترف: كنتُ أنا.

شعرت تِيا أنها عارية تماماً، من دون ملابسها الخارجية. وتمنت لو كان في وسعها أن تنسل خلف المشهد المرسوم وتضع عليها الثوب الذي أتت به. قالت:

- كانت مجرد مزحة ساء مآلها. إنها لا شيء.

قال والتر:

- أنتِ صنعتِ هذه؟ هل تقولين الحقيقة؟

- ظننتُ أنها ستعجبك.

تناهى من خلف الباب وقع أقدام تمر، و حفيف ثوب، ثم خيم الصمت، فقال والتر في هدوء:

- حسناً، إنها لا تُعجبني.

- أعتذر. قالت وقد حيّرها توتره، وزعزعها نفوره، وبدأت تشعر بالبرد.

- حسناً. أصدِّقك. لكنني مُضطر الآن لإكمال هذا الشاطئ.

تقابلا، عيناً لعين، زوجان من نوع ما، من دون أوراق زواج أو خاتم، في هذه الغرفة السحرية. ولكن عندما تبادلا قبلة، وتعانقا، شعرت تِيا بقليل من التحسن. إن هذا يحدث طوال الوقت بين العشاق، هي تفترض. الخلافات ببساطة تجعل الصلح ألذ.

همست:

- أنا سعيدة، لأننا فعلنا ما فعلناه.

- وأنا كذلك. قال والتر، وقبل جبهتها: أراكِ قريباً. استمتعي بعشاء الأربعاء المقبل، حسناً؟ فكري بي.

- إنني أفكر فيك دائماً.

أشار والتر إلى المنحوتة الصغيرة التي ما تزال مُلقاة على أغطية الغبار:

- في هذه الحالة إذن، ربما في وسعه أن يؤنسكِ.

***

غادرت تِيا المسرح، وهي تحمل سراً يتملكها. كان شيء في

حياتها قد تبدّل، وهي تريد التشبث به. يُريحها أنها لم ترَ ريبيكا بوسمان، إذ كانت ستضطر إلى تفسير دائرة البلل المنتشرة على الثوب الذهبي. سلكت طريقًا أطول إلى المنزل، راغبة في أن تنفرد بأفكارها، وأن تمالك نفسها حتى لا يشكّ أحد من عائلتها بما فعلته.

كانت المدينة قد استيقظت بالكامل الآن، فرُفعت الألواح عن واجهات المحال، وكان باعة أمستردام يملؤون واجهاتهم. تفتخر أمستردام بالنظافة، المكنسة وخرق التنظيف لإظهار أخلاق الفرد المتكاملة، أو على الأقل نيته إلى ذلك.

مرت نِيَا بالعتبات الناصعة، والنوافذ البراقة، جميع الشوارع نظيفة من روث الحيوانات. لا خطايا هنا! هكذا تقول هذه البيوت والطرق. تلكأت خارج محل أقمشة، تحدق في أثواب الحرير والقطن، الخيوط المصبوغة بالأرجواني الحمر والزعفراني والأسود، مفرودة على ألواح بيض لإظهار ألوانها. كان بائع جبن يضع أقراصه الثقيلة من جبن الجودة المُعتّق في الواجهة مثل شموس عملاقة، مُعيداً ترتيبها بابتسامة هادئة، وكأنما يدعو المارة إلى مشاركته لعبة لا يفهم قواعدها سواه.

ألا يستطيع أي منهم أن يخمّن ما فعلته؟ ألا يمكنهم رؤية الضوء في عينيها؟ رفع بائع الجبن عينيه، وجفل إثر رؤيتها، عيناه جاحظتان في وجهه المتورّد. يصعب في تلك اللحظة، وعبر الزجاج، أن تحدد نِيَا إن كان قد جفل هكذا لأنه فقط كان مُستغرقاً في عمله وظهرت هي له من العدم، أم لأنه لم يرَ من قبل أحداً يشبهها. ما الذي لا تكترث صدمته بإخفائه - فضول حميد، شك، خوف؟

"لن أسرق جُبنك"، هكذا فكّرت نِيَا، وهي تبتعد سريعاً، عبر

راغبة أن تسمح لأحد بتمحيصها، لا ترغب في أن تترك أفكارها الجديدة حول المرسم تتحول إلى هذا الشاغل القديم.

مرّت بها خادمات يهرولن، جامدات الأوجه، ملتفعات بالأوشحة، وسلالهن المصنوعة من الخوص بمآرج فارغة على أذرعهن، متجهات إلى الأسواق، لشراء سمك الموسى الأكثر لمعاناً، وعُبّر اصطيد لتوه من البحر المتجمد، أو أكثر الشمندرات اكتنازاً حتى يأكل الأسياد الكسالى ويتذمروا. واصلت نِيا تجوالها، تائهة وسط أفكارها.

لقد خُيّل لها، بعد حميمية كهذه، بعد ثقة كهذه، أنها ستشعر بخفّة وسعادة. لقد مارست الحب مع والتر، لم تعد عذراء. بعضهم قد يسمي ما فعلته فضيحة، لكنها تسميه وعداً حقيقياً بالزواج. لكن الصباح الذي افترض به أن يشعّ غراماً، إذ كان صباح اتحاد وبداية، قد اتخذ منعطفاً غريباً، والدمية هي المُلامَة. شوارع القناة التي تميد إلى الهيرِنغراخت، والمألوفة جداً في العادة، قد تغيرت طبيعتها. تحت الجليد، وبدت المياه أعمق، وحتى واجهات المنزل بدت أقل ترحيباً، وأضحت نوافذها ضخمة وخاوية. شعرت نِيا بدمية والتر مدفونة بعمق في جيبها، وإذ تستدير عائدة إلى المنزل، لا تملك إلا أن تنظر خلفها، وتجيل عينيها بين أوجه الأمستردامييِن من حولها علّها تجد علامات على تلصص عدائي غريب.

مستحيل ببساطة أن يعرف أحد بأمرها ووالتر: أن يراقبهما. لا تستطيع نِيا تخمين أين تكمن الحقيقة. لوهلة، فكّرت في رمي الدمية على الجليد. لقد آذت حبيبها وأهانته، ويعجزها أن تجد تفسيراً لظهورها المفاجئ على عتبة بابها. إنه حقاً لم يصنعها. فكما يقول والتر:" إنه فنان بألوان متعددة. وليس فرشاة رسم

واحدة، غُمست في اللون الأحمر".

لقد تحدثا عن مسكن واحد، رأى كل منهما الآخر عارياً. لكن والتر عاد الآن إلى عمله، راسماً ديكوراته، وكأن ذلك لم يحدث قط. تشعر تيًا بألم أسفل بطنها واختناق في قلبها. إنها تعرف أنها تحب والتر. وهي متأكدة من أنه يحبها. يريد الزواج منها، هذه الحقيقة الرائعة! ولقد أصابت الخالة نيلا في أمر واحد على الأقل: في أمستردام، الزواج هو كل شيء. إن خطبتهما ليست علامة على رغبة والتر في تيًا فقط، ولكن على إيمانه بها، واستعداده أن يجعل من مستقبلهما حقيقة مُعلنة. لكن تيًا تريد مهلة لتتوقف قليلاً، لتزحف في داخلها مثل أرنب في جحر، لتفكر في كل الأشياء التي حدثت هذا الصباح.

تحسست داخل جيبها بحثاً عن دمية حبيبها، مُستشعرة القوة في قوامه الصغير. ولكن، أيكون هذا لأنها تحب الرجل الحقيقي كثيرًا، وتصب أشواقها في نسخته؟ إنها مجرد دمية في النهاية. ومع ذلك: تشعر أنه ليس عليها أن تتخلص منها، ليس الآن، مهما كان مصدرها. سوف تضع هذا الوالتر في الصندوق الصغير الموصد الذي تحتفظ به تحت سريرها، ولا يفارق مفتاحه جيدها. سوف تحميه من زوج خالها، من والدها وكورنليا، إلى أن يحين الوقت المناسب.

عندما وصلت إلى باب منزلها الأمامي، أخذت تيًا نفسًا عميقًا، لتبتلع هذا اليوم غير المسبوق، لتزيل أسرار جسدها من على وجهها. لكنها عندما دخلت الدهليز، كدرتها فكرة معينة. إنها لم تصنع هذه الدمية، ولا والتر أيضاً، فمن، في مدينة الأسرار هذه، قد فعل؟

9

سيدؤون هذا العشاء بفطائر بيض، مزينة بشمر وشبت من إنتاج الدَّفيئة، إضافة في غير موسمها من السوق. زائد: دجاجة ملفوفة ببايكون مدخن مع صوص قوامه قشر جوزة الطيب والزعفران والنبيذ الأبيض. يعقب الدجاجة طبق جانبي من لحم الغزال، والذي بدوره سيُحاط بأطباق ديك مُسمَّن بارد في عصير الليمون. سيُنفَق مقدار كبير من الجلدرات الإضافية غير الفائضة على هذه الكتيبة من الطعام، لكن ياكوب فان لوس لا بدَّ من أن يفهم أن آل براندت يعرفون كيف يُضيِّفون، وأن طهي كورنليا هو الإثبات.

قُبيل ذهابها إلى سوق الخضار في اليوم الذي يسبق زيارة ياكوب، قالت كورنليا وهي تبدو خجولة (بسبب المصاريف) ومُضطرة (بسبب الدافع):

- فكرتُ أيضاً أن أعدَّ ملفوف سافوي بالطريقة الإسبانية.

فسألتها نيلا: "هل تُقدِّم إلى جانبه مسبحة مخللة؟" لكن كورنليا لا ترتبك: فهي عندما تقرر طهي شيء ما، يصبح الاستهزاء أمراً تافهاً. أما التحلية بعد هذه الوليمة المتكاملة، فسوف يكون بسكويت قرفة الشهير من إعداد هانا وأرنود ماكفريد (مجاناً، ولكن لا تخبري أرنود). كان أوتو قد ذهب إلى تاجر خمور يعرفه من عمله في الفوك، وساوم على شراء ثلاثة أوان جعرية من خمر البوردو التي كانت في طريقها إلى السويد. كانوا قد فتشوا منزلهم بحثاً عن أنظم كراسيهم المنقوشة، والأريكة أسفل غطاء الغبار. علقوا ما تبقى من لوحاتهم

على جدران الصالون، وبسطوا أنظم سجاجيدهم على أرضيته. أحضر أوتو الحطب، ونفضت نيلا الوسائد. وكانت كورنليا قد أمضت نهارها كله في المطبخ، تصارع ديوكها المسمّنة.

أما تِيا، فكانت وظيفتها الوحيدة هي التمرُّن على العود، وارتداء أفضل فساتينها، الذي خِيطَ لها وهي في الخامسة عشرة، من دمقس أحمر قانٍ، تزعم أن كُمَّاه قصيران جداً الآن، لكنّها تظل شابّة وجميلة. بعد أن صعدت كورنليا إلى الطابق العلوي لضمّ خصلات تِيا في ضفيرتين جسيمتين، مُنهية الأطراف بشريطين أسودين، لا تستغرق تِيا أكثر من عشر دقائق لارتداء ملابسها، والآن، في ساحة الدهليز خفيف الإضاءة، وياكوب بلا شك في طريقه للوصول، تلتفت إلى زوج خالها بصف الثفانة، خلابة في الأحمر، وقرطاها من اللؤلؤ يلمعان في العتمة. صحيح أن معصميها مكشوفان قليلاً، لكن تِيا تقف في ثقة شديدة من نفسها، مثل وصيفة فينسية تتوضع لرسمها. شعرت نيلا بمزيج من الانبهار والكدر، من أسفلهما يجري تيار من الخوف. إن هذه الفتاة تخرج عن سيطرتها.

سألتها:

- ستتذكرين معزوفاتك على العود؟

- معزوفاتي على العود؟

كتمت نيلا تنهيدة. فمنذ حفل ساراخون، وهي كلما سألت تِيا عمّا يدور في ذهنها، أي نغمات تعزف في رأسها بدلاً من النوتة التي أمامها، تزعم تِيا أنها لا تفكر في شيء. إنها كذبة واضحة. كثيراً ما تضبط نيلا تِيا وهي تحدّق في الفراغ، وعلى وجهها شبه ابتسامة حالمة تزيلها عندما تدرك أن هناك من يراقبها. كما أنها لا تتطرق إلى مسألة الفخ الذي نصبته لها

كلارا ساراخون، مما يفاجئ نيلا التي توقعت غضباً، بالنظر إلى الطريقة التي انتهت بها الأمسية. لكن إجابات تِيا عن أي سؤال تطرحه عليها غامضة، والقصص المتوارية خلف عينيها وعلى شفتيها صارت خارج حدود علم نيلا، لم يعد في وسعها حتى أن تبدأ في تخمينها.

وفي أوقات أخرى منذ الحفل، كانت تِيا وقحة، ومغرورة، وحيويتها تفيض، مُحدثة دوائر حول زوج خالها. يصعب على المرء أن يتوقع أي نسخة سيقابل. في كل مناسبة تحاول نيلا إجراء مُحادثة، يعثر مسعاها. لقد نسيت كيف تتكلّم مع هذه الشابة الغامضة، أو أنها لم تتعلم طريقة جديدة للحديث معها. لقد اختفت الطفلة التي كانت نيلا تقرأ لها ذات يوم وعلّمتها القراءة، التي أمسكت يدها في كرنفالات الربيع والشتاء، في أثناء مشاهدة البنات اللاتي يحملن الزهور والمتزحلقين على الجليد، وأعطتها باليد الأخرى مكسرات مكرملة ساخنة، أخذتها تِيا بأصابعها المكتنزة.

قالت، بنبرة حاولت أن تجعلها لطيفة:

- تِيا، إن هذا المساء مهم.

- مهم بالنسبة إلى من؟ لماذا تتمسّكين بهذا الرجل، على الرغم من أني هي المطلوبة؟

تلعثمت نيلا:

- إنه مجرد عشاء. عشاء تعارف.

- لكنكِ قلتِ إنه مهم.

- حسناً، أجل، لأن...

- ربما هو رجل فظ. ربما يضربني، يجوّعني.

قالت نيلا، وصوتها يعلو على الرغم من نواياها الحسنة:

- إنه ليس من ذاك النوع.

- كيف تعرفين؟

- لقد أجلسني على كرسي، ألا يشير ذلك إلى طيب خُلُقه؟

بدا على تيَا عدم التصديق:

- أمُستعدة أنتِ لتزويجي بأول رجل يُجلسكِ على كرسي؟

أخذت نيلا نفساً عميقاً، وقالت:

- . لو أنكِ يوماً ما تزوجتِ برجل قام بإيذائك -لا سمح الله-، يا تيَا - فإنكِ حينها ستعودين إلينا، وتجلسين إلى جوار شمعة شحم، وتأكلين رنكة عجفاء، وتحسّرين على قدرك. إن الطلاق يدخل ضمن حقوقك، لكنني أقترح أن تجرّبي الزواج أولًا. إن مخزون هذه العائلة من المال يتضاءل، وبوسعكِ أن تنقذي نفسك.

قالت تيَا، والدموع تنبثق من عينيها:

- يا لقسوتك.

كبحت نيلا غضبها، وقالت:

- لو أنني قاسية، فهو بسبب عنادك. إنكِ تسعين إلى الحرية، أعرف ذلك. كنتُ مثلكِ...

- لستِ مثلي قط.

- صدقيني عندما أخبركِ أن الزواج قد يكون وسيلتكِ إليها.

- لكنكِ لم تتزوجي مرة أخرى قط.

- كلا." لأنكِ كنتِ هنا"، هكذا تريد نيلا أن تقول، لكنها عضت على لسانها.

رفعت تيًا ذقنها:

- ها قد ظهرت النسخة المتعجرفة، إنكِ لا تعرفين إلا القليل جداً عن الرجال، كما أرى.

تعرف كلتاهما أنه تعليق يتجاوز الحد، لكن ياكوب لا بد على وشك الوصول ولن تقبل نيلا الهزيمة. فتجيب باقتضاب:

- لقد حصلتُ على نوع مختلف من الحرية. كما أنني لم أقابل بعدها شخصاً تقرَّب مني.

- لأنكِ لم تقابلي أحداً تقرَّب منكِ، فلماذا تجتهدين بهذا الشكل في المُضاربة بي؟

- الزواج هو خياركِ الوحيد.

ثارت نيلا، وبرقت عينا تيًا باختصار، لأنها دفعت زوج خالها إلى الغضب، لكن نيلا أردفت:

- أم هل ستذهبين إلى هانا ماكفريد وتطلبين منها تدريبكِ في مخبزها؟ لم نقم بتربيتكِ لتشكيل بسكوت الزنجبيل.

- ذلك الرجل الذي يزورنا الليلة لن يكون وسيلتي إلى الحرية. لا أحتاج إلى الزواج منه ولا أحتاج إلى أمواله.

- أرجّح أن تفعلي. أمامكِ عمر طويل، يا تيًا، إن شاء الله، فإن كان ياكوب فان لوس مستعداً لمشاركتكِ ثروته...

- تعنين لو أنه مستعدٌ للتغافل عن لوني.

- ليس هذا ما قلته.

ضحكت تِيا، وقالت:

- اصبري لحسب.

- ماذا تعنين؟

- لا شيء، ثم عاد وجهها إلى جموده.

***

وصل ياكوب على متن عبّارة ضخمة، طويلة، وقريبة من سطح الماء، مطليَّة بالأسود مع نقوش مدهشة من زهور الحوذان، تتلألأ في الضوء القادم من الدهليز. كانت نيلا وأوتو ينتظران، وتِيا إلى جانبهما. قلب نيلا يدق بعنف، و لا تنفك تنقل حمل جسدها بين قدميها، لكن أوتو وتِيا يقفان جامدينْ كالتماثيل، رافضينْ إظهار أفكارهما.

عندما دخل إلى المنزل، ناول الضيف قبعته إلى كورنيليا من دون النظر إليها، وقال مُنحنياً:

- سنيور براندت، مدام براندت. تِيا.

تقول نيلا:

- سنيور فان لوس. مرحباً.

المجاملات، تحيَّات، لحظات من التوتر يتشاركها الجميع. وكورنيليا، مُمسكة بقبعته بين أسنانها، أغلقت الباب في وجه هواء الليل البارد، كانت شموع العسل التي استطاعوا أن يجدوها تحترق.

رأت نيلا انبهار ياكوب بالمنزل. قد يكون اللحم أعجف هذه الأيام، لكن العظام قوية. يُميل رأسه إلى الوراء ليتأمل بإعجاب الترمبلوي المرسوم على السقف. يحدق في اللوحات الترميدية

على الحائط بالتركيز نفسه الذي حدّق به في تيا في بهو الدخول بمنزل كلارا ساراخون. مدّ يده في جيب معطفه وأخرج غليوناً من الفخار طويل الميسم، وقال:

- لا تمانعون؟

قالت نيلا:

- لا، طبعاً. لديك متسع من الوقت لتدخين الغليون قبل تناول الطعام.

- شكراً لكِ. بحث ياكوب أعمق في جيبه. "وكدتُ أنسى: آنسة تيا، لقد أحضرتُ لك هدية. أخرج كُتيباً صغيراً مغلفاً بورق يابس. فتقدمت تيا، أخذته من يده الممدودة. وحدقت فيه، من دون تأثر. كانت كورنيليا في العتمة تراقب، وتمنت نيلا لو أنها تستطيع إشغال نفسها في مكان آخر.

قالت نيلا:

- ألن تفتحيها؟

تبادلت نظرة سريعة مع أبيها، ثم فتحت الكتاب وتوقفت لوهلة، وبينما كانت تقرأ العنوان، لاحظت نيلا توتراً يكاد لا يُرى في فك تيا، وشعرت أن حلقها يضيق، وراحت تحثها بصمت، انظري إليه. اشكريه. تكلمي!

قرأت تيا، من دون أن ترفع صوتها، ولا عينيها عن الكتاب: "نقاش نقدي حول العروض المسرحية لفوبتيوس." سمعت نيلا صوت استهجان واضح في الظل، لكن لا يبدو على ياكوب أنه قد لاحظ.

قال ياكوب:

- لم أقرؤه. لا أملك وقتاً يتّسع للقراءة. لكني فكرتُ في أنه قد يُعجبك.

خلع معطفه، فتقدمت كورنليا لأخذه، ثم غابت في العتمة لتعلّقه مع قبعته. وظهر أن ياكوب يرتدي صديرة غالية الثمن، وسروالاً أسود، وفي قدميه، زوج نعال هما الأكثر روعة. تبدو عليهما النعومة الفائقة، في تناقض تام مع شوارع أمستردام.

نظرت تيا إلى النعلين أولاً، قبل أن تصعد عيناها لتستقرا وجيزاً على وجهه، وقالت برقة:

- شكراً لك، يا سنيور. أنا متأكدة من أنني سأتعلم الكثير من صفحاته.

- متأكد من أنكِ ستفعلين.

- تفضلوا. دعونا نجلس في الصالون.

***

يتألق الصالون بنار كبيرة في المدفأة، وعلى الرغم من أنه لا خدم ينتظرون في الأركان، ولا خادمات يهرعن في المكان، تدرك نيلا أن المنزل جميل المظهر. لا يُقلقها كثيراً نقص العاملين، إذ ليس غريباً حتى بالنسبة إلى عائلات التجار الثرية أن يحتفظوا بمجموعة ضئيلة من الخدم. كانت مارين تقول دائماً إنه لمن الحماقة أن يملأ المرء منزله بالغرباء: وإنه لمن التعقُّل والورع الاكتفاء بمنزل صغير. لكن إن حدث وذكرت نيلا هذا الأمر يوماً، فإن كورنليا ترفع حاجبيها وتمد أمامها يدين مشققتين.

"لكن منزلنا ليس صغيراً، أليس كذلك؟" هكذا فكرت نيلا وهي تغلق باب الصالون مبتسمة. بل هو ضريح ضخم، تكلل

هواءه أسماء الموتى.

قال ياكوب:

- أعلن أن هذا واحد من أروع المنازل في المدينة. جوهرة مخفية.

لكزت نيلا تيَا برفق. فغمغمت:

- شكراً لك، يا سنيور. كان قد أصابها خرس رزين، مقارنة بشخص حريص جداً على إبداء آرائه.

قال ياكوب:

- إن البيوت الأخرى تتسربل بالذهب والمخمل، والرخام، والعاج، في كل مكان تقع عليه العين. إنه كالعيش داخل صندوق مجوهرات. لا فتحات تهوية تسمح بالتنفس.

سألته نيلا، وهي تتخذ مجلسها وتشير إليه أن يفعل المثل:

- لا تعجبك الزخرفة؟

أجاب ياكوب، وهو يأخذ مكانه إلى جوار مدفأتهم وكأنه يفعل هذا كل يوم:

- لا شيء يضاهي الزخرفة المناسبة في المكان المناسب. مدّ يده إلى جيب صديريه وأخرج صندوقاً صغيراً من العاج، و شرع في حشو الغليون بفتافيت داكنة من ورق نبات، والتي تفترض نيلا أنها ولا بد تبغ. يتابع:

لكن لو أن المكان حافل بالحليّ، فسوف ينتهي الأمر بأحدها إلى الاصطدام بيدي والتهشم على الأرض. أما هنا فامتثال ورع بجمال الجوهر. هل أقمتم حفلات كثيرة؟

قالت:

- ليست بالكثيرة جداً، يا سنيور. ومن دون أن يرى ياكوب، رمى أوتو نيلا بنظرة سريعة، وتابع بابتسامة مُقتضبة:

- لقد عشنا سنين سعيدة كثيرة في هذا المنزل.

يستطيعون هنا، في الصالون والدهليز وحجرة المائدة، ادعاء مظهر خارجي مناسب، فيختفي بذكاء الفراغ الحقيقي للمكان، إحساس الهجر من غرفة إلى أخرى، ولكن ماذا لو أنه أدرك مقدار يأسهم؟

قال ياكوب، مخاطباً أوتو.

- سنيور براندت، لم أرك في حفل ساراخون."

يقول أوتو: "كنتُ هناك. لكني لم أطل البقاء.

- ليست تسليتك المفضلة؟

ابتسم أوتو ابتسامة فاترة، وقال:

- إنني أفضِل تجمعات أكثر هدوءاً، مع أصدقاء حقيقيين. قيل لي أنك محامٍ؟

- أنا كذلك. إنني أرعى مصالح العائلة في المدينة. العقود الجديدة، وفرص التداول وما إلى ذلك.

- وأسرتك، هل تعتمد عليك للقيام بذلك؟ مازلتَ شاباً.

- لقد مات أبي منذ عشرة أعوام. وهذا يسلب المرء شبابه. عادت أمي إلى لايدن، وكلفتني بمسؤولية تسيير الأمور في أمستردام.

قال أوتو:

- ابن بارّ.

- سيكون عليك في هذا أن تسأل والدي.

ابتسم ياكوب ابتسامة عريضة، وهو يُغطِّس عود إشعال أخذه من على رف الموقد في النار لإشعال غليونه. كانوا يراقبونه وهو يسحب الدخان إلى فمه. إنه يندفع من منخريه، وتمتلئ الغرفة برائحة خشب خانقة، يخلِّفها مذاق ليموني، قال وهو يعود ثانية:

- إنني أجرب الأُتْرُجّ (نوع من أنواع الليمون) والشمر. أشتري التبغ من تاجر في فيرجينيا.

فسأله أوتو:

- هل ذهبتَ إلى فرجينيا؟

فهزّ ياكوب رأسه نافياً:

- لم أغادر أوروبا.

- فهمت.

- وأنت، يا سنيور براندت. هل أنت رجل راحة أم عمل؟"

جذب أوتو انتباه نيلا. إنه ينظر إلى ضوء النار، مُتهيّئًا للكذب:

- إنني أشرف على حركة الواردات في مخازن الفوك. مدير التوزيع.

أومأ ياكوب برأسه، وسحب نفساً آخر من مبسمه. إنه لا يلاحظ خطوط الضيق على وجه أوتو:

- لا بد أنها وظيفة مُجهدة، مع حجم المبيعات في بلدنا.

سكب أوتو لياكوب كأسا من البوردو وجلس، قائلاً:

- فعلاً...

فالتفتت نيلا إلى تيا قائلة:

- تيَا، هل نستطيع، قبل المائدة، أن نستمع ربما إلى معزوفة بافان؟

وقبل أن يتأتّى لتيَا أن تجيب، سمعوا طرقاً عالياً على الباب الأمامي، فالتفتوا جميعاً، وهمّت تيَا بالتوجه إلى باب الصالون، مُتلهفة بوضوح إلى الهرب داخل الدهليز.

منعتها نيلا، وقالت وهي تُثبّتها بنظرة:

- كورنيليا ستفتحه. ابقي. اعزفي لنا شيئاً.

تجهم وجه تيَا، وذهبت إلى صندوق العود، وكبحت نيلا رغبتها في أن تنهض وتجيب الباب بنفسها. لم يكن في خطتها لهذه الليلة ضيف ثانٍ، وبينما يتسرب الهواء البارد من شق باب الصالون، و تيَا تعزف على العود بفتور، كانت نيلا تتشوق إلى سماع المحادثة المكتومة في الدهليز. يتقاسمها أمل ودعاء أن تكون الزائرة هي صانعة الدمى. بعد عودة دمية الرضيعة إلى الظهور من العليّة، والحضور الغريب في الحفل، قد آن الأوان من دون شك. سوف تترك صانعة الدُمى شيئاً ما على عتبة الباب، تماماً كما فعلت منذ كل تلك السنوات التي مضت.

يُفتح باب الصالون، وينهض أوتو، بينما قلب نيلا يخفق، هتف أوتو بمودة:

- كاسبر فيتسن! تفضّل، تفضّل!

تملك الارتباك نيلا وهي ترى بُستانيّ كلارا ساراخون. كاسبر فيتسن، بشعره الجامح، وشاله الصوف المتهدّل حول

عنقه، حقيبة الكتف المهترئة التي يحملها بإهمال، يقف على عتبة الصالون. وبين يديه يحتضن، من بين كل الأشياء، ثمرة أناناس. كانت تِيَا قد توقفت عن العزف، وتحدق في الوافد الجديد بتعبير تسلية لا تكاد تخفيه.

وبختته كورنيليا:

- ادخل بطريقة ملائمة، يا سيد فيتسن. إنك تتسبب في إدخال الليل.

مشى كاسبر فيتسن بلا هدى وسط السجادة، وتختفي كورنيليا، مُرسلة نظرة يأس إلى نيلا، خلف الباب المغلق، عائدة إلى أمان مطبخها. حدّق الوافد الجديد في أرجاء الغرفة، وأخذ تعبير الحماس المبدئي على وجهه يخبو إلى تردد. كانت النار تواصل طقطقتها، صمتت نيلا لوهلة، وتساءلت من جديد:" ما الذي يفعله هذا الرجل هنا، بأصابعه الطويلة والنحيلة القذرة، وهالته الكثيفة، وهذه الثمرة ذات الأشواك فوق كفيه مثل مخلوق غريب أنقذه من البرد"

اختلست نظرة إلى ياكوب، كان يدخّن غليونه إلى جوار المدفأة بنظرة تسلية مُتجرّدة. فكرت:" لا بد أنه يظننا ندير أمسياتنا كالحانات. باب مفتوح، بوسع أي أحد أن يدخل ويخرج عبره"!

تجنب أوتو النظر إليها، وبدأت تشعر أن اضطرابها يتحول إلى غيظ. كان يعرف كم هو مهم هذا المساء. كم أن وجود رجل مثل ياكوب قد يكون ثميناً بالنسبة إليهم - ولكن، ها هو ذا رجل الأناناس الذي لم ير مشطًا منذ عيد القديس ميخائيل، وأوتو، يرحب به بذراعين مفتوحين.

قال كاسبر:

- كان لطفاً منك دعوتي إلى العشاء.

شعرت نيلا بخديها يشتعلان. دعوته إلى العشاء؟ بعد كل التخطيط الذي بذلته هي وكورنيليا في الطعام، كل الساعات التي أمضياها في تلميع هذا المنزل، فساتينهم، شعورهم، بينما لم يفعل أوتو شيئاً سوى الدردشة مع بائع نبيذ، وتسكّعت تماً في غرفتها؟ سيكون هناك ما يكفي من الطعام من أجله، لأن كورنيليا تعدُّ دائماً كمية كبيرة، لكن ليست هذه هي المشكلة. المشكلة أن أوتو قد خرّب الليلة مُتعمّداً. تستدعي ما تبقى من سكينتها. لا يجب أن يرى ياكوب اضطرابها.

توجه كاسبر إلى نيلا. وقال، مُقدِّمًا الأناناسة:

- مدام، هدية شكر.

- شكراً لك، يا سيد ڤيتسن." سيطرت نيلا على ملامحها وهي تقبل ثقل الثمرة.

- هل حملتِ واحدة من قبل؟

- أعترف أنني لم أفعل. إنها أثقل مما توقعت. ثم رفعت عينيها إلى كاسبر، وأردفت: "ملمسها خشن قليلاً."

ابتسمت، ونظرت إلى هديتها، وفي داخلها إغراء قوي أن تلقي بها في النار وترى ماذا قد يحدث. أرغمت نفسها على إظهار الهدوء، والترفق بهذا البستاني غريب الأطوار كما كانت كلارا ساراخون معه. مادام في وسع كلارا ساراخون أن تستضيف رجل أناناس في حفلتها، فكذلك يمكن لنيلا براندت. سارت إلى المدفأة، ووضعت الثمرة برفق على الرف، بينما وقفت المجموعة على مسافة لتقويمها.

قال ياكوب:

- يا له من شكل غريب.

فردّ كاسبر:

- شكل جميل.

علق ياكوب:

- إنها تشبه شيئاً بين ثمرة في غابة، وكرة يتقاذفها مجموعة أولاد على العشب.

قالت نهلا تشرح لياكوب:

- لقد التقينا بالسيد فيتسن في حفل كلارا.

ردّ ياكوب:

- يظهر أن تلك الليلة كانت تضم مجموعة قيّمة من السادة.

بدت تيَا أنها تختنق، وقد غطت فمها بيدها. بينما احتسى أوتو رشفة أخرى من النبيذ، وانخفضت معنويات نهلا أكثر. فكرت" مساء واحد. كل ما أردته هو عشاء واحد طبيعي".

فتش كاسبر في حقيبته ويخرج وعاء زجاجياً، وقال:

- أحضرت هذا أيضاً. المربى الذي تذوقتموه. ولكن ربما لن ترغبوا فيه؟

- بل نرغب طبعاً. قالها أوتو، وهو يأخذ الوعاء من يدي كاسبر: لقد أعجبني مذاقه تماماً" ووضعه على الرف إلى جوار الأناناسة. وقال مبتسما في وجه نهلا:

- الآن وقد اكتمل الجمع، أظن الوقت حان لتناول الطعام.

***

كانت المائدة عبارة عن بحر من الدمَّسق الأبيض يغطيه ما تبقى من أواني يوهانس الزجاجية البرّاقة. بدت نيلا منطوية على نفسها بينما الرجال يتحدثون عن التجارة، و الأناناس، عن الإنجليز والفرنسيين.

جلس أوتو على رأس المائدة، وتيَا عن يساره، وياكوب عن يمينه. أما نيلا وكاسبر فقد جلسا في المؤخرة. وراحت تحدِّق في اللوحة خلف رأس ياكوب، آخر لوحات مارين المفضلة، حطام سفينة للفنان باكهايزن. يمكنها أن تسمع صرير السواري، وعواء الرياح الاستوائية، وصرخات البحارة يغرقون، لا تظهر منهم سوى الأذرع تحت رذاذ كثيف. لطالما كرهت هذه اللوحة. فكرت، مارين هي الشخص الوحيد الذي قد يشتري رسماً لحطام سفينة، ويعلِّقها فوق رؤوسنا في حجرة المائدة. تذكير بخطر التطلع إلى ما لا نملك، داخل غرفة الملذات.

لم يمضِ وقت طويل حتى اختفت كل الفطائر، والدجاجة ولحم الغزلان. هُزمت الديوك المُسمَّنة، وتبعثرت بقاياها فوق الصحون كقطرات صغيرة حمراء كالدم تساقطت من نبيذ البوردو فوق الدمَّسق. تيَا، التي إلى جوار زوج خالها، تظاهرت بالانصياع، لكن نيلا رأت في داخلها ناراً تشتعل. حدّقت تيَا داخل كأسها، وكأن ثمالة نبيذها محيط لا يُسبر غوره.

فكرت نيلا: "لم أكن هكذا قط في مثل سنها. كنتُ أفعل كما أؤمر! هل تظن فعلاً أنني رتبت كل هذا من أجل متعتي الخاصة؟ ألا ترى أنني كنتُ أفضِّل البقاء في الطابق السفلي مع كورنيليا ولوكاس، مُستدفئة بالنار؟ إن تيَا تتصرف وكأنها تسدي لنا معروفًا. إنها لا تكترث لشيء سوى لنفسها، لا

تدري كيف ستهاجمها السنون مثل قطة، تنتظر خلسة في مكان قريب.

كوّرت نيلا قبضتيها في حجرها، وهي تقول لنفسها كوني هادئة، كوني سمِحة: تذكري في أي جو وُلدت الفتاة. إنها ليست فتاة سيئة، إنها فقط فتاة ضجِرة لا تدري كيف يسير العالم.

- دفيئة لزراعة ثمار أناناس مثالية، ذاك هو حلمي. قال كاسبر، و كانت عينا أوتو مُشرقتين وهو يتابع حركات عالم النبات بالملعقة وابريق الماء اللذين يستخدمهما كنوع من التوضيح: توجد دفيئات جيدة في الملكيات الخاصة فعلاً. هناك كلارا ساراخون وزوجها. وتلك الموجودة في ليوينهورست، وسورخفليت، وكلينجيديل، وفايفرهوف بالطبع."

ابتسم أوتو:

- تخبرني بترونيلا دائماً، أن لا شيء يصلح عمله في الريف. ربما هي مخطئة.

"لم يكن أنا. كانت ماري"، هكذا أرادت نيلا أن تقول. لكن آخر شيء قد تفعله الآن هو الإتيان على ذكر والدة تِيا.

بدا كاسبر متفاجئاً. وحدق في اتجاهها.

- أتعرفين الريف، يا مدام؟

- كنت.

التفت أوتو وتِيا إليها، وكأنما يتوقعان منها أن تدافع عن طفولة الريف المملة. قالت: -

- لكن حياتي في أسِدلفت قد انقضت في جمع التفاح. لم

نكن نعرف شيئاً عن هذه الأمور. لم تكن لأمثالنا.

مطّ ياكوب شفته السفلى:

- لكن العالم يتقدّم.

شعرت نيلا بالتيبس داخل مشدّها، بالآلية في عقلها. حجرة المائدة متوهّجة بالضوء، لكنها تبدو كالسجن. كانت قد أحكمت شد شعرها أكثر من اللازم تحت قلنسوتها وتريد الآن أن تمزقه. بعد كل تخطيطها، كل مجهودها، تريد أن تسحب مفرش المائدة من أمامها. تريد أن ترى آخر أواني يوهانس الكريستالية، وزبدياته الفاخرة، وشوكه الفضية، تسقط على الأرض، فتتقافز أو تتهشّم فوق الأرضية الناصعة. أن تركض إلى الطابق العلوي وتنزع دبابيس شعرها. أن تطفئ شمعتها وتدخل تحت الأغطية. على الرغم من ذلك يواصل الرجال حديثهم.

قال كاسبر:

- أظنك محقّاً، يا فان لوس، إنه يتقدَّم، وأصبح هناك الكثير مما يصلح عمله. ما يحتاج إليه المرء حقًّا هو دفيئة تكفي مائتي شتلة. دفء في الشتاء، ليلاً ونهاراً. يمكن زراعة ثمر الأناناس. جوافة، منجا. زهرة الآلام، موز.

قال ياكوب:

- فكر في المربى. الملبّسات. الروم المُنكّه. سوف يدرُّ ذلك ثروة.

قال كاسبر، رافعًا المِملحة:

- لكن ما يحتاج إليه المرء لكل ذلك، إلى جانب الأرض طبعاً، هو علاقة بشركتي الهند الغربية والهند الشرقية."

سألته نِيا:

- لماذا؟

أجاب كاسبر:

- لأن كلتا الشركتين متفوقان على أولئك النبلاء الهواة في أراضيهم بالريف بمزية عظيمة. خاطبها بالنبرة نفسها، كما لو كانت رجلاً: أكثر البذور والأزهار تدخل هذه المدينة عبر طرق التجارة الخاصة بهم. إنهم يتحكمون في سوق الصادرات والواردات. من يمكثون في منازلهم هم أصحاب القرار، أتزدهر البضاعة أم تموت. لكنها مكلِفة. وهذا يُعيدنا إلى طبقة النبلاء." يتنهد. "وبالتالي كلارا ساراخون."

سأله أوتو:

- إلى أي حد هي مكلفة، تقريباً.

أجاب كاسبر: "آه، آلاف الجلدرات. ونحن نحتاج إلى تقديم نماذج أفضل من دفيئات البرتقال وأنظمة التدفئة التي لدينا فعلاً. نحتاج إلى توفير درجات حرارة للهواء والتربة، تشبه تلك التي في جزر الهند. نحتاج إلى اكتشاف هل البخار هو أفضل الحلول. هل سيكون لحاء الدِّباغة هو أطول من يحتفظ بالحرارة ويضمن استمرارية نمو الثمار.

لا تفهم نِيلا شيئاً عن هذه الأراضي الخاصة بالأثرياء، هذه الحدائق، هذه المُخطَّطات لزراعة فواكه غريبة. هذا الطموح. لحاء الدِّباغة ليست مفردة في معجمها. تريد أن تصرخ في كاسبر:" لماذا أنت هنا؟ كان الأناناس والمنجا قد اجتاحا ديوك كورنيليا المُسمَّنة. أوتو راقته الفوضى التي قد جلبها مهووس كهذا إلى عشاء مع مُرشَّح للزواج بابنته، لكن نِيلا لن تستسلم.

كما أن ياكوب، على الرغم من غلبة استصلاح الأراضي وتلقيح النبات عبر القارات على الحديث، يبدو كمن يقضي وقتاً ممتعاً. يُخرج الصندوق العاجي الصغير مرة أخرى ويقبض كبة أخرى من التبغ، فيضعه بأناقة في تجويف غليونه. فكرت تيلا: "سوف يغرقنا في سحب من الدخان في أثناء الطعام. وسوف نسمح له".

قالت، محاولةً التشبث بتلابيب الحديث:

- أتساءل كثيراً، كيف يُحافظ على التبغ جافًا في أثناء نقله بحراً. كيف يتم ذلك؟

لم يحدث أن تساءلت قط عن شيء كهذا، لكن السؤال يخرج من فمها، مُدّعيا التهذيب والاهتمام. إنها امرأة، لذا يجب أن تستفهم، يجب أن تختلق الأسئلة حتى يستعرض الرجل علومه. كتمت تيَا تثاؤبها وأنصتت.

أجاب ياكوب، وهو يمدُّ يده إلى الشمعة بعود ويشعل محتويات غليونه:

- إنها عملية مُرهقة وطويلة. الرطوبة والملح، أشعة الشمس، والظلام. تصبح مستحيلة في بعض الأحيان." ثم نظر خلفه وأشار إلى حطام السفينة المرسوم:

- هل لديك رغبة في السفر إلى الخارج، يا آنسة تيَا؟

جفلت تيَا من السؤال، لكنها بعد لحظة صمت وتفكير، قالت:

- أحب أن أرى باريس ولندن. أن أذهب إلى شارع دروري لين لمشاهدة الممثلات هناك. أحب أن أزور الأوبرا. ثم تُقطِّع آخر ما تبقى من فطيراتها بتركيز، بعينين خفيضتين، وكأنها أفصحت عن شيء، في نفسها لم تكن ترغب في منحه.

باريس، لندن، درووري لين. إنهم لا يتحدثون أبداً عن هذه الأماكن، إلا أنها تبدو مألوفة جداً إلى تيَا. تأملت نيلا تيَا، وتساءلت بلهجة فظة لم تردها:

- أنا أفكر في حطام سفن وزوج ميت، وتيَا تحلم بباريس؟ وما عيب أمستردام؟ التفتت المجموعة نحوها في دهشة. فتلعثمت، مُرسلة نظرة سريعة إلى ياكوب، وقالت:

- في أمستردام، يستطيع أي رجل أن يتسلق سلم المجد.

يقول ياكوب:

- صدقتِ.

ضحك كاسبر:

- أحقاً تؤمنين بذلك؟"

قالت نيلا، محاولةً ألا تُستفز:

- كان هذا هو الوضع بالنسبة إلى زوجي.

- مدام براندت... قال كاسبر، وفخذاه الطويلان يرتطمان بأسفل سطح المائدة في غمرة انفعاله: إن هذه مدينة تحتل فيها خمس عائلات تقريباً كل المناصب المؤثرة. يحرصون أن يرث أبناؤهم وأحفادهم كل شيء. يتزوجون من وسطهم. وتبقى الدائرة الذهبية للنفوذ من دون اختراق أو نهاية.

نفث ياكوب دخان ليونه، فامتلأت الغرفة برائحة الدخان والشمر. وكاد صبر نيلا أن ينفد :

- حسناً، لا بدَّ أنك تعرف كل شيء عن ذلك، يا سيد فيتسن، بما أنك تعمل مع كلارا ساراخون. ربما أنت تنعم

بتأثير تلك الدائرة الذهبية كثيراً جداً.

يضحك كاسبر:

- آه، لكن هذا ليس صحيحًا، واختلس نظرة إلى أوتو.

- بدءاً من الأمس، لم أعد أعمل لديها.

- ماذا؟ قالت، وبدت عاجزة عن إخفاء دهشتها. لقد بدت كلارا ساراخون متيقنة جداً من ملكيتها.

- أجل، يا مدام. لقد حصلتُ على حريتي.

- حريتك؟ لتفعل ماذا؟

وقبل أن يتأتّى لكاسبر أن يجيب، تدخل أوتو، قائلاً:

- سنيور فان لوس، أخبرنا: منذ متى تملك منزلك في البرنسغراخت؟ هل هو واحد من تلك المساكن الضخمة الجديدة؟

احتسى ياكوب رشفة من النبيذ، قبل أن يجيب قائلاً:

- إن عمره أربع سنوات، وهي المدة التي مضت منذ أن اشتريته. إلا أنه يظل كبيراً وخاوياً، باستثنائي والسيدة لوتخرس، مدبرة منزلي.

حينما سمعت نيلا أن ياكوب نفسه يملك هذا العدد الضئيل من الخدم، شعرت بالارتياح. وتابع: لكني سأحب أن أعمِّره. أن تكون لديَّ مائدة كهذه. بوجوه كثيرة من حولها، كما كان في طفولتي. طعام طيب وأجواء بهيجة. إنني عازم بقوة على تأسيس شجرة عائلة خاصة بي. نسب خاص بي - مهما ظنّ رجل مثل فيتسن أنه أمر لا يُعتد به كثيراً.

ابتسم ياكوب، مثل أمستردامي أصيل، وهو يُفصح عن حلمه، ويعلن عن غرضه، ويتحدث عن منزله أي نفسه. راقبت نيلا تيا وهي تحني رأسها، وتمسد طيات ثوبها الأحمر، منعزلة مرة أخرى عن الأمسية.

ضحك كاسبر بودّ على التعليق اللاذع، لكن نيلا فكرت في فروع شجرة ياكوب، تنمو عاليا حتى الشمس، أوراقها تتناثر فوق هذه الأرضية المُتقلقلة التي سيهجرونها في النهاية. في وسعهم أن يبدؤوا من جديد بشتيلة. سوف يبدؤون من جديد، مضطجعين في حلم ياكوب. ياكوب فان لوس هو مثال نادر وعليهم أن يحتفظوا به. بل الأفضل: أن يدفعوا به إلى الرغبة في البقاء.

قالت:

- دعونا ننتقل إلى الصالون." كفى أناناس، ودفيئات، وإشارات ضمنية إلى طفولتها في أسدلفت. رفعت نيلا عينيها مرة أخرى إلى حطام السفينة المرسوم. كم كانت مارين تريد مني أن أحارب من أجل ابنتها، حتى لو أن ابنتها لا تحب ذلك. التفتت إلى المجموعة بابتسامة جديدة:

- شيء من العود قبل أن يغادر السادة؟"

قال ياكوب:

- ممتاز. أحبُّ دائماً الاستماع إلى العود.

10

في تلك الليلة، حلمت نيلا بأسِدلفت.

لم يكن هناك أثر للحياة في منزل طفولتها . كانت تقف أمام طابقيه المريضين، طوب أحمر يرتفع صوب سماوات بيضاء، والرياح متلاطم مُخلخلة قلنسوتها. وبدت أشجار منزل أبيها القديمة مثل حرس ميت. البساتين القاحلة التي كانت تحمل يوما تفاحاً وكرزاً، صارت الآن جيشاً بلا معركة يحاربها. قبور عائلتها في بستان التفاح: خِيرت أورتمان، والدها، بترونيلا، والدتها. أرابيلا وكاريل، شقيقاها. جميعهم ميتون، كما في الحقيقة، لكنها تدير لهم ظهرها وتدور حول المنزل، متوقفة عند البحيرة.

رقعة الماء كبيرة وعكرة، يتساوى في ذلك السطح وما تحته. لم يعد هناك بط مسكوفي، لكن نيلا تلمح في المنتصف قارب طفولتها، متعفناً، متقشراً، ينساب نحوها من دون أن يحركه أحد. تعلم أن شيئاً رهيباً سيحدث عندما يلمس القارب الضفة، لذلك يجب ألا يصل إليها أبداً، فاستدارت عائدة إلى المنزل.

كانت النوافذ الخاوية تنظر إليها من علٍ، جلوات فاغرة غابت منها الألواح، تسللت من خلالها النباتات المتسلقة إلى الداخل. بدا أنه يتقوض أمام عينيها، كانت الفجوات في السقف تتسع، وهي تحدق في تساؤل مذعور. إنها لا تستطيع الدخول إلى هناك من دون شك. لكنها لا تستطيع البقاء بالقرب من البحيرة. فوق الغرفة التي مات فيها خِيرت أورتمان، متلاشياً للمرة الأخيرة في خمره، بدأت المداخن تتداعى. إلى جوارها الغرفة التي انضبت فيها أمها، ولكمت الجدران بقبضتين

مرضوضتين، وعقلها يتفسّخ. في الأسفل توجد الغرفة التي التقت فيها نيلا بيوهانس براندت، وزُوّجت منه، عساها يبدآن حياة جديدة. البناء الآجري يبدو أنه يتموّج، كل غرفة من غرفه تكاد لا تستطيع أن تحبس حزنها.

خلفها، ارتطم القارب مرات عدة بطرف اليابسة. كان الرعب المُنبعث منه يخنقها. وتناهى إليها صوت جسد يجرّ نفسه من البحيرة، قدمان تمشيان بتثاقل فوق الحصى، وتقترب الخطوات. أخيرًا، تنتبه نيلا راكضة حول أطراف المنزل. اقترب الظل في إثرها، وهو يقطّر ماءً، ويحاول وضع يده على خصرها، وأصابعه المخضلة تحاول مُتخبطة الإمساك بتنورتها. ركضت نيلا بين الأشجار، مُتعثّرة فوق الجذور، وأربطة قلنسوتها تتطاير، وقدماها الحافيتان تغوصان في الأرض السّبخة، باردتان كالثلج، مكسوتان بالتراب. تحركت بصعوبة، لكنها واصلت الركض. مدّت يدها، صارخة، إلى الباب، ورغماً عنها أدارت المقبض، فسقطت في مكان ما يقبع خلفه.

استيقظت نيلا وهي تشهق راقدة في الظلام في أمستردام، قلبها يدق بعنف، وعرقها يجعلها تلتصق بالشراشف. رقدت هناك في صمت. هل صرخت فعلاً؟ تنتظر أن يُفتح باب حقيقي، وقع قدمي كورنيليا، صديق قديم يتحسس رأسها، ضوء شمعة يبدد قلقها. لكن أحداً لم يأتِ. الزهرة المظلمة التي كانت قد تفتحت داخل ضلوعها أخذت في الانغلاق، وعاد تنفسها إلى طبيعته.

جلست نيلا في الفراش، إذ كان يُفترض بها أن تبدأ من جديد قبل ثمانية عشر عاماً ، وبأصابع مُرتجفة أضاءت شمعة.

عندما يحلم المرء بغرف طفولته، فإنه يحلم بنفسه. أو بحث

عنها على الأقل. عادت إلى الاضطجاع في فراشها، مُحدِّقة في تشققات السقف. إنه منتصف الليل: لا أصوات تأتي من القناة.

كانت هناك نيلا أخرى قبل أمستردام: قبل زوجها الميت، يوهانس براندت، وشقيقته الميتة، مارين. قبل شواهد قبور عائلتها تحت أشجار أورتمان. كان هناك شخص آخر قبل كل هذه الأشباح التي تبتغي منها شيئاً. فتاة أطلق بصرها على مساحات من الحقول، فتاة قطفت الفراولة من الشجيرات المُجاورة للباب، وتجوَّلت تحت سماء أسدلفت الشاسعة، حيث كانت القطعان ترعى في أفق منخفض جداً حتى لكأن الرب هو من يسوقها.

ولكن على الرغم من أنَّ هذه حقائق، تلك الطفلة كانت موجودة فعلاً، وكذلك المنزل، والأبقار، والفراولة، إلا أن نيلا تعرف أيضًا كيف تَلِمّ الذاكرة حياة المرء، فتضخمها، أو تقلِّصها. لا شيء مما يتذكره دقيق. ربما يجد نفسه مؤمناً بوجود جمال وشجاعة، مُتيقِّناً من أنه كان يمتلكهما ذات يوم. لكنه لا يستطيع الجزم بذلك.

أخرجت نيلا من درج شراشفها منحوتة الرضيعة وأطبقت عليها يدها. وضعت رأسها على الوسادة، مُؤمِّلة النَّفس بالسلام. ظلت تتقلب في شراشفها حتى الفجر، كان المال هو من يقلقها، وهل سيرغب ياكوب في رؤية تِيا مرة أخرى، ولماذا تحركت نوافذ أسِدلفت، في عقلها، مثل أفواه فاغرة.

***

لاحقاً في الصباح التالي، تناولت نيلا، الفطور وحدها في مطبخ الخدمة، كانت مرهقة. وكانت تِيا، وقد ارتدت كامل

ثيابها فعلاً، وأخذت تنزل السلالم، ارتبكت تيا وكأنما كانت تأمل أن تجد كورنيليا، أو لا أحد على الإطلاق حتى تأكل في سلام، كما كانت تفعل نيلا التي آلمها أن ترى الحذر يبدو على تيَا، وعندما همّت بالرجوع، نادتها:

- تيَا؟ انتظري.

- أنا متعبة، يا خالة نيلا.

- وكذلك أنا. هل يمكننا التحدث عن ليلة أمس؟

لكن تيَا ظلت واقفة على الدَّرج، رافضة التحرك:

- هل استيقظ بابا؟

- ليس على حد علمي.

تأملت نيلا ثوب تيا الأسود المُهندم، وقد عقدت الوشاح حول عنقها. كان لوكاس يهبط الدرج مُهرولاً ويستقر بين طيَّتين في تنورة تيَا. قالت نيلا:

- ليس من عادتكِ ارتداء ملابسكِ في هذا الوقت المبكر.

- غرفتي باردة. إن هذا المنزل لا يكون دافئاً بما يكفي قط.

- فطور؟

- لستُ جائعة.

- في وسعي أن أعدَّ شيئاً من البايكون، أو أخبز...

- لستُ جائعة.

لم يُغفر لنيلا إذن ليلة أمس. ولا الحفل، في الغالب. ولا أي من الأعوام الثمانية عشر الفظيعة التي مضت من حياة تيَا. حاولت تمالك نفسها، وقالت:

- حلمتُ أنني في أسِدلفت! رفعت تِيَا عينيها في دهشة، فرأت نهلا شرارة فضول في عينيها، لكن الفتاة أخمدتها سريعاً، وأضافت:

- حسناً. إنه أقرب إلى كابوس في الواقع.

جلست تِيَا أمام زوج خالها، بتعبير خاوٍ. ومالت إلى الأمام ، لتأخذ القشرة من بايكون نهلا التي تركتها تضعل.

قالت نهلا:

- لم يكن مثل المنازل التي وصفها كاسبر فيتسن. بل العكس، في الواقع. على الرغم من أنني كدت ألا أتذكر كيف يبدو في الحقيقة.

شعرت كأنها حملت الأوراق المتساقطة في بساتين أبيها في الحلم من غرفة نومها إلى هذه الغرفة الدافئة. سوداء ومبتلة من المطر، تكاد تلتصق بجلدها. قطعت تِيَا قشرة البايكون إلى اثنين، مُلقية نصفاً على الأرض للوكاس. ودسّت النصف الآخر في فمها، وراحت تمضغه بطريقة لا تليق بالسيدات. مرة أخرى، تجاهلت الأمر. ومدّت يدها إلى لوكاس تربت على رأسه.

- إنني أتذكر وجود الكثير من الحيوانات حيث ترعرعت.

صمتت تِيَا ولم تقل شيئاً. كان سيكون على نهلا أن تبذل مجهوداً أكبر، فقالت:

- ومع ذلك، فإن أياً من حظائر أسِدلفت لا تُضاهي حيوانات حديقة بلو جونز. هل أحضروا حيوانات جديدة هذا العام، هل تعرفين؟ هل ذهبتِ مع كورنيليا؟

تهز تِيَا كتفيها في عدم اهتمام، وواصلت صمتها. كانتا تعصتان

إلى صوت لوكاس وهو يمضغ البايكون.

قالت تِيَا لجأة، بحرارة:

- أعتقد أنكِ محظوظة جدًا لأن لديكِ مكاناً تهربين إليه، منزل ريفي."

"تزوجي ياكوب، ولربما تحصلين على واحد أنتِ أيضًا" هكذا أرادت نيلا أن تقول، لكنها مُزمعة ألا تثير حفيظتها، سعيدة بالحصول منها أخيراً على جملتين كاملتين. إنها لا تحب أبدًا أن تتحدث أو تفكر في أسدلفت، وينتابها الندم حتى على ذكر ما رأته في نومها ليلة البارحة. لكن ها هما، تتبادلان حديثاً مُهذَّباً، بينما تتصاعد أشياء أخرى، أشكال قاتمة من وسط أوراق شجر أبيها.

- كان أقرب إلى مكان للفلاحة وتربية المواشي منه إلى فردوس ريفي. لكنه تداعى.

قطبت تِيَا حاجبيها، وقالت باستغراب:

- تداعى!

فردت نيلا:

- نعم، أصبح العيش هناك متعذراً.

فقالت تِيَا:

- لا أظنه أكثر تعذُّراً من العيش هنا.

- كانت هناك بحيرة... توقفت نيلا وقد شعرت أن الهواء يفرغ من صدرها، ولم تعد تقوى على قول المزيد.

- أحب أن أرى بحيرة. إننا لا نملك حتى عبَّارة.

"يستطيع ياكوب أن يمنحكِ عبارة" أرادت أن تقول هذا، لكنها استبدلتها بالقول:

- ولكن يا حبيبتي، إنكِ لا تحسنين العوم.

- في مقدوري أن أتعلم. إن عدم مقدرة المرء على فعل شيء الآن لا يعني أنه لن يقدر على فعله إلى الأبد.

- كان أخي وأختي يُحسنان السباحة. كاريل وأرابيلا.

- هل حضرا إلى هذا المنزل من قبل؟

- كلا. كانا أصغر مني بكثير. لقد سُفِّرتُ للزواج من يوهانس وتأسيس حياتي في أمستردام. كنتُ في حاجة إلى تعلم الكثير منذ البداية.

تذكرت نيلا الجفاء الذي استقبلتها به مارين في الأسابيع الأولى، كيف جعلت الاندماج عسيراً على نيلا: "كنتُ أتعلم كيف أكون زوجة، باختبار إدارة منزل. وكل ما يتعلق بذلك."

نظرت نيلا إلى تيا. وكل ما يتعلق بذلك. عشيق زوجها السري. العلاقة السرية بين مارين وأوتو. المساعي التي بُذلت في بيع سكر لتوفير قوت الأسرة، وما يربط كل ذلك معاً، صانعة الدمى. صانعة الدمى، دوّارة دائماً في فلك حياتها، حيّة في مركزها. إن تيَا لا تعرف أبداً كيف كان الأمر وكيف من الممكن أن يصبح أسهل بالنسبة ...! لكن نيلا تعلم أن عليها تقديم صورة إيجابية عن زواجها، وإلا فلن ترغب تيَا نفسها في الزواج أبدًا.

- لم أكن أرى فائدة كبيرة في تشبثُّهما بأذيالي.

- ولكن ماذا عندما كبُرا؟ ألم ترغبي في رؤيتهما؟ مالت تِيا، التي تشعر بتخاذل فريستها، إلى الأمام: ألم تكوني تحبينهما؟

- ترك كاريل المنزل في الثالثة عشرة من عمره. كنتُ أحبُّ أن أراه مرة أخرى، لكنني لم أفعل.

جحظت عيناها، وسألتها بدهشة:

- هل رأيته مرة أخرى ؟ إلى أين ذهب، جزر الملوك؟

- آنتويرب.

لم تمالك تِيا نفسها، فأطلقت زفرة قوية، وقالت:

- يا له من مكان ناءٍ. وماذا حدث لأرابيلا؟

أخذت نيلا نفساً عميقاً. إن أرابيلا موضوع تحب التفكير فيه أقل حتى من والديها.

- مات أبونا وأنا في السابعة عشرة، وكان عليَّ أن أتزوج لضمان مستقبلي. وبقيت أرابيلا في أسِدلفت مع أمي. هكذا قالت وكأنما هو ملخص كافٍ لحياة أرابيلا. وإذ تلمح تعابير تِيا، تضيف: "كان ما حدث مُعتاداً جداً - الابنة الكبرى، تغادر للزواج، الولد، ينطلق وحيداً للسعي خلف حظه."

لكن نيلا تعلم أن انطلاق صبي من عائلة "محترمة" مثل عائلتهم في ترحال وهو في الثالثة عشرة، وانقطاع الأخت الكبرى عن مراسلة المنزل، هي أمور غير مُعتادة. فكرت في باكوب، في الأشقاء الثلاثة الأنيقين لعائلة فان لوس. صاحب أرض، وضابط، ومحام، أنماط بدائية سهلة جداً يدورون حتى الآن في فلك والدتهم. ليست الحياة الأسرية التي عرفتها، ولا أيّ من ترعرع في هذا المنزل في شارع الهيرغراخت، أيضاً.

- ماذا حدث لهما؟ بعد زواجكِ من خالي، وهروب كاريل؟

تمنت نيلا أن يستيقظ أوتو، وينزل السلم وينتشلها من هذه الذكريات المزعجة. لكن ذهنها يواجهها بصورة أمها. كانت السيدة أورتمان ذات يوم امرأة جذابة ومكتنزة وكفوءاً، إلا أن نيلا لا تستطيع أن ترى سوى مشهد أمها، وهي تضرب رأسها بحائط غرفة نومها. مازالت تشعر بتلك الطرقات في داخلها، عندما حانت لحظة حملها من تحت ذراعيها، وعيناها الميتتان مثبتتان على بحيرة أسِدلفت. استعادت ملمس جلد أمها الناعم، وهي تمسح بقطعة من القطن على جبينها النازف المهشَّم، و اصطحابها كل يوم إلى ذلك السرير المُشعَّث. وأرابيلا، صغيرة جداً، عند الباب بعينين متسعتين، تشاهد شقيقتها وهي تخضب أظفار والدتها الممزقة، ورائحة أنفاسها الفاسدة. وأصوات التذمر المتحشرجة في حنجرة المرأة. كان الأمر أحياناً وكأنهم أبناء حيوان لا بشر.

ولتتحاشى نظرة تِيَا المُستفهمة، خفضت نيلا عينيها إلى ما تبقى من فطورها. لم يعتنوا بأنفسهم في أسِدلفت. سمعة أبيهم المهترئة أعملت أثرها فيهم، وعندما آذت أمها نفسها لطرد شيطانه، كانت أرابيلا أكثر من رأى ذلك الشيطان.

يتدفق الذنب في داخل نيلا، ثقيلاً إلى درجة أن عليها أن تبتعد صوب النار متظاهرة بجلب المزيد من الماء الساخن لإبريق قهوتها.

قالت وهي تحاول السيطرة على صوتها المرتجف:

- لقد عاشت أمي أياماً هانئة.

كانت تدرك أن تِيَا لا تملك تصوراً عن الشيء الذي تتحدث

عنه، وكيف في وسعها حتى أن تصف لنِيا شكل الحياة في عالم مصنوع بكامله من تخيلات والدتها الاتهامات، و الاختلاقات الخاصة بعالمٍ لم يكن موجوداً؟ لا أوصاف، أو شروحات، يمكنها أن تلخِّص التفسُّخ والضعف اللذين اكتسحا أُسدلفت، حقيقة نجحوا في إخفائها جيدًا من أجل أن تتزوج نيلا، أن تذهب إلى أمستردام، أن تردَّ لاسم أورتمان ولو قدراً بسيطاً من وضعه الاجتماعي، سواء أرادت نيلا ذلك أم لا.

- لم تكن أمي على ما يرام. لم تستطع أن تتقيَّد بما كان حقيقياً."

تخيلت أمها، وهي تحدق في البحيرة، وشيء داخل تياراتها ينقل رسالته إليها، بلغة هي وحدها من تستطيع فهمها، قالت: - لقد ماتت بعد عام تقريباً من مجيئي إلى أمستردام.

وضعت نِيَا راحتيها على الطاولة:

- و... كيف ماتت؟

شعرت نيلا بانسداد في مكان ما بين ضلوعها:

- غرقت في البحيرة.

صمتت نِيَا قليلاً، وشردت بنظرها بعيدًا، وكأنما تخيل مشهد الخسارة، فتركِّب أجزاء مكان لم تزره قط، مع امرأة لن تقابلها أبدًا.

خلف نفورها من الحديث عن كل هذه الأمور، لا يسع نيلا إلا أن تعيَّن لمحة شعور آثمة بالرضا. فكرت في نفسها:" ها أنتِ الآن تعرفين. لستِ وحدكِ من فقدت أمها. هذا ما يحصل عليه المرء عندما يطرح الأسئلة". قالت:

- لا نعرف إن كانت قد تعمَّدت الغرق. لكنها غرقت. دُفنت في بستان التفاح إلى جوار أبي.

بادرتها تيَا قائلة بصوت ينم عن الذهول:

- ولكن – ماذا حدث لأرابيلا؟ لماذا لم تأتِ وتسكن هنا؟

شعرت نيلا بيديها تعفتلان معاً، ودونما إرادة منها تقريباً، قالت:

- لم أعرف بموت أبي إلا بعد فترة طويلة.

- ماذا؟

- كان كاريل غائباً، ولم أراسل أسِدلفت.

- ولكن، لماذا؟

انفعلت نيلا:

- لم أفعل وحسب. ثم أخذت نفساً عميقاً، قالت وهي تستدير نحو طاولة المطبخ:

- - ليس الجميع مُقرَّبين إلى عوائلهم.

- لكن، أرابيلا... لا بدّ أنها كانت صغيرة جدًّا!

- لكنكِ كنتِ أصغر، يا تيَا. كنتِ ضئيلة جدًّا.

- وأرابيلا؟

- كانت في التاسعة. لكنكِ كنتِ موضع اهتمامي.

بدت تيَا مُلتاعة:

- هل تقولين إنه كان ذنبي؟

- لا، طبعاً. شعرت نيلا بأنفاسها تكاد تنقطع.

- لكنها كانت أختك. كانت في التاسعة. لو كنتُ أملك أختاً، لعُدت.

- كيف تعرفين ما كنتِ ستفعلين؟ كانت أرابيلا سعيدة للغاية.

- وكيف تعرفين أنتِ، ولم تذهبي إلى زيارتها قط؟

تشبثت نهلا بحافة طاولة المطبخ:

- كانت تحب أسِدلفت. رتبتُ مكوثها في المنزل مع آخر من تبقى من خدمنا. كبرت وهي ترعى الحيوانات والحدائق.

- لا أصدق أنكِ لم تعودي قط.

- كان هناك الكثير مما يجري في أمستردام. كان ذلك ما حدث، يا تيا. هذا ما يحدث في الحياة، أتعرفين. لا يمكنكِ دائماً اختصارها في مسرحية أنيقة من ثلاثة فصول. لا يمكنكِ البقاء في مكانين في وقت واحد.

ظلت تيَا صامتة، كانت نهلا تعرف أنها غارقة في منقوع من النشوة والسُخط الذي تحدثه معلومات جديدة دسمة.

شعرت بدوار خفيف، كأنها قد نزلت إلى هنا لتعترف، لتصبغ نفسها بصورة سيئة. لقد أخفقت في أن تُري تيَا جانبها من الأمور – كيف كانت الحياة بالترعرع وسط هذا الجيش من أشجار أبيها، يطوقه زواج والديها. وما حدث بعد ذلك، مع أمّها. لقد أظهرت نفسها قاسية، ناجية على حساب الآخرين. ربما هذا هو الدرس الذي تحاول نقله: ما تحتاج تيَا إلى أن تفعله لتحسّن حياتها. لكنها لم تنجح إلا في إظهار نفسها بمظهر بشع.

قبل أن يتأتّى لنيلا أن تسكب على مسامع تِيَا المزيد، مُقتلعة من داخلها تلك الأيام المريعة، الخطاب الذي جاء من أرايلا، مُفصِّلاً الساعات الأخيرة من حياة أمّهما قبل غرقها، وشكل جسدها بعد ذلك، وقرار نيلا بعدم إخبار أوتو وكورنيليا بكلمة منه، سمعتا صوتاً يأتي من أعلى سلّم المطبخ.

استدارت نيلا، ممتنة لأن أوتو قد استيقظ وبوسعهم الآن أن يبدؤوا يومهم بحق. وبات في وسعها أن تطرد من عقلها تلك البحيرة السّبخة، ونوافذ ذلك المنزل المُتبدِّلة، وصورة أمّها المُنتفخة، وأرايلا، منسيَّة. لكن من يهبط إلى دفء المطبخ يكون كورنيليا، وعلى وجهها تعبير قلق، ممسكة بظرف صغير.

تملك جسد نيلا انفعال شامل، أقرب إلى اقتناع، بأنها سترى ذلك الخط المألوف القديم، مُعنوناً أخيراً باسمها. منحوتة جديدة، بعد كل هذه السنوات. لكنها تلاحظ كيف نهضت تِيَا، وكيف إذ ترى الرسالة في يد كورنيليا الممدودة، تبدو ممزقة بالرجاء. فمن الذي قد تنتظر تِيَا منه رسالة؟

قالت كورنيليا:

- إنها من فان لوس. ونظرت إلى نيلا. "باسمك."

عادت تِيَا إلى الجلوس، شعرت نيلا بإحباط مُشابه، فسألتها:

- أكنتِ تنتظرين شيئاً؟"

أجابت تِيَا:

- لا. هل كنتِ...؟

- رسالة من ياكوب.

- حسناً، إذن، لقد تحققت أمنيتك. ألن تفتحيها؟

كسرت نيلا الختم، ونقّلت عينيها على الرسالة، عاجزة عن إخفاء ابتسامة. إن خطتها تُؤتي ثمارها، على الرغم من كل شيء. قالت: - أوه، يا تيا. لقد دعانا ياكوب إلى المسرح، بعد أسبوع. مقاعد في مقصورة.

زمّت كورنيليا عينيها، وقالت:

- لكنكِ لا تحبين المسرح.

- ياكوب سيصحبنا إلى المسرح؟

- - أجل. ما العيب فى ذلك؟

قالت تيَا:

- هو أيضاً لا يحب المسرح. بالنظر إلى ذلك الكتاب الرهيب الذي اشتراه لي.

قالت نيلا، محاولةً كبح غيظها:

- لقد ابتاع لكِ هدية.

"كنت لأفضّل أناناسة. ماذا فعلتِ بالأناناسة التي منحتكِ إياها كاسبر؟ لم أرها في الصالون.

قالت نيلا:

- لا تكلميني عن الأناناس. اسألي كورنيليا. إنه لا يقع ضمن تخصصاتي.

تضرج وجه كورنيليا. وقالت:

- إنها في غرفة الكرار مع البطاطس. لا أعرف ماذا أفعل بها.

تنهدت تيَا:

- وفقًا لكتّاب ياكوب، فإن الفتيات اللاتي يرتدن المسرح، يصبحن قليلات الحياء ومُتفلتات في الكلام.

- ربما يكون مُحقًّا.

عقدت تِيَا ذراعيها، وقالت:

- تستطيع كورنيليا استخدام صفحاته في تغليف الجبن، لا تهمني. تلك الهدية وضعت إصبعاً بارداً أسفل ظهري. لماذا ظنَّ ياكوب أنها قد تعجبني؟

فردّت نيلا بحدة:

- وضعت ماذا؟!

تنهدت تِيَا، وقالت:

- لا شيء...

- هذه الدعوة هي بُشرى، يا تِيَا. بُشرى رائعة! لقد نجح العشاء.

- أتساءل عن سبب الامتنان الشديد في صوتكِ، يا زوج خالي. كان في وسعنا دائماً أن نشاهد مسرحية معًا، لو أن هذا ما كنتِ تريدينه.

تغاضت نيلا عن وجه تِيَا الغاضب، وتجاهلت تعبير الضيق على وجه كورنيليا. قبضت على رسالة ياكوب بقوة في يدها، وعاد حجر طفولتها تراباً من جديد.

11

إن هذا يفسر الكثير، هكذا استشاطت تِيَا غضباً، وهي تسرع نحو السخاوبيرخ. إن الخالة نِيلا تتكلم دائمًا وكأنما جُرّت من الريف وأجبرت على الزواج من يوهانس براندت. لكنها هي من لم تطق صبراً على الفرارا لا يعني لها شيئًا أن نبذت عائلتها المسكينة. لا عجب أنها لا تتحدث عن طفولتها أبداً. لم تكن محادثة الصباح قد أظهرت لتِيَا شيئاً غير القسوة المعهودة للخالة نِيلا، وهو شيء يصيب تِيَا بالاشمئزاز. فكرت تِيَا:" لا عجب أنها لا تمانع في مطالبتي بالخروج من البيت للزواج: ولا هي تكترث بإخباري أي شيء عن مارين براندت! لماذا قد تفعل، وهي التي لم تمانع قط في ترك أمِّها تغرق من دون الإشارة إلى ذلك، أو هجر أختها الطفلة لتعيش مع راعي بقر ما"

حثت تِيَا المسير حتى أن حذاءها كان يضرب الأرض بقوة، وهي تفكر وتهمس لنفسها:" كنت لآخذ أرابيلا تحت جناحيَّ، وأضمُّها بشدة. وأكون أيضًا موجودة لإنقاذ أمي من الغرق"

شقت طريقها في شارع الكيزرغراخت، تنشد قُرب والتر، و أسرارها الخاصة، لقد بات في وسع جسدها حتى وهي بمفردها، أن يشعر بمعجزة وجوده، بطنها، حنجرتها، أطراف أصابعها. تخيَّل اتحادهما بتلك الروابط الخفية، من دون أن يستطيع مخلوق أن يرى! إنها ترغب كثيراً في والتر حتى لتتمنى لو يمكنها أن تتسلل إلى رأسه، وتحتل مكاناً داخل ضلوعه. لا تريد العيش وسط أجسادهم، ولا تريده أن يفعل شيئاً من دونها.

اقتربت من مؤخرة المسرح، ووجدت نفسها تنظر من حولها، شاعرة بوخز في رقبتها وكأن أحداً يراقبها. وقفت لحظة، تُجيل عينيها بين أفواج المارة، ولكن لا أحد يترصدها، فعادت أدراجها في اتجاه المسرح، وخبا الإحساس بالخوف، فكرت: "إنّ أمستردام مُنهمكة في شئونها الخاصة كالمعتاد، والحمد لله"

لكنها وجدت على الباب الخلفي حارساً جديداً. وحينما همت بتجاوزه مع إيماءة، أوقفها، وسألها:

- إلى أين تذهبين؟

- هل ريبيكا بوسمان هنا؟

- وما دخلك؟

- أنا تِيا. شعرت بحرارة، وشيئاً من الحماقة، أنا صديقتها.

- لو أني أدخلتُ كل من يقول إنه صديق مدام بوسمان." يشدد الحارس على كلمة صديق، وكأن التلميح إلى وجود مثل تلك الصداقة لا يستقيم مع تِيا.

سألته تِيا، وهي تنتصب في وقفتها:

- أهو المال ما تريد؟ ضيّق الحارس عينيه، ولكن قبل أن يُتاح له قول المزيد، لمحت والتر يقطع الممر خلفه، فنادته:

- والترا حدث سوء تفاهم.

التفت والتر. بدا للحظة غريبة عابرة، وكأنه لا يتعرّفها. شعرت تِيا أنها عدم، أحست بالغثيان، ولكن الحارس قطع اللحظة:

- أتعرف هذه الشابة؟

قال والتر:

- أعرفها.

- حقًّا؟

- حقًّا. يمكنك السماح لها بالمرور.

و على مضض، تنحى الحارس جانبًا. فتجاوزته تِيَا من دون أن تنظر إليه. وحالما انعطفا حول الزاوية، أحاطت بذراعيها عنق والتر.

- تِيَا. ليس هنا.

- ولكن ألا تسرُّك رؤيتي؟

- لا يمكنكِ التعلق بي هكذا على الملأ.

- لسنا على الملأ. لا يوجد أحد هنا، لكنها تُنزل ذراعيها وتسير إلى جوار والتر وهو يقطع متاهة الممرات التي تؤدي إلى حجرته.

قال:

- سيبدأ عرض الحياة كما حلم في غضون أسبوع. لا يمكنكِ البقاء طويلاً. أنا آسف.

- طبعاً. أفهم. لكنها لا تفعل، ليس تماماً: ليس وهي تعلم أن في وسعها ألا تحدث أي صوت، جلست في الركن، وهي تشاهده يرسم. تريد أن تعترف له بأنها ستكون موجودة في أول عرض للمسرحية، لكن والتر لا يروقه ذكر ياكوب علّان، لذا لا تقول شيئاً. إن والتر لا يقبل الضغط. إنه يحتاج إلى الوفاء بعقده مع السخاوبورخ. عليها أن تتحلى بالصبر: الشواطئ الاستوائية تحتاج إلى التمهل.

ما إن اقتربا من باب المرسم، حتى تتسلل يد تِيَا لتمسك بيد والتر، وظهرت ريبيكا من الزاوية. فتهلل وجه الممثلة بابتسامة،

لكن تِيَا ترى ومضة الفزع الخاطفة، وعيناها على يديهما المتشابكتين. ترك والتر يدها، لكن استياء الممثلة مما تراه كان واضحًا.

قالت ريبيكا:

- تِيَا كم جميل أن أراكِ. أرجو أن يكون الثوب قد أدى دوره؟

أمسك والتر يدها مرة أخرى، وضغطها بقوة في تواطؤ، فتذكرت تِيَا البقعة التي لطَّخت قماش ريبيكا الذهبي، ووالتر، بجذعه عاريًا، يغلف ثوبها بخرقة، فقالت:

- آه، أجل. أجل، لقد فعل. شكرًا لكِ. كان لطفًا منكِ ومن فابريتسيوس.

خيَّم صمت قصير محرج. ثم سألتها تِيَا:

- هل تتمرنين؟

- إنني أفعل. لكني في استراحة قصيرة لربع ساعة. تعالي وانضمي إليَّ في حجرتي؟

- أحبُّ أن أفعل. كان والتر سيريني لوحاته الجديدة. ثم يمكن أن أطرق بابك؟

فاستدارت ريبيكا إلى والتر، قائلة:

- هل تسمح لي أن أستعيرها الآن؟ خمس عشرة دقيقة ليست بالمدة الطويلة.

تجمَّد والتر. حدق في ريبيكا التي راحت تبادله النظرات. فابتسمت ريبيكا، وأدار والتر مقبض باب مرسمه، وقال وهو يدفع الباب:

- طبعاً، أنتِ حرّة في فعل ما تشائين.

في حجرة ريبيكا، ترددت تِيَا عند المدخل مهمومة، لأن عليها أن تكون هنا وتكون هناك في الوقت نفسه، فقالت ريبيكا برقة، وهي تُغلق الباب وتقود تِيَا إلى كرسي:

- كيف كان الحفل؟

هزّت تِيَا كتفيها في لا مبالاة:

- مُرهِق.

- ألم تقابلي شاباً جيّداً؟

- لم أكن في حاجة إلى ذلك. لكن زوج خالي وجدت واحداً أعجبها، مع أنها تقول إنها تريده لي. اسمه ياكوب.

جلست ريبيكا قبالة تِيَا، وسكبت لكليهما كأسين صغيرين من النبيذ:

- هل يعجبكِ؟

- لا.

أخذت ريبيكا رشفة. ثم وضعت كأسها ومدّت يدها إلى يد تِيَا، وقالت:

- تِيَا. أريد أن أسدي إليك نصيحة. بخصوص والتر.

فسحبت تِيَا يدها، قائلة:

- لا أحتاج إليها.

تنهدت ريبيكا، مُمرّرة يداً فوق شعرها البنّي المفرود بعناية، وقالت بصوت خفيض: - تِيَا، أعرف أنكِ تحبينه. أعرف أنّ حبّكِ جدير بالاحترام. وقد نعمتُ برؤيتكِ سعيدة هكذا.

لكنني... أشعر أنَّ عليَّ أن أتكلم."

فقالت تِيَا: "ليس من حقكِ أن تكلمي. لستِ على المسرح الآن.

اتسعت عينا ريبيكا:

- ولكن...

- أنا كبيرة بما يكفي لأعرف ما أحب وأريدا

- ولكن هل أنتِ كبيرة بما يكفي لتعرفي ما يحب هو ويريد؟

أوجعها هذا السؤال، الذي لُفظ برفق بالغ. يؤلمها أن تكون وحبيبها موضع تشكيك، ومن ريبيكا بالخصوص، استرجعت تِيَا المدوانية في صوت والتر في أثناء حديثه عنها – المرة الوحيدة التي سمعت في صوته مثل هذه النبرة. إنها امرأة وحيدة غريبة. ما الذي يعرفه ولا تعرفه تِيَا؟ إن ريبيكا لم تبدُ قط غريبة بالنسبة إلى تِيَا، لكنها ربما بالفعل تكون وحيدة. لقد رأى والتر من العالم أكثر مما رأت تِيَا، وهو يرى هذه الأمور بصورة أوضح.

فقالت ريبيكا:

- لستُ أحاول الإفساد عليكِ. إنني أحاول حمايتك.

حدّقت فيها في استنكار:

- ممَّ؟

ألحت ريبيكا:

- ما الذي تعرفينه عنه حقًّا؟ بم وعدكِ؟

- أعرف أنه يحبني. وأعرف أشياء لا يمكن للمرء أن يتظاهر

بها إلا على المسرح.

- تِيا...

- كفى، يا ريبيكا. إننا مخطوبان.

بدت الممثلة مصعوقة:

- ماذا؟ إلى أي حدّ مضيتما في ذلك؟"

لوهلة، رغبت تِيا أن تخبر ريبيكا بكل شيء. أن تتباهى وتعتز وتتفاخر، أن تقدم لصديقتها الصورة الكاملة لربّما تفهم أخيرًا. لكنها تتذكر غضب والتر بسبب الدمية، انزعاجه القوي من فكرة أن يعرف أحد آخر بعلاقتهما. فكرت كيف شعرت بأنها مُراقبة طوال حياتها، بطول هذه القنوات. تأخذ نفساً عميقاً، وقالت:

- أعلم أنه يكون صعب المراس أحياناً. لكن هذا ليس إلا لرغبته في أن يفعل كل شيء بالطريقة الصحيحة.

فقالت ريبيكا بسخرية:

- الطريقة الصحيحة. لمن؟

- لنا.

أغمضت ريبيكا عينيها، فثارت تِيا:

- إنكِ لا تعرفين شيئًا عنه. تِيا بالتعاسة. إنها لم تأتِ إلى هنا لتتشاجر مع صديقتها الوحيدة.

كانت عينا ريبيكا قاسيتين:

-بالضبط. إنه لا يختلط بنا.

- لأنه مشغول! وهو ليس ممثلًا، يا ريبيكا إنه رسّام ويجدر

بكِ احترام ذلك. لقد ظننتُ أنكِ مختلفة. ظننتُ أنكِ تنظرين إليَّ وترين امرأة، نداً...

- إنني أفعل. ولهذا أتحدث إليكِ...

- إنكِ تتحدثين إليَّ كما لو كنتُ طفلة. كما لو أني لا أعرف كيف أفكر. لستِ أفضل من زوج خالي. تعجزين عن رؤية الحب الحقيقي. إنني أشفق عليكِ.

رفعت ريبيكا يديها في استسلام. وتقول: "كفى." أصبح الجو بينهما لاذعاً حتى كادت تِيا أن تتذوقه:

- حسناً، لو أنَّ هذا ما تريدين. لن أقول المزيد. قد لا تصدقين هذا، لكنني قادرة على ذلك.

نهضت تِيَا، وتوجهت نحو باب ريبيكا. تفتحه وتقف في الرواق، ورأسها صوب مرسم والتر، وقالت:

- قريبًا لن يكون الأمر سراً. وحينها سترين. إن هذا ليس وهماً.

فقالت ريبيكا:

- أعلم أنه ليس كذلك. وهذا ما يثير الشفقة بحق.

***

حينما وصلت إلى المنزل بعد ساعة، فزعت إذ وجدت كورنليا في الدهليز. قالت الخادمة، بلهجة أقرب إلى الفظاظة:

- أين كنتِ؟

- أتنزه. إنه مسموح، أليس كذلك؟

وحينما اقتربت كورنليا، راع تِيَا كم هي شاحبة مربيتها

القديمة، كيف كانت تحرك يديها، وعيناها تقفزان يميناً ويساراً. أغلقت كورنليا الباب:

- وأين تنزهتِ؟

- ليس بعيداً. كانت ملامح الخادمة مضطربة، فسألتها كورنليا، ما الأمر؟

جاءت كورنليا مُسرعة، وهمست:

- لقد وصل طرد صغير باسمك.

سرى في جسد تِمَا انفعال قاتم، غمغمت:

- طرد صغير؟

قالت كورنليا:

- وجدته عندما كنتُ أمسح العتبة الأمامية. من قد يترك لكِ طرداً على العتبة الأمامية، من دون أن يطرق الباب؟

- أين هو؟

همست كورنليا:

- إنه هنا، وهي تمسح يديها في مئزرها وتقصد واحداً من كراسي البهو.

كان طرد صغير يستقر على المقعد ، أصغر وأثقل من الأول. يشي مظهره بأنه يحوي في داخله شيئاً صلباً، إذ يتخذ شكل صندوق صغير. تناولت كورنليا الطرد كما لو كان ملوثاً، شعرت بلهفة للمسه، أرادت أن تكون الوحيدة التي تمسك به، مزقت غلافه، فظهر ما في داخله. أرادت أن تكون بمفردها معه. تذكرت هلع والتر من دمية تحمل شكله وتشعر بنبض

خوف ضعيف في عروقها.

تقدمت لتأخذه لكن كورنليا، وتسحبه بسرعة لحو صدرها. وتقول:

- يجدر ألا أعطيه لكِ.

- عفواً؟

- من قد يرسل لكِ طروداً؟

فكرت تِمَا بسرعة، وقالت بسرعة:

- إليونور ساراخون.

سألت كورنليا بوجه مُمتعض:

- لماذا قد ترسل لكِ أي شيء؟

- إنه لي، يا كورنليا. أعطِه لي. إنه يحمل اسمي ، عليك ألا تريه؟

لكن كورنليا ظلت تتمسك قويًا بهذه الهدية الصغيرة. "يا يسوع الحبيب، ما خطبك؟"

- لا خطب بي! لماذا تُظهرين كل هذا الخوف إذن؟ إنه مجرد خاتم كانت إليونور ستقرضني إيّاه. لم أكن أحسب أنها جادّة. ثم ابتسمت: "لكن ها هي ذي."

حدّقت كورنليا في الطرد. ظنت تِمَا، أن الطرد منطقي قد يحوي خاتماً داخل علبة، لكنها تعلم أن إليونور لن تُتعب نفسها أبدًا بهذا الشكل، ولن تكون أبدًا بهذا الكرم، ولا بدَّ أن كورنليا تعرف ذلك.

قالت كورنليا:

- إليونور ساراخون أعارتكِ خاتمًا!

- على سبيل الإقراض فحسب، لمدة محدودة فقط.

انتزعت تِيَا الطرد من بين يد الخادمة. وفوراً، شعرت بين أناملها بوعد من نوع ما، سحر خفي.

قالت كورنيليا:

- افتحيه، أحبُّ رؤية هذا الخاتم.

دُهشت تِيَا من هذه الصراحة، وقالت:

- ليس وأنتِ تتحدثين بهذه الطريقة.

فقالت كورنيليا، وقد بدا عليها الكرب:

- إنكِ لا تفهمين. عندما تصل الطرود هكذا، صغيرة، ومجهولة المصدر... فعليكِ أن تحذري.

- إن كلامكِ خالٍ من المنطق!

شبكت كورنيليا أصابعها، وقالت:

- هناك... أمور حدثت في هذا المنزل، يا تِيَا. قبل أن تولدي...

- كل الأمور حدثت قبل أن أولد. أخبريني ما هي، وسوف أريكِ الخاتم.

حدّقت كورنيليا في الطرد:

- والدكِ، زوج خالتكِ، سيغضبان لو أنني...

- طيب. احتفظي بأسرارها. نحن عائلة تعيش من أجل الأسرار، نحب الانعزال عن الأعين، وذلك يعني إذن أنه يُسمح لي أن أفتح هديةً في عزلة، بما أننا نقدّر الخصوصية بهذا

القدر."

- ولكن ليس إن...

وقبضت على ذراع تِيَا ، ذهلت تِيَا بقوتها.

- تِيَا، لقد بذلنا جهداً كبيراً لحمايتك.

- لا تقلقي عليّ. أؤكد لكِ أن المرء سيحتاج إلى أكثر من خاتم صغير للتأثير فيَّ. أعرف أي أفعى خبيثة هي إليونور ساراخون.

أخلت كورنليا سبيل تِيَا. وقالت بصوت بائس:

- مادمتِ متيقّنة أنه منها.

نفد صبر تِيَا ، وأرادت الانفراد بنفسها في غرفتها، حتى كادت أن تؤمن أنهم يعيشون في عالم حيث تبالي إليونور ساراخون بإهدائها خاتم صداقة. "أنا كذلك،" تقولها، وهي تبتعد صاعدة الدَّرج بمقدار ما يمكنها من اللامبالاة، نحو غرفة نومها.

- تيبوت؟

أخذت تِيَا نفسًا عميقًا واستدارت:

- نعم؟

أوشكت كورنليا على البكاء، وهي تقول:

- توخَّي الحذر فحسب. عديني بأنك ستتوخَّين الحذر.

- سأفعل.

أصابتها الحيرة جراء توتر كورنليا، لكنها أغلقت باب غرفتها، وجلست على فراشها والطرد في حجرها. لم تكن حتى هذا الشهر،

قد تلقّت هدايا من أي أحد خارج نطاق عائلتها، وهي تتساءل، بغصّة قصيرة في قلبها، هل تُراها هدية أخرى من ياكوب فان لوس. كانت إليونور ساراخون قصة واهية. ياكوب كان ليبدو حجة أفضل للتخلص من كورنيليا. لعله هذه المرة قد يكون كتّاب مواعظ عن كيف تكون المرأة زوجة صالحة.

لكنه ليس كتابًا. إنه أصغر بكثير. ببطء، فكّت نِيا الدُّوبارة، و فضّت الغلاف.

تطرفُ، مبهورة بالجمال الذي أمامها.

لقد وضع فوق حشية من صوف الغنم، كان منزلاً ذهبياً صغيراً في غاية الجمال. هو بحجم لبّ خوخة كبيرة، يتلألأ في وجهها من مرقده الآمن. لكن نِيا عندما ترفعه، تدرك أنه لم يُصنع من الذهب، بل نُحت بالأحرى من الخشب وطُلي برقائق الذهب. إنه أخف مما تخيلت، وبينما تهزه، تشكّ في أنه مجوّف. للمنزل باب أمامي كبير، بنوافذ على الجانبين، وثلاث نوافذ أخرى في الطابق الأول. له سقف من القرميد وست مداخن، وبينما تُديره نِيا، ترى نوافذ على الجوانب الأربعة المقطعة. كان شكل الطوب وقرميد السقف قد حُفِرا في الخشب. توجد للباب مفاصل صغيرة ومقبض، إلا أنه لا يفتح مهما حاولت نِيا جذبه.

وضعته على المنضدة إلى جوارها، مأخوذة بغموضه. إنه لا يثير فيها القلق نفسه الذي أثارته دمية والتر. إنه سحر محض. لم يكن مجسماً لمنزل رأته من قبل. لكنه صُنع بعناية فائقة، وكأنما يُفترض به أن يكون محفوظًا فعلاً في ذاكرتها.

تراجعت، وراحت وتحدّق في هذا المنزل الجميل الفارغ المُتعذّر اقتحامه، ذكّرها ذلك بالمفاجأة المنيفة التي أحدثها لوح

ألوان والتر المنمنم، ثم مدّت يدها إلى الصندوق أسفل سريرها، وأخرجت دميته.

كانت تفعل هذا كل ليلة، بمثابة طقس إخلاص وطمأنة، فصارت تحفظ أبعاد أطرافه المنمنمة. حدق والتر في وجهها، حبيبها: زوجها المُستقبلي. لا تنفكُّ تِيَا تحوّل بصرها بين والتر والمنزل. لا تكافؤ بين حجميهما. ولا يمكنها أن ترى أي صلة بينهما. من الذي يرسل لها هذه الأشياء، ولماذا؟ من في هذه المدينة، باستثناء والتر، قد يكون قادراً على مثل هذه الدقة والبراعة الحافلتين بالإيحاءات؟

فكرت في سلوك كورنليا المُرتاب في الأسفل، إلحاحها المحموم على تِيَا لتقرَّ باسم المُرسل. هناك... أمور حدثت في هذا المنزل، يا تِيَا، قبل أن تولدي.

كلا، هكذا تقول تِيَا لنفسها: أنتِ لستِ كورنليا. لستِ تعيشين في الماضي، ولستِ خائفة.

ذات مرة أخبرت ريبيكا تِيَا أنها في شبابها بوصفها ممثلة، كانت كثيرة الإحباط بسبب الجماهير. كانوا يضحكون عندما أرادت أن يتأثروا. وكانوا يلتحمون وينهلون الدموع على مسرحية تؤديها بطريقة كوميدية. أخبرت تِيَا أنها أدركت افتقارها للتحكم فيهم. فلو أنهم رأوها شريرة، فهذا إنما يأتي من خوفهم. ولو أنهم تعاطفوا معها، فهذا إنما يأتي من قلوبهم، وليس من أي شيء فعلته.

كان غريباً أن تسمع منها تِيَا ذلك. فقد افترضت أن ريبيكا امرأة تمتلك قوة تأثير كبيرة، وحارس لتلك القوة. إن السر هو أن تمنحي الجمهور تلك القوة، هكذا أخبرتها ريبيكا. امنحيهم مرآة. أريهم أنفسهم، وسوف يتلهفون إلى المزيد.

حملت تِمَا دمية والتر في يد، وفي الأخرى المنزل البرّاق. لقد كابدت عمراً من الأعين المُحدِّقة في هذه المدينة، لكنها لم تحظ قط بمرآة، كان سكان أمستردام يحلقون في تِمَا إلى أن تشعر بكل شيء عدا نفسها. هذا هو السبب في أن هذا الاهتمام، هذه المنح المُنَمْنَمَة، تبدو مختلفة. شخصية. مُربِكة. تُشعرها كما قالت ربيكا: كزجاج تنظر فيه تِمَا إلى نفسها. وتماماً كجمهور ربيكا المفتون، تصبح تِمَا متلهفة لأن تعرف أكثر.

12

ثمة أسباب عديدة تجعل نيلا لا تحب المسرح. أولها سعر التذاكر. والحرارة التي تأتي من الشموع. والترويح باليدين، والاستقبال الحماسي - وهذا من ناحية الجمهور فقط، الذين يكون أغلبهم متعجرفين وممتدِّين بأنفسهم، مُتظاهرين بالتنوير بينما هم في الحقيقة يلصص أحدهم على الآخر، حتى يشعروا بتردهم في وجه رعب الوعّاظ. لكنها في مقصورة ياكوب، بإطلالتها الجميلة على خشبة المسرح، وبعيداً عن الأجساد التي تثير أعصابها، تفكر أنها ربما تتجاوز عن الأشياء التي تُزعجها، طالما أن ذلك سيقرِّبهم خطوة من فرصة الزواج. نظرت من علوّ الشرفة: "يالطريقة التي يرفعك بها المال، حرفياً، ومجازياً!" شعرت كأنها صقر في عشِّه، وهي تنظر إلى الرؤوس الصغيرة في الأسفل.

كان عشيق زوجها ممثلاً، ومنذ ذلك الحين ونيلا تحمل ضدهم تحيُّزاً. كان جاك فيليبس شاباً من إنجلترا، تظاهر بالموت على بلاط الدهليز، ثم استغلّ جرحه لاتهام يوهانس بمحاولة قتله. ربما كان تورطه في إعدام يوهانس سبباً كافياً حتى تمقت نيلا أي شخص يعتاش على خداع الآخرين من أجل مكاسبه الخاصة، لكنها تظن أنه لا يجوز لها التعميم. جاك كان جاك. والممثلون ليسوا مخادعين، كما تصر تيا: بل هم صنّاع الحقيقة.

نظرت نيلا إلى خشبة المسرح. هذه الريبيكا بوسمان، على

سبيل المثال: إنها ماهرة، حاذقة، مُتناغمة، تخطف الأبصار. تختلس نيلا نظرة إلى تِيَا، وهي تتوقع أن تراها مُنتشية بممثلتها المفضلة، لكن وجه تِيَا كان جامداً. وفي أسفل عينيها هالات سوداء. كان في وسعها على الأقل أن تقوم بأداء يتماشى جزئيًّا مع ما يجري فوق خشبة المسرح، لكنها على هذه الحال طوال الأسبوع، منذ أن وصلتهم دعوة ياكوب.

أما ياكوب، فتعجز نيلا أن تميل إلى الأمام لتجزم. إنها لا ترى سوى يديه في حجره، ساكنتين مثل سمكتين أُخرجتا من الماء، ومتلألأن بثلاثة خواتم ذهبية. إن أوتو لا يكترث بدليل نفسه، عدا عن قرط يرتديه بين الحين والآخر، لكن أمامنا هنا رجل يحبُّ الياقوت.

أغلقت نيلا عينيها، متخيلة الزفاف: تِيَا، متألقة، وياكوب، ثابتاً ومسروراً، وليمة مُعتبرة ولكن بلا بهرجة، بداية جديدة لكنها تحمل إحساساً نهائيا بالأمان.

إنها مُتفائلة، فخورةٌ بنفسها. كانت قد خططت منذ نهايات الخريف الماضي إلى الجلوس هنا، على مشارف شباط، مع رجلٍ كفؤ سترغب فيه جميع بنات التجار في أمستردام. سيتعينُ على أولئك العاهرات الصغيرات أن يتراجعن في استياء، بتنوراتهن الجديدة وقلنسواتهن المُتغنِّجة، لأن ياكوب قد اختار تِيَا براندت. مسرحية جديدة في السخاوبيرخ، ولقد اختار تِيَا ليعرضها أمام الأعين في مقصورته.

من حين إلى آخر، قد تنظر إليهم امرأة بفضول من أسفل أو من المقصورات المجاورة، امرأة لا يختلف مظهرها عن كلارا ساراخون، تهوِّي بمروحتها، ومع أنَّ نيلا وتِيَا قد ألفتا جذب الأنظار، لكن هذه المرة مختلفة. هذه المرة هما تجلسان إلى

جوار ياكوب فان لوس.

كانت تِيَا تجول بعينيها بين أولئك الذين في الأسفل، كأنها تبحث عن شخص ما. من هذا الذي تبحث عنه، بينما ريبيكا تخطف الأبصار ببراعتها؟ وقبل أن يتأتّى لنيلا أن تهمس بالسؤال، تلتفت تِيَا إلى زوج خالها وتسأل بصوت خفيض:

- ألا تظنين أن الديكورات جميلة التصوير، يا خالة نيلا؟ هل ترين تلك القواقع المُتفرِّدة، متناثرة على الشاطئ؟

تدقق نيلا النظر في خشبة المسرح. إنه مشهد مذهل لشاطئ: إن الرسام - أم هم رسامون؟ إذ إنها جاهلة في هذه الأمور، لكن هناك مقدارًا هائلًا من الرسم - قد تفوّق على نفسه. تبدو الستارة الخلفية وكأنها أُثيرت من ذكرياتها حول إحضار تِيَا إلى هنا وهي صغيرة. أشجار النخيل والشواطئ تبدو حقيقية بصورة مُربكة، وإن كانت نيلا لا تستطيع مقارنتها بأي واقع عاشته من قبل. وحدها أشجار التفاح تنمو في ذاكرتها، ومساحة من بحيرة سوداء قاتمة. لا يمكنها رؤية القواقع، ويُدهشها كيف تستطيع تِيَا أن تكون بهذا التحديد. ربما أصاب الضعف بصرها؟ تكذب:

- أراها. المشهد كله جميل. إنه لمُذهل لا يستطيع البشر صنعه هذه الأيام. أيًا كان من صنعه فهو موهوب."

افترّ ثغر تِيَا الجاد عن ابتسامة مشرقة. وتأرجحت اللآلئ الصغيرة في أذنيها، وهي تلتفت من جديد بفرح إلى القصة التي تُحكى على خشبة المسرح. إنها تحب المسرح بحق.

بعد خمس دقائق وصلوا إلى نهاية الفصل. ولا يلبث المكان أن يضجّ بالأصوات، والأوركسترا تعزف موسيقى مرحة

لحث الجمهور على إطلاق أصوات التشجيع. تحرك الثلاثة في مقاعدهم، واستدار ياكوب إلى تِيَا:

- هل تستمتعين بها؟

بدت تِيَا مُترعة بالبهجة، وانتشى قلب نيلا: مثل هذا المظهر يُبرز تِيَا دائماً في أجمل حالاتها. قالت تِيَا:

- آه، كثيراً، يا سينور. أعتقد أن مدام بوسمان تبالغ في التمثيل قليلاً. لكنني مبهورة بالديكورات. وعادت تنظر إلى الديكورات، وبدا ياكوب مفتوناً.

- أعرف أنكِ أعربت عن رغبتكِ في زيارة لندن وباريس، يا آنسة تِيَا، ولكن، ألا يخطر لكِ أبداً أن تزوري مشهداً مثل الذي أمامنا الآن؟ ليس تحت ستار المأساة بالطبع.

نظرت إليه تِيَا نظرة جوفاء، فأشار ياكوب بذراعه من فوق حاجز المقصورة، نحو المُسطحات الملوَّنة: أقصد المكان الذي يبهركِ كل هذا القدر. الشاطئ الصيفي.

غارت بشاشة تِيَا السابقة تماماً حتى بدت صارمة. وقالت:

- كلا. إن أشجار النخيل تلك حقيقية بالنسبة إليّ. لا أحتاج إلى رؤية شبيهاتها في مكان آخر.

يبتسم ياكوب، مُتغاضياً عن جفائها.

- ولكن ماذا عن لون السماء؟ ألا يغريكِ شيء من هذا؟ لقد سمعتُ من قبل عن تلك الأماكن. أماكن حارّة، أماكن غريبة. كنتُ عن نفسي سأرغب في رؤيتها.

حبست نيلا أنفاسها. تضع تِيَا يداً على قلبها. "إنك لا تفهم، يا سنيور. لقد رأيتها هنا."

إنه ياكوب الآن من ينظر إليها نظرة جوفاء. وقفت تِيا، وقالت:

- هلّا أذنت لي من فضلك؟ يلزمني أن... تقهقرت، وكأنما تستحي أمام ياكوب أن تُلمّح إلى أمور تخص النساء. هبّ الشاب واقفاً وانحنى، لكن تِيا كانت قد تحرّكت نحو الستائر التي تغطي باب مقصورتهم. و غابت في ثوان.

لم تستوعب نيلا، ما حدث للتو، ولكن حريصة على استرجاع جو الألفة، أحاديث السفر والملذات، مدّت يدها إلى قنّينة البانش التي دفع ياكوب ثمنها. وسكبت له كأسًا، وهي تبتسم في لفتة مطمئنة إلى أن هذا سلوك طبيعي جدًا من شأنهم الحبيبة، التي ترى أشجار نخيل في قلبها.

قالت نيلا:

- لم أرَ تِيا بهذه الحيوية منذ عدة أشهر. إنك تبثُّها فيها.

ارتشف ياكوب نبيذه:

- قمتِ على تربيتها مذ كانت طفلة، أليس كذلك؟

كان وقع سؤاله عليها غريباً، جافًّا، حافراً كل الطريق إلى بداية الأشياء، بينما نيلا تفضل الاستغراق في اللحظة الراهنة. ولكن عليها أن تكون مجاملة، أن تُظهر ألا شيء يسأل عنه ويتجاوز قدرتها على الإجابة.

- لقد فعلت. فكّرتْ نيلا برهة قصيرة نيلا في الرضيعة المخبّأة في غرفة نومها، المسروقة من ورشة صانعة الدُمى في الكالفرسترات منذ ثمانية عشر عامًا، الرضيعة المُنمنمة التي لم تكن لها. هل كانت الأمور ستختلف لو أنها لم تأخذها؟ لا سبيل أن تعرف. لا سبيل أن تسأل صانعة الدُمى، أن تُجبرها

على التفسير، تُردف: "لكني لم أفعل ذلك بمفردي، لقد ساعدني والد تِيا، وكورنيليا، التي ما تزال تعيش معنا."

- من المُحزن جداً ألا يكون لها أم. هل كانت السيدة نبيلة المحتد؟ سألها ياكوب، مُلحقاً سؤاله بخفة في أذيال تعاطفه.

شعرت نيلا برأسها يدور. إن الإعلان المؤسف ليُتم تِيَا من جهة الأم صار سهلاً. والغياب التام لمعرفة تِيَا بها، يُرسل أيضاً مارين إلى ركن مظلم من ذكرياتهم التي يُفترض ألا علاقة لها بالحاضر. لكن عبارات الوصف تلك ما هي إلا نهاية الإسفين الرقيقة. إن اسم مارين لم يُذكر قط علنًا. نبيلة المحتد، أجل، شقيقة تاجر، وسيدة أعمال أيضًا. وكذلك، امرأة مُلغزة، قاسية عندما تريد، ذكية، وحنوناً أيضاً. لقد تحملت حتى لم تعد تطيق، امرأة شاركت فراشها مع وصيف شقيقها، وأخفت أمر علاقتهما. من أين قد تبدأ الحكاية؟

أدركت نيلا أن ياكوب يتساءل حولها. يتساءل عن هذه المرأة الغائبة التي خلّفت من دونه طفلتها.

هل يهم؟ هكذا تريد أن تقول، شاعرةً بإنهاك. هل يهم لو كانت مارين غسّالة ملابس، أم صانعة حلويات، أم ابنة غير شرعية لأغنى نبلاء المدينة؟ إن مارين ليست هنا. لكنني هنا منذ ثمانية عشر عامًا.

قالت:

- كانت نبيلة المحتد.

وقع صمت طويل. ثم قال مُعلقًا:

- أنتم أسرة مُترابطة.

- حسنًا. لا توجد أسرار بيننا.

نظر ياكوب إلى خشبة المسرح وأخذ رشفة أخرى من نبيذه، وقال:

- إن تِيَا تملك مقداراً كبيراً من الشغف.

عجزت نيلا عن استشفاف نبرته:

- أوليس هذا حال كل النساء في الثامنة عشر من عمرهن؟

- كلا... قالها ياكوب، بصراحة شديدة صدمتها، كم تُراه عرف من نساء في الثامنة عشرة؟ أردف ياكوب قائلاً:

- إن لتِيَا مزاجاً مُفرطاً.

شعرت نيلا أن لكمة وُجهت إلى جسدها. إن مزاج تِيَا في تمام الاتزان، هكذا تريد أن تقول، على الرغم من أنه يصعب ادعاء صحة هذا طوال الأسابيع الماضية. سكبت لنفسها شرابًا، وراحت ترشفه بحذر كما لو كانت تتذوق مُجريات هذه المحادثة:

- كانت والدتها امرأة نشيطة جدًّا.

يلتفت إليها ياكوب، بفضول:

- نشيطة؟

- أرى دائماً أن امرأة نشيطة هي أفضل بكثير. تتمتع بالصحة، والاهتمام. صفات كهذه قد نطلق عليها أيضاً مزاجاً مفرطاً. لكنها لازمة في عالمنا، في مدينتنا، يا سنيور. إن المرء لن يرغب في امرأة ضعيفة ومريضة.

- حقاً ما تقولين،ومع ذلك فقد ماتت في المخاض."

تمسك نيلا بحافة الشرفة. إن قسوة ذلك جعلها ترغب في كسر ساق كأسها. لكنها تمالكت نفسها بهدوء.

- كان ذلك قدراً حزيناً جداً. وفجأة، وجدت نفسها في غرفة الاحتضار تلك مع كورنيليا، ثمانية عشر عامًا قبل الآن، تراقبان في رعب ومارين تنسل من بين أيديهما:

- كانت والدتها أكبر سناً من المعتاد.

ساعديني، يا مارين، تقولها سرًا. ساعديني، ساعديني. كنتِ لتفعلين المثل.

وبينما نيلا تجلس هنا، في ترف مقصورة هذا الرجل، تجفلة من الأشياء التي تقولها، وتدرك أنها تتكلم مثل مارين في هذه الحالات. وكأنها تسحب دلوها من أعماق البئر الذي يحوي ما خلفته مارين. تلك المثابرة، تلك الواقعية الباردة، والتي نحتتها دفنت مارين رحلات في غاية الخيال.

تساءلت نيلا، هل يريدني ياكوب أن أواصل الحديث؟ هل هو مهتم حقًا؟ أم هو يريد مني أن أغلق فمي في الثرثار وأتركه يشرب نبيذه في سلام؟

ارتجفت، كأن تيارات الهواء الباردة في منزل الهيرغراخت تلامس جلدها. ربما هي واضحة لياكوب فان لوس، الطريقة البائسة التي يجاهدون بها لخلق منظر يُعجب خاطباً، مُنبهراً أكثر بالمرض الحقيقي في الأسفل. لكن ياكوب يبدو مُسترخياً، وكأنها محادثة مثل غيرها. وبخت نيلا نفسها سرًا واعتدلت في جلستها، وهي تفكِّر في دفاتر حساباتهم، في الدخل الذي تضاءل الآن إذ لم يعد في إمكانهم حتى الاعتماد على راتب الفوك. صارت الخيارات محدودة. وبجدداً، كانت مارين لتفعل المثل.

قالت بصراحة:

- إن تِيَا أكثر تميُّزًا من أن تضيِّع عمرها في الهيرغراخت."

كلماتها مباشرة مثل كلماته. إنها تحمل الحقيقة. وتجبر ياكوب أن يستدير إلى نيلا فتواصل. "لقد لاحظتُ،" هكذا تقول وهي تشدُّ تنانيرها حولها، "إن تِيَا تكون سعيدة دائمًا بالمجيء، ومشاهدة المسرحيات التي تنتهي بالزواج."

- حقًّا؟

- أجل. وأعتقد أنها جاهزة. إنه ما ترغب فيه. لن تُفصح تِيَا عن ذلك، إلا للرجل المناسب، الذي ستتزوج منه. والذي سيكون رجلاً محظوظاً.

- سيكون كذلك.

عقل نيلا في سباق. إلى أين ذهبت تِيَا؟ تتذكر كيف دخل ياكوب دهليز متزلهم، كيف أرجع رأسه في استحسان، محدِّقًا في جداريتهم الترومبلوي. تقول: "تِيَا، بالطبع، هي الوريثة الوحيدة لكل شيء."

ساد صمت طويل آخر. وانتظرت، وهي لا تكاد تستطيع أخذ أنفاسها بصورة سليمة. هل يكفي هذا لإقناعه، منزل في واحد من أرقى مناطق المدينة؟

قال: إذن فالعقار الموجود بالهيرغراخت سيكون ملكاً لها.

- نعم.

- هذا ما ظننت. حدّق جاكوب في القاعة. كانت تعابيره مبهمة، وسألها:

- ولكن، ما الأشياء التي قد تُسعدها في رأيكِ، يا مدام

براندت، بخلاف جولاتها إلى المسرح؟

احتارت نيلا. لقد مضت سنوات أطول مما يجب منذ أن كان بوسعها تحديد الأشياء التي قد تُسعد تيَا:

- أعتقد أنه على الرجل المعنيّ أن يسأل تيَا نفسها.

اختلس ياكوب نظرة إلى مقعد تيَا الشاغر. لقد مضى على غيابها وقت طويل، مما جعل نيلا تتساءل. قال ياكوب:

- لا يعجبني المسرح كثيرًا. أفضّل معارك الحياة الحقيقية. إلا أني أرى كم تستمتع تيَا به. توقف لحظة: هل تصفينها على أنها... شخص خيالي؟

- على العكس من ذلك. أنت فطِن بما يكفي لترى ذلك بنفسك. إن تيَا قد تحب المسرح، لكنها حكيمة. لقد تعرّضت، ربما أكثر من غيرها من بنات جيلها، إلى ما يُظهره المجتمع أحياناً من عداء.

بدا مُستغرقا في التفكير:

- والمسرح هو ملاذها؟

طوت نيلا مروحتها واستخدمتها لتشير إلى ما تبقى من الجمهور:

- أليس هو ملاذ كل من يستطيع تحمل تكلفته في هذه المدينة؟

- أفترض ذلك.

- لكن تيَا تدرك الحياة بطريقة يعجز عنها هؤلاء الناس. وإدراكها فائدة عظيمة. وكذلك سيكون، لأي زوج.

قطّب ياكوب حاجبيه:

- لا أريد زوجة مُحنّكة أكثر من اللازم.

أجبرت نيلا نفسها على ألا تنظر إليه. كان ياكوب، وليس هي، من قال كلمة زوجة، والكلمة تتأرجح بينهما، مثل عمود ضوء، عمود حياة. عالم قوامه الزواج، وقد خطا ياكوب إلى داخله.

قالت: "إنَّ تِيَا ليست مُحنّكة. إنها ترى العالم، لكنها لا تستغرق فيه. كما يلائم ابنة لسيد وسيدة نيلين. لهذا تأتي إلى المسرح. لقد نشأت، بصورة غير مباشرة، على احترام الذات.

صمت ياكوب، وظلت نيلا ثابتة الجنان، في انتظار رؤية ما سيأتي. تعرف أن في الخارج زيجات أسهل. أولئك السليلات الواضحات، لعوائل قديمة العهد بالتغلغل في صفوة أمستردام - ولكن تذكري، يا نيلا، هي تقول لنفسها: إنها ابنة صهرتك من قام بدعوتها.

قال ياكوب بعد مدة:

- إنه لغريب. عندما تغيب ابنة صهرتكِ، تبدو الأشياء أقل بريقًا.

***

بعد أن انتهت المسرحية، أصرّ على مرافقتهما سيرًا في طريق العودة بالكيزرغراخت، وحرصت نيلا أن تكون على طرف المجموعة، مُتخلّفة ببضع خطوات، حتى نسمح للاثنين أن يتحدثا بخصوصية لكن في حدود اللائق. تابع ياكوب كل شيء تقوله تِيَا، ظهرا فعلاً من كل الجوانب مثل زوجين ، كانا يسيران بتؤدة، متلفّعيْن بالفراء في وجه الليل. في المسرح، كانت تِيَا قد

عادت إلى مقصورة ياكوب، مُتضرِّجة الوجه، عجولة، واتخذت مجلسها بابتسامة سريعة منحتها له قبل أن يبدأ الفصل الثاني. كان احمرار خديها يُلمح إلى علمها أنهما كانا يتحدثان عنها: ربما كان هذا هو غرضها من تركهما وحدهما في المقام الأول؟ وها هي، بعد العرض، تشير بيديها في الهواء البارد إلى الجودين بوخت، مُتحمِّسة حول شيء ما، على الأقل. وياكوب رافع بصره إليها، يُصغي إلى طلاقتها، ويسلِّم بشغفها. لم تفقد نيلا الأمل: لم تفقده قط.

وعند باب منزلهما، شعَّ ضوء الشموع عبر نوافذ الصالون، واحتارت نيلا إزاء ذلك. فأوتو لا يجلس هناك بمفرده أبدًا، وكورنيليا لا تحب الغرفة. لوهلة، بدا الأمر وكأن شخصًا آخر يعيش في منزلها، فصارت لا تألف إيقاعاته وروتينه. ساعد ياكوب تِيَا في اعتلاء الدَّرجات الأمامية، ولاحظت نيلا كيف أن ابنة صهرتها أحنت رأسها وجيزاً لتفحُّص العتبة. عتبتهم خالية، لكن هناك على الأقل مكافأة أخرى، مستقبلهم المُرتقب، مُتمثِّلا في هذا المحامي الشاب.

قال:

- طابت ليلتكما، يا سيدتاي. كانت أمسية ممتعة جداً.

أتت نيلا لتنضم إليهما على العتبة:

- تِيَا، هل استمتعتِ بها؟

صوبت تِيَا نظرة صافية إلى زوج خالها. - كان فريداً أن أتمكن من مشاهدة الخشبة بأكملها من موقع متميز كالذي كنا فيه. لقد ساعدني ذلك على فهم القصة بصورة أفضل." وأمالت ذقنها، مُبتسمة. "أشعر بأني مُغربلة."

إنه اختيار غريب للكلمة. ألقتها تِبًا بتنميق، وهي تستدير لترفع مطرقة الباب التي على شكل دولفين ثم تُفلتها بخبطة قوية. تلعثمت نيلا، وهي تستدير إلى ياكوب، راغبة بأي شكل في إنهاء الليلة بأناقة، وعد بمزيد مُقبل، قبل أن تفتح كورنيليا الباب.

قالت:

- ستيور فان لوس، كان لنا الشَّرف الليلة.

نزع ياكوب قبعته، ولوّح بها نافياً ما قالته. إن مقصورة مسرح لا شيء بالنسبة إليه، كما تفترض نيلا، مادياً أو معنوياً. وتساءلت، إن كان هو أيضًا، في جلوسه خلال هذه الأمسية، صار يفهم هذه القصة بصورة أفضل. أما هي فتشعر وكأنها تنقصها بعض الخيوط. يغمرها قلق مفاجئ من أنهم لن يروه أبداً مرة أخرى.

ظلّ الباب الأمامي مغلقًا لسبب غير مفهوم، ولحظة مجنونة، خيِّل إلى نيلا أن هذا المنزل ليس منزلهم حقًّا: كورنيليا لن تأتي. سيشهد ياكوب زينتهم تتلاشى، واقفتين على عتبة باب خالية، بلا مكان تذهبان إليه، وتِبًا وريشة للا شيء. انحنى تحيّةً، وبدأ في نزول الدرجات.

- آمل أن نراك قريبًا... قالت نيلا في اللحظة نفسها التي فتحت فيها كورنيليا الباب، وظهر الدهليز في شبه عتمة. تنازع نيلا إحساس بالتيه مع تبدد الأمسية، وبالراحة لقرب عودتها إلى الفراش.

أجابها ياكوب:

- سترونني بكل تأكيد. إنني أدعوكم إلى العشاء يوم الأحد

المقبل، في منزلي في شارع البرسغراخت."

شعرت نيلا براحة جعلتها ترغب في أن تهرع إلى أسفل الدّرجات نحوه، لتقول:

- شكرًا لك.

أردف قائلاً:

- سأرسل تذكيراً. وآنسة تِيَا؟ لقد استمتعت بمحاضرتكِ في طريقنا إلى هنا. أنا أيضًا أشعر بأني مُغربل.

لم تقل تِيَا شيئاً. لقد أخذ ياكوب مِن تِيَا كلمتها، فقط ليعيدها، مشوّهة قليلاً. ثم ابتسم واستدار مُبتعدًا، وهما تصغيان إلى وقع حذائه على أرضية الشارع تخفت شيئاً فشيئا، تاركة إياهما في صمت.

- محاضرة؟

همست نيلا وهما تهمان في الدخول، لم تعد بعد صدور دعوة العشاء غاضبة. إذ شعرت أنها ما تزال مُمسكة بخيوط هذه القصة، التفتت إلى تيا، وسألتها:

- فيم كنتِ تحاضرينه بحق السماء؟

تنهدت تِيَا:

- كانت محادثة. كنتُ أخبره عن المسرحية ليس إلا، معانيها، كواليس إعدادها.

- وكيف تعرفين كواليس صنعها؟

أغلقت تِيَا الباب الأمامي، وعادت تواجه زوج خالها:

- ريبيكا بوسمان أخبرتني أن تحضير شيء نستمتع به لبضع

ساعات ثم ننساه بعدها بسرعة أكبر، يمكن أن يستغرق وقتاً طويلاً. ربما سنيور فان لوس لم يعتد سماع امرأة تربط أكثر من جملة معا؟

- إن سنيور فان لوس رجل مهذّب، وأنصت بانتباه بالغ لما كان لديَّ من كلام، وقد دعانا إلى العشاء، يا تِيا. فكري فيما قد يعنيه ذلك."

عضّت تِيا على شفتها:

- ما الذي تحدثتما عنه بالضبط في غيابي؟

حاولت نيلا تغيير الموضوع. فسألت كورنليا بينما تأخذ وشاحيهما ومعطفيهما:

- هل أوتو في الصالون؟

- نعم، يا مدام.

- ماذا يفعل؟ هل أشعل نارًا هناك؟

أجابت كورنليا بتعبير مُبهم:

- ربما من الأفضل أن تسأليه بنفسك. طوت المعطفين على ذراعها. وأردفت:

- تِيا، تعالي. لقد جهزتُ لكِ حمّاماً.

حدّقت المرأتان في كورنليا بالتباس. إن كورنليا تكره تجهيز الحمام. تسخين المياه المتواصل، وحمل الأباريق، مع صعوبة حملها والماء المُندلق منها، مسافة طويلة من المطبخ إلى الطابق العلوي. إنه الجزء الوحيد من حياة المنزل الذي تجد فيه نفسها قانعة بشيء من الوهن. لكن كورنليا تأخذ تِيا من ذراعها وتشرع في توجيهها بتصميم نحو السلم. وهي تقول:

- تعالي، يا حلوتي. لا أريد أن يبرد الماء.

تركت المعطفين من دون ترتيب فوق نهاية الدرابزين، ودفعت تِيَا دفعاً إلى الأعلى.

ظلت نيلا تقف عند أسفل الدَّرج، وهي تشاهد اختفاء كلتيهما. وتلقي بنظرة سريعة إلى شريط الضوء الأصفر أسفل باب الصالون، لكن شيئاً ما يمنعها من الدخول. سارت في المقابل صوب واحدة من نوافذ البهو، لتنظر إلى سماء الليل. "كنتُ أيضاً سأحبُّ حمّاماً"، هكذا فكرت وهي تلفُّ ذراعيها حولها، محدِّقة في المخمل الأسود الحبري. بينما أنفاسها تترك بخاراً على النافذة فترسم عليه دوَّامة بسبابتها. ربما أغطس في ماء تِيَا بعد انتهائها.

برز لوكاس من الظل، مُتمسِّحاً مرة تلو أخرى في تنورتها، مُصدراً زعيقه المتنافر. تسأله نيلا بصوت خفيض: "هل تتظاهر بأنك لم تأكل الليلة؟" تنهدت، لم يكن لديها في الدخول إلى الصالون وشرح الأمسية لأوتو، "أن تدافع عن "نواياها"، كما يطلق عليها. بدأت في التحرك نحو سلم القبو للبحث عن كسرة من طعام في المطبخ من أجل القط المحوح. لكن صوتاً مفاجئاً وعميقاً منبعثاً من خلف باب الصالون أوقفها في منتصف الطريق. استدارت، مُتفاجئة: كانت تظن أن أوتو بمفرده. من الذي معه هنا، في هذا الوقت المتأخر من المساء؟

تحركت نيلا، وقد نسيت طعام لوكاس، بصمت عبر البلاط، وثبتت نظرها إلى ثقب باب الصالون. وهناك، بساقيه الطويلتين طول ساقي اللقلق وشعره الطويل، وأوراق مبعثرة على كل البساط، يجلس كاسبر فيتسن. يبدو وكأنه في بيته، أمام المدفأة. يضحك مرة ثانية على شيء قاله أوتو للتو، وهو

جالس على الكرسي المقابل. كانا يبدوان كصديقين قديمين، وهما يخفضان رأسيهما إلى العدد اللانهائي من الأوراق التي يتوسطهما على الأرض. إن نيلا ليست في المسرح الآن، لكنها تشعر وكأنها ربما تشاهد منظراً تتجاوز حبكته إدراكها.

قال كاسبر:

- قد يكون مذهلاً. لكن الأهم، أنه مستمرّ إذا نجح الاستصلاح.

رفع أوتو عينيه:

- أتظن أنه لن ينجح؟

- علينا وضع هامش للخطأ. ربما لا ينجح. لكنني رجل متفائل، لذا لا أرى سبباً يحول دون نجاحه. لديّ من الخبرة ما أبني عليه فعلاً.

قال أوتو:

- إن المكان لم يُحسن استخدامه لمدة طويلة.

تراجع كاسبر في مقعده:

- لا يهم. إن فيه كل متطلباتنا. لكني أجد من الغريب أنك لم تذهب إلى هناك قط. ألم يراودك الفضول أبداً؟

تنهد أوتو:

- طبعاً.

- كنتَ بلا شك حينها لتذهب لتفقّده، ولو مرة واحدة؟

إنه أوتو الآن من يتراجع في مقعده، ويقول:

- إنه ليس ملكي حتى أذهب إليه. لا أملك إلا هذا المنزل،

يا فِنتسن. يمكنني أن أفعل أي شيء أريد بهذا المنزل، لكن لا شيء أكثر من ذلك.

قال كاسبر وهو يهز رأسه:

- أنت تعرض مشروعاً كبيراً.

أجاب أوتو:

- قرأتَ التقرير. إنه حافل بالوعود، ونحن أوائل في المجال.

قال كاسبر:

- أو أناس في المجال.

لوى أوتو وجهه:

- بند آخر نضيفه إلى عقدنا، منعك من إلقاء النكات.

رفع كاسبر يديه في اعتذار.

- لكن بعيداً عن الهزل. لا يمكننا أن نفعل ذلك من دونها.

- أعرف.

- لن أكون مُتعدِّياً.

- أفهم.

- قلتَ: إنك ستتحدث إليها.

- أحتاج فقط إلى أن أجد اللحظة المناسبة."

دفعت نيلا الباب، ووقفت على العتبة. حدّق فيها الرجلان اللذان بديا مُتلبِّسين تماماً.

قالت:

- الآن مناسب مثل غيره، يا سادة. من هذه المرأة التي يجب

أن تقصدنا إليها؟ وما هو بالضبط الشيء الذي لا يمكنكم عمله من دونها؟

لا مكان يهرب إليه أوتو وكاسبر. لا سبيل إلى إنكار الورق عند أقدامهما، ولا سيماء التواطؤ الحاسي المسرور. ماذا يظنان نيلا ستفعل؟ تطاردهما عبر المدخنة وتدفعهما من على السطح؟

قالت:

- توقف كلاكما عن الكلام الآن.

فأجاب أوتو:

- إن فيتسن هنا بصفته ضيفي.

نهض كاسبر، وانحنى:

- مدام براندت. عمتِ مساءً.

- سيد فيتسن. أرى أنك لم تجلب مربى الأناناس هذه المرة. بل عوضاً عن ذلك، طوفاناً من الأوراق.

بدا كاسبر، كأنه في حضرة وحش خطير، يركع ببطء، ويجمع الأوراق المُبعثرة واحدة تلو الأخرى.

- لا داعي... قالت نيلا وهي تسير نحو المدفأة. فتراجع الرجلان بعيداً عن الأوراق. وجه كاسبر مُرتسم بالقلق، لكن عيني أوتو تومضان بالتحدي، وكأنه يعدُّ نفسه. تذكرت نيلا الدقة في توقيت ريبيكا بوسمان، وهي تخطو على خشبة المسرح الليلة. إنها لن تنتظر اللحظة بعد يوم، أو أسبوع، أو شهر من الآن، التي يكون فيها هذان الاثنان أفضل عدّة، وجاهزين باليد الطولى. سوف تحصل على نصيبها من الغربلة، وتأمر به، في الحال.

دنت من البساط، ونظرت أسفل إلى الورق. لأول وهلة، تبدو الصفحات العلوية سهلة الفهم بما يكفي. رسومات لدفيئات برتقال وصوبات تعمل بمواقد الخشب، ومقاطع عرضية هندسية لأدوات غريبة الشكل وماكينات، تصاميم عامة لحدائق وبيوت زجاج نباتية منسَّقة. مدّت يدها لتناولهم، وبينما تفعل، لمحت تقرير الوكيل الخطّي عن أسِدلفت مدسوساً تحتها، والذي كانت قد أغلقت عليه منذ زمن في غرفة حسابات يوهانس. إنها لا تحتاج حتى إلى قراءته لتتذكر كل ما كُتب فيه: عدد الأفدنة، استخدام الحظيرة، حالة المنزل: غير صالح للسكن.

حدّقت فيهما. اختلس أوتو نظرة إلى كاسبر، الذي تجنّب عينيه، تلميذان مُذنبان، غابت عنهما كل مظاهر التبجُّح والثرثرة.

قالت:

- لماذا، تحديدًا، تنظران إلى التقرير الخاص بأسِدلفت؟ لكن لا أحد منهما يقول شيئاً. "أوتو؟ ما الذي تخطط له؟

وكن سيجيب، يمد أوتو يده إلى البساط ويُناولها ورقة مختلفة، مُغطّاة بالأرقام. قرأت بصوت عالٍ: "أسِدلفت، حسابات واستقراءات." تجري عيناها على العمود. إنها لا تصدِّق عينيها. لقد قدَّر الرجلان أرباحاً لعشر سنوات قادمة.

شعرت بدوار. أعينهما عليها، إنها تحسُّ بها، أنفاسهما المحبوسة، لكنها ترفض النظر إليهما. وتقول:

- ذاك منزلي.

قال أوتو:

- بل هنا منزلك.

تجاهلت نيلا قوله، وتابعت:

- لماذا تحوِّل منزلي إلى تمرين حساب؟

لكنها تعرف الإجابة. لكزت الأوراق بطرف حذائها، وأطلقت صرخة أمام خريطة طفولتها. ابيضت مفاصل أصابعها وهي تقبض على المُخطَّط، لقد رُسم منذ سنوات، وأبعاد المنزل غير دقيقة. ولكن ها هي البساتين في الواجهة والمؤخرة. ها هي حديقة الأعشاب، رقعة الخضروات. سور الفاكهة، المواجه للجنوب، والذي يسمح لهم بزراعة أشجار الخوخ والتين في هذه المسافة القصيّة من الشمال. ها هي البحيرة. تغطيها ملاحظات بخطي أوتو وما لا بد أنه كاسبر، أسهم تنطلق يساراً ويميناً عليها أسئلة – تعديل مكان. إزالة وإعادة بناء. مد سور الفاكهة هنا؟

حدّقت نيلا في ما فعلاه لبضع دقائق، مُخدَّرة الإحساس. كان هذان الاثنان قد تجرَّآ على اجتياح طفولتها بأقلامهما الرصاص، ثم رميا باستخفاف على البساط.

ترفع عينيها إلى أوتو:

- ماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئاً، يا نيلا. دعيني أوضح...

- منذ متى وأنت تخطط؟ منذ حفل ساراخون؟

نهض كاسبر:

- ربما يجدر بي أن أغادر.

- ستبقى حيث أنت تماماً. قالت تقولها نيلا، وأطاعها.

بعد صمت قصير، قال أوتو:

- لقد خسرتُ وظيفتي، يا بترونيلا. إنكِ لا تدرين كيف... كنتُ أحاول فقط...

- لكن هذا ملكي. أجابت نيلا، وهي تضرب الخريطة بيد: إنه ملكي أنا. وليس أنت.

راحت تدقق في أشجار التفاح تحت أسهم الرجلين. ترى الأغصان السوداء العارية، الطين تحت قدميها في حلمها الفظيع، تلك الغرف الحزينة الخالية. يا لسهولة أن يظن الناس أن في وسعهم أن يكتبوا ويغيروا في مكان لا يعرفون عنه شيئاً.

بدأت في كرمشة، فانتفض كاسبر واقفاً. - مدام! لقد أنفقتُ وقتاً طويلاً في هذا!

رمقته نيلا بغضب. لو أنَّ كاسبر حاول أخذ الرسوم منها، فلن تتردد لحظة في تمزيقها إلى نصفين.

قال أوتو:

- فيتسن، لا بأس. فعاد كاسبر إلى الجلوس.

خاطبت أوتو:

- كنتَ ستأخذني على حين غرّة!

- لم أكن سأفعل.

- لقد تحدثت عني الآن، كما لو كنتُ عائقًا.

أجاب أوتو بصوت بارد:

- لم أكن لأتوقع منكِ أن تفهمي.

- إنك لا تتوقع ذلك أبداً. لكني أفهم على الأقل أن

الأناناس لن ينقذنا.

- ولا الابن الثالث لعائلة لايدنيّة، مُتخيّلاً أن في وسعه تعليم ابنتي عن المسرح. تهلا، إن الأرض هناك...

- ياكوب هو المستقبل. وهذا...وأشارت إلى خريطة طفولتها التي ترفعها في قبضتها:

- هو الماضي. وصدقني، يا أوتو، ويا سيد ڤيتسن: لن أسمح لأي منكما بجرّي من جديد إلى هناك.

اندفعت خارج الصالون، تاركة الرجلين شريدين، جزيرتين في بحر من الورق.

13

أول ما لاحظته تيَا، ما إن دفعتها كورنيليا إلى غرفة نومها، هو أنه لا يوجد أيُّ حمام. إنَّ غرفتها، في الواقع، لم تُشعل فيها حتى نار. المصاريع مغلقة. يكاد المكان يكون مظلماً بالكامل، لا تضيئه سوى شمعة واحدة من الشحم، يرتجف لهبها مع حركة جسديهما.

همست تيَا:

- ما الأمر؟ ماذا يجري؟

أغلقت كورنيليا الباب، وأدارت المفتاح في الثُّقب. أدخلت يدها في جيب مئزرها. لوهلة، ظنت تيَا أنها عثرت على دمية والتر والمنزل الذهبي الصغير، وبدأ ذعرها ينمو. بمَ ستفسِّر حبيبها المُصغَّر بلوح ألوانه الفارغ، والمنزل المجوَّف، بحجم لا يزيد عن لبِّ خوخة؟ لن تستطيع تقديم إجابة قد تحفظ سرها.

قالت كورنيليا وهي تدفع بظرف صغير نحوها:

- لقد وصلكِ هذا عندما كنتِ في المسرح.

إنه أكثر استواء من أن يحوي منمنمة، كانت تيَا متأكدة من ذلك. هدأت قليلاً، تصنَّع عدم الاكتراث، متعمِّدة عدم أخذه من يد كورنيليا الممدودة.

سألت كورنيليا، بصوت صارم:

- هدية أخرى من إليونور ساراخون؟

- على الأرجح. أين كان؟

- على عتبة الباب، مجدداً. إنه لغريب أننا لا نرى أبداً من يوصل هذه الأشياء، ألا توافقينني؟

قالت تِيَا:

- إنها مجرد رسالة. لماذا تتصرفين هكذا بسبب رسالة؟

مسحت كورنيليا يد على عينيها. فتواصل بمقدار ما تستطيع من عقلانية:

- هاته، من فضلك. لقد أمضيتُ هذا المساء في تبادل المجاملات مع رجل عمل لا يثير اهتمامي، فقط لإرضاء نزوات زوج خالي. لن أكون نهب نزواتكِ أيضًا.

بدت الصدمة على كورنيليا، لكن تِيَا أخذت الرسالة بحزم من بين أصابعها، وقادتها إلى الباب، وهي تقول لمربِّيتها القديمة:

- إنكِ تقلقين أكثر من اللازم. وقبّلتها على خدها، إذ إن الجلد ساخن ورطب.

- إنني لا أقلق بما يكفي.

قالت تِيَا، قبل أن تغلق الباب:

- كورنيليا، لستُ فتاة صغيرة.

وحينما أصبحت وحدها أخيرًا، أشعلت تِيَا شمعتين أخريين من الشحم وفحّصت الظرف. لا يمكنها أن تجزم إن كان يحمل الخط نفسه على المنمنمتين، لأن اسمها هذه المرة قد كُتب بأحرف متصلة، وليس بأحرف كبيرة. قد يكون من والتر، لم يشبع بعدُ من لقائهما السريع في السخاوبورخ بين فصول المسرحية، في وقت أبكر. تكاد تِيَا لا تصدق جرأتها، عندما تركت زوج خالها وياكوب في المقصورة مثلما فعلت، لتعانق

حبيبها ويُعانقها. تتوق أن يكون الخطاب منه، وعلى عجل، تفتحه.

تيَا براندت، هكذا تبدأ الرسالة.

غريب أن يخاطبها والتر باسمها الكامل. ثم تقرأ الجملة الثانية.

أعرف ما تفعلينه مع والتر ريبيك.

تحدِّق تيَا في هذه الكلمات، ومعدتها تأخذ في الانقباض.

إنكِ تضاجعينه، هكذا تواصل الرسالة. تمنحينه جسدكِ بفسوق، وقد رأيت ذلك. إذا لم تتبعي هذه التعليمات، فسوف أخبر كل أمستردام عن أيِّ عاهرة أنتِ.

فمها يجف.

سوف يعرف الجميع حقيقتكِ. لن تعودي كما كنتِ أبدًا، سوف يكلِّلكِ العار من جديد وأنت هي صانعته. فكري في مغبَّة ذلك على عائلتك، لكن مائة جِلدر سوف تشتري صمتي. اتركي النقود تحت المقعد الثالث، إلى يسار المذبح في الكنيسة القديمة. سيجري تفقُّده كل يوم، ولكن لو أن المال لم يوضع بحلول يوم الأحد، فإن سمعة آل براندت ستنهار بصورة لا قيام بعدها.

لا يوجد توقيع، لا علامة على الظرف. قبضت تيَا على الورقة وكأنها شيطان لا يمكنها صرفه، ثم، ويداها ترتجفان قليلاً، وضعتها على غطاء سريرها، ونزلت بجسدها إلى الأرض. تمد يدها إلى المبولة الفارغة، وتحاول التقيؤ. إن هذا لا يمكن أن يحدث. إن هذا كابوس حقيقي.

ظلت تيَا مُتقوقعة، مصدومة إلى درجة أن لا دموع تأتي. لا نحيب، لا شيء سوى هذا التقيُّؤ، وكأنها ستُخرج من بطنها

مائة جِلدر، وكأنها ستقلب داخلها إلى الخارج وتختفي، بعد أن تحول جسدها إلى المبلغ المطلوب لحمايتها.

تتكوّر حول نفسها. مائة جِلدر. تعلم أن والدها وزوج خالها يدفعان إلى كورنليا راتبًا قدره ستون جِلدر عن العام كله، وأن كورنليا تعدّ هذا كرمًا. لكن مائة جِلدر، تُسلَّم في يوم واحد؟ إن تِيا لم تَرَ قطُّ مثل هذا المبلغ في حياتها. تغلق عينيها. لم تشعر قط بمثل هذا الرعب.

***

في الثالثة من صباح اليوم التالي، أيقنت تِيا أخيرًا إلى أن عائلتها مُستغرقة في النوم. عندما نهضت من على الأرض، في وقت سابق، وتمكنت من العودة إلى الفراش، سمعت شجارًا في الصالون بالأسفل، صوت زوج خالها يعلو وينخفض، وكذلك والدها. ولكن لا يبدو مُرجحًا أن كورنليا قد أبلغت عن الرسالة التي وصلت، لأن أحدًا لم يهرع إلى غرفتها. ما تزال كورنليا تملك شيئاً من التكتم، على الأقل. كان والدها وزوج خالها يتجادلان حول شيء آخر، ولأول مرة، لا تهتم تِيا بمعرفته. سمعت باب غرفة الخالة يُغلق، ثم الصوت المألوف لوالدها يتحرك في أرجاء الطابق الأرضي، مُغلقاً المصاريع، وضامًا عائلته في أمان هذا المنزل الذي صار لجأة بالنسبة إلى تِيا مجرّد وهم.

تشعر ببرد شديد حتى أنها لم تعد تستطيع التحرك. ركبتاها مرفوعتان إلى أسفل ذقنها مثل عصي فنجان من العظم، وفي عنقها ألم من أثر التحدّب، وعيناها تحدّقان في الغرفة المعتمة دائماً. تتذكر كورنليا، جالسة إلى جوارها في المسرح في عيد ميلادها، عندما قالت:

- لقد عملنا بجد. لم نعد نعيش محاطين بالخوف والعار. وكل ما يسع تِيَا أن تفكر فيه بتلك اللحظة هو رؤية والتر.

وما قالته كورنيليا ليس صحيحاً. ما يزال العار عفريتًا قائمًا، يقبع في كل ركنٍ من هذا المنزل. والدها، يشعر بالخجل من بطالته. كورنيليا، مرتابة بسبب رسائل زوج خالها التي تحاول الهروب من الماضي، وهي مستعدة أن تجعل تِيَا تطيق زواجاً بلا حب، وهذه هي فرصتها في التعلق بجلابيب المُحترمين من الناس. وأشباح العار موجودة هنا أيضًا. خال، أعدمته الدولة بجريمة اللواط. أم بغير زواج، أماتها المخاض. والآن، رسالة، تصف الطفلة التي وُلدت لها بالعاهرة.

لا شيء في هذه الرسالة ينسجم مع الطريقة التي ازدهر بها حب تِيَا لوالتر. كيف أنه في قلبها يمتدّ إلى السماء. تتناول الرسالة مرة أخرى، فتتشمَّها بحثاً عن أثر من رائحة، لكنها لا تجد سوى التكتُّم الأصمّ للورق المطحون. لا يمكنها رؤية الكلمات في الظلام، لكنها كانت قد أودعتهم بالفعل في ذاكرتها. ماذا تكون العاهرة، حقاً تتساءل تِيَا، وهي تغلق عينيها. ماذا تعني، ومن في وسعه أن يصفني بذلك؟ إنني أحب والتر ريبيك، ونحن مخطوبان.

هناك شخص واحد قد يخطر لتِيَا أنه من كتب هذا، الشخص الوحيد الذي يعرف عنهما معاً. إنه لمؤلم جداً أن تتخيَّل - أن ريبيكا، صديقتها الوحيدة، قد تفعل ذلك بها، قد تصفها بهذه النعوت. يبدو مستحيلاً.

إنها امرأة غريبة وحيدة، هكذا قال والتر. لكن تِيَا متأكدة من أن هذا ليس من فعل ريبيكا. مهما كانت ريبيكا لا تحب والتر، وأياً كان الخلاف الذي انتهى به لقاؤهما الأخير، فإن

ريبيكا لم تكن لتنحدر إلى هذا المستوى. فأولاً لا تحتاج أنجح ممثلة في السخاوبيرخ إلى المال. كانت ريبيكا قد أخبرت تيا، أكثر من مرة، عن استثماراتها في الفوك، وعن المنزل الذي تستأجره في شارع الليدزغراخت والذي يكلفها أربعمائة جلدر في العام. كما أن ريبيكا ما كانت لتفعل شيئاً بهذه القسوة. لقد أظهرت كراهيتها لوالتر فعلاً، لذا يصعب ترجيح أنها قد تتكبد كل هذا من دون الخوف من أنَّ تيا لن تشك فيها.

أنزلت تيا ركبتيها وتمددت على فراشها، وهي ما تزال في ملابسها الكاملة. من إذن يحتاج إلى مثل هذه الأموال؟ من قد يفعل هذا بها؟

كوني عمليةً، هكذا تقول لنفسها، محاولةً أن تكون أكثر شجاعة مما تشعر، وهي تدسُّ الرسالة تحت وسادتها. على الرغم من أن تيا لا تحبُّ أن يستقر سمٌ كهذا قريباً جداً من بؤرة أفكارها، إلا أنها لا تجرؤ على تركِ رسالة كهذه بعيداً عنها مسافة ذراع. الدفاع عن الحب، مقابل مائة جِلدر: من أين يمكنها أن تحصل على مبلغ كهذا؟ يجب أن تحصل عليه، لتفتدي عارها. لتُرجعه مرة أخرى إلى الماء. والآن هو الوقت المناسب، عندما يبدو المنزل ميتاً.

نهضت من جديد، ومشت على رؤوس أصابعها حتى عتبة الباب. قدماها باردتان كالثلج، حافيتان حتى لا تُسمع خطاها. وقفت في الرواق، وهي تمعن التفكير في اللحظة الراهنة وحسب. ماذا يمكن أن تبيع، ولن يلاحظ أحد غيابه؟ كان مقدار كبير من ممتلكاتهم الثمينة قد ذهب فعلاً، لتأمين شمع العسل والحطب الجيِّد، وشرائح البايكون الفاخرة، وولائم عشاء لخطَّاب تمثيلي الظل. جميع اللوحات التي اقتناها خالها

ووالدتها كانت قد ذهبت باستثناء واحدة. وكذا أنظم السجّاد، والمشغولات الفضية الأكثر زخرفة. تبًا نفسها لا تملك شيئاً ذا قيمة، تنانيرها ومشدّاتها، عباءتها، وأحذيتها - كلها مصنوعة من خامات جيدة، لكنها لا تستطيع بيعها، إذ ماذا سيبقى بعدها لعاهرة مُتخفِّية؟

وقفت عند نهاية سلم العليَّة. منذ صغرها، وهي ممنوعة من الصعود إلى هناك بمفردها، خوفاً من أن تقع: لكن لا أحد يمكنه منعها الآن. أمسكت بجانبي السلم وبدأت في الصعود. وفي الأعلى، يكون المكان أبرد من قبر ولا يمكنها أن ترى جيداً. أتى ضوء قمر خفيف، من نافذة مكشوفة في منتصف السقف المائل، وأضفى لمعانًا شفّافًا على صناديق ضخمة وأغطية غبار، فتلمست من خلاله طريقها عبر الأرضية الخشنة.

لا بد من وجود شيء هنا يمكنها بيعه، شيء لم يرغب فيه أحد منذ عقود. تجولت في المكان، وهي ترفع الأغطية لتكشف عن كرسي بثلاثة أرجل، وطاولة لعب قديمة تعود إلى أيام الرفاهية. صندوق واحد يحتوي على أحزمة رثة. لا أحد سيشتري هذه الأشياء، ليس بالثمن الذي تحتاج إليه. في الركن من العلية، لفت انتباهها صندوق مدسوس تحت عارضة خشبية. تحركت ببطء نحوه، وجثت على ركبتيها، مُمرِّرة يديها على الخشب القديم. يبدو مثل صندوق أحزمة آخر، لكنه أكثر قوة ومتانة. في الظلمة الخفيفة، تحسست مزلاجين على كل جانب، وفتحتهما. جفلت من صرير احتكاك المعدن الصدئ ببعضه. لكن الغطاء رُفع بسلاسة مدهشة، وفاحت منه الرائحة الجميلة لخشب الأرز عدلت تبًا من زاوية جسدها حتى يمكن لضوء القمر أن يساعدها، وعثر في كنزها.

على نشارة خشب الأرز تستقر كتبٌ، مربوطة معًا في رُزم. لمن هي؟ لا توجد كتب في المنزل، بسبب أثمانها الباهظة. يفضِّل والدها وزوج خالها قراءة الدفاتر الثقيلة لحسابات المنزل، وهناك إنجيل العائلة القديم طبعاً، لكن هذه الكتب المخبَّأة في أعلى المنزل- هذه الكتب تبدو مختلفة. أخرجت تِيَا رزمة، وفكت الدُّوبارة، وفتحت أول كتاب. كان الكتاب مجلداً بشكل جيدًا. وفي داخله رسوم توضيحية من الخشب لحطام سفينة، وتحته كتاب آخر بالجودة نفسها، وآخر ... وآخر.

أرادت أن تحمل معها رزمة كاملة، لكن تِيَا على الرغم من أنها لا ترى أبدًا أحدهم يصعد إلى العلية، إلا أنها لا تريد أن تفضح انتهاكها لهذا المخزون المُفاجئ. عدّلت من جلستها، وغاصت يدها أعمق في نشارة خشب الأرز، اصطدمت أصابعها بجمجمة حيوان صغيرة، فأسقطتها بسرعة. كان هناك أيضًا زغب، ريشات طويلة لا تنتمي إلى أي طير رأته في حياتها. وتوجد أشكال تشبه القرنات، بذور كالجواهر محشورة بين أصابعها.

فجأة، تلمس تِيَا شيئًا لِيِّنا لكنه جامد. نسيج من نوع ما، ناعم كالسمور. وأمام دهشتها، لمست يدها ساقين، ثم ذراعين، أخذ قلبها يدق بقوة وهي تسحب مُنمنمة لامرأة، وتمضي بها نحو النافذة، لترى على ضوء القمر زوجًا من أعين رمادية، وعنقًا أنيقًا، وطوق رقبة قديم الطراز. ملامح مُتحفظة وفماً قوياً مألوفاً.

توقفت الأنفاس في رئتيها. إنها تعرف من تكون. إنها والدتها. مررت يديها على تنانير مارين. كَفّيها، يديها النحيلتين. ضمتها في كفّها. كان غريباً أن تقابل أُمَّها أخيرًا، عندما لا يكون في وسعها أن تتكلم، وتِيَا لا يمكنها أن تتجاوز الهمس، كلتاهما

يحكمهما نوعان مختلفان من الصمت. حدّقت تِيا في الدمية، محيطة بمستوى الدقة، الجودة، انبعاث الموهبة داخل كل طرف، علامات صانع دمية والتر نفسها. هل من المعقول أنهما من صنع الشخص نفسه، ولو أنهما كذلك، فكيف؟ ما الذي تفعله منمنمة لأمّها في هذه العليّة، ومن وضعها هناك؟ ولماذا لم يخبرها أحد قط بوجودها؟

واصلت الدمية تحديقها الأعمى في ابنتها الحيَّة، خرساء وكتومة على الرغم مما يَعِدُ به هذا الفم المُؤثر. قلبها يدق بسرعة، ظلت دمية مارين في يدها، وهي تعود إلى صندوق الأمتعة وتواصل التقليب، إلى أن حطت يدها الأخرى الفارغة على جسم آخر مخبأً في خشب الأرز. حملته إلى النافذة مرة أخرى. علمت فوراً أنها تمسك بوالدها. ها هي بدلته السوداء، ونظرته الصريحة التي لا يمكن أن تخطئها. "بابا؟" هكذا تهمس، عاجزة ألا تحيي هذا الشبيه الغريب. لكن والد تِيا مُستغرق في النوم تحت قدميها. إن هذا شبيهه العجيب فحسب.

حملتهما تِيا معاً تحت نور القمر. كان أبوها وأمها، جامدين بين أصابعها. تريد منهما أن يمدّاها بالإجابات. وبينما تنظر إليهما، وقد اجتمعا مرة أخرى ولكن، في مثل هذه الطريقة المنقوصة، شعرت تِيا من جديد كم أنها لا تعرف إلا قليلاً عن قصتهما، كيف ستظل تلك القصة محبوسة إلى الأبد خلف الصمت وصلابة الموت. مهما حاولت، فلن تتذوق الحب بينهما. هاتان الدميتان، بكل جمالهما ودقتهما، لن تخبراها بشيء.

ولكن لوهلة، خطر لها أن تأخذهما إلى غرفتها. يمكنها أن تضمهما إلى والتر والمنزل الذهبي الصغير، ذخيرتها حيث يلتقي ماضيها بمستقبلها، متقلّصين إلى حجم يمكن وضعه تحت سريرها.

إلا أن شيئاً يمنعها. هاتان المنمنمتان تنتميان أحدهما إلى الأخرى هنا، معاً. إنها لا تملك الحق في أن تأخذهما. لا تعرف تِيَا لمن هما بالضبط، لكنها لا تستطيع أن تغير مكانهما. يجب ألا تأخذهما في حيازتها. لو أن أباها الحقيقي والحي لن يتحدث معها عن الماضي، عن أمور شخصية، فكيف بوسعها أن تتوقع شيئاً زائداً من دمية؟

كما أنها بشيء من الصدق مع نفسها: مُخيفة قليلاً. لا تعرف تِيَا بماذا تشعر، وهي تنظر في وجه أمّها هكذا، بعد كل هذه السنوات. ظنَّت أنها قد تشعر بابتهاج، أو إحساس بالقرب. ولكن ربما يكفيها أن تعرف أن نسختها موجودة هنا، محفوظة في خشب الأرز، مُخلَّدة في هذا الشكل الجامد، بينما عظامها تتحول إلى رماد في أرض الكنيسة القديمة.

"سوف أعود وأزورك،" هكذا تهمس تِيَا في أذن أمّها – أذن مارين، التي رغم مظهرها الحقيقي، لا تسمع شيئاً. وعيناها لا تريان شيئاً. وضعت تِيَا والدتها ووالدها في النشارة من جديد، فتغطيهما، وقلبها حزين حزناً غريباً. أمسكت بأمّها لثانية واحدة أخيرة، وبينما تسحب يدها، لمست ما يشبه لفيفة.

حسبت أنها لوحة ملفوفة. الجميع يعلمون كم يحبُّ الأمستردامِيُّون اللوحات، سواء كانت داخل إطار أم لا. فكرت، هذا هو نوع الأشياء التي يمكنكِ بيعها. تصبح برودة العلية وظلمتها أكثر من احتمالها، وكان اكتشاف الدمى قد أثار أعصابها، لذا ومن دون تفكير، أخرجت هذه القطعة الملفوفة، وأغلقت الغطاء، وأعادت المزاليج إلى مكانها. غمرت جسدها موجة مفاجئة من التصميم. ببطء، وصمت، واللفيفة ما تزال مطويَّة في قبضتها، تبتعد تِيَا عن والديها المنمنمين، فتمشي بخفة

على الأرض، المرقّطة برقع فضية من ضوء القمر. وملقيةً نظرة أخيرة على الصندوق، نزلت السلم، بعيدًا عن أرض الموتى.

وفي غرفتها، أشعلت أرومات شموعها و أفردت ما وجدته، لكنها تُفاجئ عندما تكتشف بدلاً من منظر أرستقراطي لطاحونة مائية أو مزرعة، أو واحداً من مشاهد حانات الفلاحين التي تبدو حافلة جدًا عندما تمر بها في الأسواق، خريطة مفصّلة لإفريقيا. وكان شخص قد كتب عليها، طقس؟ طعام؟ دين؟

لم تتعرف تِيَا الخط. ولا اسم المكان أسفل الساحل الغربي للقارة، حيث تحوم الأسئلة، والذي كُتب عليه داهومي. لكنها خريطة فاخرة، في وسعها أن ترى ذلك حتى على ضوء الشمعة الضعيف. لقد رُسمت بدقّة، بالكثير من العناية في تضاريس كل الكتل الأرضية والسواحل. تتصاعد حماستها: ستأتي هذه بثمن جيد، حتى مع الأسئلة الثلاثة بالحبر. بل قد ترفع الأسئلة من قيمتها. يمكنها اختلاق قصة حول هذه الأسئلة. "نحن عائلة تهوى المغامرات،" هكذا تتخيل نفسها تقول لرسامي الخرائط في شارع الرامسترات. لقد سافرنا إلى أبعد من يُسطنا، في النهاية.

لفت تِيَا الخريطة ودستها خلف سريرها، تحسّباً أن تدخل كورنيليا صباح اليوم التالي وتلمحها. كان نومها، حتى الفجر، قصيراً متقطعاً. حلمت بيد والدتها تُمَدُّ من داخل صندوق العليَّة. كفٌّ شمعية نحيلة تفتح لتقدِّم لها باقة عناكب متلويّة. تتساقط العناكب، وتدوب أرجلها السوداء المعقوفة إلى خطوط حبر الخريطة، ترسم جبالاً وبحيرات لا تميزها تِيَا، عالمًا جديدًا وعدائيًا.

14

وقف تاجر الفنون في حجرة المائدة أمام لوحة حطام السفينة لباكهيزن. إنه ليس الرجل نفسه الذي ابتاع لوحاتهم السابقة. كانت نيلا قد وزعت ذلك الإحراج، فاختارت عدة تجار خلال الأشهر القليلة الماضية من بين صفحات دليل سميت. من اختارته هذه المرة، دي فريس، هو شاب طويل القامة له مظهر شخص اعتاد الجلوس لرسم لوحته، لا من يتاجر فيها. إنه لا يعرف شيئًا عن اللوحات العديدة الأخرى التي غادرت هذا المنزل، مغلفة في الحرير والخيش. أو هي تأمل على الأقل أنه لا يفعل، لأنه حينها سيشعر بيأسها. إن له عينين بالطبع. يمكنه أن يرى الجدران عارية.

- إنها لوحة جيدة.

فوجئت نيلا بقوله، ليس لأنها لم تتوقع أن تكون عالية الجودة، لأن مارين هي من اشترتها، في النهاية، بل أن يقرّ دي فريس بذلك. كانت قد اعتادت الاعتراضات من هؤلاء الرجال: التقليل من القيمة، لوي القسمات، أي شيء لضمان بيع أرخص. إنها تعرف حيلهم وتفتخر بأنها تصدّت لهم في أغلب المرّات، وحصلت على أسعار جيدة للقطع التي زينت عالمها لمدة ثمانية عشر عامًا.

وبينما يُثمِّن دي فريس اللوحة، تتساءل نيلا: ما الذي تفعله بالشخص إزالة مناظره الخيالية، هذه القصص المرئية المُحاطة ببراويز من خشب البلوط الثقيل؟ هل يختلق مزيداً منها في رأسه تعويضاً عن الذي ذهب؟ كانت قد تعوّدت جدًّا على

هذه الصور المتنوعة، حتى تلك التي لم تكن تعجبها، الأرانب الميتة، الطيور الملطخة بالدماء، الثمار الفاسدة، تذكير مارين المستمر بتسرب الزمن وحتمية الموت. ومع أنها أبداً لم تحب تلك الصواري الشبيهة بالصلبان المقلوبة، وبياض أعين البحارة، والرسالة المملة بالتحذير من أخطار السفر، ورسمه في الوقت نفسه بصورة مُثيرة، إلا أنها ستفتقدها. كانت المفضلة عند مارين. وجدرانهم، بعد هذه اللوحة، ستصبح عارية تماماً.

قالت:

- إن الإطار من قشرة الذهب. أفترض أنك ستريده أيضًا."

رمشت عينا دي فريس ببطء، رموشه بلون الرمل ووجنتاه الورديتان تذكّران نيلا بالخنازير الصغيرة. سُمعت حركة عند الباب وظهرت تيَا، غافلة عن وجود أحد مع نيلا. بدت مُذنبة على نحو غريب، وجفلت من وجود دي فريس. لاحظت نيلا لحظة الاستغراب المألوفة على وجهه، قبل أن تختفي بسلاسة تحت ملامحه. كل شيء يفعله في عمله يجب أن يكون سلسًا، هي تفترض، كل شيء متماسك. ليس غريباً أبداً في هذا العالم، أن تعيش أرملة في منزل بهذه الضخامة على قناة الهيرغراخت ولا تملك شيئاً على جدرانها. ليس غريباً أبداً أن تظهر تيَا هكذا، وهي لا ترتدي زي الخادمات، بل مثل نبيلة، في تنورتها السوداء الرصينة، وقلنسوتها الأنيقة بلون البصل الناضج. نظر دي فريس إلى تيَا كما لو كانت لوحة طبيعية صامتة.

قالت تيَا:

- أين بابا؟

أجابت نيلا:

- في الخارج. هذا هو سنيور دي فريس. إنه يُثَمِّن هذه اللوحة من أجلي.

انحنى دي فريس في تحية، لكن تِيَا لم تتحرك:

- هل يعرف بابا أنكِ ستبيعينها؟ سؤالها جعل نيلا تستشيط غضباً. لماذا تفترض تِيَا أنها في حاجة إلى إذن أوتو حتى تبيع لوحة؟ أرادت نيلا أن تقول: "لقد أوصيَ لي بهذه اللوحات، لستُ في حاجة إلى أخذ الإذن من والدك، ولا من بنت في الثامنة عشرة. أستطيع أن أفعل ما أريد بهذه اللوحة. استرجع عقلها مرة أخرى صورة الرسومات والتقارير على أرضية الصالون، غزيرة ومفصَّلة ومؤلمة. جو التواطؤ بين كاسبر وأوتو. عجرفة الرجال. ضمت قبضتيها، ثم أجبرتهما على الارتخاء. لن تهزمها رسومات لمواقد وبساتين.

- هلا أذنتَ لي، يا سنيور؟ سأتركك لتعاين على انفراد.

انحنى دي فريس مرة أخرى.

- بكل سرور، يا مدام.

وخارج الحجرة في الدهليز، واجهت نيلا تِيَا. وسألتها بصوت خفيض:

- ماذا حدث؟

- لم يحدث شيء، لكنها تكاد تبدو محمومة. تحت عينيها البنيتين هالات داكنة، وعيناها نفسهما تبرقان بشدة، وفي حركاتها تململ غير مُعتاد:

- - هل ستبيعين تلك اللوحة حقًا؟

- نحتاج إلى المال. همست نيلا، محاولةً إخفاء نبرة الاتهام لكنها أخفقت.

همست تِيا بالمقابل:

- إنه ليس ذنبي، واستدارت لتذهب. تناولت عباءتها، وألقت بها حول كتفيها. "سأذهب لشراء سمك أبرميس من أجل كورنيليا." ثم توقفت فجأة. "فيم كنتما تتجادلان ليلة أمس؟"

- لم نكن نتجادل.

- بل كنتما. سمعتُ صوتيكما.

لوهلة، ترتأي نيلا أن تكذب. لكن لا يمكن أن تزج نفسها باختلاق التفاصيل. قالت:

- كان كاسبر فينتسن هنا. دعاه والدكِ عندما كنا في الخارج.

اتسعت عينا تِيا:

- عالم النباتات؟

- يبدو أنهما، والدكِ وهو يحيكان خططاً سرية، منذ حفل ساراخون.

- أي خطط؟

- ربما عليكِ سؤال والدك مزيدًا من الشرح. لا وقت لديَّ الآن.

همت نيلا بالعودة إلى حجرة المائدة، لكن تِيا أمسكت بذراعها:

- أخبريني، يا خالة نيلا. رجاءً.

ساد صمت طويل، وبدا كل شيء من حولهما ساكناً جدًا. قالت نيلا:

- والدكِ، وكاسبر فيتسن يرغبان في زراعة الأناناس على أرضي.

- أناناس؟

- أجل. مواقد، دفيئات، كل تلك الأشياء. أعتقد أنهما يرغبان في تأسيس مشروع معًا. عالم نباتات وموظف. رجلا صناعة عظيمان.

كانت نيلا تتكلم بمرارة، أدركت أن في كلماتها إساءة لأوتو، وليس من الحكمة أن تعبّر عن شعور كهذا أمام ابنته. لكنها تابعت:

-عدا أنهما لا يملكان المال اللازم لمشروع كهذا، ولا يريد والدكِ بعد أن يخبرني من أين يخطط للحصول عليه.

بدت تيَا مُستغرقة في التفكير:

- في أسِدلفت؟ حيث غرقت والدتك؟

شعرت نيلا بألم بين أضلعها:

- اذهبي واشتري الأبرميس. ولا تتلكّئي.

فجأة، وضعت تيَا يدها على ساعد زوج خالها. لمستها دافئة وقوية. كان قد مضى وقت طويل منذ أن أظهرت إحداهما للأخرى أي عاطفة جسدية. قالت تيَا بخفوت:

- عندما أعود، هل ستكون لوحة أمي قد ذهبت؟

- تيَا، في أي طريقة أخرى تظنينا سنشتري أبرميس

كورنيليا؟"

شحبت تِيَا يدها، واختفت النعومة من على وجهها. لقد أصبحت في مكان لن نسمح لنيلا بالوصول إليه.

تفاضت نيلا مائتي جلدر من دي فريس مقابل لوحة باكهوزن. ليس مبلغًا جليلًا، لكنه ليس متواضعاً أيضًا. والأهم أن هذه الجلدرات تُشعر نيلا بأنها تعويذة ضد ما تخشى حدوثه، ألا تستجدي تِيَا الشَّي خلف ياكوب، ألا يتمكن أوتو من العثور على عمل.

سلّمها دي فريس المبلغ نقدًا، وليس حتى بإذن صرف. كم يحمل من جلدرات أخرى يتجوّل بها في المدينة؟ شاهدته ينتزع البرواز المذهب عن الحائط، مادًا ذراعيه إلى أقصاهما، حاملًا البحار الموجاء في حضنه. تخيّل نفسك حصيناً جداً داخل ثروتك حتى أنك تقطع هذه الشوارع بمئات الجلدرات تبطن معطفك، وتتساقط من على جسدك كأوراق جافة.

لكنّ مثله كثيرين في هذه المدينة. زوج نيلا نفسه كان، لزمن طويل، واحداً من تلك الطبقة. قد يتعرض للسرقة في جادّة دَمْرَك، لكن العالم لن ينتهي. عدا أنه في الواقع، عندما سُرق يوهانس، انتهى العالم، هكذا فكرت، لذا ستحرس هاته الجلدرات المائتين بضراوة، لأنها في مجموعها أكثر مما رأوه منذ وقت طويل.

وقفت على عتبة المنزل، تراقب دي فريس وهو يسير حاملاً اللوحة في شارع القناة قبل أن يضعها في مؤخرة عربته. ثم يقفز لينضم إلى حوذيّه، الذي يطرقع سوطه ويطلق الحصان.

خرجت كورنيليا لتشاهد:

- هذا كل شيء إذن. لم يكن أوتو ليتوقع ذلك.

- كما أني لم أتوقع أن أجد كاسبر فيتسن في الصالون ليلة أمس. هل كنتِ تعلمين ما يخطط له؟

- لا، يا مدام.

ملامح كورنليا قاتمة إلى درجة أن نيلا تصدقها. "هل طلبتِ من تِيا أن تبتاع لكِ أبرميسًا؟

بدت كورنليا مبهوتة:

- لا.

- قالت إنكِ فعلتِ.

صمتت كورنليا، وراحت تنقل رأسها يمين القناة ويسارها. فسألتها نيلا:

- عمَّن تبحثين؟

- تِيا، طبعاً.

- لكنها غادرت لتوها. كورنليا، هل كل شيء بخير؟

لوت كورنليا يديها معًا، وهي تواصل تفحُّص جهتي القناة:

- كل شيء على ما يرام.

انضمت نيلا إلى رفيقتها القديمة في النظر يمين ويسار الهيرنغراخت، ليس بحثاً عن شابة طويلة، وقلنسوتها بلون البصل الناضج، عائدة بسلة تحوي أبرميسًا، بل عن رأس بشعر أشقر، وعينين بلون بنّي فاتح، ناريّ جداً في بعض الأحيان حتى يكاد يبدو برتقالياً. صانعة الدمى لا بدَّ أن تأتي: لا بدَّ أن تفعل. شعرت نيلا كأن الوقت يداهمها.

سألت كورنليا وهي تضيّق عينيها في شك:

- وعمّن تبحثين أنتِ؟

قالت نيلا:

- لا أحد. لسنا سوى امرأتين تقفان على عتبة منزل، يا كورنليا، تنتظران بلا هدف.

بعد قرابة الساعة، سمعت نيلا أوتو يناديها عبر المنزل. كانت تقف في غرفتها، وخريطة أسِدلفت التي تغطيها تعليقات الرجلين مبسوطة على الفراش أمامها، والجِلدرات الماثين ثمن اللوحة مخبأة تحت حشية سريرها. سمعت وقع قدمي أوتو وهو يصعد الدَّرج، طرق بقوة على باب غرفتها. فسوّت قلنسوتها، ودست شعرها تحتها، وسدت تنورتها.

- ادخل.

- نحتاج إلى التحدث.

أشارت نيلا إلى الخريطة على فراشها،وقالت:

- ماذا تبقّى لتقوله؟ لن أسمح بذلك.

ألقى أوتو نظرة سريعة على الخريطة، وقال:

- أخبرتني كورنليا أنكِ بعتِ لوحة الحطام لباكهيزن.

- وإن فعلت؟

- لم تأخذي رأيي.

- من باب العادة في هذا المنزل.

- مائتا جِلدر ليست ثمناً مُجزِياً. لقد تعرضتِ للاستغلال.

- لقد اعتدتُ على قيام الرجال بذلك.

- نيلا...

قالت نيلا بغضب:

- ماتيمان كانت سعراً جيداً. لقد تُركت اللوحات لي.

كانا مثل شقيقين يتشاجران على تركة أبويهما الميتين. الحقيقة هي أنها ربما كانت لترضى بأي ثمن، وهي تعلم أن خسارة تلك اللوحة الأخيرة سيُزعج أوتو. تضرّج خدّاها من الغضب، ومن الحرج. شعرت أنها لا تملك أيّ خطط أو حسابات لمستقبلها، ولا أحد تشاركه التخطيط.

سألها أوتو، وكأنما يقرأ أفكارها:

-هل وصل بنا الأمر إلى هذا الحد؟ أن نقسّم ما نملك؟ لقد تشاركنا كل شيء لوقت طويل.

دفعت نيلا الأوراق على فراشها، وقالت:

- ومع ذلك فقد بدوتَ سعيداً جداً بتقسيم ما أملك.

أغلق أوتو باب غرفتها بهدوء، واقترب ليجلس على الكرسي إلى جوار سريرها، وقال:

- إن فان لوس لا يمكن أن يحظى بتيا.

- لِمَ لا يمكنه؟ ربما هي تريده.

تجاهل كلامها، وأردف:

- إنني أبحث عن طرق أخرى للخروج من مأزقنا.

- من خلال استغلال بيت أهلي من دون استئذان؟

رفع عينيه:

- لستُ أستغلك، وطبعاً، كنا سنستأذن.

- كلا.

- أنا أستأذنكِ الآن. أردتُ وضع نصاب لكل شيء، حتى تكون لديَّ كل الإجابات لأي سؤال قد تطرحينه.

- هاك سؤالاً. ما الذي تعرفه عن الوقت الذي قضيته في ذلك المنزل؟ طفولتي؟

- بمقدار ما تعرفين عن طفولتي. لكن ما علاقة الطفولة بالأمر؟ إنه منزل، يا بترونيلا. إنكِ لم تعودي إليه منذ قرابة عشرين عام، اهدميه ، وابدئي من جديد.

- ونحن نعيش في الهيرغراخت، مركز العالم؟

يقول أوتو:

- يمكنكِ أن تزرعي أشياء هناك. يمكنكِ أن تتنفسي. يمكنكِ أن تتجنبي الحفلات المملة التي تقيمها كلارا ساراخون. أن تكفِّي عن البحث عن خطَّاب لا نرغب فيهم.

- إن بَا تحتاج إلى خُطَّاب. أسدلت هي الماضي. تنهدت نيلا: وهي مخاطرة كبيرة جداً. ذلك المنزل خرابة، يا أوتو، صدقني. الهيكل ضعيف. والأرض التي رسمتها هنا قد صارت قفراً. إنها مستنقع، إنها سبخة.

وضع أوتو رأسه بين يديه: لو أنها تربة سبخة، فهي ما يقول كاسبر أننا نحتاج إليه.

ردت نيلا:

- إن عليَّة القوم يملكون منازل ريف خاصة بهم، لأن لديهم خدماً. لديهم أموال فائضة ليصنعوا قصوراً لمسرَّاتهم. تظنُّ أنك

ستعيش مثل أمير، لكنك لن تزيد عن فلاح.

- أفضل من أن أكون كذّاباً.

تلوّح نيلا بيدها فوق الخريطة. "إننا لا نملك رأس المال اللازم لخيالاتك. من أين ستحصل عليه؟"

أشاح أوتو بوجهه، فواصلت نيلا، التي شعرت بالتفوق:

- أوتو، لقد ضمّني هذا المنزل، منزل يوهانس ومارين، لمدة ثمانية عشر عامًا، وضمّك لمدة أطول من ذلك. إنه ليس كذبة. إنه أمان. إنه واحد من أفخم العناوين...

قاطعها:

- أنتِ عصفور لا يعرف سوى لحن واحد! ما الفائدة من هذا العنوان الفخم، إن كنتِ لا تستخدمينه إلا في التدليل على ابنتي لأول رجل يبدي اهتمامًا؟ وتبيعين تركة أمّها بثمن بخس لشراء وجاهتنا؟

حاولت نيلا كبح غضبها:

- علينا أن ننظر إلى ياكوب. لقد ضمن هذا المنزل اهتمامه بها، ألا ترى ذلك؟

- وهل فكّرتِ حقاً في طبيعة ذلك الاهتمام؟

- ماذا تقصد؟

بدا منهكاً، وهو يسألها:

- لماذا اختار تيا في رأيك؟

- لأنها تُعجبه!

- إنها تُعجبه فعلاً. لقد رأيت هذا يحدث من قبل، يا نيلا.

هذا الاهتمام من قِبل رجال أمثاله، بفتيات من شاكلة تِيَا. سبق لي أن رأيتُ هذا الإعجاب الذي تتحدثين عنه، وما يجرّه من أحداث، ولا أثق به. وكأنّ ابنتي فراشة لم يرها من قبل. سوف يُثبّتها على الحائط ضمن تشكيله، ثم ينسى أمرها ما إن يرى زوجاً آخر من الأجنحة البرّاقة.

رفعت عينيها إليه، فتملكها الرعب حينما رأت عينيه تغرورقان بالدموع. ارتبكت، وقالت: إن تِيَا ليست فراشة.

- أعرف ذلك. لكنكِ تمنحين رأيه قيمة أكبر من اللازم.

"وأنت تمنحه أقل من اللازم. إن تِيَا أمستردامية تحتاج إلى مستقبل، وهذا المنزل يمثّل ماهيتها! مُقنعة. مُحترمة. غنيّة. لقد جذب عيني ياكوب، ورأى تِيَا تجلس في مركزه."

مسح أوتو عينيه. وحدّق فيها، لكن نيلا لا تستسلم:

- ومن سيراها، يا أوتو، وهي تجلس في حظيرة بمكان قصيٍّ لبقية حياتها، تنتظر الأناناس أن ينضج؟

- إن جدراننا عارية. وهو يرى ذلك أيضاً. دوطتها هزيلة."

- ليست هزيلة جداً. لقد ادّخرنا لها. وهناك الآن المال الذي جاء من بيع اللوحة..

نهض أوتو ليقف عند نافذتها:

- ماما جِلدر؟ في أي عالم تعيشين، لتظنّي أنهما سيتزوجان؟

- إنك لم تكن في المسرح ليلة أمس. أنت تُبخس من قدر ابنتك، وقدره.

- وماذا قد يقول فان لوس، إذا اكتشف أنني لم أعد أملك وظيفتي في القوك؟

قالت، وهي تخفض صوتها:

- هذا شيء لا يحتاج ياكوب إلى معرفته. أوتو، لا تنس أنه دعانا إلى العشاء يوم الأحد. أعتقد أن عرض الزواج قريب الحدوث.

- أنتِ واهمة.

لوّحت نيلا بيدها نحو الخريطة:

- أنا هي الواهمة؟

- إنكِ تتحدثين عن أحلامك، يا نيلا، وليس عن أحلامها. إنَّ تيًا لا تحبه.

- لا دخل للحب في الأمر! أنت لا تعرف شيئًا عن معنى أن تكون امرأة. أن تكون مغلوباً على أمرك.

استدار أوتو ليواجهها:

- صدقيني، يا بترونيلا. إنني أعرف شيئاً عن ذلك."

حدّقت نيلا في الشقوق بين ألواح أرضيتها، الخشب مصقول وناعم حيث داست قدماها لأعوام عديدة.

- يجدر بكِ على الأقل أن تسمي ما عند كاسبر فيتسن،" واصل أوتو، وشعرت بالمجهود الذي يبذله ليحافظ على الرفق في صوته: التصاميم...

- مستقبلنا، في فاكهة بشوك؟ كان أبي أيضاً يزرع البساتين، تفاحاً لصنع نبيذ التفاح. براندي الكرز. وانظر إلى أين أوصله ذلك. إن كاسبر ليس تاجرًا، يا أوتو. إنه ليس يوهانس...

- يوهانس غامر أيضًا، ونال مكافأته. نسيتِ أنني عملتُ إلى

جواره لسنوات...

- نال مكافأته؟ ضحكت نيلا، وتابعت: كان يوهانس طَمُوحًا زيادة عن الحد! وانظر إلى ما أصابنا جميعاً. تريد أن تجرَّنا إلى أقاصي الأرض، لنعيش على الكفاف تحت سقف متعفن وطين تحت أظفارنا، من أجل رؤيا تصوَّرها عالم نباتات جامعي سابق؟

- أسدلفت ليست أقاصي الأرض.

- أنت لم تذهب إلى أسدلفت.

- لكنني ذهبتُ إلى أقاصي الأرض. وسوف أبدأ المشروع مع كاسبر فيتسن، بطريقة أو بأخرى.

توقفا، كلاهما منقطع الأنفاس. لم يسبق أن تجادلا بهذا الشكل من قبل، ظهر الإحباط الذي يحمله أحدهما للآخر، مع الوضع الذي علقا فيه. أخذت نيلا نفساً عميقاً، وأردفت:

- وسوف أعيد عليك السؤال: من أين ستبني تلك الدفيئات؟ وعلا صوتها:

- تلك الآلات العجيبة؟ تلك السطوح وأنظمة أنابيب البخار؟ من أين ستشتري ألواح الزجاج؟ البذور والزجاجات، دع عنك أجور العمَّال؟ إنه جنون، يا أوتو. نحن لسنا كلارا ساراخون. لا يمكننا شراء علماء نبات خصوصيين نُباهي بهم في الحفلات!

- كلا، لسنا كذلك، وأشكر الربَّ على ذلك.

- وإذن، لآخر مرة: من أين ستأتي بالنقود؟

سكت أوتو لحظة:

- سوف أبيع هذا المنزل.

رفعت عينيها، وصرخت:

- ماذا؟!

- لا سبيل آخر لتحقيق الأمر. لقد كلَّفتُ من يُثمِّن المنزل.

- متى؟

- لا يهم متى. لقد ثمَّنوه بأربعمائة ألف جِلدر.

حلَّ صمت ثقيل. وقف أوتو عند النافذة، محدقًا نحو عظمة قناة الهيرغراخت، وجلست نيلا على طرف فراشها، رأسها يدور، وخلدها الأيسر يُجعِّد طرف الخريطة. المبلغ فلكي، افتراضي؛ لكنها تشعر به مثل لكمة إلى جسدها. تهمس:

- لا يمكن أن تكون جادًا. لا يمكن أن تتوقع مني أن أترك هنا، وأعود إلى هناك؟

أجاب أوتو:

- لِمَ لا؟ هل في وسعكِ حقًّا أن تقولي إن هذه المدينة هي المدينة نفسها التي عهدناها؟

- إن هذه المدينة هي شيء يتغير باستمرار. يمكنها أن تمنحنا كل شيء، وهذا المنزل، هنا، هو كل ما يضمن لنا أن نحصل عليه.

شعرت نيلا بهلعها يزداد، حياتها كما تعرفها تتبدَّل تبدُّلاً يتجاوز حدود سيطرتها. "إنه يقول للعالم من نكون."

- إنه مظهر أجوف، وتعرفين ذلك.

- ستكون خيانة لذكرى يوهانس ومارين. لحياتنا هنا. إنك حتى لم تذهب إلى أسِدلفت، وتريد التخلص من هذه الأُبهة؟

ردد أوتو بازدراء:

- أبهة؟ أبهة أمثال كلارا ساراخون؟ أمثال رؤسائي في الفوك؟ أمثال زوجات التجار في النقابات، الذين باتوا يتجاهلونك؟ لقد عرفتُ كثيرات من عينة كلارا ساراخون في حياتي، أكثر مما قد تتخيلين. وأزواجهن أيضاً. أرفض أن أعرفهم بعد الآن. ليست هذه مسألة استعراض قطع صغيرة من الخبز المحمص في حفلة مجتمعية، مدهونة بتوابل صنعتها في مؤخرة مطبخي.

- مسألة ماذا إذن؟ لماذا حقاً تريد أن تفعل هذا؟ هل ستظل تيَا هي حجّتك إلى الأبد؟

بدا مضطرباً:

- ما الذي يعنيه هذا بحق السماء؟ إنني أفكر فيها وحدها! لدينا فرصة لتغيير مصيرنا.

نهضت نيلا واقفة، وقالت:

- مصيرك أنت. لا يمكنك بيع هذا المنزل. لن أسمح لك بأن تأخذ أسدلفت.

قال أوتو:

- فالأرض إذن. التقت أعينهما، لكن لا أحد منهما يستسلم: دعينا نأخذ الأرض.

- لا. سيكون عليك البحث عن مكان آخر لتصنع إمبراطوريتك.

قال أوتو غاضباً:

- إمبراطورية؟ لا يتعلق هذا بصنع إمبراطورية.

- أحقًّا؟

- لا تحنقي، يا نهلا، لأنكِ لا تملكين أفكارًا أفضل. لا تكوني تافهة.

- ليست تفاهة. إنه عقل!

- تفضّلين أن تكوني حبيسة هذه المدينة لثمانية عشر عامًا أخرى؟ حياتكِ التافهة، محفوظة في فقاعة هلامية؟ ذلك المنزل، تلك الأرض، خاليان، جاهزان. ذاك هو العقل. إن الأناناس قد يكون بالنسبة إلينا أكثر من مجرد فاكهة.

قالت نهلا:

- كلا. فلتسمِّها حياة تافهة، لكن الأمر فيه مجازفة كبيرة، ولن أيأس من ياكوب.

مشى أوتو متصلّبًا إلى باب غرفتها وفتحه بقوة. فاندفع الهواء مثل كدمة. وقبل أن ينصرف، استدار إليها:

- ما الذي يحتاج إليه إقناعك؟

قالت نهلا بحزم:

- لقد جئتُ من ذلك المكان. إنه الماضي. ولن أسمح لك بتضييع مستقبل ابنتك، مثلما أضاع والداي مستقبلي.

صفق الباب خلفه. جلست نهلا لدقائق عدة، تحاول أن تمنع نفسها من البكاء.

15

يحمل المِسْند الثالث، يسار المذبح، نقشاً لرجل وامرأة. كان الثنائي الخشبي متقابلين، إذ تتلامس أيديهما وبواطن أقدامهما ويتباعد الجسدان. دققت تِيَا فيه النظر. هل أصابع أقدامهما وأيديهما تجاهد لتفترق، أم لتحمي الآخر من السقوط؟ الرجل يظهر مُتجهِّماً وهو يدير رأسه، والمرأة، بقلنسوتها الأنيقة منقوشة على هيئة كرة مثالية، تركز عينيها عليه، وتعبيرها ينمُّ عن تردد. إنهما يتشاجران، لكنهما يرفضان ترك أحدهما الآخر. حدقت تِيَا في هذا الثنائي الصغير، عاجزة عن تحديد المغزى. ولا بد من وجود مغزى، لأن هذه هي الكنيسة القديمة في أمستردام.

اعتدلت، ونظرت حولها، خشية أن يكون هناك من يُراقبها، لكن الكنيسة القديمة قبل الزوال لا تكون عامرة بالناس، هناك شيخ يفكر وحيداً، وقبعته مُدلاة بين يديه، وامرأتان تسيران معاً ببطء عبر البلاطات الباردة. هناك ثنائي يقفان بعيدًا في الركن، في لقاء عشاق أكثر منه اجتماعاً دينياً. لا أحد منهم يلاحظ وجودها. حملت تِيَا مائة جِلدر والرسالة التي تطالب بها داخل تنورتها، وببطء أخرجت النقود.

كانت بعد أن أفلتت أخيرًا من زوج خالها بحجة شراء أبرميس لكورنليا، قد سارت إلى الرامسترات في اليوردان، وخريطة أفريقيا مدسوسة في قاع سلتها، لتجد رسام الخرائط الذي اختارته سابقًا من دليل سميت. لقد توقَّعت تمامًا أن يحاول الرجل الاحتيال عليها. اعتادت أن يُبخَس قدرها، أن يعميَ جنسها ولون جلدها أعين الرجال الذين يقفون خلف

مناضد البيع في الصيدليات وأكشاك السمك ومحلات الجزارة، وفي متاجر الخرائط أيضاً. لكنها لم تقضِ ثمانية عشر عامًا إلى جانب كورنليا من دون أن تعلم شيئًا أو شيئين من السوق: المساومة، وحتى التذلل، ممل لكنه فعّال، وأحياناً ضروري – والتأكيد على أن هناك تجاراً كثراً تعرفهم سيقدِّمون لها سعراً أفضل.

كانت تِيَا تعرف أن الخريطة ذات جودة ما، وحقًّا، لم تكن أي من خرائط أفريقيا الأخرى في متجر رسام الخرائط تملك الدقة أو التعقيد نفسهما. لقد اتّسعت عيناه وهي تبسط كنزها، أعقبها سريعاً بنظرة لا مبالية، وكأنها خريطة عادية تراها عيناه كل يوم. في النهاية، باعتها له تِيَا بمائتين وخمسين جِلدر. شعرت بأسف ضئيل لتخليها عن الخريطة، إنها، في النهاية، مجرد ورقة، والورق الذي في حوزتها الآن يملك سلطة أكبر بكثير. لقد سمعت تِيَا كلمات زوج خالها مرات أكثر من اللازم. مادام المال يستطيع شراء الحرية، فبوسعه أيضاً شراء الصمت.

لكن الخريطة، في المقابل، ذكّرت تِيَا بمحيط حياتها الضيّق. والآن هي تملك مالاً زائداً، يكفي اثنين مخطوبين ليدفعا أجر قسّ لتزويجهما زواجاً لائقاً، ويهربا إلى باريس. عندما تُقحم المال تحت المسند الذي يحمل نقش الثنائي المُتخاصمين، فكرت: كم كانت الحياة لتصبح أسهل من نواحٍ عديدة لو أنها في مكان كاتاريبا أو إليونور ساراخون؟ أن تكون ثرية، أو تكون بشرتها فاتحة بدرجة مناسبة، أن تكون بليدة: فلا تقلق من أين يأتي المال، أو تتساءل عن مصدره. ألّا تضطر إلى التخفي، مع حذر دائم من النظرات والشائعات المحيطة. سيكون من الرائع، ليوم واحد، أن تعرف كيف يكون الشعور بذلك. أن تفعل ما تريد، لأنها تريده. أن تكون حرّة.

بعد التأكد من أن النقود مُخبّأة جيدًا، مشت تِيَا إلى ركن الكنيسة الشرقي البعيد. هنا البقعة التي دُفنت فيها أمها. تتذكر نسختها المُصغّرة في العليّة، مدفونة في ظلام نشارة خشب الأرز. إن تِيَا لا تأتي لزيارة القبر بمقدار ما يجب، لكن الحقيقة أن الأمر غريب بالنسبة إليها بمثل غرابة صعود سلم العلية على أطراف أصابعها والتدقيق في المنمنمة. إنها تشعر بأنّها أكثر حضورًا في الطريقة التي يحتال والدها وزوج خالها حول غيابها، كيف يكوّن صمتهما شكلاً لامرأة لم تلمحها إلا خطفًا في ركن غرفة.

كيف بوسع تِيَا أن تقف أمام قبر وتتذكر، عندما لا توجد ذكريات لتسترجعها، عندما يواصلون إصرارهم على عدم إخبارها بقصص مارين؟ كل ما تشعر به تِيَا، عندما تفكر في أمها، هو الارتباك، فراغ وامض، بوصلة بمؤشر مفقود. ومع ذلك، تقف على سفح المكان الذي ترقد فيه عظام أمّها، بينما تهيل النوافذ ذات الزجاج الملون ألواناً صفراء وخضراء باهتة على الحجر الرمادي، رقع من أرجواني محمر ومزرق. الشيء الوحيد الذي يحدّد مرقد مارين براندت هو كلمات: لا شيء يبقى على حاله.

إنها رسالة مُتفائلة، ولكن حيث إن هذه أمستردام، فقد تصبح تحذيراً أيضاً. الليل سيأتي مرة أخرى، لذا لا تطمئن بالاً. اجمع المال، لكن لا تحبّه. هل أبدو مثل ابنة بارّة، جاءت لتضع زهوراً؟ هكذا تتساءل تِيَا، مُحدّقة في البلاطة. لا، بل أنا عاشقة بارّة، جئتُ أضع مالاً لأحمي قلبي. إن أمي ربما تفهم. مارين ربما تفهم كيف أنّ حب تِيَا السري لوالتر سيصمد، على الرغم من هذه الهجمات. كيف أنّ تِيَا ستنفق

أي مال حتى تلاقي الفضيحة، كيف أنها ستبذل كل جهد لتحافظ على المظاهر. لقد دُرِّبت تِيا جيِّداً في هذا الشأن. سوف تفعل كل ما هو مطلوب. هذا في النهاية، هو ما فعلته أمُّها، عندما أحبّت رجلاً لن يوافق المجتمع عليه.

"أعرف ما تفعلينه مع والتر ريبيك". ارتعدت تِيا، وهي تفتش بين مقاعد الكنيسة. لكن لا أحد هناك.

وخارجاً في النهار المُضيء، كانت الشمس مُشجِّعة. شعرت تِيا بالرضا لأنها تصرفت بحسم. فكرت لوهلة، أن تذهب إلى السخاوبيرخ أملًا أن تجد والتر هناك، أن تخبره بما حدث، والسرعة التي حلَّت بها الأمر. رغبت في إيجاد طرقٍ جديدة تُظهر بها المدى الذي قد تذهب إليه من أجل حبهما، كيف أنها ستحميه بأي ثمن. ولكن ربما هو تصرف صبياني. إنه ليس شيئاً قد تفعله ريبيكا، كما أن هناك شيئاً يُسعد تِيا في تدبّر هذا الأمر بنفسها، أن تعرف أنها قادرة وزيادة على التعامل بمفردها مع رسالة ابتزاز حمقاء.

إلا أن تِيا وبينما تُسرع عبر الجزء القديم من المدينة، ستقرُّ أن هناك سبباً أعمق جعلها تحتفظ بأمر هذه الرسالة لنفسها. إنها لا تريد تخويف والتر. بعد ردة فعله العنيفة عند رؤية المنمنمة التي على صورته، وخوفه من وجود من يراقبهما، كيف قد يتجاوب مع رسالة تصفها بالعاهرة، وتهدد بفضح سر حبهما للعالم كله؟ قد لا يرغب في رؤيتها فترة. قد يقول حتى أن الخطبة فكرة سيئة، وهي لا يمكنها تحمل ذلك. الأفضل ألا يعرف، للحفاظ على عذوبة وقتهما معاً. لضمان استقراره وأمانه.

16

كان منزل ياكوب فان لوس في شارع البرنسغراخت أعجوبة من العجائب. شعرت نيلا وكأنها عادت في الثامنة عشر من عمرها، حينما جاءت إلى المدينة لأول مرة حيث منزل يوهانس. شعرت بمنزل ياكوب مثل صدمة في جسدها، قبل أن يبتلعها في جماله وهدوئه. خفتت أصوات القناة إذ غلّفها بتناسقه وذوقه وبخمله وأكاليل عنبره. ثم أدركت فجأة، كم عاشوا طويلاً مُعلّقين بشعرة، وهم يضعون قناع العائلة الثرية. ماذا يكونون، غير مجموعة متململة من النفوس، تتأرجح على شفا الكارثة؟

حاولت كفّ عينيها، لكن اللوحات الفاخرة على كل جدار. طبيعة صامتة لأباريق من قصدير وزجاج دقيق التشكيل، مزخرفة بقشور ليمون كالحقيقية. مناظر ريفية، ومشاهد صيد – وحطام سفن أيضًا، لكنها لحسن الحظ ليست لوحة باكهويزن التي باعتها حديثاً. لن تحتمل اكتشاف أن دي فريس هو تاجر فان لوس، وأن لوحة مارين المفضلة قد كُتب لها أن تزين جداره.

مزهريات من دلفت وكريستال من ألمانيا تستقر على كل سطح، ورائحة بخور عنبر يحترق تملأ المكان. مناضد جانبية جميلة أرجلها رفيعة مستقيمة، مطعّمة بالخشب وعرق اللؤلؤ. بلاطات رخامية على مد البصر، باللونين الأسود الفاحم، والأبيض، موشحة بالرمادي. سجاد تركي جديد واسع، بدرجات ألوان الخردل وأحمر الصدأ -أكبر سجاد رأته نيلا قط يغطي

امتداداً كبيراً من الدهليز، مُوسِّدًا قدميها، منسوجاً في تصميم مجرد ومعقد حد الكمال. وعبر ممر بقوس، يتراءى للمجموعة المدعوّة حجرة أخرى، بسقف عال، وجدران لونها أخضر شاحب، كراسٍ أنيقة وطاولة خفيضة بأرجل مقوّسة. بيانو ڤيثاري في الزاوية، تغطيه نوتات موسيقية. تخيَّلوا أن تصبح تِيَا سيدة كل هذا.

المجموعة المدعوّة: أوتو براندت، وابنته، تِيَا، وبترونيلا، قبلوا بامتنان دعوة إلى عشاء يوم أحد. كانت نيلا مسرورة بوجود أوتو هنا، لكنها تتوخى الحذر. منذ الشجار الذي وقع بينهما، وهما يتعاملان بتهذيب من أجل تِيَا. لم تعد نيلا تسمع عن كاسبر ڤينسن وأناناسه، ولا خطط التوسع الكبيرة في أرضها القديمة. لكن صمت أوتو، في حد ذاته، يقلقها. كان شيء قد ترعرع فيه، ونيلا تعرف على الرغم من حضور أوتو هنا الليلة، كم هو متمسِّك برفضه أن يحصل ياكوب على ابنته. عشاء واحد، هكذا كان قد قايض، سابقًا في كانون الثاني: وإذا لم يرق تِيَا هذا الفان لوس، فلن تُجبر على مقابلته مرة أخرى أيضًا.

لا يختلف ياكوب فان لوس بالنسبة إلى أوتو، عن كلارا ساراخون: فهو خطير ومكروه، من القماش الغالي نفسه. إنهم الآن في منتصف شباط، وقد وافق على المجيء الليلة: عشاء آخر. يبدو الأمر مريبًا لنيلا. هل هو يستدرجها إلى إحساس مزيف بالأمان؟ لا يُعقل أنه استسلم.

كانت هناك شكوك أخرى أيضاً: في الأسبوع الماضي، بدت تِيَا كئيبة، وكانت نيلا قد ضبطتها أكثر من مرة، تنظر من نافذة الدهليز. فتسألها: "تِيَا، هل كل شيء بخير؟" لكن سؤالها يمضي بلا جواب. ما تزال نافرة من ياكوب، ذاك هو السبب.

أو ربما هي تعلم بالخلاف بين أبيها وزوج خالها. ما كان جديراً بي أن أخبرها عن كاسبر والأناناس، فكرت نيلا. ما كان جديراً أن أجاوبها باقتضاب عندما سألت عن البحيرة. ما كان جديراً أن أخبرها بأي شيء عن حياتي في أسِدلفت.

هذا ما يحدث عندما تبدأ في حكاية قصتك. تصبح عنيفًا مع نفسك، مع الآخرين. يظنون أنهم يفهمون، أنهم يدركون كنهك. لكنهم لا يدركون. ربما أصابت مارين، بإبقاء كل أوراق لعبها قريباً جدًا من صدرها. والطقس البارد لا يساعد. كان جليد القناة قد ذاب، لكن، الدفء لم يصل بعد، لم تتغير الأطعمة في السوق بعد. يبدو الأمر كما لو أنهم ينتظرون شيئًا، لكن لا أحد منهم يعرف كنهه.

نيلا واثقة من أن ياكوب فان لوس لا يمكنه تخمين أيّ من هذا. إنهم متمرسون في إخفاء شؤون العائلة. يجلسون معه في صالونه الأخضر الفاتح، ويبتسمون. يُسكت نيلا الثروة وذكرى منزل مثل هذا. يرتدي صاحبه معطفًا من حرير أسود عميق، وقد أحسن خياط ممتاز احتواء كتفيه الضيّقين. وفي قدميه نعلان، من جلد أسود داكن متقن الصناعة، طويل ومدبب، مع عقدة كبيرة من الساتان الأبيض على كل قدم. تجد نيلا نفسها تحدّق فيهما، إلى أن قطعت أحلام يقظتها السيدة لوتخرس، مديرة منزل ياكوب، امرأة لا بد أن عمرها تجاوز الستين، ضئيلة، حسنة الهيكل وشاحبة.

سألت السيدة لوتخرس:

- إبريق شاي، يا سنيور؟ قبل الطعام؟

أشار ياكوب:

- هل يرغب ضيوفي في إبريق من الشاي؟

صمتت تيا، وأجاب أوتو:

- كلا، لكنني أشكرك.

قالت نيلا:

- شكرًا لك، سأقبل بواحد.

خرجت السيدة لوتغرس بخطى خفيفة، من دون أن تنظر وراءها. حسنًا، لنكسب الوقت هنا، فكّرت نيلا. لنترك ياكوب يتأمل جمال تيَا مرة أخرى، أن يرى بهاءها. هذه واحدة من أجمل الغرف التي رأتها نيلا على الإطلاق، وفي ضوء العصاري الرمادي المنتشر من خلال النوافذ، بدت تيَا بديعة. هذه الغرفة، مثل تيَا، لا تكتسي بكثير من ذهب أو لؤلؤ. مقدار بسيط من من اللمعان، يتوافق مع نفور الهولنديين من التباهي، لكنه يكفي لإبهاج العين وهي تتبع تفاصيل الحجرة، من زاوية تحوي خواناً خشبياً فاخرًا إلى جمال لوحة معلّقة، من الساعة الهادئة التي تدق على رف الموقد، إلى الوسادة المكتنزة والمطرّزة بالبلاب، موضوعة لصق ظهر نيلا. حتى الهواء تشعر به لؤلؤيًا، وأقل كثافة.

رمق ياكوب نيلا بنظرة فيها تسلية، وقال: - لم تتوقعي ذلك.

- ماذا تقصد، يا سنيور؟

- إن هذه الغرفة تعجبكِ.

ابتسمت قائلة:

- كيف يمكن ألا تفعل؟

- يفترض الناس أنني لا أملك ذوقاً، ونظر إلى تيَا، و لا

أستطيع تقدير الأشياء الرقيقة."

كان في مقدور نيلا أن تشعر بنظرة أوتو عليها، لكن انتباهها ظلّ على تِيا، التي لم ترفع عينيها عن الطاولة المطلية بالورنيش. عادت السيدة لونغرس، لتضع الصينية أمام سيّدها. يُناول ياكوب تِيا فنجانًا خزفياً صغيراً على طبق، وقال:

- يشرفني أن أصبّه. في لندن، تكون السيدة دائمًا هي من تقوم بذلك، ولكن في أمستردام الرجل هو من يخدم.

لم يكن تلميحه إلى تقديم نفسه عبداً لها هو ما أعاد إلى تِيا حيويتها، بل هو هذا الكلام عن لندن. رفعت عينيها إلى ياكوب كمَن أوقظت من حلم. شاهدت نيلا ياكوب يرفع إبريق الشاي ليملأ فنجان تِيا، وينهال السائل السخن من الفوهة، مُندفعاً بلا رادع مثل شلال. لماذا قد يدعوهم إلى بيته، لو أنه ليس مهتمًا حقًّا؟ لقد اختلق أوتو قصصاً لا وجود لها. يناولها ياكوب هي أيضاً فنجانًا، ومثل بقية الغرفة، كان الفنجان بارع التصميم، بحافة ذهبية. عندما يملؤه، يرتفع البخار إلى وجه نيلا، فيرطّب ذقنها والشعر الناعم على صدغيها.

سأل جاكوب:

- هل شاهدتِ شيئاً جديداً في المسرح منذ آخر لقاء لنا هناك، يا آنسة براندت؟

أجابت تِيا:

- كلا، يا سنيور.

- لكن زوج خالكِ أخبرني أنكِ تحبين المكان؟

- هل فعلت؟

بدا ياكوب محتاراً:

- تقول إنكِ تذهبين لمشاهدة المسرحية نفسها أكثر من مرة.

نظرت إليه تيَا نظرة جوفاء، شعرت نيلا بالغيظ ينتشر عبر جسدها. كيف يمكن لتيَا أن تجيب عليه بكل هذه الفظاظة، أن تقابل اهتمامه بمثل هذه اللامبالاة، وتلمح بكلمتين فقط أنها غير معتدٍ بها؟

سألها ياكوب:

- هل توجد أشياء أخرى تحبينها؟ أعلم أن الحب عاطفة رحبة.

تقول تيَا:

- أعتقد أنها محدَّدة جدًا...

قاطعتهما نيلا:

- إنما على المرء أن يبدأ من مكان ما.

رمقها كل من ياكوب وتيَا بنظرة مدهوشة، فتضرج وجه نيلا خجلاً ووبخت نفسها: عليها ألا تبالغ في الضغط. هي في النهاية، من أوصته بسؤال تيَا عن الأشياء التي تحبها.

- أحب الأناناس، هكذا أعلنت تيَا، فجأة، وسط الصمت. والتفتت، مبتسمة لزوج خالها: إن له مذاقاً رائعاً، ألا توافقين؟ ربما يوجد مستقبل في الأناناس.

نظر أوتو إلى ابنته في حيرة. وقالت نيلا، وهي تردُّ ابتسامة تيَا:

- غريب. لأن أناناس كلارا ساراخون لم يعجبكِ، عندما

حُوِّل إلى مُربّى.

تقول تِيا:

- لا شيء يبقى على حاله. التفتت إلى ياكوب، وقالت: "هذا ما تؤمن به عائلتنا."

قصد أوتو النافذة، وشعرت نيلا بالغيظ يغزها أكثر مع هدوء تِيا الظاهر. نقل ياكوب عينيه بينهم، مثل فلكيٍّ يحدق في ثلاثة نجوم، دارساً مراكزها المضيئة لتعيين كوكبتها.

- لا بد لي من القول، قال ياكوب، مخاطباً نيلا بخفّة جعلتها تنتفض: إنني لا أنفكُّ أفكر في صوص الزعفران والنبيذ الأبيض الذي أعدّته طباختكم. كورديليا، صحيح؟

يقول أوتو:

- كورنيليا.

يضحك ياكوب:

- يجدر بي اصطيادها. جملة تتلاءم مع طباخة! أو ربما تأتي طوعاً؟ ونظر إلى تِيا بنظرة ذات مغزى.

عادت عينا تِيا إلى الطاولة. مدّ أوتو يده إلى فنجان الشاي الإضافي، وصب شاياً لنفسه. حافظت نيلا على تماسكها. وتساءلت:"هل ستقبل كورنيليا أن تصبح جزءاً من عقد زواج تِيا؟ هل ستقبل كورنيليا مغادرة منزل الميرغراخت لتكون مع تِيا، غرضاً ثميناً يُعبأ مع مغارفها في جهاز العروس؟

ربما تفعلها كورنيليا. ربما لا تحتمل الافتراق عن طفلتها الحبيبة. ولكن تخيلوا أن يُطلب منها ذلك، أن يُفترض تحويلها إلى غرض يمكن نقله من البيت الذي عاشت فيه كل حياتها

تقريبًا. سيكون الأمر فظيعاً. لن تجرؤ نيلا على فعل ذلك.

إلا أن احتمال خسارة كورنيليا مع كراهته، يغيب خلف الإدراك بأن ياكوب قد قدَّم لأول مرة، أمام تِيا وأوتو، تلميحاً عن نواياه.

***

بعد عشاء من الأرانب، الذي تستمتع به نيلا إلى درجة ما، على الرغم من أنها وجدته أكثر تقليدية وأقل نكهة من أي شيء قد تعدُّه كورنيليا، وبدلاً من اقتراح حاجته إلى طباخة أفضل في حياته، فهم يعودون إلى الغرفة ذات اللون الأخضر الفاتح. بدا أوتو وكأن هذه أطول عصرية في حياته. استأذن ياكوب تِيا في أن يريها البيانو القيثاري الخاص به، ومُكَلَّلة بالأدب المطلوب، قبلت تِيا. يبقى أوتو ونيلا على الأريكة مع كأسيهما من النبيذ، ولمدة خمس عشرة دقيقة ينظران في صمت إلى العرض المتكلف في الناحية الأخرى من الحجرة. قد يُخَيَّل للمرء أنه مشهد لعاشقين، حيث الشابة جالسة أمام الآلة الموسيقية، رأسها مائل، ما يوحي بافتتان بلوحة المفاتيح الجميلة، والتطعيم الخلاب بالخشب على الصندوق الذي يحتويها.

يغمغم أوتو:

- في أي مرحلة سيدرك أنها لا تعرف العزف عليه؟

فترد نيلا غمغمته:

- إنه لم يطلب منها مرافقته إلى هناك من أجل ذلك.

أخذ ياكوب مكانه أمام البيانو، وبدأ في تحريك أصابعه على المفاتيح. وامتلأت الحجرة بالرنين المميز للبيانو القيثاري، نغمة تلو أخرى تلتف صاعدة إلى السقف. رأت نيلا تعبير ابنة صهرتها

الذي ينم عن المفاجأة أمام امتلاك ياكوب للمهارة والموهبة: لم يكن هذا ما توقعته تِيا. رجل يهتم بقضايا القانون الجافة، بجمع الأموال، بالنعال الجلدية الفاخرة، كان مُستبعدًا وخاصة بالطريقة الصارمة التي تحكم بها تِيا على الناس، أن يمتلك مواهب تصب في منطقتها. إن هذا لا يتفق واعتقادات تِيا عليه، وتشعر نهلا بالتفاؤل.

عزف ياكوب بضع جملٍ أخرى وتوقف، خجلاً:

- بعد إنجابها ولدين، تاقت أُمّي إلى بنت. جئتُ ولداً مثل شقيقيّ، لكنها درَّبتني بأي حال على الفنون الرقيقة."

قالت نهلا:

- أنت ماهر جدًا. كم جميل أن ترى أن البيانو ليس مجرد ديكور.

قال ياكوب:

- كل الأشياء الجميلة ينبغي أن يكون لها غاية، واستدار إلى تِيا: يجب ألا تُترك في ركن كامنة و من دون احتفاء.

في الصمت الذي أعقب ذلك، وقف ياكوب، وقال:

- آنسة تِيا، إن رغبتِ يومًا في المجيء، والعزف، فأنا رهن إشارتك. إنه ليس عوداً، لذا لا يمكنني حمله إليكِ في الميوغراخت. سيكون عليكِ أن تأتي إلى هنا.

عرفت تِيا أنه دورها في الكلام، هي تعرف أن هذه لفتة كريمة، ومُسدَّدة، أُلقيت على مرأى أبيها ومسمعه. إن عرض ياكوب شرعي ومُرخَّص، وإن قبِلته، فما هي العروض التي قد تأتي في عقبه؟

انتظر الجميع ليروا ما ستقوله تِيا، التي نظرت بتركيز إلى البيانو القيثاري، وقال:

- شكرًا لك، يا سنيور. غير أنها آلة نفيسةٌ جدًّا. أخشى أن أصابعي قد تكسرها.

ابتسم ياكوب، مُطلقاً الغطاء على المفاتيح. استشاطت نيلا غيظاً لكنها لا تملك فعل شيء حيال ذلك الآن، وقريباً يأتي وقت انصرافهم. سوف يسافر إلى لايدن لمدة أسبوعين في عمل لوالدته، كما يقول. لكنه سيعود، وعندما يفعل، فيجدر بهم إعادة اللقاء. وتقول نيلا، نعم. علينا قطعاً أن نفعل.

إن الأرانب لذيذة، وطبعاً، سنرد الإحسان وندعوك إلى مائدتنا. من يدري ماذا قد تحضر كورنيليا في أسبوعين آخرين، عندما تخرج من الأرض خضروات أول الربيع، وتصبح الحملان قريباً جاهزة للذبح؟

ابتسموا في أثناء انصرافهم من منزل ياكوب فان لوس، لكنهم يمشون صامتين في الدقائق الخمس التي يستغرقها الطريق إلى منزلهم. في جعبة نيلا الكثير مما تريد أن تقوله، أن توبِّخ به، أن تتوسله، أن تسأل لماذا لا يمكن لأحدهم أن يرى ما تحاول فعله، لكنها مُتعَبَة، تكتنفها أفكارها الخاصة. فتح أوتو باب منزلهم الثقيل، وتظهر كورنيليا من الظل لاستقبالهم. تنظر نيلا إلى الفراغ الكبير، والجدران العارية، وجو الحزن. قالت كورنيليا:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

انطلقت كلمات نيلا ثقيلة، ولم تبذل جهداً لكبحها:

- إن تِيا طفلة جاحدة وفظّة.

للحظة، حدّق البقيّة فيها في صدمة. لكنها واصلت: ماذا؟ إنها تخال نفسها تعرف كيف يسير العالم. أن مستقبلها سيسير كما تخطط له. لكنه لن يفعل. سوف تعيش فقيرة. وأنا لن أتحمل مسؤولية ذلك بعد الآن. قال أوتو، بصوت مُحَذِّر:

- نيلا، كلا. لقد ضاق ذرعي بكم جميعًا.

توسلت إليهم كورنيليا، وهي تعصر يديها: - مدام.

صرخت نيلا:

- جميعكم فعل ما يريد. جميعكم تفعلون ما تريدون. يوهانس سعى في طريقه الخاص. وبسبب ذلك، لم أستطع أنا أن أفعل قط. أوتو، وأنتِ ومارين لاحقتم رغبات قلوبكم. والآن تِيا، العنيدة كأمها، تتحدث بوقاحة إلى ياكوب؟ تجلس هناك وترفض مساعدتي؟

قال أوتو:

- لا تتحدثي عن مارين وقلبها.

قالت نيلا:

- بل سأفعل. لقد تَرَكْتَنِي وحدي، لهذا.

قال مُستنكرًا:

- تركتكِ أنتِ وحدكِ؟

كانت نيلا غاضبة جداً، و كلماتها تتخبّط، أقوى أثراً من قدرتها على التحكم. لا يمكنها تَحمُّل الطريقة التي ينظرون بها جميعهم إليها، وكأنها فقدت عقلها.

سألها أوتو:

- وكيف تعرفين ما أردتُ أن أفعل؟ إنكِ لا تعرفين شيئًا عنّي ومارين. ومتى منعتكِ من السعي في طريقك؟ متى، بحق الرب، ستتوقفين عن رثاء نفسك؟

قالت كورنيليا بإلحاح:

- كفى، توقفا.

وقفت تِيا تُسمِّرها الكلمات التي تتراشق بين والدها وزوج خالها.

واصل أوتو، متجاهلًا طلب كورنيليا:

- كان في وسعكِ أن تتزوجي. إنكِ لا تكفّين أبدًا عن ذكر فقرنا، حسب وصفك. أنتِ لا تعرفين شيئًا عن تلك الكلمة. وقد كنتِ في الثامنة عشرة عندما مات يوهانس، يا نيلا، في الثامنة عشر! كانت حياتكِ في أوج بدايتها.

- أجل، قالت نيلا، مشيرة إلى تِيا: ثم جاءت هي. أصبحت لديَّ طفلة أربّيها، أم أنكَ نسيت؟

- لم تكن ابنتكِ. لم يكن واجباً أن تقومي بتربيتها. في حال أنكِ نسيتِ.

كلماته ضربات. تستدير نيلا إلى تِيا، التي تحدّق فيها، عيناها جاحظتان. تريد أن تقول، أردتُ أن أعتني بكِ، لكن الكلمات ترفض الخروج.

قال أوتو:

- في وسع المرء دائمًا أن يبدأ من جديد. بطريقة أو أخرى. أعرف ذلك، أكثر من أي واحد فيكم. الحقيقة، يا نيلا، أنكِ لم ترغبي في ذلك. كان في وسعكِ أن تتركي هذا المنزل. أن

تنجبي أطفالاً من رحمك. لكنكِ لم تفعلي، وأنتِ الآن تندمين على ذلك. ولهذا نجد أنفسنا في صالون ياكوب فان لوس.

بدأت كورنليا في النحيب.

- توقفا، توقفا.

قالت نيلا، مُستجمعة كل قوتها:

- لا كلمات لطيفة عن يوهانس بعد مقتله اشترت حطباً لمنحنا الدفء. ولا وضعت طعامًا في بطن تيَا، ولا صنعت ملابس تكسوها. لا نقابة جاءت تنجدنا. لا جيران اكترثوا. قُتل زوجي وماتت أمُّها، وكان العزاء الوحيد الذي نملكه هو المال - مال حقيقي. وقد أنقذ حياتنا.

قالت كورنليا:

- لقد أنقذنا بعضنا.

أجابت نيلا:

- بل المال أنقذنا. المال درع. إنه سلاح. إنه نعمة. ومن الذي علمني ذلك؟ إنها أمُّكِ، يا تيَا. أمُّكِ التي في النهاية جازفت أكثر من أي واحد فينا وتركتنا في هذا المأزق. لقد اتخذت من والدكِ عشيقاً تحت عباءة الظلام، وقام الشيطان بالبقية...

قاطعها أوتو:

- نيلا، كفى.

- إنَّ ياكوب فان لوس لا يكترث لقصة يوهانس وماربن براندت، وتلك معجزة. ما هو احتمال أن يأتي رجل مثله مرة أخرى؟"

صرخت تِيَا:

- لو أن ياكوب يعجبكِ كثيراً، فتزوجيه أنتِ إذن.

أطبق الصمت. لم يكن أحد منهم قد خاطب الآخر بهذه الطريقة من قبل، شعرت نِهلا بالرعب في ذلك، وارتجت عروقها بالعواقب القادمة. مُضطربة، صعدت الدَّرج بخطوات غير ثابتة، وكأن العودة إلى غرفتها ستنهي هذا، بينما الأمر في الحقيقة قد بدأ للتو.

وجوه الثلاثة ترتفع إليها من الدهليز المظلم. حتى في ضوء الشموع المُرتعش، بوسعها أن ترى غضب أوتو، وتعبير تِيَا المبتهج إذ جاهرت برأيها، وجحوظ عيني كورنيليا في رأسها.

قالت نِهلا، وهي تشحذ كل قوة لتبقي صوتها هادئاً:

- تِيَا، لقد حبلت أُمّكِ بكِ في السر، وولدتكِ في السر، وماتت من أجلكِ، في السر. عاش والدكِ في غيمة من حزن كثيف حتى أنه في عيد ميلادكِ مازال عاجزاً عن النظر إليكِ. إنه يزعم أنه لا يفكر إلا في احتياجاتكِ، لكن الحقيقة هي أنه مُرتعب من فقدكِ، وسوف يُعيق فرصكِ من دون أن يدرك. لو أنني تعلمتُ أي شيء خلال هذه الأعوام الثمانية عشر الماضية، فهو أنه لا يوجد إلا شيئان يمكنكِ الاعتماد عليهما: نفسكِ ودفتر حساباتكِ. لكننا فقدنا أموالنا. ذاك النوع من المال الذي لا ينفد، مهما أنفقتِ أو خسرتِ؟ لقد فقدناه. إن فضيحة يوهانس وأمكِ هي عارنا. إنه عاركِ. ستحملينه معكِ طالما حييتِ. لذا لم يتبقَّ لكِ الآن إلا نفسكِ.

كانوا جميعاً متجمدين كالجليد، يحدقون فيها كما لو كانوا مسحورين. أخذت نِهلا نفساً عميقاً، وتابعت: اخرجي من

هذه العائلة بالزواج، يا تِمَا، كما دخلتها أنا بالزواج. ارحلي إن استطعتِ. لا يوجد خيار آخر.

17

عندما ظهر الربيع أخيرًا على القناة، بدأ شتاء ثانٍ داخل منزل الميرغراخت. أصبحت السماوات في الخارج أكثر زرقة في حين تناقص الضوء في الداخل. وتعثر ساكنوه في شبه ظلام، الأركان قاتمة، والأروقة لا يمكن تحديدها. وضعت كورنيليا الأطواق الفرو، والعباءات الثقيلة في الصناديق، وأخرجت تلك الأخف، ولكن لا مكان يذهبون إليه معاً مثل عائلة. لا زيارات إلى معرض الحيوانات، لا حدائق مُبهجة لمشاهدة الأزهار، لا مشاوير فارغة إلى السوق. وكأن شيئًا انكسر، لا طريقة لسحب الكلمات التي أُلقيت، شبح الأم التي رحلت منذ زمن، يطعن مثل رمح معدٍ لاختراق قلب عدو. ولا يقتصر الأمر على أشباح الذين رحلوا منذ زمن، بل أولئك الذين قد لا يأتون أبدًا. الأزواج، الأطفال، الطوب الذي يُقال للنساء استخدامه لبناء حيواتهن.

لا تخرج الخالة نيلا من غرفتها. لأكثر من أسبوعين لم ترها نيا، وهي راحة في حد ذاتها. لكن الراحة الأكبر هي في أنها لن تضطر إلى رؤية ياكوب، لكنها لم ترَ والدها أيضًا إلا لمامًا. الجميع يتجنب الجميع. وهو ليس أمراً صعباً، في منزل بهذا الحجم. في وسعك أن تصغي إلى غلق باب، أو صرير أرضية، أو خطوة قدم، وتخطِّط مسارك وفقًا لذلك: لكنك لا تدري شيئاً عما يفعله غيرك. وحدها كورنيليا تواصل روتينها المعتاد: طهي طعام لا يبدو أن أحدًا يريده، تلبيخ وفرك، عجن خبز، وتقطيعه، ودهنه بطبقة كثيفة من الزبدة، وتركه فوق طبق خارج باب الخالة نيلا. الخالة نيلا تحب الخبز والزبدة، لكنه

طعام أطفال. إن كورنيليا تُطعم الخالة نيلا ملذّات الطفولة.

فكّرت تِيَا، حسناً، فليكن. فلتأكل زوج خالي الفتات الناشف، بعد الأشياء التي قالتها.

لكن الحقيقة، أن قلب تِيَا يتألم - لأن الأمور اتخذت هذا الوجه، لأن كل شيء وكأنه يتهاوى. كان زادها الوحيد خلال هذه الأيام هو زياراتها إلى والتر، وهي تستغل جو الخول في الميرغراخت والرقابة التي خفّت عنها، لسرقة الوقت معه في المسرح.

كانت تِيَا، طوال العشاء المشؤوم في منزل ياكوب، مشغولة البال بالمسند الثالث يسار المذبح في الكنيسة القديمة. كانت سعيد جداً بما فعلته لحماية نفسها ووالتر. كانت قد حاولت التركيز على الأحاديث التي دارت حول فناجين الشاي الساخنة، والمائدة الوفيرة، والبيانو القيثاري الرنّان - لكن كل ما في وسعها أن تفكر فيه هو ما فعلته من أجل الحب.

لا بدَّ أن المال الذي دسّته تِيَا تحت النحت قد أُخذ، فهي قد وضعته هناك قبل يوم الأحد. لقد أسعدها تصرفها، لكنه أشعرها أيضًا بشيء من الغثيان. كان في وسعها أن ترى الغضب وهو يشتعل في قلب الخالة نيلا بمنزل ياكوب، قبل حتى العاصفة التي أعقبت ذلك في دهليز منزلهم. لكنها ووالتر آمنان الآن. من دون شك، آمنان.

- أتعد بأننا سوف نتزوج حالما ينتهي العقد؟ سألت والتر في أحد الأيام في المرسم، وهي تشاهده يلوّن قوساً رومانياً.

قال:

- تِيَا، طبعاً. لقد اتفقنا فعلاً.

ندمت على سؤالها، لكنها أرادت بشدة أن تخبره بما حدث في بيتها: الجدال الفظيع الذي تركهم جميعًا في خصام، وخطر ياكوب، والنِّزاع حول المال ومنزل زوج خالها في الريف. ليس هكذا تصورت الحياة. تُفكِّر في جميع المسرحيات التي شاهدتها، عندما كانت البطلة تنطلق بمفردها أو مع عشيقها السرِّي. لماذا هي مشلولة هكذا؟ لكنها في الوقت نفسه تريد أن تبدو مُشرقة وبهيجة، هيِّنة وليِّنة. تريد أن تمحو تاريخ حياتها كله، فلا تكون لوالتر إلا الشخص الموجود في هذه الغرفة، دائماً مُبهجة، دائماً مرغوبة. كل ما تعرفه، أنه يجب أن يكمل مدة عقده. هذه الحقيقة ثابتة. عليها أن تتحلى بالصبر، وهي ليست بالمدة الطويلة حقاً، أليس كذلك؟ شهر آخر فقط أو نحوه. في وسعها أن تنتظر.

ومع ذلك، عليها هي ووالتر أن يتخذا إجراءً بخصوص خطبتهما قبل أن يفوت الأوان، قبل أن يصبح ياكوب فان لوس وتلميحاته عن الزواج أقوى من أن يمكن تجاهلها.

تتأمل تيًا ظهر والتر وهو يلوِّن القوس، روما القديمة وهي تعود إلى الحياة. تشعر في قاع معدتها بجاذبية تركيزه، فتتمنى لو ينتقل تركيزه عليها، لكنها أيضاً تستمتع بالتلصص. رغبتها الجسدية المتزايدة نحو والتر تتغلَّب على قلقها بشأن كل شيء آخر. إنها تشعر بجوعٍ مُستمر إلى جماله، لمساته، فلم تعد ترغب في إفساد لحظاتها المُستلبة معه بالحديث عن زواج ناجح كما هو الأمر مع المنمنمة أو رسالة الابتزاز. تجد نفسها تنظر إلى لوح ألوانه الحقيقي، وتلاحظ أنه مليء بألوان كثيرة. أيّاً يكن من أرسل تلك الدمية فهو مخطئ تماماً. ليس والتر رجلًا يرسم العالم بلون أحمر فقط.

- لديَّ مفاجأة لكِ، قال، وهو يضع لوح ألوانه ويمسح يديه، ويتوارى خلف مُسطَّح القوس الروماني، ثم يبرز من جديد حاملاً لوحة بين يديه. "مستعدة؟"

ببطء، وبعض المراسيم، أدار والتر اللوحة، فأدركت تيًا أنها تنظر إلى وجهها، مُصوَّرًا بألوان الزيت:

- كان تماماً مثلما قلت. وكأني أحاول رسم الشمس.

لوهلة، عجزت تيًا عن النطق. إنها تبدو، بطريقة ما، جميلة. وهي، فعلاً تبدو مشرقة. لقد أودعت في قطعة فنية. لكن شيئاً يصيبها بالتردد. الحقُّ، أن المرأة التي تنظر إلى تيًا لا تبدو شبيهها، ليس كما تشبه دمية والتر، والتر نفسه. إنها تفتقر إلى روحها؛ ويؤلمها أن ترى غيابها، لأن والتر مبتسم جداً وفخور، ويخال أنه أسعدها. يخال أنه صوَّر حبيبته.

صدمت تيًا بإدراك أن والتر بينما يستطيع رسم قوس روماني أو شجرة جوز هند أو أجمَّة فراولة، قد فشل في تصويرها. لقد ظنَّت أن شيئاً كهذا مستحيل. تشعر بضيق عميق، لكنها تمالكت نفسها، وابتسمت. ثم قالت:

- آه، يا والتر. شكراً لك، يا حبيبي. لم أحظَ بأحدٍ رسمني من قبل.

- يسرُّني أن كنتُ أنا.

اقتربت منه، مُبدية إعجابها بضربات الفرشاة، مُبدية إعجابها به، وتقبِّله بين كل عبارة مديح تعرض فيها مقدار الجودة والمحبة في رسمه لها، ويستقبل هو قبلاتها بسرور.

فكرت تيًا، وهي في طريقها إلى المنزل: لكن والتر، مع ذلك، قد بذل جهداً. أراد أن يفعل ذلك، أراد أن يُخلِّدني. وهذا

كل ما يهم.

عندما انسلت داخل المنزل إثر عودتها، فوجئت بصوت زوج خالها في الأسفل في مطبخ الخدمة. كانت تتحدث مع كورنليا، إنها أول مرة تسمع فيها تيًا زوج خالها تتحدث منذ أكثر من أسبوعين. تسللت إلى أول سلّم المطبخ، كانت الأصوات توحي بأنهما تعملان على الطاولة، ملعقة تصلصل في وعاء، وسكين تكشط جزراً لا ينتهي.

وكانت كورنليا تقول:

- ولا حتى أناناسة واحدة؟

فتقول الخالة نيلا:

- لن أسمح بأيٍّ منها. صمتت لحظة، وأنصتت تيًا إلى سكّينتيهما تضربان الخشب:

- لم يكن أميناً معي.

قالت كورنليا:

- كان سيخبركِ بالحقيقة، يا مدام. كل ما هنالك أنكِ وصلتِ إلى هناك قبله.

- ولكن خريطتي، يا كورنليا. لقد أغرقاها بالكآبات! صمتت لحظة: كنتُ أتمنى لو يرفع يده عن ماضيٍّ، بما أنه يرفض مشاركة ماضيه. كان هناك دائمًا الكثير مما لن يخبرني به.

- وأنا كذلك، يا مدام. ربما هو شيء جيد. لو أنَّ شخصاً أخبر آخر بكل شيء عن نفسه، أفلن يختفي بطريقة ما؟

"أبداً. بل هو العكس بالأحرى."

"لكن الشخص الذي عرفته أنتِ قد اختفى أمام عينيك. لم أكن لأريد ذلك. إنني أفضِّل الأجزاء التي يقدمها لي."

قالت الخالة نيلا:

- ومع هذا، تخبركِ تيا بكل شيء.

صمتت كورنيليا لحظة، وقالت:

- غريب أن تظني ذلك.

- لماذا؟ هكذا كان الحال دائماً.

- مدام: أنتِ أيضاً لا تخبرين أوتو بكل شيء. ترفضين إخباره لماذا لا تريدين بيع أسِدلفت. ما دام مهترئاً كثيراً، وهنا هو منزلك.

- إنه منزل أوتو. بدت منهكة وصوتها مُثقلاً:

يوهانس تركه له.

- آه، بريِّك، إن اسم أوتو ربما يكون على الورق، لكنه كان يتحدث بغضب عندما أخبركِ بالمغادرة. إنه بيتك. لقد قيلت أشياء كثيرة في تلك الليلة من دون قصد.

تنهدت الخالة نيلا:

- لكني أشك في أن أوتو سيغفر لي الأشياء التي قلتها.

- سيفعل طبعاً. مثلما عليكِ أيضاً أن تسامحيه.

- إنه لا يقيم لي وزناً، يا كورنيليا. يظن أني كنتُ أستطيع المغادرة، بعد أن وُلدت تيا. يقول هذه الأشياء، ثم يتوقع أن يأخذ حقول أبي.

قالت كورنيليا برفق:

- مدام، إنها حقوقك.

أجابت زوج خال تِيَا:

- أجل، وهي الشيء الوحيد الذي أملكه. في أمور كهذه، يا كورنيليا، يكون الاسم على الورق مهمًا.

كان قد مضى وقت طويل منذ أن استمعت تِيَا إلى حديث كهذا. لقد اعتادت أن تفعل ذلك قديماً. وهي تدرك كم يُبهجُها سماع حديث الأصدقاء بينهما، مهما انتهى إلى فظاظة. ألفتهما العميقة لا يمكن أن تختفي.

استأنفت خالتها من جديد:

- إنني حقًّا أعتقد، أن ياكوب زوج مناسب لها.

قالت كورنيليا: "

- لكن تِيَا تريد الحب الحقيقي.

شعرت تيا بالامتنان حينما سمعت هذا القول.

قالت الخالة نيلا متسائلة:

-ما الذي يعنيه ذلك أصلاً؟ وأين ستعثر عليه؟ إنَّ المكان الوحيد الذي قد تجدين فيه هذا النوع من الحب هو على خشبة السخاوبيرغ. هذه الفكرة التي يملكها أوتو، وتِيَا أيضًا، أنني أحاول التخلص منها، ليست صحيحة.

- أعرف، ولكن...

- وهذا الأسلوب الذي تخاطبني به، وكأنما يقصي الكثير لأتعلمه من شابة أمضت حياتها كلها تحت سقف واحد، محرومة حقاً من لا شيء».

- ولكن، ربما يقصكِ فعلاً.

- إنها لم ترَ شيئاً، يا كورنليا. لم تُفسد حياتها، ولا ورَّطت نفسها في مشاكل الآخرين. لا تحمل ندوبا.

- وكيف تعرفين؟

- إنها لا تدري شيئاً عن الأحلام المُحبطة.

- هل تريدين أن تُدب؟ أن تُحبط؟

- لا، بالطبع لا، ولكن...

- لأني متأكدة أن الزمان سيجعل من ذلك أمراً حتمياً.

- وأنا أحاول درأ ذلك. إلا أنها تصر على تعليمي شكل الحياة. مغزاها وغاياتها. كيف أني لا أعرف كيف أمسك لجامها بيديَّ. إنها تتأسّى بأبيها في هذا الأمر. وأمها، ما الذي تعرفه عن يدي؟ إنها حتى لا تنظر إلى يدي. تبّاً إبريق، بلا سدادة.

ضحكت كورنليا، فتابعت نيلا:

- لا أعرف لماذا تجدين الأمر مُضحكاً. لطالما أظهرتُ الاحترام لمن هم أكبر مني.

ضحكت كورنليا أكثر:

- هكذا؟ أنتِ وماريز كنتما ملاكين أحدكما مع الآخر؟

تنهدت الخالة نيلا، وغرقت في الصمت. كانت بحركات المرأتين هي التي تملأ الغرفة، بتمرّس وتلقائية وأيديهن تفرك العجين وتشكله في صواني الخبز.

بادرت زوج خالها من جديد:

- كورنليا... وهذه المرة شاب صوتها تردد غريب، كان أجشًا مما يجعل تِيَا تميل أسفل الدرج أكثر: هل تفكرين قط في صانعة الدمى؟

حينما ذكرت هذه الكلمة، تجمدت تِيَا. وازداد الهواء من حولها كثافة. أجابت كورنليا أخيراً بنبرة حذرة:

كلا، كان ذلك منذ زمن طويل.

- لكني أحياناً أشعر، وكأنه البارحة.

- مدام، لماذا...

- ألا ينتابكِ أبداً أنها ربما تكون قريبة؟

- كلا، طبعاً!

- إنها تراقبنا؟

- مدام...

- لأنه في حفل ساراخون ... دعيني أتكلم، حتى وأنا أعلم أنكِ ستنعتينني بالجنون، أو تقولين إنها واحدة من هلياناتي، لكني شعرتُ بإحساس غريب جداً. بدا في صوت الخالة نيلا نبرة أقرب إلى الجذل، البرودة في ظهري. شعرتُ بها، يا كورنليا، على عنقي، كما كان يحدث زماناً تماماً، كما لو أن هناك من يراقبني. أقسم: لقد سمعتها تنادي اسمي.

- ماذا؟!

- أقسم، لقد رأيتها.

دقّ قلبها بقوة في الظلام، فوضعت تِيَا يدها على عنقها. وتذكرت كيف أنها نفسها شعرت بالبرودة في شارع القناة،

حينما كانت مُتوجِّهة إلى السخاوبيرخ، بإحساس الوخز في مؤخرة عنقها. ربما كان والتر مُحقًّا في النهاية، وأن هناك من يراقبها. لكن من يكون هذا الشخص الذي تحدث عنه زوج خالها، بمثل هذا الإعجاب، الذي يقترب من الحب؟

قالت كورنليا:

-إنها ليست هنا، يا مدام. لم تكن في الحفل، ولا هي في شوارع القناة. إنها ليست موجودة هنا، ترددت كورنليا قبل أن تقول: وربما لم توجد قط.

قالت الخالة:

- بل هي موجودة. وإلا عمّن كنتِ حقاً تبحثين، يا كورنليا، عندما ذهبت تِيَا لشراء الأبرميس؟

في وسع تِيَا أن تسمع صوت النفس الخفي الذي تأخذه كورنليا. تعود لتتذكر رعب المريبة إثر وصول الطرد، والرسالة، ورغبتها العنيفة في معرفة من يكون مُرسلها، وما الذي تحويه. لقد حدثت أشياء في هذا المنزل، يا تِيَا، قبل أن تولدي. فكرت في الدُميتين في غرفة نومها، والتر والمنزل الذهبي، مخبّأين في صندوقها. والدُميتين اللتين فوقهما، في العلية: والديها، في كالهما المُتجمِّد الصغير.

قالت كورنليا:

- أخبرتك. كنت أنتظر تِيَا.

- ولكن، يا كورنليا، كيف تعرفين أن صانعة الدُمى لم تعد؟ إننا لم نستطع الوصول إليها في المرة الأولى التي دخلت حياتنا.

حدثت قعقعة حينما ألقت كورنليا بسكينها:

- إنّي أشعر بالأسف من أجل اليوم الذي اشترى لكِ فيه السنيور تلك الخزانة، من كل قلبي. كانت مدام مارين محقّة بشأن تلك الدمى الصغيرة المخيفة بتلميحاتها وتهديداتها: كان جديراً بنا منع دخولها.

- إنني أستشعر وجودها، يا كورنيليا. أعتقد أنها هنا.

هراء، اغفري لي، يا مدام، لكن هذا هراء، انسي الأمر. حسبتكِ أردتِ نسيان الماضي؟

رفعت كورنيليا سكينها من جديد، وشرعت في التقطيع بعنف، لم تجرؤ تيا على التحرك، خطرت لها فكرة: لو أنّ صانعة الدمى هي من صنعت كل هذه القطع، فلماذا لا تخبر كورنيليا الخالة نيلا عن الطرد الذي وصل؟

تقول الخالة نيلا:

- ربما اكتشفت ما فَعلتُه بهديّة زفافي. إنها تعرف أنني دمرته، ماذا لو أنها عادت إلى الانتقام؟

- ربّاه، يا مدام، كفى.

قالت الخالة بصوت أكثر خفوتاً:

- أحياناً، أتمنى، من كل قلبي، أن تعود.

- لا يجدر بكِ أن تقولي هذا. كيف تقولين شيئاً كهذا، بعد كل ما فعلته؟

- وما الذي فعلته، عدا أنها أرتني نفسي؟ تلك القطع التي منحتها لي كانت جميلة. تواصل الخالة نيلا: هل تتذكرين العود؟ كأس العروسين، علبة المرزبانية؟ لقد منحتني حياة فقدتها، حياة وُعدت بها.

قالت كورنيليا:

- كانت متطفلة، ساحرة.

- كانت مُرشدة، حارستي.

رددت كورنيليا بتهكّم:

- حارستك.

- لم أصغ إليها، وانظري إلى الثمن الذي دفعناه. ليتني أصغيت. ليتني أعرتها مزيداً من الاهتمام.

أطلقت كورنيليا زفرة:

- لقد انتهى كل هذا. أنتِ في حاجة إلى مُهادنة أوتو، والتحدث إلى ابنة صهرتك...

قالت الخالة نيلا:

- هناك شيء عليَّ أن أخبركِ به. اعتراف.

- اعتراف! قالت كورنيليا، بخوف ملموس في صوتها. لو أنَّ زوج خالها ترى صانعة الدمى هذه بشكل، فإن كورنيليا تراها بشكل مختلف تماماً.

- لقد صعدتُ إلى العلية وفتحتُ صندوق مارين.

همست كورنيليا:

- ماذا! لكن هذا لا يحق لنا. إنه يخص تيًا، عندما تكون مُستعدة.

تشبثت تيًا بحاجز السلم وكأنما تعلّق بحياتها. ومن آخر السلم أتى صوت خشّ يمزّق بضراوة. انتظرت تيًا، وهي تحبس أنفاسها، ولا تجرؤ أن تتحرك وشرائح الخس تحطُّ على الخشب

العنق.

طبعاً، كان صندوق أمي، هكذا فكر تِيَا، مذهولة أنها لم تدرك ذلك من قبل. طبعاً كان كذلك. تتخيل نفسها وزوج خالها، فوق في ظلام العليّة، راكعتين أمام الصندوق كما قد يفعل المرء أمام مذبح. فعلت كل منهما ذلك من دون علم الأخرى، تلمّست طريقها عبر تشكيلة مارين براندت طلباً للسلوى والنجاة. والآن صارت خريطة مارين النفيسة تستقر في واجهة رسام خرائط بالراماسترات. لكن المُنَمْنَمَة التي على صورتها في مرقدها على الأقل، إلى جوار مُنَمْنَمَة والد تِيَا.

قالت الخالة نيلا:

- لقد أخذتُ منمنمة الرضيعة.

قالت كورنيلا بصوت مملوء بالرعب:

- مدام! لماذا فعلتِ هذا الشيء؟

- لأن أوتو ليس الوحيد الذي لا يريد مفارقة تِيَا.

- لا أصدق أن هذا فقط هو السبب. ليس وأنتِ من تقولينه. هل أعدتها؟

- كلا.

- تريدين استحضار صانعة الدُّمى؟

- لا يمكنني استحضارها، يا كورنيليا.

قالت كورنيليا بصوت يشبه الهسيس:

- فلماذا إذن، لم تعيدي الرضيعة إلى مكانها؟

ردت الخالة نيلا بالهسيس نفسه:

- لأنني أردتُ أن أتذكر الشعور بالقرب من شخص ما.

أطلقت كورنيليا ضحكة خالية من البهجة. - ما زلتِ تصدقين أنها ستحل جميع مشكلاتنا! سكتت قليلاً، وأردفت:

- عليَّ إخبار أوتو.

- إيَّاكِ.

- نحتاج إلى الحذر. تلك الأشياء خطيرة. لم تجلب لنا أي سعادة.

قالت الخالة نيلا:

- لقد أسعدتني. كنتُ أراها بديعة، وما كان جديراً بي أن أتخلص منها. كانت ملكي، يا كورنيليا. قصتي. شيء فريد. عندما أرسلتها لي، شعرتُ أخيرًا بأن هناك من يفهم ما يحدث لي، أن هناك من رأى بحق. إنني أتوق إلى ذلك الشعور مرة أخرى، لأن الحقيقة، هي أنني أشعر بوحدة شديدة.

كان في صوت زوج خالها فيه حزن بالغ، فيه شوق وألم، جعل عيني تِيا تغرورقان بالدموع. وتحركهما بضراوة، عندما سمعت زوج خالها تشرع في البكاء. هذا هو الاعتراف الحقيقي، وتِيا لا يمكنها تحمُّل سماعه. تراجعت إلى أعلى سلم المطبخ، راجية ألا تُحدث ألواح الأرضية صريراً من تحتها، حتى تفلت من هذه الحادثة ربما من دون أن يُسمع أثرها.

وصلت إلى غرفتها في الأعلى، وأوصدت الباب، وجلست أمام مُنمنمتها. تحمل والتر في قبضتها وتضغط عليه، وكأنما بذلك قد تدفع الرجل الذي تحبه إلى فعلٍ أكثر حسماً. تلمس شعره، وقد أوحشها كيف كانت طراوته أبسط قبل ظهور ياكوب، قبل خطر رسالة الابتزاز، وربما الآن، نوايا صانعة هذه الدمى.

تضع المنزل الذهبي الصغير وسط راحتها، وهي تشاهد ضوء آذار عبر النافذة يضفي عليه وهجًا خافتًا. تتساءل تِيَا، لمن يكون هذا المنزل؟ ولماذا أرسل لي، مادامت زوج خالي، وليس أنا، هي من تنشد صانعة الدمى؟

لكن، بينما كانت تحدّق في هذه القطع التي يُعجزها تبيُّن معانيها، كان أكثر ما يُؤَثِّر في تِيَا هو الوحدة التي تشعر بها زوج خالها. قوتها تتسرَّب إلى دمها وتصعد إلى رأسها، مثل دواء غريب لم تشربه قط، لكنه ذو مذاق مألوف بصورة مُحيِّرة. كانت الخالة نيلا تملك بيت دمى. هدية زفاف حطَّمتها. كورنيليا، هل تفكرين قط في صانعة الدُّمى؟ إن هذا ولا شك، ما تفعله الخالة نيلا. استعلامها المحزون، اعترافها. الرضيعة التي أخذتها من الماضي لتواسيها في الحاضر.

ما على المرء سوى أن ينظر إلى هذه القطع المُنمنمة ليرى كيف يمكن أن تؤثر في الشخص، وتِيَا متعاطفة مع إيمان الخالة نيلا بأهميتها. إنها تتفهم رغبة زوج خالها في احترام تلك المُنمنمات وتأويلها إلى شيء أكبر من محصلة جمالها، إلى ذريعة لوجود من يراها. دهشت تِيَا حينما اكتشفت أنها وزوج خالها قد تتشاركان مثل هذه المشاعر. لكن تِيَا وهي تنظر أسفل إلى والتر والمنزل الصغير، يُعجزها أن تجد فيهما عبرة. إنها ترفض قبول فكرة أن في أطراف والتر الصغيرة أو فوق لوح ألوانه الفارغ، أو داخل الجدران الأربعة لمنزل مُذهب صغير لا يمكن دخوله، تكمن أي رسائل رمزيَّة ترشدها خلال هذه البلبلة. لكنها أيضًا ترفض إيمان كورنيليا، بوجود شرٍّ في هذه القطع، أيًا تكن صانعة الدمى تلك. فبالتأكيد، فكرت، وهي تعيد المنمنمتين إلى صندوقها السري: "لا شيء يُصنَع بهذا الجمال قد يكون بهذا السوء"

18

لم تتلقَّ تِيَا رسالة الابتزاز الثانية مباشرة، ولكنها وجدتها مصادفة، عندما فتحت الباب الأمامي لإخراج لوكاس، الذي كان قد بدأ يختبر شهر آذار طمعاً في قرص الشمس. كانت بضعة أيام قد مرَّت على زيارتها لوالتر وتقديمه اللوحة التي لم ترَها، وما زالت مُترنِّحة من اكتشاف أن صانعة الدُّمى قد تعود من جديد. كان والدها والخالة نِيلا قد بدأا يتبادلان كلمات قليلة فاترة، لكن، لا إحساس بهدنة حقيقية، وظل جو التعاسة قائماً. إلا أنَّ هذه المُشكلات تتبخَّر من عقل تِيَا حالما تُخفِض بصرها إلى عتبة الباب وترى رسالة أخرى، صغيرة ومربعة تماماً مثل الأولى، واسمها في الواجهة.

لوهلة، تكاد تِيَا ترجو أن يكون المُرسِل هو ياكوب، لأنها حينها ستكون قادرة على التعامل مع الرسالة. خطاب صغير من لايدن يسهل تجاهله. لكنها تعلم، وهي تنظر إلى خط الكتابة، أنها من الشخص السابق نفسه. شعرت بدوخة، وتملكها الفزع، لكنها حملت نفسها على النظر يمين ويسار القناة لترى إن كان شخصٌ يطلق مُبتعداً. لا تجد من مواطني أمستردام المارِّين من يصلح مُرشَّحاً: فهناك بائعة رنكة وصبيَّا يحملان سلة، وخادمة مُثقلة بأربع مكانس جديدة لا بد أنها اشترتها للتو من السوق، وقس، وزوجان مع طفلهما الصغير. لا أحد منهم يبدو من النوع الذي قد يرغب في تحويل حياتها إلى جحيم.

حدَّقت تِيَا مرة أخرى في الرسالة على العتبة، وهي تعزف عن التقاطها، ويغير غثيانها التفكير في محتواها. لكن يجب ألا يرى

هذه الرسالة أحد من عائلتها، لذا تجبر نفسها على التحرُّر من ذعرها وتدسُّها في جيبها. تركت لوكاس في عالمه المتفائل من أشعة الشمس الباردة، وتراجعت داخل العتمة، مُغلقة الباب الأمامي بأكبر مقدار من الهدوء. وقلبها يدقُّ، صعدت السلّم نحو غرفتها، وفتحت الرسالة ما إن أوصدت الباب.

"لا تصدقي أن الحب الذي تشعرين به عند رؤيته هو أكبر من الضرر الذي أستطيع إلحاقه. هذه الجرأة المستمرة لا تخدمك، لكن مائة جِلدر أخرى ستضمن سكوتي، أو أخبر كلارا ساراخون، وكل المدينة ستعرف. لديكِ مهلة حتى هذا الأحد، الكنيسة القديمة، المكان نفسه: المسند الثالث يسار المذبح. لا ثوباً ذهبياً يمكنه أن يُداري فعلتك.

شعرت تِيَا أنها في حلم. لم ينته الأمر بعد: كيف صدَّقت أنه قد ينتهي؟ الحديث عن الثوب الذهبي يصيبها بقشعريرة، فما بالكم بالإشارة إلى كلارا ساراخون. إن النبرة مبالغ فيها، طبعاً، وكانت لتثير السخرية في أي ظرف آخر، لكن كاتب الرسالة يقول الحقيقة. فضح الحب الذي بينها وبين والتر لكلارا ساراخون كفيل حقاً بتدمير تِيَا وعائلتها إلى الأبد، مهما كان مبلغ تصديقها هي نفسها لخطبتهما. إنهما لم يتزوجا بعد حسب الأصول في الكنيسة، وحتى لو كُتب لهما الزواج، فلن يكون زواجًا يقرّه والدها وزوج خالها. ستجلب الفضيحة مرة ثانية لعائلتها.

فكرت تِيَا في والدها، وقد عرف بالأمر. تصوّر كورنيليا، خيبة أملها. غضب زوج خالها وحزنها. وبيدين مُرتجفتين، طوت الورقة، ووضعتها في الصندوق السري مع المنمنمتين والرسالة الأولى. إنها تريد الاحتفاظ بهذه المكاتبات الرهيبة

بوصفها دليلاً خاصاً لإثبات أن شيئاً كهذا قد حدث لها، ولم يكن مجرد خيال مفرط من جانبها، و ليس مجرد حلم. قد تقول زوج خالها: إن تِيَا لا تملك ندوباً، لكن، ما يُدري الخالة نيلا؟ لطالما كانت الخالة نيلا تخشى أن تعيش الحياة، حتى إنها لم تكن لتستقبل رسالة كهذه قط.

اضجعت تِيَا على فراشها، وهي تفكر جاهدة في ما يمكنها أن تفعله لحماية نفسها ووالتر من هذا الشر المُلح. وإذ تمدُّ يدها داخل الصندوق، تُخرج المنمنمتين، وتحاول أن تراهما كما قد تفعل زوج خالها. تفحص دمية والتر، يديه، ذراعيه، ساقيه، وجهه -كل جسده- بحثاً عن أي علامات تُرشدها، كالعلامات التي تؤمن زوج خالها بأنها استقبلتها ذات يوم. تنظر إلى لوح ألوان حبيبها مرة أخرى، فرشاته، وكأنما تبحث عن شيء ربما أغفلته، لكن والتر يظل كما وصلها على عتبة الباب في كانون الثاني. إنه ثابت. والتر لن يتغير، والتر مضمون. وإضافة إلى ذلك، فقد توقف إرسال المُنمنمات منذ فترة. ربما صانعة الدمى لا تريدها في النهاية.

وفي تلك اللحظة، أدركت تِيَا ما ستفعله. ويُهدِّئها الإدراك. إنها مجازفة، وقد لا تنجح. لكن لا أحد سيحمل العبء عنها، ولا أحد عليه أو باستطاعته. المشكلة تخصُّها وحدها.

***

كانت الكنيسة القديمة مُزدحمة، لكن لا أحد بالقرب من مساند الجوقة لحسن الحظ. تُخرج تِيَا الدفعة الثانية من الجلدرات التي كانت قد جهَّزتها من صندوقها السري، ودسّتها إلى جوار منحوتة الزوجين المُتخاصمين. وبدلاً من مغادرة الكنيسة، تختبئ خلف عمود بالجوار لتراقب. سوف تنتظر هنا،

مُتخفِّية، طوال النهار وطوال الليل إن وجب. لقد أوردت الرسالة الأولى أن كاتبها سيتفقد المسند كل يوم، والوقت ما يزال مبكرًا، لذا توجد فرصة كبيرة أنَّ شخصاً قد يأتي في ساعة ما من اليوم. كما أن تِيَا أمستردامية: إنها تعرف كيف يُجازى الصابرون. تعرف كيف تراقب، من دون أن تُرى.

لساعات تقف، مُتلصصة على أمستردام. وتشاهد المواطنين الذين يأتون للصلاة، لمعاهدة الرب على أنهم سيكونون أشخاصاً أفضل في شهرهم، في عامهم، في عمرهم. الذين يقايضون الرب، فإذا حقق لهم ما يتمنون أو يحتاجون إليه من مال، حصول جيد، عمل جديد، طفل سليم- بمعجزة ما، فسوف يغيرون من أنفسهم. تتساءل تِيَا، كيف تُراه يظن، في هذه الوعود المُتواصلة التي مصيرها الحنث بها؟ ربما اعتاد ذلك.

شاهدت، أيضًا، الرجال الذين يأتون لعقد صفقات عمل، صفقات سرية، بلا شك، وإلا فلماذا يعقدونها هنا وليس في البورصة أو النقابة؟ دفع هذا تِيَا إلى التفكير في أبيها، وكيف كان بدوره يعد خططاً سرية لأسِدلفت، وكيف أخفقت تلك الخطط. هل هو هنا أيضًا في مكان ما، يصلي راكعاً طالباً حلاً لمشكلاتهم، بينما عشيقته الميتة، ترقد على بعد ياردات، مثل غبار تحت ألواح القبور؟

تتساءل تِيَا إن كانت يومًا ستعرف ماذا جرى بين أبيها ومارين براندت. كانت كورنليا قد أخبرت الخالة نيلا أنه ربما لا يُفترض بنا أن نعرف كل شيء عن شخص آخر، لأن هذا سيجعله يتلاشى داخل نفسه. نظرت إلى أقصى الركن الشرقي حيث ترقد أمها من دون شاهد. ربما هو أفضل لبعض الأسرار التي تمسَّكت بها هذه العائلة، لتعزيزها وإخفائها في الظلام.

شعرت تيَا بفورة عاطفة نحو أبيها، كيف أضاءت عيناه عند رؤيتها في عيد ميلادها. إن الخالة نيلا مخطئة: إنه لا يتحاشى النظر إلى ابنته في اليوم الذي يوافق موت مارين براندت. وإنما فتح لها ذراعيه وأخبرها كم هي رائعة. والخالة نيلا مخطئة في أنه سيعيق مستقبل تيَا. لا أحد منهم سيفعل.

مرّت الساعات، وفقدت تيَا الشعور بالوقت. ساقاها تؤلمانها، ومعدتها تتوق لشيء من فطائر كورنيليا. خيّم الليل، فتحرك مغني جوقة في أرجاء الكنيسة، مُشعلاً شمعة تلو شمعة. تريد أن ترتخي، أن تجلس لبعض الوقت، لكنها تعلم أن هذا سيجعلها مرئية جداً حتى على ضوء الشموع، لذا فهي تستجمع عزماً زائداً من داخلها وتواصل الانتظار. وأخيراً، إذ تسمع الجرس يعلن تمام الثامنة، ويُقلقها كيف بحق السماء ستفسّر لعائلتها هذا الغياب، ترى تيَا حركة عند المسند.

طرف عباءة، خفيف. ظهر امرأة، رأسها المغطى محنيٌّ على نقش الزوجين، يدها تتحسس المكان لترى إن كان فيه شيء. شعرت تيَا برأسها يدور، وشرارة غضب عندما دست المرأة الجلدرات في جيبها. لكن خطتها تعمل: كانت تيَا قد وسمت كل جلدر، وصار الدليل الآن في جيب هذه المرأة.

ترى المرأة وهي تعتدل، وظهرها ما يزال إلى تيَا. انحلّ غطاء رأسها، كاشفاً عن شعر أشقر تخفيه بسرعة. وأسرعت بالخروج من الكنيسة إلى الليل البارد، وتتبعها تيَا بحذر قدر الإمكان. سلكت المرأة الفارموسترات، أحد أكثر الطرق ازدحاماً في البلدة القديمة، وتجاهد تيَا لإبقائها نصب عينيها، لا يضيء الظلام إلا تلك الأنوار التي تخفق من النوافذ، والألهبة في المجامر العابرة في الشوارع. والعباءة غير المميزة تساعد هذه

المرأة على الاندماج بسهولة كبيرة. لكن تِيَا دؤوبة، ولا تفقد أثرها.

خرجت المرأة من الفارموسترات، وصعدت الجسر إلى الهارتسترات. أياً يكن المكان الذي تقصده، فيبدو أنها تريد الوصول إليه بسرعة. إنهما تسيران صوب السخاوبيرغ الآن، وتشعر تِيَا بإحساس خوف متزايد، ولكن المرأة تنعطف، فتسير مُسرعة نحو اليوردان، مُتوغلة أكثر وأكثر في دهاليز الشوارع الضيقة التي تشكل حي العمَّال. عندما تتوقف المرأة أخيرًا في منتصف الشارع، تُشيح تِيَا بوجهها، متظاهرة باستغراقها في واجهة عطارة مغلقة، محدِّقة بلا تمييز فيما يظهر في العتمة من أوراق مجففة في مرطبانات وقرنات حبوب. اختفت المرأة عبر باب، وتهبّ تِيَا لتتبعها نحو واجهة المبنى الضيقة.

كان الباب بسيطاً، من خشب سميك غير معروف، يوشك أن يُغلق، لكن تِيَا مدّت يدها، وقلبها يدق بعنف. تنتظر، مُصغية إلى خطى المرأة تسرع فوق الدَّرج إلى الطابق الأول. فُتح باب آخر ثم أغلق مجدداً، وغرق دهليز الطابق الأرضي والممر أعلاه في الصمت.

كانت في الشارع بعد، جائعة إثر ساعات من الانتظار في الكنيسة، مُنهكة وضائعة، تتردد تِيَا، ويدها ما تزال تصد الباب عن الإنغلاق، إذ تخشى أن المرأة ربما تضع الجلدات فقط لتخرج من جديد، و ربما تنزل الدَّرج مرة أخرى بعدما أدركت أنها لم توصد الباب الأمامي. ستضطر حينها إلى مواجهتها في وسط الشارع، وهو آخر شيء تريده تِيَا.

لكن المكان في الداخل هادئ، فدخلت تِيَا.

إنه دهليز مظلم، البلاطات باردة تحت قدميها، والجدران المكلَّسة ترسل رطوبة. إنها مثل عرين قاتل، هكذا فكرت تِيَا، قبل أن تقول لنفسها ألا تكون سخيفة. هناك باب موصد إلى يمينها، تفترض أنه مسكن آخر، أو ربما واجهة متجر شاغر. الجو خانق. لم تترك المرأة أثراً من عطر، لا تفوح من هذا الرواق إلا روائح الإهمال والتعاسة. دم تِيَا يندفع داخل جسدها، إذ لم يسبق لها أن دخلت منزلًا آخر بهذه الطريقة، من دون دعوة، مثل لصّة. لكن من هو اللص هنا؟ هكذا تسأل نفسها. تلك المرأة معها أموالي، وقد أخذتها من دون تردد.

ببطء، بتقدّم من الدَّرج، عشر سلَّمات عميقة تفضي إلى طابق أول أكثر قتامة. لا توجد نوافذ في أي مكان. وكأنما لا وجود للعالم الخارجي، لكن تِيَا تصغي: من الأعلى تتناهى إليها أصوات مبهمة، لكنها لا تعرف عدد أصحابها، أو ما إن كانت لرجل أم امرأة. كانت قد وضعت خطة بسيطة، أن تلحق بمن يأخذ الظرف وتكشف هويته، أن تواجهه، وتخبره أنها ليست خائفة من العار. لكنها الآن مُترددة، لا ترغب في اقتحام المكان.

صعدت السلَّمة الأولى، مُقدِّرة وزنها فوق الخشب. كانت سنوات المشي على أطراف الأصابع في أرجاء منزلها، أملاً في سماع خبر أو سر، قد أثبتت فائدتها. يمكنها مُعادلة وزنها والتحرك بصمت، مُختبرة كل سلَّمة تفادياً لصرير أو أنّة. مضت قدمًا: السلَّمة الرابعة، الخامسة، السادسة، وعندما وصلت إلى رواق الطابق الأول، أدركت أنه لا يوجد سوى باب واحد، على بعد خطوات قليلة إلى يمينها. ومن الداخل تأتي الأصوات. انتقلت عبر الممر، وظهرها إلى الحائط. خطر لها الآن فقط، أن هؤلاء الأشخاص ربما يكونون خطرين. ماذا لو أنهم مسلَّحون؟

قالت تِيَا لنفسها إنها مُغامِرة، مثلما كانت عائلتها تتظاهر وهي صغيرة: تعتمد على ذكائها وحده. فكر، بوسعي أن أركل. لديّ قبضتيّ. بوسعي أن أخيفها.

وعلى الرغم من ذلك، تمنت لو أن والتر كان هنا. بل إنها لترحِّب حتى بالخالة نيلا.

تحركت تِيَا نحو ثقب المفتاح المخنث، كان الحديث داخل الغرفة قد توقَّف، راحت تصلِّي، لأنهم لم يسمعوا حفيف تنورتها. إنها تحتاج إلى عنصر المفاجأة، لكن لا توجد إشارة على وجود أحد، لا أحد يظهر لها من السكان. الغرفة صغيرة، يحافظ القاطنون على نظافتها، تماماً مثل غرفة ريبيكا في السخاوبيرخ، لكنها أقل تأثيثا بكثير: سرير بسيط لشخصين، زوج من الكراسي، طاولة قصيرة مزينة فقط في تلك اللحظة بشمعدان واحد من البيوتر، تلقي شمعته بظلالها على الجدار المتصدع. ألواح الأرضية من الخشب الداكن، وترصد تِيَا مهدًا يستقر عليها. إنه ليس كثير التفاصيل، بلا نقوش أو سدائل: بل إنه يبدو مثل نصف برميل جعة مقسوماً إلى نصفين ومرفوعاً على جانبيه ومُثبَّت بركائز. كان قد دُفع بالطول قبالة الحائط، وتبرز من داخله قبضتان صغيرتان، تضربان الهواء القديم ببطء قبل أن تتراجعا مرة أخرى، وكأنما لم تكونا هناك قط.

فجأة، ظهرت تنورة امرأة. وإذ تجلس إلى الطاولة، وفي يدها جلدرات تِيَا، أصبحت صورتها الجانبية في مستوى ثقب المفتاح. المرأة في مثل عمر الخالة نيلا تقريباً، لكن لها وجهاً أكثر ليناً، وشعراً أشقر فاتحاً وأنفاً أصغر حجماً، وشفة سفلية مكتنزة تبرز في تركيز عندما تبدأ في عدِّ عطيَّة تِيَا الثانية. تبدو مرهقة كما تشعر تِيَا، وإذ تبدأ في العد يعود الرضيع في المهد

البرميلي إلى إبراز قبضتيه وشرع في البكاء.

قالت، من دون أن ترفع بصرها:

- اعتنِ به، هلا فعلت؟" عندما تتحدث، تصبح شفتها أقل اكتنازاً. فمها يقتنص الكلمات، وصوتها قاسياً. "إنه ابنك."

تحرك زوج من الأحذية عبر ألواح الأرضية نحو الطاولة. وظهر النصف الأسفل لرجل يعبر من أمام المرأة. ويقول:

- هل المبلغ كامل؟ وعندما تحدث، شعرت تِيَا بضياع حادّ حتى أنها اضطرت إلى الاتكاء على إطار الباب.

تقول المرأة:

- أجل. كريمة، كما قلت.

- لقد فعلنا ما يكفي الآن، يا جريتا. لا أريد أن أفعل ذلك مرة أخرى.

جريتا... قبل أن يُتاح لِتِيَا أن تفكر فيما يحدث أمامها، تتحرك ساقا الرجل بخفة إلى المهد. ينحني فوقه، ويمد يديه في داخله، وعندما ترى تِيَا وجهه تنقبض معدتها، وقد اعتراها إدراك رهيب. قلبها يجثم على لسانها، ضفدعاً ميتاً يسد فمها. تتصاعد في داخلها موجة غثيان وتشاهد والترَ يرفع الصبي بين ذراعيه.

لا يمكنها أن تتنفس، لكنها تعجز عن سحب نفسها بعيداً عن الفتحة المفرغة لهذا الباب. إنها صورة تخلو من المنطق، لكن تِيَا تواصل النظر. كل ما تستطيعه هو ألا تصرخ، لا تركل الباب وتحيط بيديها عنق المرأة.

واصلت المرأة:

- قلتَ إنها تملك المال. قلتَ إنها تملك الجرأة؟ إنها تعيش في

الهيرفراخت، ما المانع في تهديد أخير؟

أطبقت تِيَا يدها على فمها، كيف لا يلاحظون وجودها وجسدها كله يشتعل نارًا؟ لا شك أنهما سيلتفتان نحو الباب؟ لا شك أن دخانه سيتسرب من أسفله إلى غرفتهم الصغيرة، ويخنقهما؟ لا شك أن في وسعهما سماع أنينها؟

تريد أن تركض، لكنها تظل مزروعة في المكان. لا تستطيع أن تجر نفسها بعيداً عن هذا العالم الموازي. إنه العالم الحقيقي، إذ هي حمقاء، مُغفَّلة، تصلح أن تُقلَب، وتُفرَّغ جيوبها، فتاة لا يمكن أن يحبها أحد بصدق.

من تكون هذه الجريئا، التي تمسك بجلدرات تِيَا في يديها، بكل ما لها من قدرة، من سيطرة؟ تنظر تِيَا إلى أسفل، يدها على مقبض الباب وتديره، إنها تدخل. يستدير الزوجان في صدمة لرؤية من الداخل، وجه والتر شنيع في الظل، رعبه وهو يتشبث بالرضيع، والمرأة تقوم واقفة. ومن ركن الغرفة، يأتي طفل أكبر سناً بخطوات صغيرة نحو أمه. ماما، ماما، هكذا يكرر.

- من هي؟ قالت تِيَا، قبل أن يُتاح للمرأة أن تقول بنفسها. "والتر، من هي؟"

لكن والتر ليس هو من يتكلم. نظرت المرأة إلى تِيَا، تعابيرها أقرب إلى الشفقة. قالت:

- آه، يااللفتاة المسكينة. لا بدَّ أنكِ تِيَا.

- إنكِ لا تعرفين من أنا.

- طبعاً أعرف. فأنا زوجه.

زوجة

19

أصبح أوتو ونيلا مُتفقين أخيرًا على شيء ما، برغبتهما في حماية تيَا، بعدم إلحاقها في العالم مرة أخرى. كانت تيَا قد لازمت غرفتها لمدة شهر، وقد ذهبت عنها الحمى بعد خمسة أيام من العذاب لجميعهم، لكنها في الأسابيع التي تلت، ظلت واهنة، ولا تأكل كثيرا، مُشيحة بوجهها إلى جدار غرفتها. شعرت نيلا بالخجل من اعتزالها في آذار، لمجرّد شجار مع أوتو، بينما تيا هنا، سقيمة سقماً حقيقياً ومُلغزاً، لا تحسن أن تقف على قدميها. يتركونها تنام كثيراً هذه الأيام.

كانوا جميعاً قد أصابهم القلق الشديد عندما لم تعد إلى المنزل. مع استقلال كل منهم بمعيشته منذ الشجار، لم يلاحظ أحدهم غياب تيَا إلا قرابة السادسة مساءً. وحدث ذلك عندما وجدت كورنيليا غرفتها فارغة، فهرعت إلى المسرح لترى إن كانت هناك، وعندما عادت خائبة، عرفوا أن خطباً جليلاً قد حدث. ركض أوتو إلى الموانئ، ليتأكد من زملائه القدامى في الفوك إن كان أحدهم قد رآها، وانطلقت نيلا تبحث عبر الجودين بوخت وفي اليوردان، بحثاً عن أي أثر لطفلتهم الغالية.

عندما عاد كل منهما، يائساً من القلق، وجدا كورنيليا في الطابق العلوي مع تيَا التي كانت ترتجف وتهذي في فراشها. وعلى الرغم من الارتياح الذي جعل كلاً منهما يصرخ عند رؤيتها، وقد وحّدهما مؤقتاً حبهما لها، إلا أن رؤية الحالة التي كانت عليها أرعبتهما وراحا يسألانها عما حدث، لكن تيَا

لزمت الصمت. كانت كورنيليا شاحبة من الخوف، وقالت:

- كفًا عن السؤال. إنها بخير على الأقل.

قالت نيلا:

- نحتاج إلى طبيب، الآن.

ظل الأطباء يتوافدون لأربعة أسابيع، فشقُّوا عروق تِيَا لتفصيد الدم، ووضعوا علقات فوق جسدها، غضبت كورنيليا لرؤيتهم يفعلون ذلك، ووجد أوتو المنظر صعباً كانت تِيَاواهنة بمفصد عرقاً، بمقلَّب في نومها، وتهذي بكلام حول منازل ذهبية وألواح تلوين فارغة، وأطفال في مهود، وباب تعبته وعبته وما كان جديراً بها أن تدفعه قط. هذيانها انفعالي، وعند الاستماع إليها، شعرت نيلا بشيء من الجنون. إنها لمحة من داخل خيال تيا، وليس ما توقعت أن تجده. ما الذي تعرفه تِيَا عن الرضَّع في مهودهم، أو المنازل الذهبية؟ أي باب دفعته وأفضى إلى هذه الكارثة؟

قال أوتو:

- لا مزيد من العلقات. سوف أرسل في طلب فيتسن.

قالت نيلا:

- مُستحيل. إنه بستاني، وليس طبيباً.

نظرت كورنيليا إليهما في اشمئزاز، وكأنها لا تصدِّق أنهما، حتى في هذه اللحظة، قادران على الجدال.

حلَّ نيسان وذهبت الحمى الآن، ومع أن الربيع قد اكتمل وذُبحت الحملان، وذابت مياه القنوات وعجَّت بالقوارب، إلا أن الحياة لم تعد إلى طبيعتها بعد في هذا المنزل، وضاعت فرصة

دعوة ياكوب إلى العشاء داخل جدرانه. إنهم لن يفعلوا شيئاً قد يعرِّض تعافيها إلخطر.

ترسل نيلا خطاباً إلى ياكوب على عنوانه البرنسغراخت، موضحة في كذبة، أن تِيَا قد ذهبت إلى زيارة صديقات في أتوِيرب لمدة قصيرة، صديقات مقرَّبات من أيام الدراسة. وهي تخشى أن السيدة لوتحرس هي من تفتحه، فتلقي به في النار قبل أن يُتاح لسيدها أن يقرأه، أو أن ياكوب سوف يخفى عنه سبب انسحابهم المفاجئ. لكنه يجيب، بخطه المُنساب، أنه يتطلع للقاء تِيَا حال عودتها. إنه شعاع صغير وسط الظلام. لم يفلت من أيديهم بعد.

إن تِيَا تبدو الآن مُرهقة، أكثر من أي شيء آخر. تتحدث معهم عن أمور صغيرة، إلا ما حدث لها في تلك الليلة التي عادت فيها محُطَّمة. أكثر الحوارات تُتعبها سريعاً. كان رجال الدواء والمشارط هؤلاء قد صُرفوا الآن، وبات الأهل يتخبطون وكأنهم دُفنوا تحت الماء، يُروعهم أن أذى لا يمكن دفعه قد ألمَّ بتِيَا. قضت الصباح جالسة عند النافذة، تنظر إلى اللاشيء، وتربِّت على لوكاس بذهن شارد. في العصاري، تميل إلى النوم. حتى أنها تقرأ قليلاً في كتاب ياكوب، وكذلك إنجيل العائلة. وتعزف على العود، لكن بلا روح دائماً.

ما الذي حدث لطفلتهم؟ ما الذي رأته؟ لماذا حدث هذا لهم، هم الذين ساء حظهم في الشتاء، يُرغمون الآن على مواجهة التعاسة في الربيع؟

منذ انهيار تِيَا، عجزت كورنليا عن الذهاب إلى السوق بمفردها. هناك شيء يجعلها متوترة، لكنها لا تفصح عنه، خمنت نيلا أنه قلق عام على تِيَا.

كانت كورنيلا تتوسل إلى أوتو أن يرافقها لشراء السمك، لكن أوتو يريد البقاء مع ابنته، لعلّ طفلتهم تتحدث عما جرى، فيتمكن من معرفة الحقيقة و يصلح الأمر. ظل يسهر إلى جوار تيا يومًا بعد يوم، على حساب نومه. بدا مهموماً، وملابسه مكرمشة، ووجهه هزيلاً.

قالت نيلا:

- اذهب مع كورنيليا. ما تزال تيا نائمة. استنشق بعض الهواء النقي، أنت تحتاج إليه. ستجدها كما هي عند عودتك.

قالت هذا، وهي تخشى أن كلماتها قد تصبح حقيقة. ألا تغادر تيا غرفتها أبدًا، ابنة صهرتها الحيوية ستعيش هكذا إلى الأبدا في قلب هذا المنزل الخاوي. تتساءل هل تراه سعيدًا بهذا، هل حقق رغبته في ألا تفارق تيا جواره أبدًا. نفضت عن رأسها الفكرة القاسية. لا أب قد يرغب في أن تكون ابنته بهذا الصمت، هذا الجمود. لطالما أحبوا ثرثرة تيا المُغيظة كما كانت في الأشهر الأخيرة. كنتُ لأفعل أي شيء لأسمعها تجادلني، هي نيلا تفكر، وقد أذهلتها السرعة التي تتغير بها المشاعر.

كانت قد تأملت، في الأسابيع الأربعة الماضية، أن يصلها خبر من صانعة الدمى. لا بد من مجيء علامة ولا شك، أي شيء يساعدها خلال هذا الجحيم. لكن لا شيء أتى. كل ما تملكه هو مُنَمنَمة الرضيعة، والتي تقبض عليها سرًا في جيبها عندما تتأكد من أن كورنيليا وأوتو لا ينظران. نيلا متيقنة من أن صانعة الدمى كانت هنا، وهي لا تصدق أنها أغوتها هكذا، فقط لتهجرها إلى الأبد.

غادر أوتو وكورنيليا بحثًا عن سلطمون رخيص لطهيه لاحقًا،

وما إن استقرت نيلا على كرسي خارج باب تِيَا، حتى سمعت طرقاً على الباب. كانوا لشهر كامل يساورهم القلق من انتشار خبر انهيار تِيَا في شوارع القنوات، وتحوله إلى شائعات خبيثة. لذا لا يمكن تجاهل باب مطروق، وبمقدار ما هي متوترة، إلا أن اللياقة تفوز. حملت نيلا نفسها، منهكة، على النهوض ونزلت لتفتح الباب، كانت تأمل أن تجد طردًا على عتبة الباب، أو خيالاً يختفي في آخر القناة، كما كان في الأيام الخوالي: لكن أملها خاب، عندما وجدت كاسبر ڤيتسن يقف أمامها، وتلك الحقيبة القديمة مُعلّقة على صدره، وبين يديه نبتة صغيرة بأوراق غريبة داخل جرة.

قال بصوت مضطرب:

- مدام براندت، كيف حالها؟"

لاحظت نيلا أن أظفاره نظيفة، ويظهر أنه قد مرّر مشطًا في خصلات شعره النافر. ترددت قليلاً، إذ لا يمكنها إجراء هذه المحادثة على عتبة الباب، ولا هي تريده في منزلها، لكنه أمر خارج عن إرادتها:

- سيد ڤيتسن. تفضّل.

أغلقت الباب خلفه بعد أن صار في الدهليز. وكانت قد نسيت، مع قربه الشديد منها، كم هو طويل، ونحيل:

- أحضرتُ لكِ صبّارة، يا مدام، قالها، وهو يقدّمها.

لم تستطع نيلا إخفاء دهشتها، وهي تقول:

- لي؟

- عرض سلام.

بدا كاسبر، مُحرجاً، حينما لم تمد يدها لتأخذها، فضغط على واحدة من ورقاتها، وقال:

- عندما تشقين هذه، ستجدين مزيجًا مُبرِّدا. يمكنكِ وضعه على الحروق والتهابات الجلد. يمكنكِ أيضًا شربه مع الشاي. إنه يملك خواصًا مهدئة ومُطهِّرة.

ثم توقف، وكأنه يخشى أنه يثرثر. نظرت إليه، ثم قالت:

- لم تحدث حرائق في هذا المنزل، لكننا نعلم أنه ليس صحيحًا.

بدا كاسبر خائبًا قليلاً، شعرت نهلا، بالذنب. فقالت، وهي تتنهد:

- شكراً لك. وأخذت الصبارة من بين يديه.

قال كاسبر:

- إنه مُفيد جدًّا. الصبار نبات مدهش. مرن جداً. الرطوبة التي يمكنه أن يحتفظ بها. الأجواء القاسية التي يمكنه أن ينمو فيها. كان لدينا في حديقة الجامعة صبار كثير...

- شكراً لك، يا سيد فينس.

أدارت نهلا النبتة في يديها، مُنبهرة بأشواكها الخضراء الداكنة، والتأثير الذي تحمله. بدت شديدة التناقض مع الجدران الخشبية والأرضية ببلاطها الأسود والأبيض. قالت:

- إن أعماق معرفتي ضحلة، عندما يتعلق الأمر بالنباتات. ورفعت عينيها: لكني أفترض أنك تعرف ذلك فعلاً.

قصدت بذلك توبيخاً، وتنويهاً إلى انتهاكه الذي كان منذ أسابيع، كتابته على كل جزء من منزل طفولتها، خطَّطه من دون استئذان. لكن كاسبر فينس يبتسم. إنها أول ابتسامة

تراها نيلا منذ أكثر من شهر.

- آه، يا مدام براندت. إن معرفتي أيضاً ما تزال طفلة.

وقفا لحظة. ثم قال كاسبر:

- أحياناً، أتصرف من دون لباقة.

وجد الصدق في كلماته مكاناً رقيقاً بين أضلع نيلا. وشعرت بالدفء ينتشر في وجهها، وتابع:

- لم أقصد قط أن أثير ضيقكِ بسبب منزلك في أسدلفت. الأرض شيء مهم، أفهم ذلك. المنزل ذو مكانة عندك.

حدّقت نيلا في الشعر الممشّط لأول مرة، وهذه الهدية الخضراء بين يديها. كانت قد حُرمت من المحادثات لفترة طويلة جدّاً، ومحادثات الرجال خصوصاً. يبدو اعتذاره صادقاً. وهي الآن من تشعر ببعض الحرج. تقول:

- تعالَ معي إلى المطبخ. تِيَا نائمة، ولا أرغب في إيقاظها، توقفت لحظة وقالت:

- ربما يمكننا أن نجرب هذا الشاي بالصبار.

***

إلى طاولة المطبخ، جلس كاسبر مثل فزّاعة جُلبت من الحديقة. قال:

- إن هذا المنزل ضخم. لو أني وضعتُ فردتي حذائي في هذا المنزل، لا أعرف أين أجدهما.

- إن هذا يحدث فعلاً. أجابت نيلا من فوق كتفها، وهي تثبت الغلاية على الشنكل لغلي ماء للشاي. وأنا في سن تِيَا،

كنتُ أملك نسخة مصغرة منه، فصار سهلاً أن أعرف مكان كل شيء.

- باللروعة.

- ربما. كانت هدية زفاف من زوجي. حصلتُ عليه كله في مُنمنمة، يناسب مقاسها خزانة.

- هل ما زلتِ تملكينه؟ سيكون أعجوبة تستحق المُشاهدة."

قال:

- لم يعد في حوزتي. كان أصغر من أن أعيش فيه.

ابتسم فينسن مرة أخرى:

- أكبر من اللازم أو أصغر من اللازم. مثل حكايات الأطفال. إن منزلاً كهذا تكون المحافظة عليه مكلفة جداً. كان يجدر بكِ الاحتفاظ بالنسخة المصغرة.

قالت نهلا باقتضاب:

- نحن نتدبر أمرنا.

أجاب فينسن، مُتضرِّجاً:

- طبعاً تفعلون، هل أقصُّ ورقة؟

- ألن يشوه ذلك من شكل النبتة؟

- سوف تنمو من جديد. ذاك هو جمال هذه الكائنات الحية. يتوقف لحظة: كما أن ورقة أفضل من عرق.

تركت الغلاية معلقة فوق النار، وأتت نهلا لتجلس قبالته. وبينهما على الطاولة سقط شعاع من ضوء شمس نيسان مصدره نافذة على مستوى الشارع، فكشف الخطوط التي تركتها سكين

كورنيليا، محفورة عبر عقود في الخشب. قالت نيلا:

- هل أخبرك أوتو أن تِيَا مريضة؟

بدا التجهم على فيتسن:

- لقد حزنتُ كثيراً لسماع ذلك. إنه واحد من أسباب زيارتي.

- واحد من الأسباب!

- أجل. جئتُ لأقدم إليك الصبّارة.

- هل مراسلاتك مع أوتو مستمرة؟

رمى كاسبر نظرة عبر النافذة، وبدا مُتقلقلاً:

- إنني أعدّه صديقًا، يا مدام براندت.

بدأت الغلّاية في التصفير. فأخرج سكينًا صغيرًا من حقيبته، وقطع بمهارة واحداً من سيقان الصبارة من قاعدته. قال، وهو يصنع شقًّاً آخر في المنتصف:

- انظري. وعندما انشطرت الورقة، انبثق سائل شفاف وسميك إلى السطح.

قالت نيلا:

- إنه يشبه الصمغ.

لكن كاسبر فيتسن مُستغرق فيما يعمل فلا يرد، وكان على نيلا الاعتراف أن مشاهدته خلّابةٌ وهو يُخرج نسغًا يشبه البزاق على نصله ثم يضعه في إبريق الشاي. صارت تفهم الآن افتتان كلارا ساراخون بخبرة كاسبر الخاصة، وتفتح في داخلها استحسان لمعرفتها أنه نبذ ساراخون، على الرغم من ثرائها.

قال:

- والآن الماء.

أتت بالغلاية وصبت الماء في الإبريق. ذاب نسغ الصبارة، وأخذ كاسبر يحركها بملعقة. - إنه مفيدٌ للهضم وأيضا لاسترداد الشهية وعلاج الاكتئاب.

ضيّقت عينيها، وقالت:

- هل تلمح إلى وزني، أم إلى حالتي، بدا كاسبر مُتلبِّسًا، كما لو أنه لا يعرف الجواب الصحيح.

سألته:

- هل يُحادثك أوتو عنّي؟ عنّا؟ عن تِيَا، كورنليا؟

- أحيانًا.

- وماذا يقول؟

- لا شيء مما لن يقوله لكِ، أنا واثق.

تملّص ذكي. صمتت نيلا ، لكنها تشعر أن فيتسن يستوعب صمتها، ويثير هذا أعصابها، إذ يتركها مكشوفة مثل ورقة الصبار المفتوحة، كما لو أنه سيدفع بسكينه في جنبها ويكشف عن أسرار قلبها الأخضر.

لم تكن قد لاحظت وزنها المفقود بنفسها، بل هي كورنليا من جاءت تقول ذلك، عن طريق الارتخاء الذي جدّ في تنانيرها. وكانت كورنليا مُعارضة. فقالت:

- ليس وكأننا نملك أن نلقي بالطعام في القمامة، يا مدام، أو نعطيه للأيتام.

- يمكننا أن نعطيه للأيتام، بل يجدر بنا، هكذا أجابت نيلا حينها، وهي تنتقي فطائر تناولوا نصفها، وهتسبوت باردة محشية بالخضار، وتتساءل ماذا تُراهم سيفعلون، وقد وصلوا إلى هذا الطريق المسدود، تيًا في غرفتها، وبقيتهم يهيمون حولها، تائهين. قد يكون لوكاس راضيا ببقايا البيض، ولكن لا يمكنهم أن يفعلوا هذا لثمانية عشر عامًا أخرى.

قال كاسبر، قاطعاً أفكارها:

- اسمحي لي. ثم رفع إبريق الشاي وصبّ السائل في فنجانين.

- كيف أعرف أنك لا تسمّمني؟

ضحك كاسبر:

- لم أكن لأفعل ذلك قط. نفخ على سطح فنجانه، وأخذ رشفة أولاً.

حذت نيلا حذوه:

- إنه لا يملك مذاقاً خاصاً.

قال:

- هذا جيد. بعض هذه التركيبات قد تكون مقززة.

أخذا يرتشفان الشاي، كانت نيلا ممتنة للفنجان: يمكنها استخدامه كدعامة، درع صغير يمنع اقتراب هذا الرجل. إنه يملك إصراراً في داخله، نوعاً من الطاقة الفائرة. لا شيء كسول في كاسبر ڤيتسن. قال:

- كنتُ دائمًا أظن أن المرء عندما يشعر بالاكتئاب، فإنه يتوجه إلى ملء معدته.

- أنا لستُ مُكتئبة.

التقت أعينهما لكن كاسبر لم يشح نظره، بل هي من خفضت بصرها. قال:

- إن الصيام يأتي بالهذيان، يا مدام. علينا أن نشرب الحليب المُغلّى، ونأكل الخبز الطازج، ولحم الضأن والبقر.

- أتساءل أين وضعته.

ابتسم مُظهراً أسنانه، وأخذ رشفة أخرى، قائلاً:

- شاي الصبار. جمال الانسجام. حلم أمستردام. إنني أومن بضرورة العناية بالجسد. ربما أكثر مما أؤمن بالرب.

انتصب الشعر على مؤخرة عنق نيلا:

- إن هذا تصريح جريء.

- حسنًا، لا أحد يسمعنا، يا مدام براندت. إلا إذا كنتِ تخططين لإبلاغ أقرب قس؟

ضحكت نيلا، وهو شعور جيد جداً، شعور بالتحرر. مضى وقت طويل منذ أن ضحكت آخر مرة. قالت:

- أنت إذن لا تؤمن بإرادة الرب؟ بالقدر؟

تمعّن كاسبر ڤيتسن في السؤال، وعيناه تلمعان باللذة الفلسفية فيه:

- أؤمن أننا نمتلك مصائرنا بصورة تتجاوز استعدادنا لقبول ذلك.

كانت عفونة فنجانها قد هدأت الآن، فاحتست منه نيلا بعمق:

- غريبٌ أن تفكر هكذا. لأنني في الغالب أشعر بالعكس. وكأن مصيري بين أيدي الآخرين.

- إنها شكوى عامة.

- كما كان مصيرك بين يدي كلارا ساراخون؟

- فعلاً.

ما الذي تفعله، بجلوسها هنا في قاع المنزل، في صحبة رجل تكاد لا تعرفه ؟ مالت نيلا إلى الأمام، ووضعت فنجانها، فأصاب قبة رأسها شعاع من الشمس. قال كاسبر:

- ضوء الشمس. ذلك سيكون مفيدًا لكِ.

التقت عيناها بعينيه:

- إنك تصف لي الشمس كما لو كنتُ نبتة.

ضحك:

- ربما سأعود لأجدكِ وقد تحوّلتِ إلى ورقة. شعركِ حزمة من عشب. وعيناك زوج من الليلك.

قالت نيلا وهي تشعر بالضياع داخل كلماته الشعرية:

- تلاشي في الأخضر.

ابتسم، و نظر إليها في حيرة، وكأنها كتاب لا يستطيع، مع كل ذكائه، أن يفهم كلماته. هل عزفتْ على الوتر الخطأ، نغمة ثانوية، بالحديث عن التلاشي، عن ابتلاعها داخل الأوراق التي بجّلها كثيرًا؟ قالت فجأة:

- كانت أمي تحب النباتات. باعتها الكلمات تقريباً. إنها لا تتحدث أبداً عن أمها.

بدا فينتسن مهتمًا:

- في أسِدلفت؟

- أجل. كانت تملك حديقة. وكانت تملك الكثير من الأعشاب الخطيرة. معارف أمي لم تكن ضحلة. قالت نيلا مبتسمة. لكنني أتذكر أسماءها بوضوح، مثل كتّاب حروف لطفل شقي.

يضحك كاسبر، وتستطرد نيلا، خجلة، لكن مُتشجعة: "بلادونّا، نعناع بري، خرفيش، سَنفيتون - والتي أمرتني أمي ألا أقطفها، أو حتى ألمسها." تنظر إلى أصابعها. "كانت النساء تأتين إليها أحيانًا. فتتبادلن محادثات هامسة عند باب المطبخ الخلفي، وتنتقل صرّة بين الأيادي. كنتُ دائمًا أسأل ماذا تفعل النساء هناك، لكن أمي رفضت إخباري.

- يبدو من حديثكِ أنها امرأة حكيمة."

- ربما كانت كذلك.

لوهلة، عادت نيلا إلى الماضي حيث المكان الذي حظي بتركيز أمّها الأكبر. كان هناك الكثير مما ينمو في حدائقهم. جزر مثل أصابع برتقالية نحيلة انتُزعت بالعكس من الأرض، كريات غير متناسقة من البطاطس والبصل، قابعة في الظلام لأشهر. كراث وثوم، بازلاء وفول.

سألها كاسبر:

- هل ازدهرت نباتات كثيرة هناك؟

- كثيرة جداً، كنا نبيعها. والغريب، أن لا أحد منا كان يُحسن الطهي. أحبّت أمي مرحلة الإنبات، مرحلة النمو،

إحساس الترقب. أما التنفيذ فلا. ربما لم ترغب في إفساد النتيجة.

- أفهم ذلك.

قال الرجل الذي شقّ صبّارة نفيسة بمثل هذا التلذذ. أردفت نهلا:

- لهذا أشعر دائمًا بالانبهار من قدرات كورنليا، بالنظر إلى الفرق الشاسع بينها وبين قدراتي. إن كورنليا تقطّع وتُمزّق، تطبخ وتقلي بانطلاق. إنها تطوّع الطبيعة حسب إرادتها.

- أفهم ذلك أيضًا. لكنكِ تبخسين نفسكِ حقها، أنا متأكد.

- آه، إني أخبرك الحقيقة.

تنهدت نهلا، وقالت:

- لكن الشيء الوحيد الذي أجدته كان العناية بالدجاج. كما قد نصبنا أعشاشها وسط نبات القَمْحِيّة. وحرصتُ دائمًا على وضع الحبوب في مآكلها وتنظيف أماكن نومها.

- لا شيء يضاهي السرور الذي تمنحه بيضة.

- حقًا. كانت بالنسبة إليّ دائمًا مثل وعود صغيرة تخلّى عنها قشُّ الصباح، صفار مثالي يئزُّ في مقلاة. وببلوغي الثامنة، كنتُ قد ابتكرتُ وسائل دفاع ممتازة ضد الثعالب والقطط. طاردات طبيعية متنوعة أخذتها من أمي. أسيجة مُثبّتة عميقاً في الأرض. لكننا أحياناً، كنا نضحي بدجاجة. فنشويها مع إكليل جبل وزعتر، وكنا أخي وأختي وأنا نجلس في الخارج، نأكل أفخاذها.

بدا مفتونًا بهذه الذكريات، وأدركت نهلا الحنان والصدق في

نبرتها. وهذا جعلها تشعر فجأة بالمشاشة. فقالت:

- تريد رؤية تِيَا. محاولة إعادته من الماضي.

شغل كاسبر نفسه بالحقيبة التي كان قد وضعها عند قدميه:

- لقد أحضرتُ أشياء. ولكن لا داعي لإزعاجها الآن، ثم اعتدل في جلسته: لا أعرف ماذا حدث لابنة صهرتك، يا مدام براندت. لكنني أؤكد لكِ أنني لم آتِ إلى هنا لمعرفة ذلك وإذاعته في أرجاء المدينة.

تضرَّج وجه نِهلا:

- أنا لم...

- أتفهم حذركِ. عدم رغبتكِ في وجودي واقفاً على عتبة الباب. احتراسكِ من رجل يحمل صبَّارة.

فجأة، شعرت نِهلا بنفسها تُسلِّم. تريد لكل شيء أن يتوقف وحسب. القلق. التظاهر بأن تِيَا في أتويرب وليس في الطابق العلوي، حبيسة عالمها الخاص. تهمس:

- كل شيء... فظيع.

- يمكنني أن أتخيَّل.

- إنني في حيرة ماذا أفعل، ولستُ أعرف ما خطبها.

- هذه سوف تساعد.

فتح كاسبر حقيبته، وأخرج صفًا من زجاجات صغيرة. "منقوع الناردين. وبيلادونا. كالذي كان عند والدتك. والزنجبيل واليانسون. وأنواع أخرى أيضًا." رفع زجاجة، وتعابيره جدِّية على غير العادة: هذا سيساعدكم جميعًا على النوم.

سيُنعش الروح. بضع قطرات، في كأس من النبيذ، أو ضمه في عصيدة تمَّا. ويوجد منقوع للاكتئاب، يا مدام. تحسُّباً:

- لقد أعددتها بنفسي، بأنقى تقطير.

- أنت دقيق.

- بعض هذه النباتات تصنع المعجزات، يا مدام، كما لا بد وأنكِ تعلمين. قد تكون هي الشيء الوحيد الذي يقف بين الموت والحياة. إنها تَرِدُ إلينا من جميع الأماكن - رأس الرجاء الصالح، البرازيل، سورينام. غرب إفريقيا، إثيوبيا، جزر الملوك. جاوه، جاكرتا، موريشيوس." يفتح كاسبر ذراعيه على اتساعهما، وكأنما ليستوعب عرض العالم، حديقة الجامعة في جنب أمستردام تضم أكثر من ثلاثة آلاف نبتة."

تمعنت نيلا في هذا الرقم الضخم، عينيه اللامعتين، الصورة التي رسمها ذهنها لغابة، تفيض من أسوار الحديقة وتصل إلى الأرض. قالت:

- أكثر بكثير من أسدلفت، إذن.

أشاح بعينيه:

- لم أكن أحاول الاستخفاف بحديقة والدتك.

- ولم يخطر لي أنك تفعل. هل عملت في الجامعة طويلاً، قبل أن تقتنصك كلارا ساراخون؟

- إن كلارا ساراخون تعتقد، كما يظهر، أنني خرجتُ هناك من جذر في الأرض. توقف قليلاً، ثم تابع: لكنني عشتُ حيوات أخرى قبل ذلك. عملت لفترة في جزر الهند الشرقية. وفي الفوك طبيباً، في الواقع.

- هل يعرف أوتو ذلك؟

- طبعاً. لم تعجبني الوظيفة، لكن الشيء الذي جنيته منها كان فهماً عميقاً للقوة الخارقة التي قد تملكها النباتات. للتنوع الكبير فيها، في مناطق زرعها الخاصة، وفي جميع أنحاء العالم. عدتُ إلى أمستردام بهذه المعرفة، لكني لا أهتم في هذه الأيام باستخدامها ما لم تستوجب الظروف.

- وهل تعدُّ وضعنا مُستوجباً؟

قال برقّة:

- أجل. سوف تساعدها. وأردف بتردد: وتساعدكِ.

- كيف وجدتَ النباتات عندما كنتَ في جزر الهند؟

- بمساعدة السكان المحليين.

- والعبيد؟

- أجل. والعبيد أيضًا.

تساءلت نيلا: ماذا قال أوتو لهذا الرجل عن حياته في سوريام؟ يُحتمل جدًا أن كاسبر ڤيتسن يعرف عن أوتو أكثر من أي فرد من أفراد عائلته. تابع كاسبر: لقد أروني حدائقهم. رقع الخضروات. الغابات وأشجار الفاكهة. لقد شرحوا لي ما تستطيع النباتات أن تفعله.

- هل زرعتَ بذورك في تلك الأراضي أيضًا؟

أخذ كاسبر رشفة من الشاي:

- نعم. أرسلنا في طلب النباتات التي تنمو في أرضنا، لنرى إن كانت ستعيش في تربة جديدة. معدلات أمطار مختلفة،

تعريض للشمس، وما إلى ذلك. نباتات بدءاً من جاوه، ونهاية بالجزر الكاريبية، لنعرف كيف تُبلي. ثم العكس. أعرف رجالاً في حديقة النباتات يحاولون زراعة حبوب القهوة. كثير من النباتات طبعاً، تموت في الطريق. يشعر المرء بالمسؤولية الشخصية. كانت هذه المهمة قد أحيطت بمقدار كبير من العناية. خطوة خاطئة تقضي على القصة.

- ولكن ما الهدف من ذلك؟

- الهدف؟ قال كاسبر فيتسن بتعبير مدهش إنها المتعة، بالطبع.

تقول نيلا:

- سيد فيتسن، نحن في أمستردام. وأنا أرملة تاجر. وبوسعي أن أؤكد لك، أنّ لا أحد يفعل شيئاً في هذه المدينة من أجل المتعة فقط.

ابتسم، وقال:

- العلم إذن. نحن نفعل هذا بهدف العلم، لأن العلم قوة.

تخيلت نيلا هؤلاء الرجال يجلسون إلى مكاتبهم وأمام أحواض زهورهم، في حرارة رطبة، ويحملون في أيديهم مجرافاً أو ريشة: يدونون الحواشي، يزرعون، ينتظرون. تقول: - ولكن ما العلم الذي تأملون معرفته؟ لأي غرض تريدون ذلك العلم؟

- حتى يُتاح للناس حماية صحتهم. حتى يُتاح لنا أن نأكل الطعام بتنوع، أن ننكّه أطباقنا. نريد أن تكشف لنا الطبيعة الأم أسرارها، حتى يُتاح لنا استخدامها بالتبعيةّ.

- وبيعها بالتبعيةّ.

- يتحدث الناس في هذه المدينة باستمرار عن النقابات والبورصة، عن الكنيسة والموانئ. لكن أكثر أجزاء أمستردام قوة هي الأفدنة الخشنة البسيطة على حافة المدينة، يا مدام. تلك الحديقة هي كل ما نحن عليه، وكل ما يمكن أن نكونه. العالم، متصلاً باللب والأوراق الفضية للأناناس. إنه المستقبل. تسأليني هل أومن بالقدر. حسنًا، إنني أفعل بطريقة ما. ذلك الوعاء الصغير من المربى الذي تركته على رف المدفأة يضمه بمقادير ضئيلة.

- ولكن قدر من؟

أجاب كاسبر:

- الجميع. في النهاية.

- وتِيا؟

ينهض كاسبر فيتسن، و أشار إلى زجاجاته:

- إن تِيَا تحتاج إلى الراحة فقط، يا مدام. خلوة للتعافي. طعام جيد. وأنت.

شعرت نيلا بالدموع تترقرق في عينيها، وتمنعها من النزول. لا تحب أن تبكي أمام أحد.

تنهد، وقال:

- لا أتمنى أن أعود إلى الثامنة عشر من عمري مجدداً، ولا بأموال العالم.

فتقول: "ولا أنا، يا سيد فيتسن. ولا أنا.

كم مضى يا ترى منذ أن حظيت بمثل هذا اللطف، مثل هذا الوقت يمضيه أحد معها في الحديث؟ إنها سعيدة لأنها دعته إلى

الدخول. عندما ترفع عينيها، يكون كاسبر فيتسن في انتظارها، جاهزاً للقاء عينيها.

20

كان والدها هو من يأتي بأكواب صغيرة من حليب دافئ، مُضافًا إليه تركيبات فيتنس.

- أنا مثل جولييت، قالت تيا، لكن أوتو براندت لم يقرأ هذه المسرحية التراجيدية. لا يعرف البطلة التي تشرب تركيبة لتصطنع الموت، سوائل تجمّد أحشاءها لفترة حتى يمكنها أن تتجنّب مصيرها التعس، وقريباً تلتقي بعدها بحبها الحقيقي. لا تعني تيا بالتفصيل، لأن ذلك سيزيد من قلقه. الفرق بين تيا وجولييت، طبعاً، هو أن روميو تيا قد صار بطلاً متعثراً، خيبة، وأحياناً رعباً. أشاحت بعينيها عن نظرة أبيها القلقة، وهو يتناول يدها، ويسألها:

- هل تشعرك بتحسن؟

- إنها تعمل. قالت، وهي تضغط بدورها على يده، وحقّ ما قالت. إنها تنام فعلاً هذه الأيام، لم تعد تتقلّب في الفراش حينما تحاول أن تنام، فترى والتر كلما أغلقت عينيها، مُعَزِّيًا، وحوله زوجته وطفليه. إنها لم تعرف قط مثل هذا الإذلال، ولم تشعر بمثل هذه الصدمة. وهي ترجو ألا تشعر بمثلها ثانية أبداً.

قال والد تيا:

- تبدين فعلاً أكثر إشراقًا. كنتُ أعلم أن استدعاء كاسبر كان فكرة أفضل من كل دجالي المدينة الذين يتقاضون عشرة جلدرات مقابل لا شيء.

قالت تِيَا:

- سيكون مضطراً لإحضار المزيد. حتى الخالة نيلا تشرب الناردين.

ظهرت على ملامح والدها الجدية. أخذ نفسًا عميقًا، وعلمت تِيَا أنه سيعود إلى سؤالها عمّا حدث في ذلك المساء عندما لم تعد إلى المنزل، مساء لا تنفك تقسم لهم أنها لا تتذكره. إنه يرغب بشدة أن يُخلِّصها، لكن ذلك قد فات أوانه الآن، ويثقل على تِيَا أن تخبره.

إنها تتذكر كل شيء عن تلك الليلة. كانت تعود إليها في أجزاء منفصلة عبر الأسابيع الأربعة الماضية. جريتا ريبيك، وجهها المُتعب وطفلاها الصغيران. جريتا ريبيك وزوجها، والتر. تتذكر تِيَا أنها بطريقة ما خرجت مُترنحة من المسكن الضيّق في البلومسترات، مُرتطمة بالمارة الذين صرخوا في وجهها وهي تنطلق عبر اليوردان عائدة إلى منزلها، شاعرة بالتشوش، والضياع نفسيهما في اللوحة التي رسمها لها والتر. تتذكر كورنيليا وهي تفتح الباب، نظرة الارتياح المُطلق على وجه المربية، دموعها التي ما لبثت أن انقلبت رعباً عندما انهارت تِيَا على الأرض، دائخة ليس من الجوع فقط وإنما من شيء أعمق، شيء تعرف أنه الحزن. انفطار القلب عذاب، كما تدرك تِيَا أنه أسوأ بكثير مما يبدو في المسرحيات.

كيف أمكنها أن تكون واهمة بهذا الشكل؟ هل اختارها لأنه رأى فيها شيئًا يسهل افتراسه؟ لقد أعطته تِيَا قلبها بمثل البساطة التي تأخذ بها الأنفاس، ووالتر لوّثه، ثم أعاده إليها مثل شيء ميت. أغمضت عينيها، وفكرت في ريبيكا، كيف عاملت صديقة صالحة بجفاء. لقد خسرت الكثير ولا تعرف كيف

تستعيده.

قال والدها برقة:

- تِيَا. كنتِ تهذين في الحمّى.

قبضت تِيَا على كوب الحليب:

- فعلت؟

- كنتِ تتحدثين عن ألواح تلوين فارغة. باب لم يجدر بكِ فتحه.

سرت قشعريرة عبر عمودها الفقري:

- لا أتذكر، يا بابا. أنا متأكدة أنني كنتُ أخرّف. لا بد أنه شيء شاهدته في المسرح.

يقول، مُنهيًا الموضوع على مضض:

- حسناً، يسرُّني أنكِ بدأتِ تشعرين بتحسن.

- أخبرتني الخالة نيلا أن ياكوب بعث برسالة. رأت وجه أبيها يتجهم عند ذكر مرشّحهم للزواج.

- لقد فعل. كذبت زوج خالك وأخبرته أنكِ في أنتويرب.

- كانت تفعل ذلك لحمايتي فحسب.

نظرت إلى النافذة، وراحت تتذكر الخالة نيلا، وهي تكرر باستمرار أن المال درع، وأن المرء في حاجة إلى تحصين نفسه ضد تقلُّبات هذه المدينة. لم تكن تِيَا قد منحت الأمر الكثير من تفكيرها حتى الآن، مُزدريةً كل شيء آمنت به زوج خالها. لكنها تغلق عينيها وترى نظرة جريتا القاسية والحسود.

ماذا لو أن جريتا لم تنتهِ بعد؟ ماذا لو أنها عادت إلى الكتابة،

طلباً للمزيد؟ قبل أن تقتحم تِيَا ذلك الجحر في البلومسترات، كان هذا بالضبط هو ما اقترحته. ما المانع في تهديد أخير؟ يوجد دائماً ذلك الاحتمال: الخطر ما يزال قائماً.

مضى والدها إلى الباب، ليتركها ترتاح، لكنها نادته، وهو يهم بفتح الباب:

- بابا،بابا، هل تؤمن بالحب؟"

استدار مُقطِّباً حاجبيه:

- طبعاً.

- كيف يبدو بالنسبة إليك؟ بدا مصدوماً. ثم تنحنح، وردد: كيف يبدو؟ فكر، وتابع:

إنه مثل ضوء الشمس. لكنه مثل ظلام الليل أيضاً.

الحب شمساً، والحب قمراً... شعرت تِيَا بكلمات والدها مثل حقيقة تخللها: وهل... أحببت أمي؟

- أمكِ؟

بدا مذهولاً قليلاً. لا تعرف تِيَا هل هو التأثير المُقوِّي لتركيبات فينسن، أم هي رواسب الحمى التي أرخت دفاعاتها وأطلقت لسانها. ربما هي منمنمتا والديها، فوق في العلية، وهما راقدتان في خشب الأرز. ربما هو الصِغَر الذي تشعر به، مقدار جهلها وحمقها، أمام الذل الذي طالها بسبب ما ظنته حباً حقيقياً. لكنها متلهفة لسماع أن هناك جزءاً من ماضيها، على الأقل، قد لمسه ذاك النوع من الغرام والمودة التي تحتاج بشدة إلى الإيمان بوجودهما. متلهفة أن يمنحها والدها هذه الهدية.

يظل مُتردداً على عتبة بابها. يحدِّق في ابنته، ثم في القناة

خارج النافذة. بدا في البداية وكأنه يريد أن يتكلم، ثم وكأنه لا يريد أن يتكلم، ثم وكأنه ببساطة تُعجزه الكلمات.

قالت تِيَا مُتنهدة:

- لا يهم. كنتُ فقط...

- أخبرني خالكِ عنها أولاً في أثناء رحيلنا من سورينام، قال: إن شقيقته هي أذكى شخص قابله في حياته. أذكى منه بكثير. لكني يجب أن أعرف شيئاً واحداً: وهو أنها لا تحسن تكوين الأصدقاء."

رفعت تِيَا عينيها وحدقت به. لا تصدق أن والدها أخيرًا، بعد كل هذه السنوات من الانتظار والتساؤل، يستحضر الأوقات التي مضت. كان تحقيق ذلك قد تطلّب قلبها المنفطر، وحمّى، ولقاءً مع الموت، وتسوُّلاً للحب.

- وهل كان صحيحًا؟

لم يتحرَّك والدها من عند الباب:

- لم يكن صحيحًا. كانت امرأة متوحِّدة. لكن هذا لم يعنِ أنها لم تكن جيدة كصديقة.

إنه في الظاهر، يحدق نحو منازل القناة المُواجهة، لكنه يبدو لتِيَا كمن ينظر نحو أفق لا يمكنها رؤيته. بحر من الذكريات، ينعكس الضوء فضيًا على سطحه، وتبتلع الشمس عُتْمة الماء في ظلام حالك.

قال بصوت خافت:

- كانت تدخل إلى مكتب شقيقها عنوة. كانت تقرأ دفاتر حساباته عندما يكون في المدينة، أخذ نفساً عميقاً، مُلتفتاً نحوها

مرة أخرى: لم أكن أنظر إلى والدتك كثيرًا، يا تِيَا. ليس كثيراً في البداية. لكن ما لم أدركه هو أن والدتكِ كانت تنظر إلي. وذات ليلة، بعد أن مضى عليَّ عام في هذا المنزل، كلّمتني. كنتُ في الدهليز، أرتدي معطفي، لأذهب وأقابل خالكِ في مكتبه بالقوك. صوت والدتكِ في الظلام أوقفني.

همست تِيَا:

- ماذا قالت؟

تردد والدها، قالت: "أنت تُعجبني." سكت قليلاً. "كان ذلك أول شيء قالته لي مباشرة، بعيداً عن تجمعات الآخرين. لقد خرجت من الظل، ونصف وجهها فقط في الضوء."

"وماذا حدث حينها؟"

"نظرتُ إليها، لأول مرة. بتمعّن. كان لها وجه نحيل مثل وجهك. وعينان رماديتان مثل عيني شقيقها. لقد ورثتِ عينيك مني. لكنكِ ورثتِ فمها الجاد. وقبعتها، الناصعة دائماً. بدا عليها وكأنها تنتظر مني أن أقول شيئًا. أردتُ كثيرًا أن أتكلم.

- لكنك لم تفعل؟

- لا.

- لأنك كنتَ وصيف خالي يوهانس؟

- أجل. أردتُ أن أخبرها أنها أيضاً تُعجبني. أردتُ أن أسألها لماذا أعجبتها. لكني في المقابل فتحتُ باب المنزل. تورّد خدّاها، وظننتُ أنها قد تحب الهواء البارد، وخفضت عينيها إلى الأرض، وهي تعرف أن غموضها يزول. وكأنها ربما لم تكن

تريده من البداية. قالت لي، وكأنما قرأت أفكاري:

- أوتو، أنت تعجبني، لأنك تعرف كيف تبدأ من جديد.

خيّم صمت طويل. غشيتها كلمات والدها ووالدتها مثل ضباب. كان والدها قد تكلم بحنان لم تسمعه أذنا تيّا من قبل، حنان تدرك أنها لم تسمعه من والتر قط.

قال والدها:

- وكذلك أنتِ، يا تيّا.

- ماذا تعني؟

- لا أعرف لماذا أنتِ تعيسة جداً، يا حبيبتي. لا أتحمّل رؤية ذلك، أو التفكير في أن شخصاً ربما آذاكِ.

تذكرت تيّا المرسم، الثوب الذهبي الملطّخ. خريطة أمّها، المسند، جريتا ريبيك والغرفة في البلومسترات حيث تغيّر كل شيء. كل هذه الأجزاء المُدوِّخة. إنها عالقة في كابوس من صنعها، لكن فكرة إخبار والدها غير مطروحة. فكرة إخبار أي منهم مُستحيلة:

- لا أحد آذاني، يا بابا. أصابني توعّك، هذا كل ما في الأمر.

يقول:

- أنتِ ابنتي. وأنتِ مميّزة أكثر مما يمكنكِ تخيله. هم بالخروج، ولكنه توقف، وقال: -وتيّا؟

- نعم؟

- أنتِ أيضاً تعرفين كيف تبدئين من جديد.

أغلق الباب، وشعرت تيّا بأنفاسها عالقة في حلقها. لقد

اضطرت زمناً أطول مما يسمها تخيّله من أجل لحظة كهذه. من أجل أن تعود أمها إلى الحياة، لا دمية صغيرة بل إنسانة، كلماتها حيَّة على لسان أبيها. امرأة كانت تختار أصدقاءها بعناية، تقف بخدَّين متورِّدين وقبعة ناصعة، تحاول أن تلقي مديحاً. تحاول ربما أن تعبِّر عن مشاعرها.

ربما يكون هذا أفضل من دمية، لكن تِيَا مع ذلك، تفكر في منمنمتي أمها وأبيها، اللتين احتفظت بهما الخالة نيلا كل هذا الوقت. نداء، علامة، هو كل ما أرادته الخالة نيلا منذ تُركت مع وليدة من غير رحمها. لكن تِيَا، التي تستخرج منمنمتي والديها في العلية، هي من تسمع قصة عن والدتها. هذه الهدية التي قدمها لها والدها، هذه الهدية التي ربما تكون قد استأثرت بها. هذه الهدية الغريبة من بواكير قصة عاشقَيْن. ليست إلا لحظة وجيزة في دهليز، لكنه كل ما تحتاج إلى معرفته.

مدّت تِيَا يدها تحت سريرها، وأخرجت صندوقها السري. إنها لا تطيق الاعتراف برسائل الابتزاز، لكنها لا تدمرها. رفعت دمية والتر، ووضعتها على الفراش أمامها. من المحتمل إن شدَّة الحب الذي شعرت به نحو والتر ربما لن يتكرر مرة أخرى أبداً. وكيف يتكرر؟ إنها لن تحب رجلاً آخر أبدًا كما أحبَّته. لا رجل سيُشعرها كما فعل والتر ريبيك. ولا رجل سيُؤذيها كما فعل أيضاً.

وإذ تسترجع كيف وصف والدها خدَّي أمِّها المتوردين، وغمغمتها بكلمات الإعجاب عبر بلاط الدهليز، شكَّت تِيَا في أنه يشبه ما خبرته مع والتر. لا يمكنها أن تدَّعي جودة الذكريات نفسها. إنها تتذكر اعتراضات والتر بشأن زواجهما، والتي تصبح مفهومة الآن. تتذكر تباهيه بالبلدان التي سيعمل بها، لكنها

تذكّر بعدها اللوحة السيئة التي رسمها لها. ولكن حتى إن كان والتر قد عجز عن تصويرها، فهو مع ذلك رآها، أحبها، وقضى وقتاً معها. لا يمكن أن تكون العلاقة كلها فكرة جريتا. ربما هو أحبَّها حقًّا، لكنه كُشف، واعترف، وشعر بعجزه عن صدِّ زوجته؟ إن النظرة على وجهه في الغرفة بشارع البلومسترات كانت مثل رجل يشاهد تصادم كوكبين.

قد تتوق تِيَا لمعرفة إن كان والتر قد خطط لهذا منذ البداية، لكنَّ جزءًا منها يتمنى ألا تعرف أبدًا. استرجعت ما قالته كورنيليا: إنني أفضل الأجزاء الصغيرة التي يقدِّمها. أرادت تِيَا أن تعرف كل شيء في والتر. عندما قابلته لأول مرة، حلُمت بدخول مسكنه، وحلمت بنفسها داخله. أرادت أن تجد له أكبر مقدار يمكنها من السياقات، يضمهما دائماً ذلك المرسم. أرادت أن تعيش في عالمه. لن يسعها الآن أن تخبره أبدًا كيف هامت، وهي في السابعة عشرة، في الشوارع الضيقة، متخيلة أنها قد تلمحه في نافذة أو تراه عائداً إلى بيته بعد يوم عمل. لو أنها كانت تعرف أين يعيش، لاختلف تماماً كل شيء.

ولكن، جريتا قد تُرسل مرة ثانية. ما الذي سيجعلها لا تفعل، ما لم يمنعها والتر؟ ربما الأمر خارج عن سيطرة والتر الآن، تِيَا لا تعرف. ولكن طالما أن جريتا تعرف أين تعيش ومن تكون، فقد تظل في خطر.

صبّت تِيَا ما تبقى من تركيبة كاسبر فينتس في كأس حليبها، وشربته. وحينما شعرت بسريان مفعوله، حملت المنزل المذهب الصغير في يدها. ما زال الباب لا ينفتح. وتظل النوافذ مُصمتة. ومع ذلك، فهو شيء برّاق، تعجيزي، مُتملِّك. حصن أمان.

وبينما تحدق تيا في هذا المنزل الذهبي، هذا المسكن الصغير المُتناغم المتّسق المثالي، عرفت فجأة، قبل أن تغمض عينيها، ما سوف تفعله.

21

قالت كورنيليا على الفطور، وفي صوتها نبرة غيظ:

- عدتِ تأكلين جيداً، يا مدام! هل كنتِ تشربين تركيبات فيتسن؟

- ربما.

قال أوتو:

- إنها زكيّة، أليس كذلك؟

-مقبولة.

ابتسمت كورنيليا ابتسامة واسعة:

- إذن، هل عدتما صديقين من جديد؟

تبادل نيلا وأوتو نظرة، وقالت:

- طبعاً، نحن كذلك.

رفع كأسه، وردد:

- طبعاً.

طالما أنه لا يتحدث عن الأناناس، ولا هي تتحدث عن مستقبل تيَا. إنهم لا يعرفون بعدُ ماذا سيفعلون. صارت تيَا أكثر إشراقاً الآن، وكورنيليا سعيدة بذلك، كما ترى نيلا بوضوح. وكذلك أوتو. حبيبتهم سالمة، وتأكل، وفي حمايتهم. لكن هذا الوضع المُعلّق لا يمكن أن يستمر إلى الأبد.

في كل يوم، تتساءل نيلا عن الليلة التي انهارت فيها تيَا،

ولماذا انهارت. ادعى أوتو وكورنيليا أنهما أيضاً لا يعرفان شيئاً عن ذلك، ولا تملك نيلا سبباً لعدم تصديقهما. لا أحد منهم يعرف، لكن لا أحد منهم يجرؤ على تبادل تخميناته مع الآخرين، خوفاً من زعزعة السلام الواهي. كل ما ستقوله تيَا هو أنها أصيبت بوعك في أثناء تجوالها، وتدبرت العودة إلى المنزل. لكن ما هذا الحديث عن ألواح التلوين والمنازل الذهبية، والمهود والأبواب التي ما كان جديراً بها أن تلمسها؟ لا شيء منه مفهوم.

مع أن أدوية فيتسن تحسِّن من قدرة نيلا على النوم والأكل بصورة أفضل، لكنها لا تفعل التأثير نفسه مع كآبتها. تلك الحالة أكثر عناداً. ما يزال يداخلها ذلك الشعور المائع في النهار، وكأنها تندفع سريعاً جداً عبر حياتها، من دون أن تتعلق بشيء، والتيار أقوى من أن تفعل شيئاً سوى التحرك في دوامة. كانت حفلات أوائل الصيف قد بدأت، لكنها لا تملك الطاقة للتزلف إلى كلارا ساراخون أو أي شخص من طبقتها. في المقابل، تجلس ليالي عديدة وحدها مع مُنمْنَمة الرضيعة في غرفتها، فتقلّبها على ضوء شمعة بحثاً عن علامة أو تغيير ربما أغفلته. لكن التمثال الصغير المحشو يظل هو كما وجدته أول مرة.

إنها تشتاق إلى هدية زفافها، إلى الاستقرار الذي منحته، والطريقة التي رتّبت حياتها في هذا المنزل. لقد منحتها أماناً أكثر مما فعل يوهانس في أي وقت. فكرت، كيف أمكنني تحطيمها؟ لقد جذّتها مثل شجرة، فتشقق طلاء المينا المُبرقش، واعوجّ القصدير الذي كان يزينه إلى الأبد، وتلف خشب البلوط والدردار من تحتهما. فكرت، لقد ضيّعت فرصتي. اصطفتني صانعة الدمى، وضيّعتُ الفرصة.

عندما تحوَّل في شارع القناة، ترقب نيلا قشعريرة أخرى في مؤخرة عنقها، إحساس وخز يدلُّها أن هناك من يراقبها، يحرسها، أي شيء - لكن ذلك الشعور لا يأتي. إنها وحيدة في الشارع بمقدار ما هي في المنزل. تتساءل هل سيأتي فينتس للزيارة. تتساءل هل تكتب إلى ياكوب تخبره أن تِيَا قد عادت من أنتويرب، لكنه يبدو شيئاً يبعث على التوتر، كذباً، شيئاً يجدر بها ألا تفعله بعد الآن، خاصة وأنهم لا يعرفون ما تخفيه متانة جسد تِيَا من هشاشة في تفكيرها. لذا فهي تتساءل ولا تفعل شيئًا، ويواصل المال تناقصه، وأوتو بطالته، وكل طاقاتهم ينفقونها على تِيَا، حتى تتحسَّن، حتى تعود إلى حالها الأولى.

قالت كورنيليا:

- لقد استأذَنَتْ تِيَا في مرافقتي إلى السوق اليوم.

قال أوتو:

- حقًّا؟

- إنها تستعد الآن.

- هل تظنين أنه أمر حكيم ؟

قالت نيلا:

- إنه مُفيد، خروجها من المنزل مفيد.

جاء صوت من خلفهم:

- يسرني أنكِ تظنين ذلك.

التفت الثلاثة في مفاجأة، كمن ضُبطوا مُتلبِّسين بالنميمة. لم تصدق نيلا عينيها، إن تِيَا في كامل ملابسها، قلنسوتها ناصعة،

وتنورتها سوداء، سواداً صافياً، لا يشوبه شعر قطة. طوقها مُنثَى ومشدود فوق قطنٍ سترتها الربيعية. عطر من أعلى درج المطبخ إلى أسرتها، وهم مُسمَّرون. يصعب تذكر تلك الشابة التي منذ خمسة أسابيع فقط كانت ترقد في فراشها وكأنما شراشفه كفن. بدت أكبر سناً، وهي ساكنة جداً، مثل قطعة شطرنج تنتظر أن تُحرك نفسها. لم تكن قد استردَّت وزنها الطبيعي كاملاً، والنحول في وجهها يذكِّر نيلا بمارين.

قالت كورنيليا:

- هل ترغبين في شيء تأكلينه؟ بعض من...

قاطعتها تِيَا:

- لا، شكرًا لكِ، ظلت واقفة في مكانها على السلم، وتابعت: لكن ثمة ما أريد إخباركم به."

ها هو يأتي، الاعتراف، الكشف: الشيء الذي كان ينتظره جميعهم منذ أن خافوا من رحيلها. شعرت نيلا بقلبها يصعد زاحفاً على جدار حلقها. قبضت أصابع أوتو على ملعقة ثريده، وبدلت كورنيليا في وقفتها.

أخذت تِيَا نفساً عميقاً. وكادت أن تتراجع. فقالت نيلا:

- أخبرينا. أعدكِ. نحن مستعدون.

طأطأ والد تِيَا. وضعت يديها معاً، ثم أرختهما، وأعلنت بصوت متهدِّج:

- كان لديَّ مُتسع من الوقت للتفكير في هذا، لكنني راضية عن قراري.

فقالت نيلا:

- تقولين... قرارك؟

رفعت تِيَا ذقنها في الهواء، وقالت:

- أجل، قراري.

سألتها كورنيليا:

- ما هو، يا تيبوت؟ ماذا قررتِ؟

جالت تِيَا ببصرها في المطبخ، وكأنها تودّعه، ثم استدارت ونظرت في عيني زوج خالها:

- لقد قررتُ أن في وسعكِ، في حال قبوله، ترتيب أمر الزواج مع ياكوب فان لوس.

حلّ صمت مطبق. وبدت تِيَا مُرتاحة لأن الكلمات خرجت من فمها، وانتظرت ردود أفعال لم تأت. تجزم نيلا أن كورنيليا من خلفها، لم تتحرك. أوتو جامد، يُحدِّق في ابنته. نيلا لا تصدق ما تسمعه. إن كل ما خططت له، وتمنّته، قد يتحقق فعلاً، بعد كل هذه الأشهر. سيُبعثون من جديد، من هذا الرماد. تُدوّي كلمات تِيَا في جسدها، نبأ صادم ينقل مسؤولية حياة تِيَا من يدي نيلا إلى يدي تِيَا دونما رادع.

فجأة، شعرت نيلا أنها بعيدة عن هذا المنزل، عقلها المُضبَّب ينتقل من هذه الظلال القديمة، أعلى قبوهم المترب، وخارجاً عبر زجاج نوافذ الصالون، إلى حياة أخرى على مرمى حجر من أيديهم، هي حياة تِيَا، طبعاً، حياة تِيَا التي ستتغير، إلى حياة الزوجة، بحقيبة عامرة وملابس جديدة. لكنها تشعر وكأن حياتهم أيضاً تتبدّل، فتفقد تعريفها، وتتحول إلى شيء جديد. تريد أن تركض صوب تِيَا وتضمها بين ذراعيها.

قال أوتو:

- ياكوب فان لوس؟

قالت كورنيليا:

- لكنكِ لا تحبينه. أليس كذلك؟

قال أوتو، وهو ينظر إلى ابنته يائساً:

- طبعاً لا تحبه!

فتدخلت نيلا بالقول، وهي تحاول المحافظة على هدوء صوتها:

- قبل أن نبدأ، هل أنتِ مُتيقِّنة تمامًا من أن هذا هو ما تريدين؟" أرادت أن تتأكد قبل أن يسعها تسليم نفسها لهذا التطور الاستثنائي.

ضحكت تِيَا:

- خالة نيلا، بدوتِ مصدومة. لقد أردتِ هذا لشهور. كان جديراً بلا شك أن تكوني أسعد الجميع."

- لقد فكّرتُ أنّ زواجاً كهذا سيكون سديداً، أجل.

- هل تظنين أنه لن يقبل بي؟

- أنا متأكدة أنه سيقبل بكِ.

قال أوتو:

- لا، مهلاً. لماذا هذا التغيير في الرأي؟ أعلم أنه ليس تغيّراً في المشاعر. أم هو كذلك؟ تِيَا..قالها متضرّعا، تِيَا، حبيبتي، عندما قلتُ أنكِ تعرفين كيف تبدئين من جديد، لم يكن هذا ما قصدته. لم يكن هذا قط، ما الذي حدث بحق السماء؟

استنشقت تِيَا الهواء بعمق، وأطلقت نفساً طويلاً:

- أخبرتني الخالة نيلا أن الحب يستلزم ممارسة، وصبراً، ووقتاً.

نظر أوتو وكورنيليا إلى نيلا بغيظ لم يستطيعا اخفاءه، فقالت نيلا ببطء:

- لقد فعلتُ، ولكن...

- أخبرتني أنني سأتعلم كيف أحب. أخبرتني أنه ربما لا يتخذ الشكل الذي توقعته في الأصل، لكنَّ عليَّ أن أكون مرنة.

- حقاً، أنا...

- وأنَّ الزواج هو السبيل الوحيد الذي يمكنني أن أنجو بنفسي من خلاله.

شعرت نيلا أن كلماتها تعود وتغمرها، وقعها ساخر على نحو غريب وهي تسمعها من فم شخص آخر.

قال أوتو:

- كلا. إنني أمنعكِ من هذا.

- بابا،" تقولها تيَا، لقد سمعتُ قليلاً عن الحب الحقيقي وماذا يكون. إنه شيء نادر. لكن هناك أشكالاً أخرى للحب، يمكن تعلمها، ترددت قليلاً، وتابعت: وما دام تعلمها ممكناً... فالأولى أن يكون الرجل الذي أتعلمها معه ثرياً.

- لا أريدكِ أن تكوني جزءاً من ذلك العالم.

- لا يوجد إلا عالم واحد. ونحن نعيش فيه.

بدا أوتو محطَّماً. وأخذ يحدّق في ابنته وكأنه لا يعرف من تكون.

قالت تيَا:

- نحن لا نملك المال، وبابا عاطل، لم تبقَ لوحات لبيعها. أليست هذه حقائق؟ من خلال زواج كهذا، يمكن لعائلتنا أن تتخلص من خزيها.

صمت الجميع، وبدأ نفاد الصبر يظهر على تِيَا. وربما هي فعلاً كذلك. كانت نيلا تُفكِّر. ألسنا نحن -أو أنا- من غرس في ذهنها، مرة تلو الأخرى، أهمية الأمان في المال والمكانة؟ ألم يبتاعوا نبيذ ماديرا في عيد ميلادها الثامن عشر، إلا لأنه كان بنصف السعر؟ باعوا آخر لوحاتهم، خفَّضوا حصصهم من اللحوم، افتقروا إلى الملابس الجديدة، ناضلوا من أجل دعوة لحفل ساراخون؟ وقبل ذلك بكثير، مروا بطمس قبر مارين، والتحسر على أقدارهم وتاريخهم، وقبل ذلك أيضاً، إلى بحيرة في أسِدلفت. وسوف تفعل تِيَا شيئاً حيال ذلك. ستحل جميع مشكلاتهم بزفاف واحد.

قال أوتو:

- لستِ مُضطرة إلى ذلك.

التفتت تِيَا إليه:

- بل أنا كذلك. وقريباً جداً. هذا الزواج سوف يحمينا. ستكون بداية جديدة. وسوف يُخلِّصنا.

انبعث صوت نحيب. كان مصدره كورنيليا، التي تجلس في نهاية دكة المطبخ، مُنكفئة. ترفع عينيها. تقول:

- ستتركينا. هل حقًّا سترحلين؟

- فقط إن قبل الزواج بي.

قالت نيلا: "البرنسنغراخت قريب منّا، لكنها تعلم، حتى وهي

تقول الكلمات، أن منزل ياكوب، جدرانه الخضراء الباهتة، والبيانو القيثاري، وفناجينه الخزفية الرائعة، هو عالم آخر: وجهة ربما لا تسير إليها كورنليا بسهولة أو عن رضا.

حدّقت كورنليا فيها بغضب، لكن نيلا شعرت بالتحدي. إنها تؤمن بقوة تِيا. هي لا تعرف ما الذي سبّب هذا التغيير في النوايا، ولكن ما أهمية ذلك؟ أصبح لديهم خطة أخيراً.

- إننا لم نُولِم عندما ولدت تِيا. لم تُقِم أي احتفال. قررنا ألا نُحدث أية جلبة. توارينا في الظل. ولكن ليس هذه المرة. هذه المرة سنتباهى. استدارت إلى ابنة صهرتها، وقالت:

- سوف أذهب إلى ياكوب.

اتسعت عينا تِيا في امتنان:

- ستفعلين، وقريباً؟

-طبعاً، سأتحدث إليه. قالت نيلا، وهي تحاول أن تتجنب عيني أوتو اللوّامتين، وغضب كورنليا المتأجج:

- أحقق هذا الزواج من أجلكِ، يا تِيا. وحينها سيرى العالم.

22

تأثير الكلمات في الجسد قد يكون سريعًا: وعود الزواج من رجل قد تتحول إلى سير سريع من الهيرغراخت إلى البرنسغراخت. هرولت تِيَا، بأحشاء مضطربة، لمواكبة خطوات زوج خالها الواسعة، ناسية كل خططها لمرافقة كورنليا إلى السوق. كان اليوم صافياً، على الرغم من الرياح البسيطة. النوارس تدور وتهبط فجأة، السماء مشرقة فوق قراميد الأسقف المقابلة. هي نفسها تشعر بالنشاط، مدفوعة بعزم غريب، توتر لا يهدأ. تسأل زوج خالها:

- ألم يكن جديراً بنا أن نكتب لياكوب أولاً؟

أجابت الخالة نيلا:

- لقد ضيَّعنا الكثير من الوقت فعلاً. كنتِ مُتوعكة لأكثر من شهر، يا تِيَا، كما أننا، ثم ترفع السلة التي تحوي بسكويت الويفر اللذيذ بالجوز من صنع كورنليا المُعلقة على ذراعها، نحمل له هدية! لن أتطرق إلى موضوع الزواج مباشرة. سأتحدث إلى ياكوب أولاً، لأجس النَّبض، ثم أدعوكِ إلى الدخول. إذا سار الأمر جيداً، فلن يستغرق طويلاً.

نظرت تِيَا إليها في حيرة:

- وكيف تعرفين؟

- لقد تمَّت كل ترتيبات تزويجي برسائل من أمي إلى أمِّك. لذا سيكون إتمام هذا الأمر وجهاً لوجه أسرع بالتأكيد. ربما نعود إلى منزلنا في الموعد المناسب لتناول العشاء.

من الصعب معرفة إن كان هذا التبسيط للأمور يخفي توتر الخالة نيلا، أم هي حقّاً تظن ترتيب زواج من هذا النوع يمكن أن يكون بهذه السهولة. على تِيَا أن تقدّر شجاعتها، جرأتها، ولكن، علينا ألا ننسى أيضاً أن الخالة نيلا قد مهّدت كثيراً لهذه اللحظة عبر الأشهر الماضية. من نواحٍ كثيرة، ليست هذه زيارة غير مرغوب فيها. من نواحٍ كثيرة، لقد بُرِمت مثل زنبرك من أجل هذه اللحظة.

توقفت الخالة نيلا في منتصف الطريق: -

- هل طوقي مُرتَّب؟ قالت وهي تشده. و غطاء رأسي؟

- نعم. ناصعان كالعادة.

وصلتا إلى عتبة منزل ياكوب، وأخذتا تصعدان السلالم الحجرية النظيفة والأنيقة. مدّت الخالة نيلا يدها إلى المطرقة التي على شكل حدوة الحصان، وقد بدا عليها التصميم أكثر من أي مرة رأتها تِيَا، فرفعت تِيَا ذراعها، لامسة كم زوج خالها. حدّقت في متانة باب ياكوب، وفكرت فيما يقع وراءه. سكون الأخضر الباهت. البيانو القيثاري. الغرف في الأعلى، التي لا تعرف مساحتها بعد. العدد اللانهائي من أزواج الأحذية المحفوظة في خزانة. وفي قلب هذا المنزل، الرجل نفسه. ياكوب: بكتفيه الضيقين ونعليه المدبَّبين، الذي يدخن الغليون، ويعزف الموسيقا أفضل مما خُيِّل لها، لكن موهبته لا تكفي لإزالة بصمة والتر عن جسدها أو فكرها.

- خالة نيلا. أنا فعلاً لا أحب ياكوب.

لمست زوج خالها يدها، فالتصقت سلتها بتنورة تِيَا، وداخلها، مال البسكويت إلى الجنب الآخر:

- أعرف ذلك، يا حبيبتي. جميعنا يعرف ذلك. ياكوب أيضاً على الأرجح يعرف ذلك. ليس شيئاً يدعو إلى القلق.

رفعت تِيَا عينيها إلى منزل ياكوب:

- أفترض أن الحب ليس ضمانًا لأي شيء.

- إنه ليس كذلك.

- أنتِ من علّمني ذلك.

- أعترف أنه درس غريب. قالت الخالة نيلا، لكنها أظهرت ترددًا: تِيَا، هل تريدين حقًّا الاستمرار في هذا؟ ألا يفوق هذا احتمالكِ بعد الأسابيع الماضية؟ لأن في وسعنا العودة إلى المنزل، إن كان هذا ما تُريدين.

فكرت تِيَا فيما ينتظرها في المنزل. جدران عارية وخزائن خاوية، ورسالتا ابتزاز تهددانها بالخراب وربما يعقبهما المزيد. وكورنيليا، تقرع المقالي. ووالدها، يتمنى لو عادت في الثامنة من عمرها، وفي المدينة، خطر جريتا ربيك. تذكر المنزل المذهب الصغير تحت سريرها، وكيف حملته في قبضتها، كيف أنها تحاول إيجاد نهاية مختلفة لقصتها.

تقول:

- لا. ليس هذا ما أريد. لكن غضب بابا يُحزنني.

لانت تعابير زوج خالها:

- سيتفهم في النهاية. إن كنتِ تريدين الخروج إلى العالم، فإن الزواج من رجل مثل ياكوب سوف يحميكِ من أمثال كلارا ساراخون الذين يسكنونه. أو هكذا آمل، على الأقل. الزواج عقد، يا تِيَا. لو أن ياكوب وقّع عليه ثم فشل في الالتزام به،

وكذا أنتِ، فسوف نظل قريبين، وستكون لكِ حرية الرحيل.

- فعلاً؟

- طبعاً. إنه قانون هذه الأرض. للمرأة أن تغادر الزواج بما أتت به، وما أتى بعده، بما في ذلك الأبناء.

لوهلة، دار رأس تِيَا. أبناء، مع ياكوب؟ فكرة مثل هذه تبدو مثل بلد أجنبي، لا وجود لها حتى الآن، على أية خريطة.

وضعت الخالة نيلا سلَّتها على العتبة وأمسكتها من ذراعيها،

- ولكن، أصغي إليَّ، يا تِيَا. في وسعكِ إن أردتِ، أن تتعلمي احترام رجل والإعجاب به، حتى وإن غابت الألفة في أول الأمر. وهو أيضاً. هذا ما فعلته. التعلم هو كل شيء في الواقع. إنه شيء مستمر. و على الرغم من أني لم أملك سوى ثلاثة أشهر لممارسته، إلا أني أعرف أنه يمكنكِ التكيُّف. الزواج تكيُّف، لأن الحياة تكيُّف.

- هل فاجئتكِ قراري؟

ابتسمت زوج خالها:

- بالتأكيد. لم يخطر لي أنكِ قد توافقين أبداً على فلسفتي الباردة في الحب.

- ربما هي باردة قليلاً. لكنها منطقية، ثم مالت تِيَا إلى الأمام، ورفعت المطرقة التي على شكل حدوة الحصان.

بعد دقيقة، فتحت السيدة لوتغرس الباب، بالمقدار الذي يكفي لإظهار وجهها، قمر كامل، شاحب في الشمس. تعاين المرأتين. قالت الخالة نيلا:

- جئنا للتحدث مع سنيور فان لوس. أنا بترونيلا براندت،

وهذه تِيَا. لقد أحضرنا لسيدكِ شيئاً من بسكويت الويفر المُحلّى.

أجابت السيدة لوتغرس:

- أعرف من تكونان، لكنها سحبت الباب إلى الخلف بحركة واسعة مُفاجئة، وإن ظل تعبيرها مُبهَماً، وقالت:

- تفضّلا.

في الدهليز الضخم، أشارت مدبرة المنزل إلى طقم كراسٍ في وسعهما الجلوس عليها، إلى حين تجد ياكوب. همست تِيَا، والمرأة تغيب:

- لطيفة جداً.

ردّت الخالة نيلا همساً:

- إنه مؤشر جيد. إنها تعرف أننا نعني له شيئاً.

كادت تِيَا ألا تصدق أن هذا اليوم يحدث، على الرغم من أنها هي التي حرّكت كل شيء.

قالت زوج خالها بصوت خافت، بينما تتخذ مقعداً:

- كوني ثابتة في إجاباتك على ياكوب. ذكية طبعاً، ولكن ربما أقل... اندفاعاً.

- اندفاع؟ لستُ مُندفعة. هل أنا كذلك؟

نظرت زوج خالها إليها:

- فقط ... إن رغب في الكلام، فاسمعي له.

تململت تِيَا بضيق في كرسيها بينما تواصلان انتظارهما. في كل مكان عدد مفرط من الزهور. كيف تدبّر ياكوب الحصول على ورود كهذه في هذا الوقت من العام؟ إن عطرها يمنحها

من إيجاد مذاق الهواء النقي. تساءل، إلى أي حد هو كبير هذا المنزل، حتى تستغرق مديرته كل هذا الوقت لتحديد مكان صاحبه؟

همست:

- ماذا لو أنه رفض. ماذا لو أنه نظر إلينا مثل مجنونين؟ وكأن تلميحاً كهذا بالزواج مني يثير اشمئزازه؟

وإذ تتخيل رفضه، تدرك تِيَا لجأة كم تحتاج إلى ياكوب واستعداده لانتشالها من المستنقع الذي تغرق فيه بالهيرغراخت. لا يُعجبها أن مستقبلها، وأمان عائلتها وسمعتها قد تتمحور حول هفوات رجل لا تكاد تعرفه ورغباته. لكنها من ناحية أخرى: قد تقول إن هذا ما حدث مع والتر. لقد جعلته محوراً أيضاً، لكن ياكوب على الأقل يعيش هنا، لا في زريبة من غرفة واحدة في البلومسترات.

إذا وافق ياكوب، فإن ماله، وبالتالي مكانته، سترفع تِيَا بعيداً عن دناءة ذلك السكن باليوردان. لن ينام طفلها من دون طعام، أو يلبس ثوباً مُتسخاً، بينما أبوه يزني مع شابات غافلات وأمه تبتز المال طمعاً.

لجأة، تُخرجها الخالة نيلا من أفكارها، وهي تتناول يد تِيَا وتضغطها:

- إن قال ياكوب شيئاً كهذا، فسوف آخذكِ من هنا من دون رجعة.

أتت السيدة لوتخرس لتخبرهما أن سنيور فان لوس يسعده استقبالهما في صالونه. فكرت تِيَا، كانت على الأرجح تعرف بوجوده هناك طوال الوقت. لكنها أرادت أن نجلس هنا

ويتقل.

وكما خُطِّط، دخلت زوج خالها وحدها. وتنتظر تِيَا، مُتأملة اللوحات الجميلة للطبيعة الصامتة على جدران الدهليز. تمشي حذو المزهريات، مُتحسسة البتلات كي تبحث عن الطمأنينة في ألسنتها المخملية. زهور التوليب المتينة، برؤوسها البصلية الصغيرة، بخطوط ألوان من الأحمر والوردي والأبيض. الورود، المزروعة ببراعة، إذ أنَّ بعضها له رؤوس بحجم ملفوفة صغيرة، ناعمة الملمس. تُذكِّرها بكاسبر فيتسن وتركيباته النباتية. لا بد أن تحويل النبات إلى شراب يستغرق عملاً كثيراً، كما تفترض، وهي لا تملك أي فكرة من أين يبدأ.

فكرت، سأكتب له. سأكتب له وأشكره، وأسأله كيف يصنعها.

- سوف تفككك إذا بالغتِ في لمسها. رفعت تِيَا عينيها ونظرت نحو مصدر الصوت، كانت السيدة لوتغرس واقفة في ظلال السلّم الرئيس، تراقب. منذ متى وهي هناك؟

سحبت تِيَا يدها، وقد ضايقها أن أحداً أخافها بهذا الشكل. إنها مُعتادة على هذا النوع من المُعاينة الذي تخضعه لها السيدة لوتغرس، تلك النظرة المُدققة، وكأن هذه المرأة تريد اختراق جلد تِيَا لترى عظامها. تتساءل كم سيستغرق، بوصفها عروساً جديدة، أن تُبعد السيدة لوتغرس عن منصبها في هذا المنزل. إلى أي مدى قد يسهل إقناع ياكوب بإحلال كورنليا محلَّها، إضافة إلى بضعة خدم آخرين، بماله؟

سألتها السيدة لوتغرس:

- هل تريدين مشروباً؟

- لا، شكراً لكِ.

عقدت السيدة لوتخرس يديها، وجهها صارم ومتوتر، أصابعها تتباعد مرة أخرى. "كما تشائين." كوّرت مديرة المنزل يديها في قبضتين ووضعتهما إلى جنبيها، كمن تكبح نفسها. ثم دبّت فيها الحياة، عائدة إلى ميدانها.

بعد بضع دقائق، فُتح باب صالون ياكوب وخرجت الخالة نيلا، ثم أغلقته خلفها. إنها تضع واحدة من ابتساماتها الاجتماعية. ذهبت تِيا للتحدث معها، لكن زوج خالها أخذتها بعيداً عن الباب، ورفعت يدي تِيا، وهي تقول بخفوت:

- إن أردته، فهو لكِ.

تحدق تِيا في زوج خالها. وكأنَّ كلتاهما لا تصدقان الأمر، وكأنهما أمسكا بمخلوق غريب وحبستاه في غرفة، وهما غير واثقتين من صفاته، ميوله، وعلام يتغذى. لكنهما مع ذلك، ستحتفظان به. ما قيمة المهر، ما المدخرات والهبات التي تعاقدت عليها الخالة نيلا في ذلك الصالون أخضر الجدران، حتى تجمل اتحاداً مع عائلة براندت يثير اهتمام ياكوب فان لوس؟

وقفت تِيا هناك ويداها ما تزالان مشبوكتين في يدي زوج خالها، كما لو أنهما ستبدأان رقصة فوق هذا البلاط الرخامي، الأكثر لمعاناً من بلاطهم بكثير. تشعر بطبيعة الهواء تتغير من حولها، وتتسلل داخلها، وحياتها تبدأ في التغير. لا زينة ورقية على النافذة بعد الآن، لا فطائر عيد ميلاد. تذكرت ريبيكا وهي تؤدي لافينيا في تيتوس. لافينيا بلسانها المقطوع، ويديها مبتورتين، تظل تروي قصتها على الرغم من ذلك.

سحبت تِيَا يديها من بين يدي زوج خالها، واستدارت لتلاقي مصيرها.

***

كان ياكوب واقفاً عند رف المدفأة، يدسُّ تبغاً في غليونه، وسلة كورنليا التي تحوي بسكويت الويفر بالجوز تستقر على الطاولة المورنشة الخفيضة. التفت إليها، انحنى مبتسماً. فثنت تِيَا ركبتيها له تحية، وهي تغلق الباب، ترى الخالة نيلا تغرق في الكرسي الذي كانت تِيَا تجلس عليه، واضعة رأسها بين يديها وكأنها كانت تحمل حجراً ثقيلاً.

أغلقت تِيَا الباب بسرعة، والتفتت إلى ياكوب. شعرت وكأنها ليست البطلة في هذا المشهد قط، وكأنها قد تكون ضمن الجمهور وهو يتكشّف من رف المدفأة، من خلف وعاء سميك يحوي أناناسًا رخواً.

- الكنيسة القديمة. قال ياكوب، على سبيل الاستهلال، إنه المكان الذي تقول زوج خالك إنكِ قد تحبين الزواج فيه؟ انتظر أن تقول شيئاً: إنه مكان مُبجَّل.

عادة، تكون تِيَا جاهزة ببعض الكلمات. لكنها هذه المرة خرساء. لم تكن وزوج خالها قد ناقشتا أمر الكنيسة على الإطلاق. أخذت نفساً عميقاً، وهي تستجمع، قوتها. ثم قالت:

- الكنيسة القديمة ستكون مناسبة. سيحدث الأمر إذن، يا سنيور. سوف نتزوج.

عاد ياكوب إلى الابتسام. وهو يمجّ عميقاً غليونه:

- صحيح. وعليكِ مخاطبتي بياكوب.

شعرت تِيَا بالتسمُّر.

- منذ اللحظة التي رأيتكِ فيها... وضع ياكوب يده على الرف، وانتقل إلى سلة الويفر يرفع الغطاء عنها: تِيَا، أنتِ لستِ مثل غيركِ من الفتيات."

- لستُ كذلك؟

- أنتِ أعلى بكثير.

أرادت تِيَا أن يفصِّل علويّتها المزعومة، حتى تقسِّمها إلى كل مفهومة. تفكر في اليونورات وكاتاريات هذه المدينة، ولماذا يرى ياكوب أنها مختلفة كل هذا الاختلاف. تشك في أنها ربما تخشى إجابته. إن تلك الإجابة مزروعة في تربة قاسية.

قال بلهجة آمرة:

- تعالي، اجلسي.

توجهت صوب الأريكة، وجلست في آخرها، مكان زوج خالها، انخفاضٌ في المخمل.

قال ياكوب:

- أعتقد أننا سنكون سعيدين. لقد كتبتُ إلى والدتي عنكِ، في الواقع.

التفتت في مفاجأة:

- فعلت؟

- أخبرتها عن شابة جميلة يتيمة، التقيت بها، وكانت المَعلم الوحيد في حفل ممل. لقد انبهرت. أرادت أن تعرف كل شيء عنكِ.

- وهل أخبرتها؟

مدّ ياكوب يده لإشعال غليونه مجدداً.

- ليس كل شيء.. بعض الأمور يحسن تركها للقاء وجهاً لوجه.

تساءل تِيَا إلى أي مدى تعدّها مدام فان لوس شخصاً أعلى، مقارنة بآراء ابنها.

- هل ستكون حاضرة في حفل الزفاف؟

- آمل ذلك بالتأكيد.

نفث ياكوب سحابة من دخان أزرق. -

- سأكتب إليها، في الحال. لقد انتظرتني وقتًا طويلاً حتى أجد عروسًا، وها قد حانت اللحظة أخيرًا."

لاحت مدام فان لوس في خيال تِيَا. لم تكن قد فكرت فيها قبل هذه اللحظة. قبضت على ذراع الأريكة، وهمست لنفسها:" ما هذا الذي فعلته؟"

يسألها ياكوب:

- متى تحبين أن يُقدَّس زواجنا؟

تِيَا لا تعجبها كلمة يُقدَّس. إنها لا تريد قديسين في الزجاج المعشّق، يتفرّجون:

- آمل أن يكون قريبًا جدًا.

- أعتقد أن ثلاثة أسابيع ستكون كافية لتحرير جميع الأوراق، وإعلان خطبتنا. أتعهد بالوفاء لكِ، وأنتِ لي، وسيكون القسيس مُشاركاً. توقف لحظة، وقال:

- التاسع من حزيران يوم مناسب.

- هل هو كذلك؟

- عيد ميلاد والدتي.

- ألا تفضل الزواج في يوم آخر، يا ياكوب؟

- لقد مرَّ عليها أعياد ميلاد كثيرة. فما المانع إن قدمت لها هدية لها: تراني وقد تزوجتُ أخيراً.

ابتسمت تِيَا على الرغم من انزعاجها:

- وبعد ذلك، هل سنعيش في هذا المنزل؟

أجاب ياكوب:

- يمكن أن نعيش هنا، إن كان يرضيكِ. أو في لايدن."

- أو ربما أبعد؟ بدا ياكوب مُتفاجئاً، تلعثمت تِيَا، وقالت: في المسرح، ألم تقل إنك تحلم برؤية أراضٍ استوائية؟

سحب ياكوب نفساً آخر من غليونه ونفث الدخان. على الرغم من الأبعاد الكبيرة للغرفة، إلا أن الهواء المحيط بالأريكة بدا كثيفاً:

- ولكن، ألم تقولي أنتِ أنكِ لا تحتاجين إلى ذلك، لأنكِ رأيتِ تلك النخلات في قلبك؟"

ويلف إصبعه قريباً، فوق مكان القلب على فستان تِيَا. تزدرد لعابها، وهي لا تعرف أيهما يثير اضطرابها أكثر، تذكُّر ياكوب إعرابها المُستتر عن حبها لوالتر، أم القرب المُلحّ ليده. تتذكر أنامل والتر، وهي تتحسس جسدها، طولَ لوحاته وعرضها، وهو يخلق عالمًا آخر تكاد من شدة واقعيته تخطو في داخله.

كان والتر ليبدو دخيلاً في هذه الغرفة المثالية، بمريوله، بشعره الأشقر، بتلك الأظفار الملطخة بالألوان. تتذكره يميل على مهد طفله.

قالت:

- لقد غيرتُ رأيي منذ ذلك الحين. سيسرني كثيراً أن أسافر.

أجاب ياكوب:

- حسناً. أعرف أشخاصاً كثراً يمكنهم مساعدتنا. أرغب في نهاية المطاف، أن أكون قرب والديّ. إنها تتقدم في السن، وسوف تحتاج إلى مساعدتنا. ولكن توجد أماكن عديدة يمكننا أن نسافر إليها، قبل أن تظهر تلك الضرورة.

قالت تيا:

- ممتاز. على الرغم من أنها لم تكن مستعدة لأم عجوز. فكرت في أمها هي التي لا تشيخ، وتساءلت: هل توجد يا تُرى خرائط أخرى في العلية، داخل صندوق مارين براندت؟ ربما يوجد المزيد تتمعن فيه، إذ لا حاجة لبيع شيء منها الآن، ورحلة حقيقية لسفينة. ربما تتحطم السفينة فعلاً، وليس مجرد رسم مُعلّق على الحائط. ومعها غرق ياكوب. ابتسمت له. أفكارها في كل مكان.

تنحنح ياكوب:

- لستِ العروس التي قد يختارها أي رجل في هذه المدينة.

أعادها هذا إلى الواقع بحدة. لم يتفوه بكلمة. حتى مع التأثير المغبّش لدخان تبغه، لم يبدُ ياكوب وسيماً. إنه لا يحرّكها ولا يثيرها. إنه مجرد رجل يمتلك مالاً وعلاقات، والذي تؤمن

الخالة نيلا أن تيَا قد تحبه وتحترمه.

تُبقي تيَا فمها مغلقًا. ولسانها مُخبّأ خلف أسنانها. لا تقول الشيء نفسه في جواب، لكن الفكرة تنبض على جدار عينيها الداخلي في لون أحمر من ألوان والتر: "حسنًا، يا ياكوب علّان: لستَ العريس الذي قد تختاره أي امرأة في هذه المدينة".

كان الناس قد أسمعوها أسوأ من هذا. ولكن ليس في سياق الزواج، وبناء المستقبل. نظرت تيَا من النوافذ الضخمة في صالون ياكوب، وفكرت في جريتا وتهديداتها، في بطالة أبيها، في مساعي زوج خالها المُبتذلة إلى الصيت والثروة. فكرت في كورنيليا، مُتذمرة من اضطرارها المُتواصل لتصريف أمورها بقطع رخيصة من اللحم. فكرت في والتر، وكم أنه مازال مؤلماً.

ما الذي يريده ياكوب منها بالضبط، وهي العروس التي لن يختارها أي رجل؟ امتنانها؟ أما هذا، فعليها أن تصبر وترى.

- ياكوب، لن أجعلك تراجع قرارك أبداً.

ابتسم ياكوب:

- وأنا لن أراجعه أبداً.

فكرت تيَا، ليس هذا صحيحًا: "لأن هذا بالضبط هو ما فعلْتَه".

23

كانت نهاية أيار دافئة، وأشعة الشمس تشرق فوق سطوح المنازل، محوِّلة ميلانها إلى أبيض طباشيري فوق أزرق سماوي. ونبت مردكوش كورنيليا، وحُماضها وثومها المعمّر بوفرة في نافذة مطبخها، وبدأ لوكاس تشمُّسه السنوي الحقيقي على عتبة المنزل، مُضطجعاً على جنبه من الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من العصر. واستخرجت اليخوت والعبّارات الزاهية من الحظائر، وقد مُنحت طلاءً جديداً. رُكِّبت الأشرعة، وأعيد حشو وسائد المقاعد، وخياطتها، وأقبل الأمستردامبون الممتنون على مركباتهم ليشعروا بإحسان الرب. أصبحت النهارات أطول. ووضعت معاطف الربيع في الصناديق، وشُمِّرت الأكمام حتى المرافق. وتنوعت الفاكهة والخضروات في السوق مرة أخرى ؛ خس النعجة والفجل، الكرز الحديج - وجميع الخادمات والطهاة في السوق يوافقون كورنيليا في أن السلمون والأرانب تبدو أكثر اكتنازاً. أخرجوا مخللات السفرجل والخيار التي صُنعت في الشتاء من غرف الكرار، لتستعرض فوق الموائد، برهاناً آخر على المكافآت المحصودة عندما يأخذ المرء عدّته. عندما يستعين بالصبر والبصيرة، ويفكر في روحه المُستقبلية بحب، مُكابداً الحرمان، عالماً أن ساعة التفتّح ستعاود المجيء.

كان طلب الزواج قد جُلّ في الكنيسة القديمة، واستُفتي القس. وبدأت العروس تُعدّ نفسها بعزم من أجل مستقبلها، وتهب عائلتها معها لمواجهة التحدي. كان على عاتق نيلا أن تبحث عن بائع زهور تحت حرف الفاء في دليل سميت، رجل يدعى هندريكسون، والذي جنى جده الأكبر ثروته من

هوجة التوليب منذ ما يقرب من التسعين عامًا. ما يزال آل هندريكسون يبيعون في سوق الزهور، لأن الأحفاد الذين جاءوا من بعد قد أسالوا المال من بين أصابعهم كالحساء من المصفى.

هندريكسون، الذي أتى إلى المنزل بمجلد يحوي رسومات للزهور التي يبيعها، اقترح زهور العسلة رمزاً لروابط الحب، والفاوانيا والورود، لأن العينة التي يمتلكها جميلة جداً في هذا الوقت من العام، إذ إنه يُحَفِّزُ نموها بالحرارة، وسوف تبدو تشكيلة متناسقة بين يدي العروس، قال هذا وهو ينظر إلى يدي تِيَا، المُتشابكتين مثل زوج من البراعم الشتوية.

وما لم يقله هندريكسون، لكن نيلا تأمله، هو أن حيوية ألوانها -الوردي المحمر، والأحمر القاني- ستغطي على وجه تِيَا الشاحب، ونحافتها المستمرة، وحقيقة افتقارهم إلى مال لشراء أثواب قماش جديدة لفستان الزفاف. سوف ترتدي تِيَا واحداً من فساتينها الفخمة القديمة بلون أحمر داكن، والذي يظل قصيراً عند الكُمّين. تساءلت نيلا:" إن كان يلزمهم أن يدفعوا مالاً لشراء كأس العروسين".

قالت كورنيليا:

- كأس العروسين؟ ألن يؤدي أي كأس الغرض، ما دام سيشرب منه المخطوبان؟

تذكر نيلا حفل زفافها، وافتقاره إلى كأس العروسين، وكيف أنها كانت صانعة الدُمى أن تُمدَّها بواحد حتى يمكنها على الأقل أن تعيش حلمها في صورة مُصغَّرة، وكيف لبَّت صانعة الدمى طلبها:

- إنه مهم، يا كورنيليا. سوف يصبح إرثاً.

- إرثاً ستضطر تِيا إلى بيعه خلال عشرين عاماً!

- كورنيليا، كفى. لن يعيد التاريخ نفسه.

ظلت كورنيليا ممتعضة من هذا الزواج، لكن كبرياءها يسبق غضبها. بعد أربعة أيام من زيارة نيلا وتِيا إلى منزله، أتى العريس المستقبلي لتناول العشاء، أعدّت كورنيليا وليمة أكثر تفصيلاً من الأولى التي كدّت في صنعها. وتكون النتيجة سمكة سلمون كاملة ضخمة، مطهيّة في الزبدة مع قشر جوزة طيب مطحون وفتات جوزة الطيب، وأنقليس صغير في حُماض وسرفل مختوماً بصوص بيض كريمي، وهليون في الزبدة والفلفل، وسلطة كرفس، وفطائر كشمش، مغموسة بآخر ما تبقى من نبيذ الماديرا الذي ادّخروه من عيد ميلاد تِيا.

قالت تِيا:

- إنه يريد الزواج بي، يا كورنيليا، لم يكن عليكِ إنفاق كل دوطتي في السوق.

تساءلت نيلا سرّاً، إن كانت كورنيليا تحاول قتل الرجل بفائض من الزبدة.

عندما وصل ياكوب من أجل العشاء، استقبله أوتو بلباقة، ولكن من دون دفء. شعرت نيلا بتوجّس و خوف تِيا من تخييب أمل أبيها هو خوف عرفته نيلا جيداً في الماضي، لكنها تفهم أيضاً رغبة تِيا في مغادرة هذا المنزل، الذي يقع في شارع الهيرنغراخت، حيث لم يفعل أهله شيئاً لزمن طويل سوى التحسر على ماضيهم.

كانت تِيا تظنّ أن زوج خالها لا تعرف شيئًا عما يمنعه سن

الشباب، أن يكون المرء توّاقًا إلى بدء حياته، لكن نيلا إذ ترى تيا تقف بتوتر في البهو بينما يرفع ياكوب قبعته ويحييهم بالحناءة سريعة، تشعر بأنها مُكبَّلة بذكرى ماضيها. هي أيضاً وقفت يوما في ذات الدهليز، تنادي على زوجها، وتلهف منه أن يبدأ حياتها.

لم يصدر عن والد تِيا أي مُعارضة، أو تجاهل بخصوص العرس القادم، وعلى الرغم من أن الاستقبال الذي منحه للزوج المُستقبلي ليس بشوشًا، لكنه ليس عدائيًا أيضاً. كان أوتو قد بحث عن مخرج من هذا الزواج، لكنه لم يجد واحداً من أي جهة، والآن هو يقبل حدوثه، غالباً لأن تِيَا تريده. إن آخر شيء يتمنَّاه هو أن ترحل عنه ابنته، ونيلا ترى معاناته، لمحات عدم التصديق اللحظية التي يخفيها بمهارة مُكتسبة. تمضي أيام تشعر فيها بأنها ملومة على تعاسته، لكنها بعدها تفكر في كل شيء سيعترض طريق تِيَا، وتبقى مقتنعة بأنهم يفعلون بالضبط ما كانت مارين ستتمناه.

في البداية، كان الحوار على العشاء متكلفًا، تقوده في الأساس نيلا. وضعت كورنيليا الأطباق على مفرش المائدة بصورة تعوزها الكياسة وكأنها ترمي عجيناً. مع أن ياكوب لاحظ ذلك، فهو لا يعلِّق. يتحدثون عن العدد الكبير من حفلات المجتمع الأمستردامي القادمة، والطيش في قيادة القوارب الصيفية قريباً من النوارس، وما الذي تُراه يحدث في البورصة. هم لا يصوِّبون ياكوب عندما يستفسر من أوتو كيف تعامله الحياة في الفوك. تعلق نيلا على القس بيكر في الكنيسة القديمة، عن حداثته في المنصب، وشبابه النسبي، ومتى يجدر بهم أن يذهبوا ويتحدثوا إليه، وحينما اقترحت أن تذهب غدًا، قال ياكوب إنها فكرة ممتازة.

لكن الأمور التي تريد نهلا التحدث عنها مختلفة. لماذا تِيا؟ لماذا نحن؟ ماذا تظن فينا، من فضلك؟ لكنه ليس آمناً أن نفعل، ليس بعد. لا يمكنها أن تسأل عن هذه الأمور إلا بعد الزفاف. أخبرت نفسها أنها تريد معرفة كل هذا لأن هذا الموقف غير تقليدي في كثير من أوجهه، وتريد أن تتأكد، بصورة حاسمة، أن ياكوب رجل ذو تفكير رشيد. لكن في داخلها شيئاً أكثر غموضاً تحرص على ألا تُظهره: إنها تريد موافقة هذا الشاب. تريد أن تكون داخل دائرته، أياً كانت، لكن الهدف الأساس من هذا العشاء هو أن تتعامل كما لو أنها تقيم في تلك الدائرة بالفعل.

لقد تحدثت بصراحة في صالون ياكوب الأخضر الباهت:

- إننا لا نملك ثروة كعائلة ساراخونغالت، وهي تفكر في الأموال التي كانوا قد ادخروها لميراث تِيا، وقد أتت عليها مصاريف المنزل، وبطالة أوتو. واستأنفت: "نحن لن نحرجك، ولكن...

فأجاب:

- إن الثروة المادية ليست كل شيء، يا مدام. الحوار، والشباب، والجمال، والذكاء. تلك أيضاً سلع قد يُقدّرها الرجل."

وحينها شعرت نهلا بالقلق: إذ كانت قد صبّت جُلّ اهتمامها على افتقار تيا للمال، فأنفقت وقتاً أقل من اللازم على سحر تِيَا الشخصي. كان ذلك النقيض من سلوكها في مقصورة السخاوبيرخ، لكنها هذه المرة كانت أكثر توتراً. ما انفكّت تفكر في تصريح تِيَا، الذي همست به قبل أن تطرقا باب ياكوب:" أنا حقاً لا أحب ياكوب". كانت تِيَا مهووسة بالحب

لزمن طويل، وقد وبَّختها نيلا على ذلك. لكنه ربما هاجس عاقل؟ ربما هو إعراب عن شك أعمق، وشك يجدر بنيلا نفسها أن تعرف به؟

ولكن لا وقت تبقّى لمثل هذه التأملات، وقطعاً ليس على هذه المائدة، المُغطاة ببقع من عصارة السلمون والأنقليس. إنهم على أبواب الزواج الآن، والمال أيضاً. فكرت نيلا، ليت هناك تركيبة يمكن لكاسبر أن يصنعها، لاستحضار الحب الحقيقي.

بعد أن تناولوا الفطائر، أغلق الرجلان على نفسيهما في حجرة مكتب أوتو ليضعا تفاصيل العقد. ظلا هناك ساعة، وهي مدة تجاوزت كثيراً ما قضته نيلا وتِيَا في مقابلتهما مع ياكوب.

بمرور الدقائق، يصبح اضطراب تِيَا واضحاً

- ماذا لو أن بابا رفض؟ ماذا لو أنه أخبره أنه لا يمكنه الزواج بي؟

- لن يفعل ذلك.

قالت كورنيليا، وهي ترفع الأطباق، وتكومها فوق ذراعها بجلبة:

- ربما يفعل؟

أجابت نيلا بصرامة:

- ثم ماذا؟ ثم نعود من حيث بدأنا. كانون الثاني، من جديد؟

نفخت كورنيليا، حاملة البقايا الملطخة من وليمتها الفخمة، إلى الطابق السفلي حيث ينتظرها توكاس. عبثت تِيَا بفوطة مائدتها المتسخة بين أصابعها، مرة تلو مرة. أرادت نيلا أن تقول شيئاً لطمأنتها، لكن الكلمات خذلتها. إنها متعبة. ما تزال هناك

باقة عروس تشتريها، وقسيس تقابله، ووليمة أخرى تحضّر لها، سريعاً جداً في عقب هذه.

سمعت المرأتان الباب يُفتح، فنهضتا كأنهما واحدة، وانتقلتا إلى الدهليز. كان وجه ياكوب متجهماً قليلاً، بدا جادًا كمن كُلِّف بمسؤولية عظيمة. انحنى قائلاً:

- سيدتاي، لقد تأخر الوقت، وقد أبقيتكما مشغولتين طويلاً.

قالت نيلا:

- لكننا سنراك غدًا؟ من أجل زيارة القس؟

ظهرت الدهشة على ياكوب، وأدرك أن صوتها يبدو هلِعًا أكثر مما كانت تريد. اختلس نظرة إلى تِيا، وقال:

- طبعاً. أخذ يد عروسه، تِيَا، التي تملكها العجل، وبدت كدمية الشمع من استقبال هذه اللفتة.

فتحت نيلا الباب الأمامي، ودعوا ياكوب، وظلوا ينصتون إلى خطواته تتلاشى في الليل. بعد رحيله، استأذنت تِيَا في الانضمام إلى كورنيليا في المطبخ. قال أوتو بصوت خافت:

- أريد التحدث إليكِ، في غرفة المكتب.

- ما الأمر؟

- اتبعيني.

نادراً ما تدخل نيلا غرفة المكتب. إنها لا تحمل لها ذكريات سعيدة، فهنا اعتاد يوهانس أن يختبئ، متحاشياً واجباته كزوج. هنا حاولت أن تجعله يحبها. غرفة صغيرة، يحافظ أوتو عليها مُرتبة، حيث تظل كتب المنزل مكدسة في أبراج، وموقد المدفأة دائمًا نظيفاً.

قادها إلى الداخل، وأغلق الباب. متوجهاً صوب كرسيه إلى الجانب المقابل من طاولة المكتب، وجلس بتثاقل. يشير إلى نيلا لتجلس على المقعد الشاغر المتبقي. قال: - إنه يريد المزيد.

- المزيد من ماذا؟

- المزيد من المال، يا بترونيلا.

كانت نيلا، ماتزال واقفة في المدخل، تحدّق فيه. خداها يشتعلان. هل كان ياكوب يخطط من البداية لإلقاء هذا العائق المادي؟

قال أوتو، في صوته لمحة من انتصار:

- لم تتوقعي ذلك؟

إن هذه أمستردام، لذا ربما كانت ساذجة: لم يكن ياكوب سيناقش الأرقام الفعلية إلا حالما يدخل غرفة حسابات أوتو، كانت محادثتهما في صالونه عينة مما سيأتي.

قالت باستخفاف كبير:

- إن ياكوب محام، يملك منزلاً جديدًا في البرنسغراخت. لديه حياة يحتاج أن يبنيها لنفسه. لا يمكنك أن تتفاجأ."

أجاب أوتو:

- لقد تفاجئتُ جداً، نظراً إلى الصورة البرّاقة التي تصرين على رسمها له. لقد منحتني انطباعًا أن تيَا لا تُقدَّر بمال لديه. أنه سيأخذها بطاقم من قدور كورنيليا القصديرية. اتّضح أن ذلك غير صحيح.

- أخبرته بما تملك. قال إنه يكفي.

- كان يكذب.

- لم يكن يكذب. ماذا قلت له، يا أوتو؟ ماذا قلت؟

"- سألته عن مدى جديته بخصوص تِيا. وها نحن قد عرفنا."

تشعر نيلا بالذعر يتصاعد:

- إن تيَا تريد هذا الزواج. سوف أفعل كل ما في وسعي لتحقيقه.

- كان ذلك ما خشيته.

- إن ياكوب ليس إلا رجل أعمال منطقي.

- آه. رجل أعمال منطقي.

تقدمت نيلا لتجلس على الكرسي المقابل له:

- كم يريد؟

مال أوتو على طاولة المكتب، مُلصقاً أنامله معاً:

- ما يريده... ما طلبه، هو مائة ألف جِلدر.

شعرت نيلا بأنفاسها تضيق:

- ماذا؟!

- مُستحقّة الدفع قبل حفل الزفاف.

- إن هذا غير حقيقي.

- أؤكد لكِ. إنه حقيقي تماماً.

- مائة ألف جِلدرا أخذت نفساً عميقاً. وقالت:

- لقد قطعنا شوطاً كبيراً. نحن قريبون جداً. سيكون علينا أن نبيع هذا المنزل.

تراجع في مقعده:

- آه. الآن ترغبين في بيع المنزل.

- أخبرتني أنك كلّفت من يثمّنه، وكان ذلك من أجل أناناسة. أما الآن فهو من أجل ابنتك. إنها فرصتنا الأخيرة. أعلم أنك تراها.

قال أوتو:

- إن المنزل باسمي، وسوف أفعل ما أراه مناسباً. إن التاسع من حزيران على الأبواب، يا نيلا. كم في رأيك قد يستغرق بيع منزل في الهيرغراخت؟

- بضمان ياكوب صهراً، سنحصل على عنوان ألمع. قصر مقابل آخر. قد تحصل تيّا حتى على حصة من عقار في لايدن.

- ولكن أين سنعيش نحن؟ أنتِ وأنا وكورنيليا؟ في عليّة فان لوس بالبرنسغراخت؟ في كوخ بركن من حقول مدام فان لوس؟

- سنجد مكاناً. مكاناً أصغر. لا يكسوه الغبار والذكريات الحزينة.

يقول أوتو:

- لا. أريد أن أبقى في هذا المنزل. لكني، ووضع يداً أسفل جانب من وجهه: عرضتُ على رجُلكِ خياراً آخر.

شعرت نيلا بشعرها يقفّ، خوفاً من أن يثير أوتو أمر أسِدلفت، بعد إخباره مرة وأخرى أنه لن يمس: أوتو...

قال متنهداً:

- إنه ليس أسِدلفت.

حدّقت فيه، بالتباس، وقلق مما عساه قد يكون في حوزتهم ويُهدئ نهم ياكوب إلى التملُّك.

قال أوتو:

- لا أريد أن أترك هذا المنزل ما دمتُ على قيد الحياة. لكني اقترحتُ أن يُنقل هذا المنزل إلى ملكيته حال وفاتي.

ذهلت نيلا. وأخذ عقلها يعمل بسرعة ليفهم تداعيات هذا. في الهبة التي اقترحها أوتو شيء يذهلها أكثر حتى من المبلغ الذي طلبه ياكوب:

- ولكن ماذا سيحدث لي، لكورنيليا، لو أنك متَّ قبلنا...

رفع أوتو يده حتى تسكت:

- إن ياكوب يريد هذا المنزل، يا نيلا. لا تقولي إنكِ لم تري ذلك في عينيه، لحظة أن دخله. ربما ينتظر عشرين عاماً ليحصل عليه. ربما أطول، وربما أقل: لكني أظنُّه يعلم أن الصبر آخره جبر. عقد ذراعيه، بتهكم واضح:

- لا شك أنكِ مُستعدة لإخلائه لو أني متُّ قبلكِ، باسم هذه الزيجة المجيدة؟

استرجعت نيلا أول مرة جاء فيها ياكوب إلى هنا، عيناه تلتهمان أبعاد الغرف. قال حينها:

- أعترف أن هذا من أروع المنازل في المدينة. جوهرة مخفية. كان أوتو مُنتبهاً أكثر مما تصورت.

تابع أوتو، مُستغرقاً في خطته:

- أعتقد أنكِ ستقتنعين عندما تسمعين المزيد. من أجل تأمين هذا الإرث المُنتظر، وضمان الزواج لتِيا، فقد خُفِّضت دوطة تِيا إلى عشرين ألف جِلدر.

- سيقبل خُمس ما طلبه فقط، مقدمًا؟

- إن هذا المنزل يساوي مالاً كثيراً، يا بترونيلا. ومن جهته، سيدفع لنا ياكوب نفقة شهرية، تبدأ مباشرة بعد الزفاف، قيمتها مائتا جِلدر، ولكورنيليا، مبلغ ثابت من ثلاثين جِلدر. هذا المبلغ سيؤول إلينا، وأتصور أنه سيغطي نفقاتكِ بعد حدوث موتي. كما أني أقنعتُ ياكوب أن يعدّها مساهمة حكيمة في صيانة ورثه المستقبلي: أي الأرضيات والجدران ومواد العزل، وكل شيء للحفاظ على سلامة هذا المنزل.

- لقد فكرتَ في كل شيء.

- إنها ابنتي. أما هو فتسهل قراءته. لو أنه يريد كل هذا، فسيتعين عليه أن يدفع ثمنه. لن يحق له هذا الإرث، هذا المنزل، إلا في حال زواجهما، ولن يتسلمه فعليًا إلا في حال موتي. لقد وافقتُ على دفع العشرين ألفًا قبل إقامة الزفاف. ولكن بهذه الطريقة، سيشعر كل طرف بأنه قد فاز. توقف أوتو قليلاً، رامقاً صديقته القديمة بنظرة طويلة: والذي أفترض أنه كان واحداً من طموحاتكِ الرئيسة عند ترتيب هذا الزواج في المقام الأول.

ذهلت نيلا:

- إنه سلو هذه المدينة.

- هو كذلك. يوماً ما، سيحصل ياكوب على منزل قيمته تزيد عن نصف مليون جِلدر، وتستفيد تِيا من قيمته والاستثمار

المُقدَّم فيه. وأنتِ، كما آمل، ستملكين مقداراً كبيراً من الجلدرات تؤمِّن شيخوختك.

سألته:

- من أين سنأتي بالعشرين ألف جِلدر؟

- نأخذ قرضاً بضمان هذا المنزل.

- هذا المنزل؟ لا تصدِّق أن أوتو قد يُقدِم على مثل هذه المجازفة حتى يمنح تيَّا ما تريد.

- - سيُعارض ياكوب قطعاً؟

- إني أملك حق التصرف فيه حتى موتي.

- كيف سنسدد قرضاً كهذا؟ ما الشروط التي سيعرضونها؟ ماهي مدة التسديد؟ إنها عشرون ألف جِلدر."

- سنردها على دفعات. يمكننا التفاوض على الشروط. واستخدام النَّفقة التي سيقدمها إلينا.

بدأت تحسب في رأسها:

- ولكن حتى لو أننا استخدمنا كل أموال شهريَّة ياكوب، فسوف نستغرق تسع سنوات لسداد عشرين ألفًا، وهذا بخلاف الفوائد.

هزّ كتفيه في استهانة:

- لن نسددها بسرعة. سنطيل المدة. إلى سنوات ربما. سنتحمل الدَّين.

- ولكن...

- إنه ليس حلاً مثالياً، يا نيلا. ولكن أقلّه عندما أموت،

ستصبح حينها مشكلة ياكوب، تنهد، وقال: في أثناء ذلك، ربما أجد عملاً آخر؟

- قد يقاضينا ياكوب، إن حدث شيء، يا أوتو، فإن هذا سيعرقلنا. إنك تملك عملاً، من أين سوف...

- نهلا، لقد اتخذتُ قراري، لن أخسر هذا المنزل ما استطعت، ما يزال أحفاد الرجال الذين تعاملنا معهم أنا ويوهانس يعملون في إقراض المال. سأبذل كل جهدي للتفاوض على سعر فائدة معتدل.

شعرت نهلا بالدموع في عينيها، إنها مجازفة كبيرة، شعرت أنها في وضع حرج، وأنها مغلوبة، لكنها عندما تنظر إلى أوتو ترى أنه يشعر بالشعور ذاته نحوها، إنهما مُقيدان معاً بهذا السر، وتشعر كالأيام الخوالي، عندما ذهب يوهانس، وبعده مارين، وتجلّى اليأس في كل شيء حولهما.

همست:

- يجب ألا تعرف تِيَا شيئاً عن هذا.

- أبداً، إنني لا أملك نية لإخبارها، وسوف نخفيه عن كورنليا أيضاً.

- اتفقنا... ترددت قليلاً، ثم قالت:

- أعرف أنك غاضب مني.

خفض أوتو عينيه إلى طاولة مكتبه:

- أنا متعب أكثر من أي شيء آخر، لو أن هذا ما تريده تِيَا، ويبدو أنه كذلك، فهذا إذن ما سنفعله، منزل في مقابل ابنة، طوب، مُقاسٌ ومُثمّن، من أجل مستقبل تِيَا، رفع عينيه إلى

نهلا بنظرة ثابتة.

- ربما كان الأمر سينتهي إلى هذا من البداية؟

24

كان الطرد الصغير على عتبة الباب غير موسوم، ورؤيته ترعب تِيَا، لكن اليوم هو باكورة الثامن من حزيران، اليوم الذي يسبق حفل زفافها، وهي تريد أن تقابل ريبيكا. تعرف أن الممثلة تذهب إلى المسرح أيام الإثنين للتدرب على جُملها بمفردها، وقد مضى وقت طويل منذ أن رأت صديقتها. لم يتبقَّ لها وقت كثير حتى تعتذر، حتى تسأل ريبيكا المجيء إلى الكنيسة القديمة غدًا لتشهد الاحتفال مع ياكوب. تناولت تِيَا الطرد قبل أن يأتي أحد ويسألها إلى أين العزم، فتحمله معها، وتفتحه في الطريق.

أسرعت في المسير، وهي تمزق الغلاف، وتفكر في حنين زوج خالها إلى صانعة الدُمى. تفكر، ربما كان عليَّ أن أترك هذا الطرد حيث كان. لم يكن اسمي مكتوبًا عليه. ربما لم يكن من أجلي.

ولكن فات الأوان، هكذا قررت تِيَا. كما أن كل الطرود السابقة كانت لها. حالما تنعطف عند ناصية شارع اللايذغراخت، وقفت مُتسمّرة، تُطلق شهقة مسموعة، وهي تنظر إلى ما يستقر في يدها، استدار بضعة من المارّة إليها، لكن تِيَا لم تشعر بهم. ففي منتصف الغلاف استقرت الأناناسة الأكثر كمالاً وواقعية حد الذهول، والصغيرة جداً في الوقت نفسه.

انبثقت أوراقها من القمة، خضراء داكنة تتخللها خطوط فضية. لا تزيد في حجمها عن لوزة صغيرة، لكنها أكثر اكتنازاً.

في بداتها ومتانتها، تبدو قشرتها الخارجية صلبة مثل ثمرة كاسبر الحقيقية، ولبُها لا يصاع إلى لمستها إلا بمقدار بسيط. يصعب أن تعقبها أظفار تِيَا، كما أنها لا تريد ذلك. لا تعرف المادة التي صُنعت منها، لكنها متأكدة أنها لا تصلح للأكل،على الرغم من ميلها الشديد إلى أن تجرِّب. إنها جوهرة غريبة قد تضعها سيدة في خاتم، ولا يمكن رؤيتها في مكان آخر، الشيء الذي تشتهيه نساء أمستردام. رفعتها تِيَا أمام عينيها، وأدارتها بين إبهامها وسبابتها في تعجُب.

وفجأة، شعرت بالبرودة وانتصب الشعر على مؤخرة عنقها، وذلك الوخز الذي ذكرته الخالة نِلا عندما تحدثت عن صانعة الدُمى: ذلك الشعور بمن يراقبها مراقبة ثاقبة. سمعت أحداً ينادي اسمها. رفعت رأسها بحدة، وهي لا تعرف حتى عمَّن تبحث. لا أحد ممن تراه الآن يراقبها؛ بعد شهقتها الأولى، عاد الجميع إلى الانشغال في أعمالهم.

اقتربت خطى متسارعة من خلفها. كورت تِيَا قبضتها، جاهزة لأي شيء. وزاد خوفها، لا يمكنها أن تحمل نفسها على الالتفات. كانت كورنيليا قد وصفت هذه المرأة بالساحرة. انتظرت فيما يشبه قطة، مُستعدة للانقضاض.

- إنها أنتِ فعلاً، سمعت صوت امرأة. وحفيف تنورة، وبرز وجه أمامها، وجه إليونور ساراخون.

وفي الحال، اختفى إحساس البرودة على عنق تِيَا. وضمت أصابعها حول الأناناسة تحميها داخل راحتها. رأت غلاماً يحوم، ينتظر انتهاء سيدته من هذا اللقاء. إنه أسود، وتتلاقى أعينهما قبل أن يشيح ببصره لينظر إلى أصابع قدميه. معطفه واسع جداً، ومعصماه غارقان في سوارين كبيرين. لكن تِيَا هي من

تشعر فجأة بالحرج من أن الصبي لن يتقدم أيضاً، بجرأة إليونور نفسها، أو جرأتها هي. إنه صغير جداً كما هو واضح، إلى درجة قد تصدّه عن الحديث إليها. كان من النادر دائماً بالنسبة إلى تِيَا أن تكون قريبة من الأطفال ذوي البشرة الداكنة الذين تراهم في المدينة، ويتصاعد في داخلها حنين قديم أن تسمع هذا الطفل يتكلم. يتكلم فقط عن اليوم الذي وجدوا أنفسهم فيه مُستعبدين، أو ربما تُريه الكنز في يدها المضمومة، وتطرح أسئلة أيضًا: لماذا لا يمكنهم أن يجدوا معطفاً يناسب مقاسك؟ من الذي يقص شعرك إلى هذا الطول القصير؟ غرق كلاهما في لحظة صمت، وأمام دهشة تِيَا، أخرج الصبي لسانه لها. لكن في تلك اللحظة تكلمت إليونور، وضاعت اللحظة.

سألتها إليونور، وأنفها يتغضَّن:

- لماذا لم تتوقفي؟ لقد ناديتُ اسمك.

- إليونور. ظننتكِ شخصاً آخر.

- لم نركِ منذ وقت طويل. وأنتِ لا تذهبين إلى المسرح أبداً. وقد أقمنا حفلات عديدة لم تكوني فيها.

- لم أتلقَّ دعوة.

- آه... تراجعت إليونور خطوة، وعيناها تتأملان ثوب تِيَا، قالت:

- أنا في طريقي إلى تاجر الحرير الخاص بي، أتحبين مرافقتي؟

لم تجب تِيَا. إنها لا تثق في هذه العروض، ولا تريدها.

ضاقت عينا إليونور، ثم توجهتا إلى قبضة تِيَا المضمومة:

- ما هذا الذي في يدك؟

- لا شيء.

ظهرت الدهشة على إليونور:

- لو أنه لا شيء، فأرني إياه إذن.

- لا.

- ماذا تخفين، يا تيَا براندت؟ أنتِ وقحة جداً، هل تعلمين؟ لستِ ماهرة في تكوين الصداقات.

- إنه يتوقف على من أقابله.

اعتدلت إليونور في وقفتها:

- سأمضي في طريقي إذن.

قالت تيَا:

- إنها أناناسة.

ضحكت إليونور:

- يا لغرابة اختراعاتك. ألا تعرفين أي شيء؟ لا أناناسة يمكنها أن تكون بهذا الصغر.

تنهدت إليونور، وأدركت تيَا فجأة، كم أن إليونور نفسها سيئة في تكوين الصداقات. هزت إليونور رأسها، وكأن تيَا ميئوس منها، و مجنونة قليلاً، وشرعت في السير باللايدزيغراخت. وهي تقول: ألبرت، تعال، فاستدار الغلام فورًا في معطفه الواسع، من دون أن ينظر وراءه مُنضمًا إلى سيدته.

لكن إليونور تتوقف مرة أخرى وتستدير. تسألها:

- هل هو صحيح؟

- الأناناسة؟

حدقت إليونور في تِيَا:

- كلا. هل صحيح أنكِ ستتزوجين ياكوب فان لوس؟ سمعتُ أن طلب الزواج قُدِم. كِدتُ لا أصدق.

ذهلت تِيَا كيف تجري الكلمات مثل الماء في هذه المدينة، كيف تسرَّب خبر اسميهما هي وياكوب من الكنيسة القديمة، مُتسلقاً خيالات الناس. تتأمل وجه الفتاة الأخرى. وإليونور، المُتمرسة في الثرثرة، تعبر عن الاستياء من شخصها في ابتسامة متكلفة.

أجابت تِيَا:

- هذا صحيح. سنفعل، صباح الغد.

رأت عيني الصبي تتسعان، قالت إليونور:

- حسناً. إنني أشفق عليه.

- عفواً؟

- أجل. آمل أنّ أحداً على الأقل قد علَّمكِ كيفية إسعاده.

ظلت واقفة، مذهولة، وهي تشاهد إليونور وألبرت يختفيان فوق الجسر. لوهلة، رغبت في الركض خلفهما، وهزِّ إليونور إلى أن تصطك أسنانها. لكنها فتحت راحتها مرة أخرى، لتتأكد من أنها لم تكن تحلم، أنها ليست مجنونة، وأن أناناسة صغيرة تُركت حقاً على عتبة منزلهم.

كانت هناك تكاد تتوهج من الداخل. حدقت فيها تِيَا، وفي داخلها يختلط الافتتان بالخوف، هل يُعقل حقًّا أن صانعة الدُّمى تعرف أن كاسبر فيتسن أحضر لهم أناناسة؟ وأن والدها يحلم على الأرجح بهذه الأشياء، وأن زوج خالها تفضّل ترك

الأناناسة التي يملكونها محفّن في منزلهم بالميرغراخت؟

فكرت في حفل زفافها، الباقة التي أعدها هندريكسون بائع الزهور: الوردي المحمر والأحمر القاني للفاوانيا والورود، زهور المسلة رمزاً لروابط الحب. روابط الحب، وكأن الحب له قيود، قيود ثقيلة مُعرَّضة للصدأ. تنتظر الباقة في جرَّة فيها ماء ينابيع على رف غرفتها، مُؤقتة توقيتاً مثالياً لتصير في أوج تفتحها من أجل الكنيسة القديمة صباح الغد، وألوان زاهية تحوي هزيمة النوافذ الزجاجية القديمة. قيل لها أن تتدرب على حملها جيداً، حتى لا تهشِّم السيقان. تخيل، أن تتزوج إلى جوار عظام والدتك. لغز عظامها في الأسفل من لغز الابنة.

هناك كثير مما يحتاجُ القيامَ به في المنزل. تعديلات اللحظة الأخيرة في الفستان، إعداد شعرها، حمامات اللافندر التي عليها أن تقبع فيها حتى تفوح بالعطور قدر المُستطاع من أجلِ الغد. أما كورنليا، فمُنشغلة بتوفير ماء الورد وزهور السكر، والسَّلَطات واللحوم، والمعجنات والمهلبية. كانت عائلة براندت قد دعت عائلة فان لوس إلى الميرغراخت بعد الحفل، ويقول ياكوب، أنه لم يتوانَ في تسليم الدعوة. كانت ثياب والد تيا تتدلى بقتامة على ظهر باب، وكذا ثياب زوج خالها، في درجات من الأسود الداكن. قد يحدث جدل حول وجوب أن يرتدي لوكاس طوق زفاف. الماضي يظلل الحاضر، إذ وراء كل هذا يجري شعور بالوداع، حياة تنتهي، لتحل محلها ربما حياة أصعب وأقسى. ووراء ذلك، فجوة في قلوبهم. فجوة بحجم تيا.

دسّت تيَا الثمرة المُنمنمة في جيبها وتواصل طريقها إلى المسرح.

إن قصصنا لا يمكن أن تنتهي إلا بطريقة واحدة، ذاك ما

كانت الخالة نيلا تكرر قوله، تميل إلى الاعتقاد بوجود نهايات متعددة: لكن مصائرنا لا تملكها أيديا، وربما لم تكن ملكنا قط في المقام الأول.

لكن تِيَا ليست متيقنة كثيراً من ذلك. إذاً، من يملك أن يجزم؟ إنها تستعرض شريط حياتها كما عرفتها، فتجده لامعًا أحياناً، وأحياناً أخرى، كالآن، مهترئاً يحتوي قصصاً مختلفة، مُحتشدة بعد على مرمى قدم، جاهزة للحدوث. إن الفرص، تلك الضائعة وتلك المُغتنمة، قد تفضي إلى نهايات جديدة. وتِيَا، التي تسير الآن في الكيزرغراخت، تكاد تراها في الهواء. هنا والتر، رجل أعزب، يحبها من دون تعقيدات. زوج خالها امرأة سعيدة. والدها، ينال مكافأته. خلف هذا الصباح الحزيراني، يوجد انتظار آخر. سيُسحب الستار ويكون كل شيء مختلفًا. ليت في وسعها أن تعقد العزم، وتجد الستار.

ربما هو خيال الموقف ليس إلا، هي تِيَا تفكِّر. أن أجد نفسي مخطوبة، حيث الحب ليس ظاهراً. لو أن شكسبير مازال حياً، لأحسن عملاً بالانتباه إلى هذه الحبكة. كيف أنها، حتى تتفادى انتقام زوج حبيبها، ستُزفُّ غدًا إلى رجل لا تحبه. وأهلها، بأزيائهم واكسسواراتهم، قد أخفوا حقيقة انحدارهم الأرستقراطي، واستدرجوا محامياً شاباً ثرياً أظهر ميله إلى ابنتهم. إلا أن كل هذا لا يحمل في طياته إحساساً بالنهايات المُهترئة والمُضحكة المُرتبطة بعاصفة من التصفيق. إن حبكتهم تبدو خارجة عن السيطرة وفوضوية وغريبة، لكنها مع ذلك حياة تِيَا. وهي تمشيها، خطوة تلو خطوة مُتبلدة، عازفة على أوتارها، ومدفوعة بها أيضاً. تشعر أنها تُمسك بمقاليد حفل الزفاف غدًا، وتحت رحمته في الوقت نفسه.

عند باب كواليس السخاوبيرخ، شعرت تِيا بالارتياح عندما اكتشفت أنها وصلت قبل الحارس. وجدت أن الباب تُرِك مفتوحاً، فانسلّت من دون أن يفطن إليها أحد. اندفعت عبر الممرات حتى وصلت إلى باب ريبيكا، وهي مرعوبة من أن ترى والتر، مُختتماً هذا اليوم المادئ للعمل على لوحاته. تطرق الباب، راجية أن تكون الغرفة مأهولة، وتهمس: "ريبيكا، أنا تِيا، أنا تِيا. أدخليني.

وخلال ثوان، فُتح الباب، ووجدت ريبيكا واقفة أمامها. فاندفعت بين ذراعيها، ودفنت وجهها في كتفها. وهي تتمتم:

- أنا آسفة. آه، أنا آسفة، أنا آسفة جداً.

ضمتها ريبيكا بقوة، ثم أبعدتها مسافة ذراع، من دون أن تتركها:

- ليس عليكِ أن تعتذري.

- بل عليّ. مضت شهور منذ آخر مرة زرتك.

- تِيا، لا بأس. ماذا حدث؟ ما الأمر؟

- لم أكن أعرف حتى هل آتي أم لا. خشيتُ أن أجده.

قطبت ريبيكا:

- والتر؟

- لقد فشل كل شيء. فشل كل شيء بفظاعة.

أغلقت ريبيكا باب حجرتها، وقادت تِيا إلى الطاولة الصغيرة. في ركن الغرفة، أفاقت الكلبة إميرالد من سباتها، ثم لم تلبث أن أراحت رأسها من جديد. قالت ريبيكا، وهي ترفع دورقا بلوريا:

- لم أصنع قهوة بعد، لذا عليكِ أن ترضي بالنبيذ، ثم اختلست نظرة إلى تِيَا، وتابعت: وهو ما أظنه خيارًا أفضل، في ظل هذا الوضع.

تناولت تِيَا القدح الزجاجي من يد ريبيكا، وجلست على أحد الكراسي عند الطاولة المكدّسة بالنصوص، و أخذت تجرع الخمر. إنها حامية وقوية، وتكوي أحشاءها. قالت:

- هل هو هنا؟

تغضن وجه الممثلة:

- في هذه الساعة المبكرة؟ محال، ونظرت إلى تِيَا بحذر، ولكن، لماذا تسألين؟

أخذت تِيَا نفساً عميقاً. كانت أسابيع عديدة قد مضت، وبات في وسعها التحدث عن هذا إلى أحد، لكنها، مازالت لاتعرف إن كانت ستجد الكلمات. فقررت التطرق إلى جوهره، الجوهر الرهيب. قالت:

- إنه متزوج.

هبطت ريبيكا بتثاقل فوق كرسي آخر، وقالت:

- يا يسوع الحبيب. هل أنتِ متأكدة؟

- آه، بمقدار ما أريد أن أكون.

قالت ريبيكا:

- تِيَا. لم أكن أعرف حقاً. كنتُ أرى أنه لا يستحقك، لكن هذا أسوأ مما تخيلت.

حدّقت تِيَا في ثمالة قدحها:

- كانت زوجه تعرف بشأني منذ البداية.

امتقع وجه ريبيكا:

- ماذا؟!

- كيف أمكنه أن يفعل ذلك؟ وأنا التي أحببته. أحببته فقط.

بدأت الدموع التي كانت تنتظر لأسابيع في الانهمار، وأفلتت من تِيَا أنّة ألم خافتة، أنّة غضب، وأخذتها ريبيكا بين ذراعيها إلى أن يتوقف النحيب أخيراً. كان وجهها ملطخاً وأحمر، ناضباً، لكنه أهدأ.

سألتها ريبيكا:

- هل أخبرتِ عائلتكِ بهذا؟!

نظرت تِيَا إليها في رعب:

- هل تمزحين؟ طبعاً، لم أفعل.

- عليكِ أن تفعلي.

- لن أخبرهم أبداً.

تنهدت ريبيكا، وقالت:

- لو كنتُ مكانكِ لفعلت. إنهم لن يعاقبوك.

- أنتِ لا تعرفين عائلتي. وعلى أيّ حال، لو كنتِ مكاني، لما وضعتِ نفسكِ في هذه الفوضى من البداية.

ابتسمت ريبيكا:

- لا تكوني واثقة هكذا. لماذا في رأيكِ كنتُ أحاول تحذيركِ؟ إنني أعرف ذلك الشعور.

بدا مستحيلاً بالنسبة إلى تِيَا أن امرأة رابطة الجأش، وقوية وكريمة مثل ريبيكا، قد تسمح لأحد باستغلالها هكذا، أن تختلط عليها الأمور بهذا الشكل.

همست تِيَا:

- كنتُ سيئة معكِ.

أمسكت ريبيكا يد تِيَا، وبيدها الأخرى أخذت تجفف دموعها بأصابع باردة ورقيقة.

قالت:

- إنكِ لن تنسيْنه، يا تِيَا. لا أملك أن أعدكِ بالنسيان. لكنكِ في السنوات القادمة، ستفكرين فيه بتعبيرٍ هادئ. ستعاملين نفسكِ برقة لن تظني أنكِ تستحقينها في هذه اللحظة.

شعرت تِيَا بارتياح بعد لقائهما، قالت:

- أنتِ صديقة رائعة معي. كدتُ أخسركِ.

- أبداً. لم أذهب إلى أي مكان.

أخذت تِيَا نفساً عميقاً، ومدت يدها في جيب تنورتها، تتحسس سطح الأناناسة الصلب، ولوهلة فكرت في أن تُري ريبيكا هذه التحفة، أن تشاركها هذه الحكاية غير المكتملة لصانعة الدُمى، والقطع الموجودة في صندوقها السري، حنين زوج خالها إلى المعنى، إلى لقاء واحد آخر مع هذه المرأة الغامضة. لكنه ليس الوقت أو المكان المناسبين. إنه شيء عليها فيما يبدو أن تبقيه بينها وبين أسرتها.

في المقابل، أخرجت رسالتي الابتزاز ومررتهما على الطاولة نحو ريبيكا، وقالت: - أريد أن أريكِ هاتين. كتبتهما زوجه.

اسمها جريتا. لقد ابتزتني.

حذّقت ريبيكا في الرسالتين، وقرأتهما في عجالة"

- يا إلهي.

- اضطررتُ أن أدفع لها كي تلزم الصمت بخصوص والتر. كما ترين، لو أني لم أفعل، لأخبرَتْ عنّا أناساً من أمثال كلارا ساراخون. كانت سمعتي ستُدمَّر.

للحظة، لزمت ريبيكا الصمت، وقلّبت. الرسالتين على الطاولة، تراجعت في كرسيها، وقالت:

- وهل كان والتر يعلم أنها كتبت هذه؟

سكتت تِيَا قليلاً، ثم قالت:

- أجل.

تلوي ريبيكا شفتيها:

- حثالة.

- يجب أن تري أين يعيشون، يا ريبيكا. إنه فقير جداً، ولهما طفلان، و...

- تِيَا، لا. لا يمكنكِ أن تدافعي عنه. ما فعله كان خواراً وقسوة. ضربت سطح الطاولة بحافة قبضتها، تابعت: كنتُ أعرف أن ثمة شكوكاً حوله. لقد رأيت ذلك. كنت أعرف. كان يجدر بي أن أفعل المزيد.

- لم أكن لأسمح لكِ.

- لكني سمحتُ لكِ بلقائه هنا...

- أنا راشدة.

- كان عليّ أن أكون صديقة أفضل.ا

قالت تِيَا، بقلب مثقل:

- كنت سألتقي به في مكان آخر لو استطعت. إنها غلطتي.

- ليست غلطتك.

- لكن جزءاً منه كذلك. لقد رأيتُ ما أردتُ رؤيته. وقد أردته كثيراً.

تغلق تِيَا عينيها، مُسترجعة كل أوقاتها في المرسم، ذلك العالم المنعزل مفصولاً تماماً عن الواقع. يد والتر على جلدها، لمسة شفتيه، والأشكال المُدوِّخة للوحاته تدور حول رأسيهما وكلاهما يذوب في جسد الآخر.

في مثل هذه اللحظات واسترجاع الذكرى، في دفء حضور ريبيكا، تتساءل إن كانت نزيف القلب التي حدث يستحق. لكن إحباط سعادتها وخوفها من جريتا يلاحقانها، حتى ليُخيَّل إليها أنها قد تتقيأ. فتحت عينيها، وسكبت لنفسها كأساً آخر من النبيذ.

سألتها ريبيكا:

- هل أنتِ بخير؟

- جريتا قد تهددني مرة أخرى. إنهم في حاجة إلى المال. لكني وجدتُ صعوبة فعلاً في أن أدفع لها في المرتين الأولتين."

- ظننتكِ غنيةً؟

- تملك مظهر الأغنياء. لقد دفعتُ لها سرًّا من أموال لا تعرف عائلتي عنها.

- كيف؟

- بعتُ خريطة أفريقيا الخاصة بأمي.

قالت ريبيكا، ووجهها يخيم عليه القلق:

- تِيا، هذا فظيع. لا يمكنكِ الاستمرار هكذا. ماذا ستفعلين؟

تقول تِيا:

- حسناً، تعالي إلى الكنيسة القديمة، غدا في العاشرة صباحا. سأرغب كثيراً في أن أراكِ هناك.

- الكنيسة القديمة! لماذا؟

- لتشهدي زواجي.

- زواجك؟

- أجل.

جحظت عينا ريبيكا، وقالت:

- بمن؟

- ياكوب فان لوس. الرجل الذي قابلته زوج خالي في حفل ساراخون. هل تذكرين؟ إنه يقيم في البرنسغراخت. ربما كنتِ مُحقة، في النهاية. لقد وجدتُ فعلاً شاباً جيدًا. أو على الأقل، وجدته زوج خالي.

بدا الهلع على ريبيكا:

- ولكن...

- إن ياكوب مُناسب. غني. وسوف يتزوجني.

أخذت ريبيكا يد تِيا:

- هل تريدين الزواج منه؟

- أنا من بدأتُ، يا ريبيكا. أنا من قلتُ إنني أريده. والأمر لا يخلو من مصلحة. ياكوب سيوفر الحماية لي، ولعائلتي، لما تبقى من حياتنا.

"ولكن ماذا لو سمعت جريتا بزواجك؟ ماذا لو بدأت بمكاتبة تيَا فان لوس في البرنسغراخت، مطالبة بالمزيد من المال؟ سيكون عليكِ إخفاء الحقيقة عنه وكذلك عائلتك. ماذا لو أن الأمر لم ينتهِ قط؟ يجدر بكِ أن تخبريهم بالحقيقة.

هذه الفكرة أخرست تيَا لبرهة قصيرة. متصاعد في حلقها موجة غثيان، قالت:

- لم يعمل أبي منذ عيد الفصح. ونضبت مدخراتنا. إنها مجازفة سأتحملها، لأنني أملهم الوحيد.

قالت ريبيكا، بنبرة يائسة:

- ربما تحسبين ذلك. لكن هذا لا يعني أنه صحيح.

- لقد قاموا بتربيتي والعناية بي، وكل ما فعلته في الأشهر القليلة الماضية، منذ قابلت والتر، هو أني تصرَّفتُ بأنانية كبيرة.

- آه، بربِّك. لا أظن...

- قد آن الأوان لأرد لهم الجميل.

- لا جميل في كونكِ ابنتهم، يا تيَا. وكيف هي عائلته؟

- لم أقابلهم. سيأتون من لايدن الليلة، للمكوث معه، لكني لن أقابلهم حتى صباح الغد.

- هل هو رجل طيب؟

حدّقت تِيا في الكأس الفارغة، وقالت:

- لا أعرف.

بدت ريبيكا بائسة. قالت تِيا:

- ألن تأتي غداً؟ لا توافقين على تصرفاتي؟

- أنا أفهمها، يا تِيا. أنا أفعل. أنا نفسي شجعتكِ أن تجدي شاباً. وضعت ريبيكا رأسها بين يديها، وقالت:

- والآن أتساءل إن كانت تلك خطة جيدة.

ابتسمت تِيا، وقالت لها:

- كثيراً ما أحلم أن أكون مثلك. لطالما أردتُ أن أكون مثلك. لا زوج لديكِ، ولا التزامات. ولكن بخلاف زوج خالي، فأنتِ تتصرفين حسب رغبتك، ولهذا يحبكِ الناس.

- تِيا، أنا ممثلة لأني لم أكن ماهرة في شيء آخر. كنتُ في حاجة إلى المال. لم تكن لي عائلة تحبني.

- لا أظن أن تلك هي الأسباب الوحيدة. لقد رأيتكِ على تلك الخشبة.

صبّت ريبيكا لنفسها كأساً ثانية:

- إنني أفعل هذا مذ كنتُ في السادسة من عمري، وليس في وسعي أن أجزم هل ستكون المسرحية التي أؤديها هي الأخيرة أم لا. إنني أكبر. الأدوار المُناسبة تقل. وقريباً، لن تعرض عليّ سوى أدوار الشمطاوات والسحرة، وحتى تلك ستتوقف. ويوماً ما، لن يرغب أحد في مُشاهدتي، وسوف أنظر في المرآة ولا أعرف من أنا. ثم ماذا؟ ماذا تبقّى لي وانعكاسي الأجوف، وفعل ما يحلو لي؟

تقول تِيَا:

- الحرية.

ضحكت ريبيكا.

- آه، ذاك.

نهضت تِيَا، وقالت:

- أريد ترك هاتين الرسالتين معكِ. هلا حفظتهما من أجلي؟ أخاف أن تقعا بين يدي عائلتي أو ياكوب.

رفعت ريبيكا عينيها إليها، وقالت:

- مادامت هي رغبتك، وأغلقت عينيها وأخذت تدلك صدغيها، وقالت:

- ابقي هنا اليوم.

- لا أستطيع، يوجد الكثير...

- ابقِ، وشاهدي مسرحية الظهيرة.

ترددت تِيَا:

- ما اسمها؟ مضى وقت طويل منذ آخر زيارة لي.

- لن تصدقي عندما أخبرك.

- منكِ، سأصدق أي شيء.

ابتسمت ريبيكا:

- إنها ترويض النمرة.

***

أخبريني، يا تِيا براندت: لماذا تأتين إلى المسرح؟ منذ أشهر مضت، كانت ريبيكا قد طرحت عليها هذا السؤال في هذه الغرفة نفسها، وأخبرتها تِيا أنها تأتي باسم والتر.

لم يكن هو السبب الحصري، أدركت تِيا ذلك الآن. بدا شيئاً يجدر بشابة مُغرمة أن تقوله. الحقيقة هي أنها كانت تأتي أيضًا لأنها تحب مشاهدة المسرحيات. لكن تِيا اليوم، تتساءل إن كان من الحكمة أن تبقى وتشاهد قصة عن امرأة تتعرض للتنمر والإخضاع بوساطة رجل جديرٌ به أن يكون أكثر حكمة وتعقلاً، مهما كان التهكم الذي تجسد به صديقتها الدور. باسم باكوب، يجدر بتِيا أن تغادر.

لكنها تبقى. هنا بيتها الثاني، في النهاية، مع صديقة حقيقية تعيش على هامش حياتها الميرغراختية. هنا الخيال الذي آمنت بها تِيا دائماً أكثر من الحياة. وما يدريها أنه بعد غد سيسمح لها زوجها بالذهاب إلى المسرح؟ لقد اشترى لها فعلاً ذلك الكتاب عذراً منه: إنه على النقيض منها، لم يخفِ نفسه. من يجزم أن تِيا قد تنعم بمثل هذه الحرية مرة أخرى، أن تجلس هنا، مع امرأة أخرى وكلبها الصغير، ودورق نبيذها، وأكوابها من التصوص والروح الخفيفة والمُهتمَّة، في غرفة دافئة صغيرة حيث لا تسري القواعد؟

بقيت تِيا، وأخذتا تتحدثان وتضحكان على أي شيء، وعندما يحين الوقت، لم تجلس في صالة المسرح، ولكن لأول مرة في حياتها، وربما الأخيرة، تشاهد تِيا صديقتها من الأجنحة. ليس في دور شمطاء أو حيزبون، أو ساحرة أو صانعة دمى. لكن ريبيكا في دور كاثرين: الممثلة الأسمى.

25

لمرات عديدة، ستعود نيلا بذاكرتها إلى صباح اليوم المحدد لزفاف تِيَا على ياكوب وتتساءل ما الذي أغفلته. ليس في ذلك اليوم فقط، طبعاً، ولكن في كل الأيام التي سبقته، وأدّت إلى اللحظة التي دخلت فيها غرفة تِيَا مع بداية شروق الشمس. خلال الأيام والشهور والسنوات من حياتها مع تِيَا، خلال تِيَا نفسها، هل كان هناك تلميح أو مؤشر ربما كان ليُعدُّها لما انكشف؟ كانوا قد اجتهدوا من أجل هذا اليوم، جميعهم. فأزاحوا الآلام التي في قلوبهم والشكوك التي في عقولهم، وأبعدوا عنهم مخاوفهم بالمثابرة والرجاء نفسيهما اللذين نحت بهما الصائغ تمثالي العروس والعريس على كأس تِيَا. صحيح أنهم لم يلتقوا بعائلة ياكوب بعد، صحيح أنهم اضطروا إلى أخذ قرض بعشرين ألف جلدر ورهنوا هذا المنزل لتحقيق هذا الزواج. لكن القس كان ينتظر في الكنيسة القديمة، وأرسل المال، على هيئة رزمة من الأوراق النقدية، إلى ياكوب. كانت الحياة عمليةً تكيف، وبدا أن تِيَا قد بدأت تتكيف.

في ذلك الصباح، استيقظت نيلا أبكر من الشمس. كان الشراب الذي يصنعه كاسبر ڤيتسن قد نفد، ولم تكن قد نامت جيّداً، جرّاء مخاوف كثيرة حول أي خطوب قد تحدث - عريس لا يظهر، والد عروس يمنع تِيَا من تلاوة نذورها. بينما تضع شراشفها، دارت هذه الصور في عقل نيلا، سويًّا مع ذكرياتها عن انتظار تمام الزفاف في بيت أهلها بأسِيلفت، مصغية إلى صوت خيول تُنبئ بوصول يوهانس. لم يكن في حياتها أبٌ حينها يحول دون إقامة الزفاف. بل إن إسراف

خيرت أورتمان وحبه لشرب الخمور كانا السببين الرئيسين في زواج ابنته الكبرى من الأساس. زواج سريع: فلا ضيوف، لا كأس عروسين، لا وليمة أو رقص. أقله، مع أكل كورنيليا، وباقة زهور هندريكسون، سيقدمون عرضاً أفضل من أجل تيا.

في ظلام الفجر، وهي تحلم، كان والد نيلا وكأنه في الغرفة معها: أول رجل في حياتها، الميت منذ أكثر من عشرين عامًا. جالساً في الركن على الكرسي المجاور لصوان شراشفها. في سرواله الناعم الذي اعتاد ارتداءه، ذاك المُلطَّخ بالزيت، وحذاء أسود مكشوط، ومعطف فضفاض، وذاك الشعر الأشعث. يكاد يكون مقبول الهيئة في ورشة دباغ، فما بالكم بمنزل في الجودين بوخت. لم يكن أحد ليُخمِّن أنه جاء من سلالة أرستقراطيين. كان آل أورتمان يمتلكون الأراضي في جميع أنحاء أسدلفت لأكثر من مائتي عام. مكافحين شرسين دائمًا، حتى جاء خيرت أورتمان ودمَّر كل شيء.

- ماذا حدث؟ هكذا ظل يسألها، ونيلا لا تعرف هل يقصد نفسه أم ابنته أم تيَا. تحاول أن تقول شيئاً، لكنها لا تستطيع، ثم تستيقظ، مُشوشة. تفكر، لست مثله. لم أدمِّر كل شيء.

لولا أن والدها مات. وزوجها. ومارين. وأمها، وأختها. لولا أن الموتى قد تراكموا. حسناً، لما كانوا سيذهبون إلى الكنيسة القديمة من الأساس. نيلا واثقة، أن والدها لو لم يكن سكّيراً، لأصبحت حياتها مختلفة، أقل تعبُّلا، أقل اعتماداً، وأكثر امتلاءً. لقد باع أملاكه للإنفاق على إدمانه حتى لم يتبقَّ سوى المنزل ببساتينه وبحيرته. لم تكن الكأس تفارق يديه. حتى في هذا الوقت، في هذا الصباح السعيد ليوم زفاف، يمكن لنيلا أن

نسمع أزرار صفديه تحتك بطاولة المطبخ في أسِدلفت، ارتطام رأسه بالخشب، ونعلا حذائه يخدشان الأرضية بينما عُادى لمساعدة كاريل وأمها في حمله إلى الفراش. كان جسده جسداً دائم التقلقل، راغباً في إثارة داخل حياته أكثر مما جلبته زوجه وأطفاله جميعاً.

- حسناً. خاطبته نيلا من دون صوت في غرفة نومها، مُصغية إلى طيور النورس في الخارج: إنك لم تترك لنا سوى الإثارة.

لقد تركت قرية أسِدلفت لتتزوج يوهانس، لكن أمّها رفضت أن تترك منزل أورتمان المتداعي، حيث في الشتاء يتسرَّب الماء من السقف فوق رؤوسهم ويتقاطر على الأرض. إنه كل ما تبقى لي، هكذا كانت تقول، متعلِّقة بتلك الغرف بجَهد. كان منزلًا جميلًا ذات يوم، وظلَّ كذلك في عيني السيدة أورتمان. كانت أرابيلا، الطفلة التي تُركت هناك، تكتب إلى أختها في أمستردام، خطابات لم ترد عليها نيلا قط. أخبرت شقيقتها الكبرى كيف أن أمهم تُقسم أنها تسمع أصوات بشر في الغرف عالية الأسقف. إنها تتبادل معهم الأحاديث، هكذا كتبت أرابيلا: موجهة كلامها إلى الهواء.

كانت أمُّ نيلا تمرر أصابعها على ألواح خشب الورد المتسخة التي تكسو الجدران، وكأنها صُقلت حديثًا. كانت تبتسم في المطبخ، وكأنما تنبعث منه روائح طيِّبة. لقد خلقت حواسها منزلاً لم يعد موجوداً، لكنه مع ذلك كان يأويها. عندما تراخت قبضتها حول عقلها، كفَّت أم نيلا عن رؤية بحيرة تغطيها الحشائش. بل كانت بالنسبة إليها عوضاً عن ذلك، ماء مُتلألئاً، تعبره عائلة من البط. كان سطحه ساكناً وشفافاً كالمرآة، وقد ولجته لترى نفسها.

ومع ذلك لم تعد نيلا قط. كانت نيلا متزوجة من يوهانس، مُستكينة في بيتها الجديد بأمستردام، الجاف والفاخر، والقائم في موقع مثالي في الجودين بوخت. كانت قد فتحت صفحة جديدة. لكنه دائماً هناك، ذلك المنزل، أولئك الأشخاص، المكان الذي بدأت منه. تُسبل نيلا جفنيها مرة أخرى. تفكر في كاسبر، راسماً فوق طفولتها بخطوط احتلال سوداء. التخطيط لبناء دفيئات فوق أرضها، الغضب الذي شعرت به. فكرت في هذا المنزل الذي يحيط بهم، كيف يتداعى طلاؤه أمام رطوبة المدينة. لقد أسلم أوتو هذا المنزل، أسلم حياته، لأيدي المُرابين، شارباً في صحة مستقبل ياكوب وتِيا فان لوس. رأت نيلا أنه، من غير المعقول أن يضعوا أثرهم الضخم على مثل هذا الخط الرفيع. في عيني عقلها، تراه يتزعزع، ولا تحتمل أن تفكر فيما قد يحدث لو أن أحدهم قام بحركة خاطئة، أن ترى البيت الذي احتواهم لسنوات عديدة ينهار.

أيقظت نيلا نفسها: إنها الدوامة المعتادة لعقلها فحسب، التفكير الكثير. تُركز على اليوم الحالي، اقترب وقت إيقاظ العروس وإطعامها ومساعدتها في ارتداء ثوبها ومرافقتها إلى الكنيسة. عندما تحل الساعة العاشرة والنصف، ستكون تِيا براندت زوجة.

***

حينما طرقت نيلا باب غرفة تِيا ودخلت، شعرت أن هناك خطب ما. هناك شكل في الفراش، والغرفة ساكنة. المصاريع مُغلقة، وشريط طويل من الضوء يمتد عبر شق، مُنتشراً في اتجاه قدمي نيلا. كان فستان زفاف تِيا، مكبوساً ومعطّراً، مخيطاً ومزوّقاً، ومبسوطاً على الكرسي بعد أن كان معلقاً في

دولابها. في الظل، يمتد ذراعا الفستان فوق المقعد، وتورته المريضة تبرز إلى الأعلى: التضليع داخل المشد ونوعية القماش اليابسة تجعله يبدو وكأن امرأة ناضجة، تلقي بنفسها إلى مصيرها. تستقر باقة العروس على رف خلفه، ثابتة ومثالية كواحدة من لوحات زهور ياكوب، جوار هدية الكتّاب عن المسرح. شعرت نيلا برعب يتصاعد وهي تحدق في ذراعي الفستان المبتورين، مثل كُمّين يمتدّان ببؤس إلى تلك البتلات المُكتنزة، وأعناقها المبتورة، تشرب آخر ماء لها. فمها جاف. لا تجرؤ أن تدير رأسها نحو الفراش.

لكن حركة صدرت من الفراش. فنظرت، متوقعة أن ترى تِيَا تتحرك. تِيَا، مشعثة، ناعسة، تنهض، تفتح نوافذها لتُدخل الضوء. لكنه لوكاس، يتمطى مُستيقظاً، مُقوِساً ظهره الطويل في الظلال الزرقاء. وفوراً، يقفز من على السرير ويأتي إلى نيلا، مُتمسِّحاً في تورتها. وتعرف على الفور، كما يعرف هذا القط. ركضت نيلا إلى الفراش، تشد الكِلّة التي كان ينام فيها لوكاس، والخوف يملكها بشدة، شعرت أن قلبها عالق في حلقها.

تعاركت مع تلك الشراشف لتكشف عن الوسائد التي صنعت جسماً تحتها، تيا التي صارت جِوالين من الريش الناعم لكنه ينذر بالشر، لا رأس له ولا ذراعين كالفستان الذي هجرته.

انهارت نيلا بين الوسادتين، ومدت يديها بصعوبة إلى شنكل المصاريع. تنادي اسم تِيَا، مرة تلو أخرى. وأخيراً نجحت في فتح المصاريع، فغمر عينيها اللون الذهبي المخضر بينما تمعّن في القناة. لا يوجد أحد في الأسفل، لا نفس واحدة، عدا أنها في

اللحظة التي تهم فيها بالابتعاد عن النافذة، لمحت امرأة تقف عند الزاوية القصيّة من تقاطعهم مع الفيزوسترات، في ظل المبنى المقابل، غطاء رأسها مرفوع، وتحدق صوب منزلهم.

وحينما نجحت نيلا في تركيز نظرتها المذعورة على المكان، باحثة عن رأس بشعر زاهٍ تحت القلنسوة، لمحت قدمين تفرّان، وتتلاشيان إلى العدم في الفيزوسترات. ربما يكون أي شخص. أي شيء، كلب، خدعة بصرية. شعرت بالتمزق، هل تهرب من هذا المنزل في أثر الخيال المُتلاشي؟ وفي الوقت الذي تصل إلى حيث كان يقف، سيكون أثره قد ضاع تماماً.

مع ارتفاع خوفها إلى الحد الذي تفقد معه السيطرة، دارت نيلا في الغرفة، بحثاً عن جواب. تترنح صوب دولاب تِيَا. الأحذية، التنانير، القمصان: لم تعد موجودة، مجرد مساحات فارغة حيث كانت الملابس في السابق. إن الفجر لم يكشف إلا الحقائق التالية: تِيَا ليست في فراشها. ملابسها غير موجودة. وهي ليست في الشارع بالخارج.

قالت:

- تِيَا. تِيَا. لا جواب، إلا أصوات أبواب تُفتح، وأقدام تركض عبر الممر.

اقتحمت كورنليا وأوتو غرفة تِيَا، استدارت نيلا نحوهما، فصرخت بما عرفته، قبل حتى أن تتفحص الفراش. تجمدت كورنليا من رؤية الكرب على وجه نيلا.

قال أوتو:

- أين تِيَا؟

- لقد رحلت.

وقف مُتسمِّراً:

- ماذا تقصدين، بأنها رحلت؟

أشارت نهلا إلى الفراش الخاوي، وقالت، وهي لا تكاد تُخرج الكلمات:

- فتاتي، رحلت فتاتي.

الفتاة المُتلاشية

26

لا لم يكن لديهم سوى بضع ساعات لتغيير القصة التي تحفكك. يبدو منافيًا للعقل أن يظل ياكوب فان لوس، عبر هذه القنوات، في منزله بالبرنسغراخت، ينتظر أن يتزوج من تِيا، ويصبح أثرى بهامش ما، بينما هم يدورون في دوامة هذا الجحيم المُقيم. هناك حقيقتان: قصة العالم خارج هذه الجدران الأربعة، والقصة داخل هذا المنزل. وجوه مُتقمّعة وقلق ينهش، بينما يُتابع اليوم العادي، المسيء في ابتذاله المُشمس، يُتابع سيره.

بدا أوتو وكأن اختفاء ابنته قد بعَّر جزءاً من روحه. إنه يذرع، مُنهكاً، أرجاء المنزل، مُفتِّشاً غرفة خاوية تلو أخرى، منادياً اسمها، فيسقط نداؤه من دون جواب على ألواح الأرضية. قامت نيلا بالحساب: سوف يُعدُّ ياكوب وعائلته أنفسهم لمغادرة المنزل قريباً. إنها لا تعرف ماذا تفعل. هي وكورنليا تقفان مُحدِّقتين في الفراش المُشعث. ذهبت كورنليا صوبه، وجثت على ركبتيها وكأنما تستدعي طفلتها الحبيبة بالصلاة. وضعت رأسها على الفراش، وذراعاها ممدودتان، بينما نيلا تشاهدها عاجزة.

قالت كورنليا بصوت أجشّ ومكتوم:

- آه، ربّاه، آه، لا. آه، ربّاه.

شعرت نيلا بخفقان مُغثٍ في أحشائها:

- ما الأمر؟

كانت كورنليا تفتش بين الشراشف. ثم تُخرج يدها وتستدير، وهي تنهض بصعوبة. تفتح كفَّها ببطء، بخوف، وهي ترفع عينين محمومتين إلى سيدتها.

همست كورنليا في رعب:

- انظري، يا مدام. آه، يا يسوع الحبيب، انظري.

استقر في راحة كورنليا منزل صغير بلون ذهبي برَّاق. مصنوع بدقة، وجمال، صفائحه الذهبية تلمع في ضوء الصباح. حدّقت فيه المرأتان، توقف الوقت لوهلة. وشعرت نِلا بتلك الرعشة الباردة للإدراك، ذلك الإحساس بالأشياء وهي تبدأ تستقر في أماكنها بعيداً عن متناول يدها. عاد أوتو، ووقف على عتبة غرفة ابنته. ينظر إلى المنحوتة البرَّاقة في كف كورنليا، وكأنما لمح شيئاً كان يرجو ألا يراه مرة أخرى أبداً، وكأنه شيء قد يصيبه بالعمى. لكن نِلا اقتربت من يد كورنليا المرتجفة، وأمسكت بالمنزل بين أصابعها.

إنه من شُغل صانعة الدمى. نِلا متأكدة من ذلك، مثلما هو أوتو وكورنليا أيضًا. لا شيء آخر يلفت أنظارهم مثله، مُمتصًا خوفهم وانتباههم في داخله. لقد أصابهم وجوده بالشلل، هنا في غرفة تِيا، قويًا وغير مُعطَّل.

خُيِّل إلى نِلا أنها قد تبكي - لكنها لا تعرف، هل هو بكاء تعرُّف، أم ارتياح، أم هلع. لقد ظلَّت لثمانية عشر عامًا، تنتظر إشارة، وها هي تأتيها في واحد من أسوأ أيام حياتها. وبينما أوتو وكورنليا يشاهدان، مررت أصابعها فوق النوافذ المُنمنمة، والمداخن. والباب الأمامي، الذي فُتح بيسر، ونظرت إلى

الداخل. لكنها لم تجد شيئاً، كان منزلاً فارغاً، من طابقين. منذ متى وهو مع تِيا، ولماذا تركته؟ يمكن لنيلا أن تشعر بقوة هذه المُنمنمة تطنّ تحت أصابعها.

وفجأة، عادت بذاكرتها إلى هذه الغرفة نفسها، قبل أسابيع في نيسان، عندما كانت تِيا تعاني من الحمى، مُتقلّبة في شراشف مبللة، وتهذي عن منزل ذهبي. هل هذا هو المنزل ذاته الذي كانت تِيا تتكلم عنه، ولو أنه كذلك، فلمن هذا المنزل؟ هل كانت تِيا تكتب إلى صانعة الدُمى أم هو العكس؟ جالت نيلا ببصرها حول الجدران. تفكر، كنتُ مُحقّة. كنتُ أعرف. لقد عادت صانعة الدُمى. هل هناك قطع أخرى مخبّأة في هذه الغرفة، أو مع تِيا، قد تفسر كل هذا؟ كل ما تعرفه نيلا هو أن تِيا قد رحلت، وأن هذا المنزل الذهبي الصغير قد تُرك منبوذاً.

رفعت عينيها لترى كورنيليا تحدق فيها." لا تتكلمي"، هكذا حاولت نيلا أن تقول من دون صوت. لا يجب أن يعرف أوتو ما كانت تحنّ إليه طوال هذه الأشهر. لا يجب أن يعرف أن نيلا قد تسللت إلى العليّة وأخذت دميته ودمية مارين، كانت توّاقة لتدخُل صانعة الدُمى لمساعدتهم في مصائرهم. لا يجب أن يعرف كيف صلّت نيلا من أجل هذه اللحظة، من أجل دليل مادي على عودة صانعة الدُمى، وها قد رحلت ابنته الآن.

لكن كورنيليا بدت مشغولة بمخاوفها الخاصة. هرعت إلى النافذة، وكأنها تنظر منها بحثاً عن رأس بشعر فاتح فوقه قلنسوة. كانت نيلا متأكدة ألا شيء هناك، لم يعد الآن، لكن كورنيليا حينما عادت إلى مواجهتهما، كانت تعابيرها مُتجهمة.

قال أوتو:

- هل هذا... ما أعتقد أنه هو؟ إنني لا أصدق الأمر، عندما

أنظر إلى ذلك المنزل.

- أوتو... قالت كورنيليا، لكنه قاطعها:

- صانعة الدمى... قال بصوت يتخلله الخوف، ومشى بحركة بطيئة وثقيلة نحو المنزل المصغَّر، وكأنما يخوض في الماء لمواجهة خصم يعجز أن يغلبه:

- في مقدوري أن أميز صنعة اليد هذه في أي مكان.

قبضت نيلا على المنزل بإحكام، تريد أن تحمي صانعة الدُمى من تمحيصه، وقالت:

- إننا لا نعرف من أين حصلت تِيا عليه. فتحت قبضتها ببطء مرة أخرى حيث يستقر المنزل المنحوت بدّقة، مترقباً:

- يُحتمل أنها اشترته من السوق.

قال أوتو:

- لا شيء مثله يُباع في السوق. ولماذا كان مُخبّئاً في فراشها؟ لماذا احتفظت به قريباً منها؟ وخطف المنزل الصغير من كف نيلا.

- أوتو، لا...

- قولي الحقيقة، يا نيلا، وإلا أقسم أن أذهب وألقي به في النار. هل كنتِ متعاطين مع صانعة الدمى؟

شعرت نيلا بلسانها ينعقد:

- طبعاً لم أفعل. لقد تَرَكْتُ هذه المدينة منذ سنوات. لم أرها أو أسمع منها منذ ذلك الحين.

وضعت كورنيليا رأسها بين يديها، وغاصت في الفراش.

- لو أنكِ تكذبين عليَّ...

- أوتو، إنني لم أرَ تلك المرأة منذ ثمانية عشر عامًا.

صاحت كورنيليا:

- لقد أخذَتْها!

التفتا إليها في رعب، فمدت نيلا يدها وأخذت المنزل من بين أصابع أوتو. بدا مذهولاً، لكنها ابتعدت خطوة عن كليهما، حاجبة المنحوتة بيدها الأخرى. إنها تشعر بأمان أكثر عندما تكون في حيازتها، إنها مُؤمنة بأنه قادر جداً على تحويلها إلى رماد، وكورنيليا ستشجعه على الأرجح.

التفت أوتو إلى كورنيليا، وقال:

- ماذا تعنين، بأنها أخذَتْها؟

بدا الغم على كورنيليا. قالت:

- لماذا قد تهرب تِيَا؟ وإلى أين قد تذهب؟ كانت تِيَا تتأهب للزواج، وثبت واقفة، وراحت تذرع المكان: كانت تِيَا جاهزة. ثم عادت تلك الساحرة لتسلب طفلتنا.

حدّقا في كورنيليا في انشداه. فكرت نيلا، إنها تخمِّن فحسب، إنها لا تعرف يقيناً. على عتبة الغرفة، جلس لوكاس يراقب، لاحسًا كفَّيه.

قالت نيلا لهما، مُحاولة تمالك نفسها:

- كلا. انظرا إلى فراش تِيَا، انظرا إلى دولابها الفارغ. لقد خططت تِيَا لهذا. ربما هي في المسرح؟ ربما هي في الكنيسة فعلاً، مع أمتعتها؟ إن صانعة الدُّمى لم تعد. صانعة الدُّمى لا تتدخل بهذا الشكل...

أطلق أوتو صوت استنكار:

- رجاءً، لا تتظاهري بالدِّراية. إن أكثر مشكلاتنا قد نشأت جرَّاء هوسكِ بها في المقام الأول، وتأويلك الخاطئ لأهدافها.

شعرت نيلا برغبتها في الانفجار. أرادت أن تسأل أوتو: هل حقاً يعدّها، هي وصانعة الدُّمى، مسؤولتين عن علاقات يوهانس الغرامية، و عن سريّة مارين مع أوتو نفسه، عن الفقر الذي يتدحرجون فيه. لكنها تمسك لسانها. إنها تريد أن تحافظ على خصوصية صانعة الدُّمى، قالت:

- علينا أن نفكر بشكل منطقي. إن الباب الأمامي لم يُفتح عُنوة. لقد فعلت تِيَا هذا من تلقاء نفسها...

قاطعتها كورنيليا

- أنصتا إليَّ. أنتما لا تفهمان. كانت أنفاس الخادمة متقطِّعة، ووجهها شاحباً كما لم تره نيلا من قبل، لقد جاء طرد.

شعرت نيلا بالدوار.

- طرد؟ متى؟

- منذ بضعة أشهر. إن الاعتراف يكلفها مجهوداً، كما ترى نيلا، إنها خيانة لثقة تِيَا، وهو شيء يتعارض مع طبيعة كورنيليا. "بعد حفل ساراخون. بدا الأمر - بدا كالأيام الخوالي. عندما كنتِ في الثامنة عشرة من عمرك، ترددت قليلاً، وأردفت: وأظن أنهم أكثر من واحد.

لبرهة قصيرة، لا أحد يقول شيئاً. ثم سألتها نيلا:

- و... تِيَا، هل أخذت هذا الطرد؟

قالت كورنيليا بيؤس:

- أجل.

- وكان يبدو مُرسلا من صانعة الدُّمى؟

- أجل.

قال أوتو:

- ولم تخبريني عن الأمر؟

أضافت نيلا:

- ولا أنا؟

صرخت كورنيليا:

- لم تعد تيَا فتاة صغيرة! ولم أرغب في التفكير في الأمر. لقد حاولتُ سؤالها! حاولتُ تحذيرها، لكنني لم أستطع شرح كل شيء، ليس كما ينبغي. كيف كان في وسعي حتى أن أبدأ وأحاول إخبارها بما حدث قبل أن تولد؟ وأنتما دائماً تطالبانني بالصمت. لقد أخبرتني أن الطرد هدية من إليونور ساراخون. خاتم تحديدًا، وأردتُ أن أصدقها. أردتُ أن يكون ذلك صحيحًا.

نظرت نيلا إلى المنزل في يدها:

- ربما هو صحيح. يوجد احتمال كبير أن إليونور ساراخون...

فقاطعتها كورنيليا:

- كلا. كُفّي عن ذلك، يا مدام! كُفّي عن محاولة التظاهر بأن أولئك الناس يكترثون لأمرنا. وكفّي عن حماية تلك الساحرة!

اغرورقت عيناها بالدموع، وعادت إلى الجلوس على الفراش في لوعة.

قالت نهلا:

- كيف أمكنكِ ألا تخبريني بهذا الأمر؟ بعد كل ما قلته لكِ...

رفعت كورنيليا عينيها، بغضب مفاجئ:

- لم أكن من حاولت استحضار الساحرة في المقام الأول. من خلال الصعود إلى العليّة، إلى صندوق مدام مارين، وإثارة الماضي، بإخراج تلك الدمى الصغيرة الملعونة.

قال أوتو:

- ماذا..! نظر إلى نهلا في استنكار، فتحتِ صندوق مارين؟ حاولتِ استحضار صانعة الدُمى؟

- بالطبع لا...

واصلت كورنيليا ثورتها:

- لم تكن أنتِ من أرادت. بل كانت تِيَا. إن تِيَا ليست في المسرح. ليست في الكنيسة. لقد راحت. وصانعة الدُمى هي من أخذتها.

جلس أوتو بتثاقل على كرسي تِيَا. تمنت نهلا أن تنشقّ الأرض وتبتلعها. و بدا مستحيلاً أن تكون تِيَا مع صانعة الدُمى. لكنها حينما نظرت إلى هذا المنزل الذهبي، تمتمت:

- إن هذا ربما، ربما يكون صحيحاً.

قالت:

- سوف نجدها. أينما كانت، أعدكما أننا سنجدها.

***

بعد خمسة عشر دقيقة تقريباً، كانت نيلا ماتزال في منامتها ، وأوتو مُرتديًا كامل ملابسه، يقفان بمفردهما في الظلال الباردة للدهليز، خارج باب منزلهم.

بدأ النهار يعجّ بحياة كاملة الآن. يروح مواطنو أمستردام ويجيئون أمام نوافذ منازلهم الضخمة، غافلين تماماً عن كارثة الذين مرُّوا إلى جوارهم. كانت تِيَا قد ذابت كالضباب في باكورة اليوم. فكرت نيلا برعب مُغثٍ في المشهد الذي ينتظرها في الكنيسة القديمة. ستكون هي من يذهب إلى ياكوب فان لوس. هي من بدأت كل هذا، وهي من عليها أن تنهيه.

فكرت، بقلب مُضطرب، في العشرين ألف جِلدر التي سلّموها إلى ياكوب، في حقيقة أنهم عهدوا إليه بهذا المنزل. فكرت فيما قد تقوله مارين لها. كم كان أملها سيخيب. حدقت في وجه أوتو، وأدركت أن عقله يجول بالأفكار نفسها.

قال:

- لا يمكننا أن نفعل هذا بمفردنا. سنحتاج إلى استدعاء الميليشيا.

- الميليشيا؟

- سنقبض على هذه المرأة المُتطفلة ونضع نهاية للأمر.

- أنت لا تحب الميليشيا. كما لا أحبهم. لقد أخذوا يوهانس، وجاءوا يطلبونك. وتريد الآن الاعتماد عليهم؟

قال بصوت مُتهدّج: أي خيار آخر نملك؟ عليّ أن أتحدث

معهم. قد يكون طرق الأبواب أول شيء يفعلونه.

فركت نيلا صدغيها. لن يلبث الجميع أن يعرفوا بمشكلتهم. أولئك الميليشيا لا يبدو أنهم يحسنون سوى استعراض الشوارع من أجل صرة نقود، يرتدون دروعاً لم تشهد ساحة معركة قط، ويمسكون بحراب لم تطعن غزالاً، ناهيكم عن مجرم. لو أنّ شخصاً هو من اختطف تِيَا، فسوف يسمع جلبتهم من على بعد ميل. تقول: "يجدر بنا أن نذهب إلى الميناء.

بدا أوتو كمن رأى شبحاً:

- الميناء؟ من المرجّح جداً أن تكون على متن سفينة.

غرقا في الصمت، وهما يفكران في ميناء أمستردام المظلم، وكيف يمكن لفتاة واحدة أن تفلت بسهولة من دون أن يفطن إليها أحد. خليج عملاق، مرفأ تلو مرفأ ينتشرون من الشرق إلى الغرب، على امتدادهم تنتظر مئات السفن. سفن كنازل تمايل فوق الماء، مرايا مهتزّة للمدينة الثابتة، تمتد نحو الأفق. تتخيل نيلا تِيَا، في وقت أبكر من هذا الصباح، وهي تحاول ربما إقناع أحد البحارة أن يسمح لها باعتلاء واحدة من السفن الإنجليزية التجارية، أو فلوتة، مركب كبيرة يمكنها الإبحار أسرع. ستكون مع غروب الشمس قد ابتعدت عن ذلك الحوض المائي الضخم. والهواء يرفع أطراف سترتها، ويكسو خديها بالبرودة وطعم الملح لأول مرة، والبحر يترقرق سطحه في فسيفساء ذهبية متكسرة. أحبُّ أن أشاهد باريس ولندن. أن أذهب إلى دروري لين. أحب أن أزور الأوبرا.

قال أوتو، محولاً أفكارها إلى كلمات:

- لو أنها على متن سفينة، فلن نجدها أبداً.

لم تستطع نيلا أن ترد على هذا. إنها لن تعترف علناً بمثل هذه الهزيمة، قالت:

- سأذهب إلى الكنيسة القديمة. وأبلغ ياكوب أن الزفاف قد ألغي.

رمقها أوتو بنظرة سريعة:

- عائلته ستكون هناك. هل أنتِ واثقة بأنه يمكنكِ أن تفعلي ذلك؟

- أنا قادرة تماماً على تحمُّل الإذلال.

- أشكُّ في أنكِ كذلك. أشكُّ في أن أيّاً منا كذلك، ولهذا نحن في هذا المأزق.

قالت نيلا بتردد:

- أوتو. تذكر أن ملابس تِيا قد اختفت. إنها لم... تُختطف، حتى لو أنها مع صانعة الدمى، رفعت يديها في مواجهته، وقد استشعرت غضبه منها، أعرف أن كورنيليا مقتنعة. أعرف أن كليكما غاضب مني لإخراجي المنمنمات من صندوق مارين. ولكن ما يزال هناك احتمال أنَّ تيا فعلت ذلك بنفسها."

بدا لوهلة، وكأنه سيقول شيئاً، لكنه يتراجع. خفض عينيه إلى كفَّيه، مُطلقاً زفرة عميقة. وقال:

- سألتني تِيا عن والدتها. كيف تقابلنا هي وأنا.

- و... هل أخبرتها؟

- ليس كل شيء. لكن ما قلته لها كان الحقيقة.

شعرت نيلا بالقلق المُضني. هل ما قاله لها جعلها ترغب

في الحرب؟ إن تخيُّل تِيَا، في الخارج في هذا اليوم المشرق غير المميز، ترحل بعيداً عنهم، يصيب نهلا بهلع تكاد تعجز عن تحمله.

قالت:

- أوتو، كنتُ أنا من خطط لهذا الزواج، قبل حتى أن تقع عيناي على ياكوب فان لوس. أنا من حرَّكتُ القطع، من دون تفكير. لم تكن تِيَا تحب ياكوب. كنتُ أعرف ذلك. لكني أصررت.

- في الواقع. لقد فعلتِ ذلك بكثير من التفكير.

- في كلتا الحالتين. هي مسؤوليتي." قال بصوت مجروح:

- - أنا من اقترح منحه هذا المنزل، يا نهلا. وأنا من وقَّع باستلام القرض. وكان الحل الوحيد الآخر لديَّ هو زراعة الأناناس.

- حلٌّ أقل ضرراً. إن الأناناس لم يطالب بمائة ألف جِلدر في بداية مشاورات الزواج.

- لا، ولكني مُلام بالمقدار نفسه. والأناناس يظل مُكلِفاً أيضاً. ثم توجه إلى باب المنزل، توّاقاً للخروج إلى النهار والبحث عن ابنته.

قالت نهلا:

- أوتو ، هل تتذكر ما أخبرتك به مارين عن الطفل الذي توشك أن تهبه؟

عاد أوتو، واستدار إليها. اليوم، لا تكثُر في الحديث عن مارين. يبتسم ابتسامة باهتة. "بالطبع

- طبعاً، يجب أن تكون حياته من خلق يده. كانت مارين واثقة من أن تِيَا صبي.

- حسناً، لقد أصابت على الأقل في أن حياة تِيَا من خلق يدها."

- ماذا تعنين؟

أخذت نيلا نفساً عميقاً:

- إنني أثق في تِيَا، ولا أظنها تعرض نفسها إلى الخطر.

ظلت تعابير أوتو خاوية. فتح الباب الأمامي فدخل ضوء الشمس إلى الداخل:

- أنتِ إذن لا تذكرين سن الثامنة عشرة.

27

بالعكس، هكذا تفكر نيلا: إن نصف المشكلة هي أنني أتذكر سن الثامنة عشرة جيداً، وظل التذكر لعنة لوقت طويل. كان أوتو قد غادر، وقفت نيلا في الدهليز مع كورنيليا، مرتدية الفستان الذي كانت خصصته للزفاف. وأخذت كورنيليا تشدّ في عجالة الأربطة الخلفية للمشد والتنورة، فشعرت نيلا بالهواء وكأنه يُعتصر من جسدها. و في جيبها، استقر المنزل الذهبي.

قالت:

- لا تشدّيه كثيراً. أحتاج إلى القدرة على التحرك بسرعة.

تمتمت كورنيليا:

- لا أعرف لماذا تصرين على ارتداء هذا.

- لأن الانطباعات مهمة.

- حتى الآن، ما يزال رأي فان لوس مهمّاً؟

- بل ربما هو أكثر أهمية.

لكن كورنيليا قد تكون مُحقّة:

- إنه غير مهم. ليس في الحقيقة، ليس بعد الآن. ولكن ماداموا سينزلون السلم الاجتماعي، فإن نيلا تنوي أن تفعل ذلك بأناقة. قالت:

- كانت مارين لتذهب بمظهر ناصع.

أطلقت كورنيليا تنهيدة موافقة. لا يمكنها أن تنكر ذلك:

- أنمي هذا، يا مدام، هكذا تأمرها، مشيرة إلى الطبق الذي يحوي بقايا خبز محمص موضوع على مقعد الدهليز.

مدّت نيلا يدها إلى الطبق تحشو فمها بالأطراف المكسوة بالزبدة. كان توترها قد صرف الجوع، لكنها في حاجة إلى بعض القوة. ثمة شيء مخيف في هذا الأمر، السير وحيدة إلى الكنيسة، العروس الخطأ، زوج خال تأتي خالية الوفاض، غير مُحمَّلة إلا بأنباء سيئة.

سألتها كورنيليا:

- بمَ ستخبريه حقّاً؟ أنها مريضة؟ أنها غيَّرت رأيها؟

إنه سؤال جيد. ماذا يمكنها أن تقول؟ ما القصة التي يمكنها أن تحكيها، منذ اللحظة التي وجدت فيها كورنيليا المنزل الصغير بين ثنايا شراشف تِيَا؟ إن إخبار ياكوب بأن تِيَا مريضة هو مجرد تأجيل للقضاء الأليم. أما قولها باختفائها فيبدو غير مبرر، سيضعهم في صورة المهملين، أو تِيَا في صورة المضطربة عقلياً. وإن قالت بأنها اختُطفت فهي فضيحة بلا حدود.

قالت يوهن:

- لا أعرف. سأقرر عندما أراه.

تنهدت كورنيليا:

- آمل أن يجعل أوتو الميليشيا تبدأ بحثها قريباً.

- حالما تبدأ الميليشيا البحث عنها، يا كورنيليا، هذا إن وافقوا على طلب كهذا، سيعرف ياكوب فان لوس وعائلته باختفاء تِيَا و لا مفر من الحقيقة. تماماً مثلما حدث عندما مات يوهانس، وعرف الجميع بمشكلاتنا.

- يجب أن أذهب. يُفترض أن يبدأ الحفل بعد خمسة عشر دقيقة.

فجأة، تتشبث كورنيليا بذراعيها:

- ربما يقولون لكِ أشياء تزعجك.

- أعرف. لكنني مستعدة.

- سوف آتي معك.

تخيلت نيلا الصورة: كورنيليا، عند مذبح الكنيسة القديمة، وفي يدها مقلاة:

- لا. عليك أن تلازمي المكان هنا، تحسُّبا لعودتها.

حدّقت إحداهما في الأخرى لحظة وجيزة، يتقاسمهما أمل في أن كل هذا ربما يكون مزحة، وأن تيَا سوف تعود وهي تضحك وتخبرهم أنها كانت في آخر نزهاتها كامرأة عزباء. لكن احتمال حدوث هذا يبدو مثل عودة يوهانس عبر الباب. أياً كان ما فعلته تيَا، فقد فعلته بجدّية. وكورنيليا، شاحبة الوجه، تومئ في إذعان.

قالت نيلا، وهي تتناول يد كورنيليا وتضغطها:

- لكني أشكركِ على العرض. كالمعتاد. شكراً لكِ.

- حسناً...حسناً، ومسدت مئزرها بيدها الأخرى، محرجة، لكنها لم تتركها.

***

مشت نيلا عبر أرضية الكنيسة القديمة، وقلبها يخفق. إنها لا تصدق المجموعة المُحتشدة عند قبر مارين لتشهد على هذا

الزفاف. كلارا ساراخون هنا، وابنتاها أيضًا. من دعاهن؟ لا شك أنهن قررن الحضور فحسب، لحصد النظرات والإشاعات. يا إلهي: إلام سينظرن الآن. أي خبث وضحكات سينشرنها في الصالونات وقاعات اللعب، وحفلات تذوق الشاي الأمستردامية، يكررن على كل يسمع، كيف أنهن رأين الأمر كله بأم أعينهن وهو يتفسّخ: العروس التي لم تأتِ قط، وفان لوس الغاضب، يهدد دوار البحر باجتياحها، لكن نيلا تُبقي رأسها مرفوعاً. هناك ريبيكا بوسمان، وعلى قوامها القصير الدقيق ملابس وقورة تليق بالمناسبة، ووجهها متوجه إلى باب الكنيسة.

من دون تخطيط، وكما تفعل غالباً كلما أتت إلى الكنيسة القديمة، تمسح نيلا بنظرة ثاقبة الفضاء الشاسع ببصرها سريعاً، أملاً في أن تلمح رأساً أشقر مكشوفاً عند أحد الأعمدة، شعرت بالبرودة في مؤخرة عنقها. لكن البرودة الوحيدة التي تشعر بها نيلا تأتي من ضخامة الكنيسة. مع أن المنزل الذهبي في جيبها، لكن نيلا تعرف أن صانعة الدمى ليست هنا. ربما كورنليا محقّة. ربما هي حقاً مع تِيا.

تعود عيناها إلى حلقة الزفاف، حيث تلمح كاسبر فيتسن. كان اليوم قد أخفق في تسريح شعره. أوتو بالتأكيد هو من أخبره أن تِيا ستتزوج، ولكن لماذا قد يرغب كاسبر في الوجود هنا، وربة عمله السابقة على الجانب الآخر من نصف الدائرة، ونظراتها أمضى من الخناجر؟ أبصر نيلا، فابتسم، لكنه حينما رآها بمفردها، ولاحظ تعابيرها، خمدت الابتسامة على شفتيه.

وهنا القس بكر، الشاب. هل تراه اضطر يوماً إلى معالجة حالة زواج تكون فيها العروس غائبة؟ الآن سترى. تواصل نيلا

تقدُّمها. وإلى جانب القس يقف العريس نفسه، مشكلة نيلا، هدف نيلا، رائعاً في اللون الأسود، نعلاه المخمليان مُلمَّعان، وجهه لا جميل ولا هو باهت، قميصه مُنشَّى، لحيته مُهذَّبة بأناقة دقيقة. وجه يرتسم بالمال والأمان، يلتفت إليها بتوقع قانع أن الحفل سينعقد بأناقة، تشبه بقية حياته. وحينما رأى أنها بمفردها، قطب حاجبيه، أخذت نيلا نفسًا عميقًا، وواصلت مُضيّها نحوهم.

كان ياكوب قد أحضر أمه. مؤكّد هي مدام فان لوس، فهما يتشاركان النظرة المُستفهِمة نفسها. لم يحضر شقيقاه فيما يبدو، الأمر الذي يُشعر نيلا بارتياح عميق. كان وجود عدد كبير من آل فان لوس في هذا الظرف ليجعل الموقف غير قابل للاحتواء. كانت مدام فان لوس ترتدي أيضًا ثوباً أسود ويحيط وجهها طوق مُستدير قديم الطراز لكنه مُبهِر، ما يعطي الانطباع بأن رأسها هو الطبخة الشهية الوحيدة المعروضة وسط صحن نظيف جدا. استدارت لترى ما الذي استرعى انتباه ابنها، وعندما وجدت نيلا في مجال رؤيتها، تُميل رأسها جانباً بعينين سوداوين صغيرتين وفم صغير قاتم، وأنف يشبه منقاراً صغيراً، إنها أشبه بحسون منها إلى صقر. وها هي السيدة لوتخرس، إلى جوار سيدها، تقف أقرب إليه من والدته.

كان الجميع الآن قد انتبهوا إلى نيلا. جميعهم ينظرون إليها. وحده القس يبتسم. إنها لا تدري أي خُطبة ستخرج من فمها عندما يستوجب الوقت. ربتت على جيبها، فشعرت بصلابة المنزل الصغير عبر بطانة تنورتها. لكن حلقة العرس تعرف فعلاً أن هناك خطأ ما. بعضهم يقطب، وبعضهم يخفي تكشيرة رضا. ريبيكا جاحظة العينين، وفمها مفتوح قليلاً، فيما هي تغزز ما يحدث. تحاول نيلا أخيرًا أن تبتسم. لا تبدو مناسبة

على وجهها، فتركها تختفي. تأخذ نفساً عميقاً. لم يسبق لها أن تحدثت على الملأ بمثل هذه الهشاشة من قبل.

قالت، وهي تثني ركبتيها تحية لهم:

- طاب صباحكم.

يميل القس بيكر، ممسكًا بإنجيله الصغير، يميل رأسه بدلاً من الانحناء. يتراجع ياكوب خطوة. ترى نيلا عينيه تتنقلان خلف كتفها، وكأن تيًا ستتجسد من ورائها، حاملة باقة زفافها الرائعة، ووجهها ذهبي في الصباح الذي يحمل مثل هذا التغيير. عاد بعينيه إلى نيلا التي أجبرت نفسها على النظر فيهما. تريده أن يفهمها من دون أن تتكلم:" إنه لن يحدث. لقد انتهى كل شيء. خذ والدتك ومديرة منزلك وعودوا إلى البيت. لكن ياكوب ينتظر باستعصاء. يريدها أن تجهر بها.

- كما ترون، فقد جئتُ بمفردي.

- هل ستتأخر العروس؟ سأل القس بيكر برحابة صبر قاتلة، وابتسامة أرستقراطية لا تناسبه: أنا واثق أن في وسعنا الانتظار قليلاً. إن الطبيعة المتقلبة لجنس النساء تكون مُباحة في مثل هذه المناسبات.

إنه قطعاً ليس أكبر من ثلاثة وعشرين عاماً. تتجاهله نيلا، فتلتفتُ إلى ياكوب، مُتجنِّبة عن قصد مسار نظر والدته:

- سنيور، هل لي في الحديث معك على انفراد؟

لوهلة، كاد أن يلبي. لكنّ أمه مدّت يدها ووضعتها على ذراعه. فاستدار إليها ياكوب. أشارت إليه بعينيها، وفهمت نيلا. كانت ستفعل المثل. في مدينة كهذه، كلما كثُر الشهود كان أفضل، وإلا حُرِّفت الحقيقة. تريد الحسونة الصغيرة إجبار

نيلا على إعلان سبب غياب تيًا على الملأ. حتى لا يلتبس على أحد من خذل الآخر، وأي طرف في العقد قد اتضح احتياله وضعف شخصيته. تخيلت نيلا أنها تدور على عقبيها الآن، وتركض إلى منزل ياكوب فتأخذ العشرين ألف جِلدر من درج مكتبه بينما مسكنه خالٍ من سكانه.

عندما شرعت بنات ساراخون في تبادل الهمسات، فأدركت نيلا أن عليها أن تتكلم. قالت: حسناً. ثبتت نظرها على ياكوب، لكنها تشعر بأعين الجميع تحدق فيها. حبسوا أنفاسهم جميعاً، في انتظار سقوط المطرقة.

تقول:

- لقد رحلت تيًا.

ساد صمت ثقيل. ثم قالت مدام فان لوس:

- ماذا؟

من مكان ما خلفها، تناهى إلى سمعها صوت ضحكة ساراخونية مميزة. ومن زاوية عينها، رأت نيلا ريبيكا بوسمان تتقدم خطوة، ثم تعيد النظر، فتعود إلى الوراء وسط الحشد المتجمع.

- أمي... قاطعها ياكوب، بنبرة تحذير في صوته.

همست أمه: "أخبرتك. ألم أخبرك؟"

اقترب ياكوب من نيلا، وقال صوته خافت. "ماذا تقصدين بأنها رحلت؟ من المفترض أنها ستتزوجني.

استطاعت نيلا، من هذه المسافة القريبة، أن تشم دهن التفاح على شعره، والرائحة المعدنية الغريبة للنشا على طوقه. عيناه البنيتان بلون أوراق الشجر الجافة، ورموشه قصيرة جداً. حدّق

فيها من دون أن يطرف جفناه. راحت يداها ترتعشان، وغدا حلقها جافاً. تمنت لو أن كورنليا رافقتها فعلاً، وفي يدها مغرفة أو مقلاة، لتشرعهما في وجه هذا الرجل، وتجبره على التراجع هو وعينيه، والرائحة الخانقة لدهان شعره. ضمت أصابع يد واحدة، ورفعتها أمام جسدها في محاولة لتمالك أعصابها.

قالت:

- الزفاف ملغي.

أجاب ياكوب:

- لا. يجب أن تذهبي وتجدي عنها. لن أسمح بإذلالي بهذا الشكل.

- أنا في غاية الأسف، يا سنيور، لكننا نبحث عنها. لم نجدها.

قالت:

- إذن فأنتم مستهترون جداً.

رفعت نيلا ذقنها،أخذت نفساً عميقاً. "أو ربما فعلت تيا الصواب؟"

ضيّق عينيه، ومسّد لحيته، وقال:

- إن ما فعلته لا يدعو إلى الفخر. إنه يُفنّد تقلُّباً آمنتُ أحياناً أنه يسري في دماء عائلتك.

- المحذرة؟

قالت مدام فان لوس:

- إن ابني مُحقٌّ تماماً. إنها فتاة عنيدة وعاقّة وطائشة، حتى تغادر منزلها وحدها. حتى ترفض مستقبلاً كهذا. حتى تركا

واقفين هنا.

نظرت نيلا إلى ياكوب، مُتأمِّلة أن يدافع عن عروسه. لكن وجهه كان خاليا من الدفء بصورة مخيفة. قال:

- كنتُ مُغفَّلا.

قالت والدته:

- ياكوبوس، لستَ مَلوماً.

- لقد نحيتُ معكِ كل شكوكي، يا مدام براندت. ويعلم الرب وحده، كم كان لديَّ ما يكفيني منها.

- لو كنتَ تملك شكوكاً، يا سنيور فان لوس، فقد كنتَ مُستعداً لتنحيتها لقاء الثمن المناسب.

اشتعل خداه، فتدخلت والدته:

- وماذا أيضاً كان في وسعه أن يفعل؟ فتاة سمراء! أجل، لقد أخبرني بحقيقتها، يا مدام براندت. أجبرته أن يفعل. إن ابني شخص ذو قلب طيب، يسهل كثيراً استغلاله.

قالت نيلا:

- إن كنتم ترغبون في التحدث عن الاستغلال، فدعونا نتحدث عن المائة ألف جِلدر التي طلبتها في البداية. لقد أخذتَ نقودنا من دون تردد. منزلنا. كان أنت من استغلها، وكأنها واحدة من نزواتك.

تضرج وجه ياكوب، لكن مدام فان لوس ابتسمت، قائلة:

- ولكن من أجل هذا تحديداً طلبنا مثل ذلك الضمان. من أجل هذا... التقلُّب، يا الخدع التي يمتلكها أمثالكم.

شعرت نيلا أن الأرض تميد بها:

- نطلب منك إعادة المبلغ.

يخيم صمت. ثم قال ياكوب:

- ينصُّ العقد أن أحتفظ بالمال في حال لم يتم الزواج.

همست نيلا:

- هذا مستحيل.

- أوتو براندت وقَّع على ذلك.

بدأ رأسها يدور. لقد أخفى أوتو هذا الجزء عنها. تقول، وهي تجاهد حتى لا يظهر اليأس في صوتها:

- أعد لنا نصف المبلغ على الأقل.

أدار ياكوب وجهه، مُعدِّلا سواريّ معطفه، وقال:

- إننا في الكنيسة. لن أناقش هذا الأمر هنا.

من أحد جانبي نصف الحلقة، اقتربت ريبيكا وكاسبر، ومن الجانب الآخر، تقدمت كلارا ساراخون وابنتاها إنشاً زيادة. شعرت نيلا بذعرها يتصاعد دفعة واحدة، فهي حريصة على ألا يسمع أحد ما يُقال، كم سيكون ذلك مُضرًا بسمعة تيَا وسمعتهم جميعا ضرراً أبدياً. ولكن ها هو بكر ياأتي، بوجه القس المُشرق وأذنيه الناتئتين، بينما عيناه مُثبتتان عليها. جميعهم ينتظرون سماع دفاعها.

بادلتهم نيلا التحديق، عاجزة عن الكلام. وتذكرت ما قاله لها ياكوب في الحفل في أول مرة التقيا: لم يبل زوجك محاكمة عادلة. لقد أراد ياكوب أن يغرس في ذهنها أنه، وحده من

بين الجميع، يعلم أن يوهانس قد خانه المجتمع، وقد أرادت كثيراً أن تصدق أنه يفهم وضعهم، كم هو فريد؟ لكنها تبصر الحقيقة الآن: كيف أن هذا الشاب الأحمق وجد إثارة في التعاطف فرضياً مع لوطي، والتلاعب بفضيحة، والتخطيط للزواج من تِيَا. إن نيلا أكثر من سعيدة لأن تِيَا، أيّما كانت الآن، فهي ليست هنا، حاملة باقة ورودها. إنها لا تصدق كم تأخرت تِيَا في هروبها.

قال ياكوب:

- لقد رفضتُ تعنيف المجتمع لزوجك.

- أنت منافق. قرأتَ تلك المحاكمة على الورق فقط. لم تجلس على دكّة يابسة في قاعة المحكمة، مُتأملاً جسده المرضوض.

تلبّد وجهه، وبان عليه الامتعاض:

- لقد قدمت لكِ الأمان أيضًا. كما أنني تقبلتُ الأسئلة المفتوحة حول نسب تِيَا.

من زاوية عينها، رأت نيلا كلارا ساراخون تتسلل أقرب فأقرب، قالت نيلا:

- تقبّلتها؟ لقد ادّعيت اهتمامك بما لاحظت خروجه عن المعتاد، لكنك لم ترغب حقًا في التورط فيه. أمّا الأمان: فلا أظن أن سلبنا منزلنا يوحي بالأمان. أنت جبان.

احمرّ خدّاه مرة أخرى:

- فتاة تنشأ من دون أمّ، حتى في الهيرغراخت، هي ترشيح شبه مستحيل لزوجة. يجدر بكِ أن تكوني ممتنة لأنها كلفتكِ ذلك فحسب.

لم تصدق نهلا أذنيها. أرادت أن تعقِّب عليه. لأول مرة تجتاحها الرغبة في ضرب أحدهم.

قالت كلارا لياكوب:

- ارتباطك بفتاة مثلها لم يكن في صالحك. بسلوكها المشين. زواجك من امرأة مثل تلك... لكنها توقفت.

قالت نهلا: "امرأة مثل ماذا؟

تدخل القس بيكر:

- أرى أننا يجب أن نتوقف عن هذا الآن. لسنا في بيت الرب لنتبادل المُشادَّات التافهة والاتهامات.

قالت نهلا:

- ليست هذه مشادَّة تافهة.

اختلجت زاويتا فم القس بيكر. وعرفت نهلا أنها لا تروقه. لقد جلبت البلبلة إلى بابه. يمكنها أن ترى كيف ذهبت شمس الصباح عن ضريح مارين. تدفق الضوء عبر لوح من الزجاج الأصفر على شاهد قبرها غير الموسوم، فيتوهج كالذهب.

قال القس:

- لن تأتِ العروس. لذا لن يُقام زفاف. عودوا إلى منازلكم، جميعاً. اذهبوا، وفكروا في الوقت الذي أهدرتموه."

ظلوا في أماكنهم. لا أحد يريد أن يكون أول من يغادر. تذكرت نهلا خيلاء مارين. وقررت أن تكون آخر من يغادر هذا المشهد، حتى لو اضطرت إلى الوقوف هنا لخمس ساعات أخرى.

دنت كلارا ساراخون من ياكوب، ولمسته من مرفقه بلطف، وقادته بعيداً نحو ابنتيها:

- تعال. وأنتِ أيضًا، إن تفضَّلتِ، يا مدام فان لوس. لقد واجه كلاكما صباحاً مُؤلماً للغاية. نحن نعيش قريباً منكما في البرنسغراخت. تعاليا إلى منزلنا لبعض الوقت. لدي بستاني جديد هو الأفضل. إنه من إنجلترا،" قالت، وهي ترمق كاسبر بنظرة: ستتذوق منقوع المانجو الجديد الخاص بي وتقرُّ بأنك في الجنة."

تمتم كاسبر:

- تعالي، يا مدام براندت. دعيني أرافقكِ إلى المنزل، وحاول أن يسحب نيلا من مرفقها.

- كلا، قالت، وهي تتخلص من يده: أنا قادرة تماماً.

- أعرف أنكِ كذلك. ليس ذلك هو المقصود.

وهكذا في النهاية، كان سحر الفاكهة الاستوائية هو ما ينتشل ياكوب فان لوس من حياة نيلا. سار القس عائداً إلى مكتب الكِركيستر خلف الأرغن، وهو يهز رأسه. وقفت نيلا مع ريبيكا وكاسبر، يشاهدون ياكوب وهو يبتعد عبر بلاط الأرضية، وقد غنم عشرين ألف جلدر، تحيط به كلارا ساراخون وابنتاها من جانب، وأمه والسيدة لوتغرس من الجانب الآخر.

سيتزوج واحدة منهما في غضون شهر، هكذا راهنت نيلا في سرها. فكرت، وتمتمت: اذهب، مع فتياتك الساراخونيات. زد عمراً وغيرة معهن. ولتنكمش آفاقك أكثر.

فكرت في تيَا، في الخارج في مكان ما، وشعرت برغبة تكاد

تجتاحها للبحث عنها. لقد جرَّبت لأول مرة، نبذة بسيطة بما لا بد من أن تِيَا وأوتو شعرتا به في مناسبات غير محدودة. الاستحقاق الذي يشعر به الناس لإهانتك. لمحاولة تمريغ وجهك، من دون ذرة من تأنيب ضمير.

إنها مُنهكة. كانت قد أنفقت ساعات وأسابيع وشهوراً في التخطيط لمثل هذا اليوم. تذكّرت توبيخ القس بيكر: عودوا، وفكروا في الوقت الذي أهدرتموه. إنها أكثر من أهدر وقته من بينهم جميعاً.

قالت ريبيكا، مُقتحمة أفكار نيلا:

- مدام براندت. لم نلتقِ من قبل.

التفت نيلا إليها:

- لكنني رأيتكِ على المسرح. ولقد رأيتِ الآن على الأرجح كل ما تحتاجين إلى معرفته عني.

ابتسمت ريبيكا، وقالت:

- أستبعد ذلك. لكن تِيَا تحدثت عنكِ كثيراً.

- حقّاً؟

- جداً.

تنهدت نيلا، وقالت:

- لطالما كانت تيا أسوأ نقّادي. ويبدو أنها تملك سبباً وجيهاً لذلك. وابتسمت لكل من ريبيكا وكاسبر، وقالت:

- إنني أشكركما على قدومكما اليوم، حقّاً. لكن سيكون عليكما أن تأذنا لي بالانصراف. ليس كذباً أن تِيَا مفقودة، والذنب

ذنبي. لقد ذهب والدها لاستدعاء الميليشيا ولا يمكنني إهدار دقيقة أخرى.

ثم استدارت لتنصرف، لكن ريبيكا تضع يدها على ذراعها:

- مدام، انتظري. عليَّ أن أريكِ شيئاً.

بدا على الممثلة قلق شديد حتى أن الخوف تسلل إلى دم نيلا، اختلست ريبيكا نظرة إلى كاسبر، وقالت:

- إنه... حساس.

انحنى كاسبر، وقال:

- إنني، بعد إذنكِ، يا مدام براندت، سأشارك في البحث. لا بد من إيجاد تِيا.

شعرت نيلا بفورة امتنان قوية نحوه حتى أن الدموع ترقرقت في عينيها، دائماً ما يجعلني أبكي، فكرت في سرها، وهي تمسح عينيها سريعاً بأصابعها:

- شكرًا لك، يا سيد ڤيتسن. أي شيء في استطاعتك.

- لا تقلقي. أنا واثق أن تِيَا ترغب في أن نجدها."

- وكيف تعرف ذلك؟

- لأنها تحبك.

أصاب نيلا الذهول، حتى أنها عجزت عن الرد. وحينما تمالكت نفسها، كان كاسبر قد ابتعد في عجالة.

شاهدته المرأتان يغادر. ثم تمتمت ريبيكا: - كان هناك رجل.

انقبضت معدة نيلا، وقالت بدهشة:

- رجل...

لمحتها ريبيكا تنظر إلى الجهة التي اختفى فيها كاسبر، فقالت:

- آه، ليس هو، سكتت قليلاً، وتابعت القول: ذاك الرجل يُدعى والتر ريبيك.

- تابعي.

"كان يعمل في المسرح. رسام الديكور الرئيس، أخذت ريبيكا نفساً عميقاً، وأكملت: كانت تِيَا تحبه، وخفضت صوتها:

- قد... عدّت نفسها مخطوبة له.

- آنسة بوسمان، إن هذا...

- وأعتقد أنهما كانا يتطارحان الغرام.

حدّقت نيلا في تعابير الأسى على وجه الممثلة، وانتابها من جديد الإحساس بالأرض تميد من تحتها مثل الماء. تمنت لو كان في إمكانها أن تجلس، قبل أن تنهار. همست: ماذا قلتِ؟

تجهم وجه ريبيكا، وضايقها أن تريق أسرار صديقة، وأي أسرار. تِيَا، مع عشيق. تِيَا، التي كانت تعرف طوال الوقت كيف هو شعور الحُب...

- لا تمضي...

شرعت نيلا في التحرك للمغادرة:

- هل هي معه؟ هل هذا هو المكان الذي...

أمسكتها ريبيكا برفق من مرفقها:

- مهلاً، يا مدام. لا أظن أنها معه. لكنني أعتقد أنه سبّب لها جرحًا كبيراً.

جالت نيلا بعينيها بجنون في أرجاء الكنيسة القديمة. كان

رأسها مشوشاً، ولا يمكنها أن تفهم شيئاً مما تقوله الممثلة. سألتها بعناء:

- كيف جرحها؟ ماذا فعل؟ أنتِ مخطئة، لا بد من أنه أخذها...

- لا... قالت ريبيكا، بلهجة الواثق، وهي تمد يدها في جيبها وتخرج ورقتين، وتهمس:

- - إنَّ والتر متزوج.

حدّقت نيلا فيها:

- هل كنتِ تعلمين أنه متزوج؟ هل...

- لا، يا مدام، لم أكن أعرف طبعاً. لم يذكر ذلك قط. ترددت ريبيكا، ولكنها تابعت: لقد اكتشفت تِيَا أنه وزوجه كانا يبتزانها. ثم ناولت الورقتين إلى نيلا، التي جاهدت لمنع يدها من الارتجاف. تقول برقة:

- - اقرئيهما، يا مدام. لقد طلبت مني تِيَا أن أحتفظ بهما، ولكن ربما لم يعد في وسعها تحمُّل قربهما. إلا أنه يحتمل أيضاً أنها كانت تخطط للهرب حتى في ذلك الحين، ولم ترغب في التخلص منهما. لا أظنها أرادت أن تجديهما. لكني لا أستطيع كتم أمرها، بعد الذي رأيته هذا الصباح.

خفضت نيلا عينيها إلى الكلمات الشريرة. وخيلت تِيَا وهي تسلمها، وتقرأها وحدها، وتفكر في أفضل السبل لعلاج موقفها الرهيب. غمر حزن حاد جسدها، ودفعها إلى وضع يدها على ذراع ريبيكا:

- كم استغرق ... جاهدت لإيجاد الكلمة الصحيحة، لا يمكنها

أن تحمل نفسها على وصفها ودداً، أو خطبة حقيقية، هذا الموضوع؟

- بضعة أشهر. منذ ما قبل أعياد الميلاد الماضية. لكن الابتزاز لم يحدث إلا قريباً على ما أظن.

أوشكت نيلا أن تزحف إلى قبر مارين لتضع خدها على الحجر الزاهي، لتهمس، أنا آسفة، وعادت إلى التفكير في الليلة التي انهارت فيها تيَا. كيف أصرَّت تيَا مرة تلو مرة على أن كل ما حدث كان وعكة. لكنها كانت حمى سببها انفطار قلب، حمى سببها ألم كهذا. توجَّع قلب نيلا من التفكير في ذلك.

لقد قاست تيَا ذلك كله وحدها، بينما كل ما انفكَّت هي تتحدث عنه هو المال والزواج وياكوب. لابد أن تيَا كانت تنعزل عنهم أكثر فأكثر، وتزداد كتماناً وخوفاً، إلى أن جاء يوم فاستدارت وقالت:

-يمكنكِ ترتيب الزواج مع ياكوب فان لوس. أمام تعرضها للابتزاز، بحثاً عن الأمان، أصبحت تيَا عروس ياكوب. تأمين مادي أفلست عائلتها لتوفيره لياكوب. يُخيَّل لنيلا أنها ستتقيأ.

سألت، صوتها مُتحشرج:

- هل دفَعَتْ للزوجين؟

- أظن ذلك.

- من أين؟

قالت ريبيكا:

- أخبرتني أنها باعت خريطة. تخص أمُّها.

إذن، تيَا أيضاً صعدت إلى العليَّة استخرجت ميراثها. تخيلتها

نهلا تخرج دمية والدتها من نشارة خشب الأرز، وترى وجهها النابض بالحياة لأول مرة. هل أخذت معها نسخة أمها المُصغّرة عندما رحلت؟ وما إن شاركت أوتو وكورنيليا كل هذا، حتى ازداد اقتناعهما بأنها في قبضة صانعة الدمى.

قالت ريبيكا، مشيرة إلى الجهة التي سلكها كاسبر:

- ذلك الرجل محق. تيا تحبك. أعتقد أنها وافقت على ذلك الزواج لأنها ظنّت أنه سيحمي عائلتها كلها. لكنها لم تستطع المضي في الأمر، وأصابها الهلع. إنها مرعوبة مما ستقولينه. إنها تكره أن تخيب أملك.

قالت نهلا:

- أنتِ تعرفينها جيدًا، ونظرت إلى الرسالتين، وأردفت: أشعر أنني لا أعرفها تقريباً.

- لقد أخبرتني بأمور. ولكن صدقيني يا مدام براندت، أنني أشعر بأني مُلامة. كان واجباً أن أفعل المزيد لثنيها عن رجل مثل والتر. ربما لم أكن أعرف أنه متزوج، لكني رأيتُ أي نوع من الرجال هو، وكان واجباً أن أكون صديقة أفضل."

فركت نهلا صدغيها، وقالت:

- آنسة بوسمان، لقد شجّعتُها على السعي خلف رجل مثل ياكوب فان لوس. لذا لم أكن لأقتص من شخصكِ إرضاء لنفسي.

تأملت المرأتان إحداهما الأخرى. بدت على ريبيكا تعاسة حقيقية. وشعرت نهلا بالذنب والحزن اللذين تتشاركانهما. فكرت نهلا، هي وأنا من السن نفسه. غريب أن تكون ريبيكا هي أقرب أصدقاء تِيا.

سألتها:

- وهل هذا الرجل، هذا الريبيك، ما زال يعمل في المسرح؟

بدا الوجوم على ريبيكا:

- لا، تحققت من ذلك. لقد ذهب إلى مدينة أخرى واصطحب عائلته.

- ولكن... إن تِيا لن تلحق به، أتظنين؟

قطبت ريبيكا حاجبيها، وهي تفكر في الاحتمال:

- صدقاً، لا أظن. في آخر مرة تحدثنا، بدا أنه على الرغم من تعاطفها الشديد معه، إلا أنها لم ترغب في أي علاقة به.

تنهدت نيلا:

- أفترض أن هذا لا يمكن أن يكون إلا خيراً.

- ألا تملكين أنتِ أي فكرة عن مكانها، يا مدام براندت؟

هزت نيلا رأسها:

- لا، أبداً.

- إن سمعتُ شيئاً، فسوف أخبرك.

- شكرًا لكِ. سأحتفظ بالرسائل، إن كنتِ لا تمانعين؟

- ستغضب مني تِيا لأنني أريتها لكِ.

- عندما أجدها، وسوف أجدها، يا آنسة بوسمان، فسأخبرها أن الذنب كله ذنبي. سوف تفهم.

كوّرت نيلا الرسالتين البغيضتين داخل جيبها، وهي تصلي أن تكون كلماتها أكثر من مجرد وعود فارغة، وأنه سيأتي حقاً

وقت وقد عادت إليهم تِيَا، غاضبة، ولكن في وسعها أن تغفر.

لامست يدها المنزل الصغير، فترددت نهلا، قبل أن تقول:

- شيء أخير، هل حدث وأن ذكرت لكِ تِيَا أنها كانت تتسلم منحوتات مصغَّرة؟ منحوتات مثل هذه؟

أخرجت نهلا المنزل الذهبي من جيبها وراقبت التأثير الذي يوقعه في نفس ريبيكا. بدت المرأة الأخرى مفتونة بدقته المُنمنمة. وهمست:

- ما هذا؟!

قالت نهلا:

- لا أعرف بالتحديد. ولكن هل ذكرت أي شيء؟

قالت ريبيكا:

- لا. كنت سأتذكر شيئًا كهذا.

أعادت نهلا المنزل إلى جيبها، وقالت:

- انس رجاءً أني سألت. إنه شيء تافه. شكرًا لكِ، يا آنسة بوسمان: على رعايتكِ تيا، وعلى صدقك.

قبل أن يتأتَّى للممثلة أن ترد، ثنت نهلا ركبتيها تحية وابتعدت. كانت قد رحلت منذ وقت طويل فعلاً.

28

قالت كورنيليا:

- علينا أن نخبر أوتو.

أجابت نيلا:

- كلا، قطعاً.

كانت قد هرعت عائدة إلى الهيرغراخت، فلما وجدت كورنيليا ما تزال وحيدة، في حالة أقسى من العذاب، لم تجد أمامها خياراً سوى الجلوس إلى طاولة المطبخ ونقل كل ما تكشّفت عنه الأحداث بين شواهد القبور:

- كورنيليا، إن شخص والتر ريبيك هو سر يحق لتِيا فقط أن تقوله. أنا أمنعك.

- لكن الميليشيا يجب أن تعرف عنه!

- قالت ريبيكا بوسمان إنه وزوجه قد رحلا! ليس علينا أن نسعى خلفه. يجب أن نثق في تِيَا. وهل في وسعكِ أن تتخيلي لو أن الحكاية عُرِفت؟ تِيَا، متورطة مع زوجين دنيئين كانا يبتزانها؟ لا يمكننا أن نفعل ذلك بها. لن أفعل ذلك بها. فكري كيف قد يضر ذلك بسمعتها، أكثر حتى من التهرب من الزواج بياكوب.

شحب وجه كورنيليا:

- أريني الرسائل مرة أخرى.

- لن تزيد إلا من ضيقك.

بدت كورنيليا يائسة:

- ربما الممثلة تكذب.

- ولماذا قد تفعل؟ ليست تكذب، يا كورنيليا. ليتك كنت موجودة.

تنهدت نيلا، ووضعت رأسها على الطاولة دافعة الرسائل عبر الخشب:

- لا. يؤسفني أن أقول إن والتر ريبيك حقيقي جداً.

- لكن أوتو...

- كورنيليا، رفعت نيلا رأسها، كيف تظنينه سيستجيب أمام أبناء وجود عاشق؟ وعاشق متزوج أيضاً؟ هذا الريبيك قد رحل، دعينا لا نشرك أوتو في الأمر. قد ترفض تِيَا مخاطبتكِ مرة أخرى.

- هذا إن وجدناها قط. وانهارت كورنيليا: لسنا قريبين من العثور عليها أكثر مما كنا هذا الصباح.

- لا.

قالت كورنيليا بتعاسة:

- يظل الأبناء في خطر، منذ اللحظة التي يولدون فيها.

فكرت نيلا، جميعنا كنا نضيّق الخناق حول تِيَا لوقت طويل. إمّا بالحماية المفرطة، وعدم تدريبها على طريقة التعامل مع العالم، وإمّا من خلال وضع افتراضات كثيرة حول مستقبلها. لو كنت مكانها، كنتُ سأهرب أيضاً. وأطير فوق سطوح المنازل. ربما كنتُ أجد والتري الخاص، فأسكب أحلامي في

جسده الحبيب الذي لا يستحق.

ولكن من ناحية أخرى: انظري إلى ما قد يحدث عندما ترحلين. تُخلِّفين وراءكِ مثل هذا الخراب.

تساءلت نيلا، كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ كيف لم تنتبه إلى كل هذا؟ أذهلها أن تدرك أن تِيَا ربما شعرت بأشياء كانت نيلا تريد أن تشعر بها مع يوهانس، عندما صُدّت بصورة مؤلمة وصارمة. شيء تساءلت عنه منذ ذلك الحين: كيف هو الشعور بلمسة رجل يشتهيها.

تذكرت تِيَا، عندما كانت جالسة في مقصورة ياكوب بالمسرح، وتعلن كيف أن أشجار النخيل المرسومة في ديكورات السخاوبيرخ تعيش في قلبها، وتعني لها أكثر من أي شجرة في الحقيقة. تِيَا، مُتألقة بروعة في حفل ساراخون، لا تهزها الاعتقادات التي لا تبذل الفتيات الأخريات مجهوداً كبيراً في كتمها. كان يغلفها نوع من الثقة لا تأتي ربما إلا من شعور المرأة بأنها محبوبة، ونيلا لم يسعها أن تفهم ذلك.

لكن المريع في الأمر، هو أن تِيَا أيضاً ربما لم تفهمه. كانت سعيدة، لأنها منحت قلبها، وظنّت أن الممنوح قَبل. ثم ساءت الأمور.

إن نيلا مُستعدة لقتل هذا الوالتر ريبيك، بصرف النظر عن وعظها لكورنيليا. مُستعدة لتمزيق رسومات نخله الغبية إلى أشلاء.

سألتها كورنيليا، قاطعة أفكارها:

- هل أنتِ غاضبة منها؟

- أنا غاضبة منه.

- أعرف ذلك. ولكن ماذا عن تِيَا؟

تمعنت نيلا في السؤال:

- سيكون من السهل أن أقول إنني غاضبة. في أحياء كثيرة من هذه المدينة، سيعدّون ما فعلته تِيَا شيئاً لا يُغتفر، الإقصاء العابر للفضيلة في سبيل الحب؟ لكن تلك الأحياء لم ترضَ قط عن عائلتنا على أية حال.

عادت نيلا بذاكرتها مرة أخرى إلى المشهد في الكنيسة القديمة هذا الصباح: مدام فان لوس المتعجرفة، مغرورة الأحكام ورثة الجيب، ابنها ياكوب، الجبان، نساء ساراخون، اللاتي يستثمرن أية فرصة لسحق دخيل. تجدد غضبها، سارياً في عروقها. إن عائلة فان لوس وساراخون لا يعرفون الحقيقة كاملة، ولكن لو أنهم فعلوا... يسهل جداً تبجيل الفضيلة، إن هذا مفيد لأطراف كثيرة جداً: ولكن ربما هو ليس تبجيلاً قاطعاً. لا يُعقل أن كل الشباب في هذه المدينة ينجحون في بلوغ الثامنة عشرة من دون تنازل هنا أو هناك. كل ما هنالك أننا لا نتحدث عن الأمر.

قالت:

- كلا. لستُ غاضبة منها. كل ما أريد هو أن تعود إلى المنزل.

لوهلة تفكر نيلا في إخبار كورنيليا عن عقد الزواج، العشرون ألف جلدر، المعاش الموعود، المنزل الذي سيُسلم عند موت أوتو. إنهم لن يمنحوا ياكوب المنزل الآن بالتأكيد؟ مستحيل، فالزواج لم يتم. ومع ذلك: يكفي سوءاً أن يكونوا مدينين بعشرين ألفاً. سيكون مريحاً أن تخفف عن نفسها العبء،

لكن كيف لكورنليا أن تحل مشكلة لن تزيد إلا من اضطرابها. لماذا تخبرها اليوم أن المكان الذي عاشت فيه منذ أن كانت طفلة صغيرة قد تحول إلى ماء، يتسرّب من بين أصابعهم؟

بدا مُجحفاً، أن يكون لأناس يمتلكون ثروة كبيرة فعلاً أن يحتفظوا بمثل هذا المبلغ. لكنني كنتُ مُستميتة جداً في الأمر، هكذا تفكر نيلا. أردتُ كثيراً لتِيَا أن تتزوج. أردتُ ذلك الأمان، وأوتو أراد ما أرادت تِيَا، وتِيَا لم تكن حتى تعرف ماذا تريد.

طُرق الباب، فقفزت المرأتان. وهرعت كورنليا على الدرج، ونيلا في إثرها. فتحتا الباب لتجدا كاسبر فيتسن. وقد بدا مُتعبا. يقول:

- ذهبتُ إلى كل مكان. لم أتمكن من العثور عليها.

قالت نيلا:

- تفضل بالدخول.

- لا يمكنني.

قالت كورنليا:

- يجدر أن تأكل شيئاً. أو تشرب شيئاً.

أضافت نيلا:

- من فضلك.

سمح كاسبر لهما بإدخاله. بدا أنه في صراع مع شيء ما، وهو يسير أمامهما، ممرراً أصابعه في شعره الكثيف. قال أخيراً:

- لقد كاتبتني تِيا. تسألني عن الزهور.

تبادلت نيلا وكورنيليا نظرة سريعة:

- كاتبتك؟

- كان ذلك بعد إعلان خطبتها. في البداية ظننتُ أن الأمر يتعلق بزفافها، لكنها كتبت تسأل كيف يصنع المرء تركيباته بنفسه. قالت إنها ممتنة جداً للتركيبات التي أرسلتها، ومهتمة.

- تركيبات؟ للحظة، مرّ في ذهن نيلا لقطات سريعة لسموم، بيلادونا وشوكران، وكثير من الفاليريان: و... هل أجبتها؟

تغضّن وجه كاسبر:

- كنت مشغولاً جداً. لم أكن قد وجدتُ الوقت بعد. ومدّ يده في جيبه يسلّمها الخطاب.

وبينما تقرأه، فكرت نيلا، أشعر وكأنني أعيد تجميع أجزائها عبر نُثَر من الورق. تِيا جديدة، تِيا لم أكن أعرف أنها موجودة.

إنه خط تِيا، من دون شك. وهكذا كتبت إلى ڤينسن، لقد برهنت التركيبات على فائدتها الكبيرة لنا جميعاً، لكنني متأكدة من أن الطريقة معقدة. لا أظن هناك أفضل من مشاهدة بذرة تنبت من العدم. أن يقف المرء في وسط بستان ويرى ثمرة مجهوده.

تاريخه يعود إلى أسبوع. تُعيد نيلا الخطاب: يجب أن تحتفظ بهذا. إنه لك.

أخذ كاسبر الخطاب، وقال بحزن جليّ:

- مدام، أنا مستعد أن أفعل أي شيء لأهوّن عليكِ الأمر.

- لقد فعلت ما يكفي فعلاً، يا سيد فينسن. نحن ممتنون جداً، لقد ساعدت كثيرًا في مرضها.

- وإذا احتجتِ قط إلى أي شيء، فأوتو لديه عنوان مسكني.

- لا تقلق. قالت نيلا تطمئنه، وهي تضع يدها على ذراعه. نظر إليها، وكأنه على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه غيّر رأيه. قالت:

- سنرسل إليك حالما نعرف أين هي. ذهب فينسن. وفكرت نيلا، لا توجد تركيبة، يمكنها إعادة فتاة تلاشت.

***

وحينما حلّت الساعة العاشرة من تلك الليلة، كان ثلاثون رجلاً من ميليشيا سانت جورج وبضعة آخرون، بينهم خادمات من المنازل المجاورة لهم في الجودين بوخت، يواصلون بحثهم عن تِيَا. لم يجدّ جديد، وأُعلن اختفاؤها.

وعندما عاد أوتو أخيراً، كان يرافقه ضابط، فأدخلت نيلا الرجلين إلى المنزل. كانت كورنليا أسفل في المطبخ، تُسخِّن فطيرة دجاج من أجل أوتو عندما يعود، لتقوية عزمه.

قال الضابط:

- سنيور كوبيل، يا مدام.

إنه شاب، هكذا فكرت نيلا، ومن جهة أخرى، أناس كثيرون يكونون أصغر منها هذه الأيام. يقول كوبيل:

- إننا نبحث منذ ساعات، وقد بحثنا بدقة. سيحتاج رجالي إلى راحة.

قال أوتو:

- لكن المال الذي دفعته.

قال كوبيل:

- اسمح لهم أن يناموا قليلاً، يا سنيور براندت. ثم عندما يستعيدون نشاطهم، فسوف يقضون الغد في استئناف البحث.

- لكننا لن نصل إليها أبداً بحلول ذلك الوقت.

فرك كوبيل جانب وجهه: وكأنما ليوقظه من سبات:

- سوف نجدها... تردد قليلاً، وتابع: ولكن يجب أن تهيّئوا أنفسكم، قد نستغرق وقتاً أطول في البحث. ما دامت لا ترغب في أن يعثر أحد عليها، فإن هذا يزيد من صعوبة مهمتنا.

- وكيف تعرف أنها لا ترغب في أن يعثر عليها أحد؟ سألته نيلا، وهي تتذكر ما قاله كاسبر في الكنيسة القديمة هذا الصباح، محادثة تشعر وكأنها جرت منذ أسبوعين.

يُقطِّب كوبيل:

- لو أنها كانت ترغب في أن يُعثر عليها، فلماذا ستهرب؟

تنهدت نيلا سراً أمام قصر نظره. إنه صغير جدًّا فعلاً، لكن الأمر كما قاله كاسبر. الشخص الذي يهرب يحمل دائماً بصيصاً من أمل، في أن شخصاً ما سيأتي وينقذه من نفسه. نيلا نفسها تعرف ذلك الشعور. تتشبث بالأمل في أن تيَا لا تريد لهذا الوضع أن يدوم. إنها تريد لهم أن يجدوها.

لاحظت نيلا إرهاق أوتو، وفكرت في والتر ريبيك: كم من الشر في تلك الرسائل، الكشف عن قلب منفطر. شعرت بوخزة ذنب أنهم حتى الآن، حتى في ظل هذه الظروف

القطيعة، يخلقون أسراراً جديدة يُخفيها أحدهم عن الآخر. هل تِيا مع صانعة الدُّمى؟ لو أنها ليست مع ريبك، فربما هي معها حقاً؟

تتساءل نيلا هل تُراه ذكر صانعة الدُّمى لكوبل. لا، لم يكن ليفعل شيئاً كهذا، لأنه لا يمتلك أي دليل، وهو يفضِّل أن يُؤخذ على محل الجد. لا بد أن تظل صانعة الدمى، حالياً، شاغلهم الشخصي. تشعر بالتعب في عظامها أكثر من أي مرة في حياتها.

قال أوتو، مُقاطعاً أفكارها:

- كفى. هذه الساعات حاسمة. يجب ألا نتوقف.

لكن كورنليا صعدت سلّم الطابق السفلي، وقدمت فطيرة الدجاج. كانت رائحتها لذيذة، ساخنة، تعارض تماماً الخوف الذي يسري فيهم جميعًا.

قالت نيلا:

- لا بد أن تتناول منها شيئاً، يا سنيور كوبل." إنها، مثل كورنليا، ترى أفضلية الطعام في هذه اللحظة، حتى لو كان أوتو لا يستطيع.

قال أوتو بنبرة ملحّة:

- لقد حلَّ الليل. حلَّ الليل، ولم نعثر عليها بعد. إنها ابنتي. إنها حياتي. لا أحد في المدينة قدّم فتات معلومة واحدة!

سألت نيلا:

- والاسطبلات؟ والموانئ؟ وألقت نظرة عاجلة على كورنليا، عيناها غائرتان، لكنّ في قزحيتيها لهيب باقٍ. كانت كورنليا

مُعتادة دائماً على قلة النوم.

قال كوبل، وهو ينظر إلى ورقة صغيرة أخرجها من جيبه:

- ذهبنا إلى هناك. جاءتنا تقارير من الموانئ. هذا الصباح، كانت خمسون سفينة مُعدة للخروج. ومن بين السفن التي لحقنا بها قبل أن تتجاوز تيسل، لم يبلّـغ أي قبطان أو كسري عن فتاة أو صبي في مثل بنية تِيا وشكلها وسنِّها تبحث عن فرصة في سفينة.

رددت نيلا:

- من بين السفن التي لحقتم بها! أقرّ كوبل ذلك بهزة كتف تبريرية، متى كان مدّ الصباح؟

- بعد السابعة بقليل.

- كان لديها متسع من الوقت إذن لاعتلاء البحر لو أنها مصممة بما يكفي.

قالت كورنليا، وهي توزع الفطيرة في أطباق:

- لم تكن تِيا لتذهب إلى البحر. لم تطأ قدماها سفينة قط. إنها ما تزال في المدينة بالضرورة. أشعر بذلك.

قالت نيلا:

- لا نستطيع الجزم. ماذا عن الاسطبلات؟

قال كوبل:

- لا شيء هناك أيضًا.

سألته كورنليا:

- هل جربتم الأديرة؟"

"قالوا إنها ليست لديهم.

- ربما يقومون بحمايتها.

هتف أوتو:

- يا جسد المسيح! دير؟

قالت نهلا:

- لم تكن تِيَا لتذهب إلى الراهبات. وحتى لو أنها فعلت، فلن تستطيع البقاء هناك إلى الأبد.

رفض كوبل الكعكة وبفتح باب منزلهم مرة أخرى، فوقفت كورنيليا متفاجئة، وصحنه ما يزال ممدوداً في يدها. قال:

- استريحوا الآن. أؤكد لكم، يا سيد، ويا سيدات، أن الحرس الليلي مازال في الخارج يبحث، وسوف أعود خلال بضعة ساعات."

وقبل أن يتأتَّى لأوتو أن يعترض، منحهم كوبل انحناءة سريعة من رأسه، واختفى في الظلام، تاركاً الثلاثة في حيرة.

قالت نهلا:

- إنه مُحق. نحن في حاجة إلى النوم. لا فائدة منا ونحن هكذا. تِيَا أيضًا نائمة على الأرجح.

ولكن أين تنام تِيَا، ومع من، هي أسئلة لا يطيق أحدهم التفكير فيها. يرفض أوتو الإذعان إلى اعتلاء فراشه. مُحال بالنسبة إليه أن يفكر في النوم، بينما هو لا يعرف ماذا حدث لابنته. أدركت نهلا ذلك، فهو يريد أن يجلس في الدهليز، لبضع ساعات على الأكثر. منتصباً في كرسيه، وخلف رأسه وسادة، والفطيرة إلى جواره تبرد.

***

استلقت نيلا على فراشها، وحيدة في غرفتها بكامل ملابسها. يبدو أن ميليشيا سانت جورج، مهما كان امتعاضها من ذكرى دورهم في احتفال يوهانس، غير أنهم أنهم بحثوا بدقة فعلاً. لقد أخطأت كورنليا الحدس: إن تِيَا ليست في المدينة. ولكن لا يبدو ممكناً في المقابل، تخيل تِيَا في البحر. أغلقت نيلا عينيها، وعقلها يقفز من صورة إلى أخرى. مشهد فراش تِيَا الفارغ. كورنليا، وهي تُخرج المنزل المصغر بتلك النظرة المرعبة على وجهها. ياكوب في الكنيسة، ابتسامة كاسبر المُنطفئة، ريبيكا، ممثلة خارج مسرحها، تدلي لها بحقائق حول قلب تِيَا.

استدارت نيلا، ونظرت إلى صبارة كاسبر التي كانت قد وضعتها إلى جوار سريرها، فتمدُّ يدها لتتحسس الجذعة من حيث شق فرعاً منها ليصنع لها الشاي المهدئ. لا أظن هناك أفضل من مشاهدة بذرة تنبت من العدم. تفكر في السبب الذي جعل تِيَا تترك المنزل المصغَّر بين طيَّات شراشفها: هل كان ذلك بالخطأ، أم بدافع لإخبار عائلتها أنها أيضًا تعرف بشأن صانعة الدُّمى؟ أغمضت نيلا عينيها مرة أخرى. لا يهم إن كانت تِيَا وحدها أو مع صانعة الدُّمى، إنها تريد عودة تِيَا في أي حال.

شعرت بألم مُضنٍ في أضلعها، حينما فكرت في أنها قد تكون السبب، وليس والتر ريبيك، في رحيل تِيَا. كل تلك المرات التي تجادلتا فيها. كل تلك المرات التي أخبرتها فيها نيلا أنها لا تفهم كيف يدور العالم. كل تلك الأيام التي قضتها، في دفع تِيَا نحو ياكوب، وإسماع تِيَا تذمرها المتواصل حول المال، والتضحيات التي قدمتها. تخيلت تِيَا في العلِّية، تُخرج دمية أمِّها،

وأسئلتها المفتوحة تنسكب في منمنمة لا تملك لها شيئاً.

مارين، التي كرهت أيضاً حدود هذا المنزل، أحبته بالمقدار نفسه. كانت مُطورة جداً به. في اليوم الأول لوصول نيلا إلى هنا، منذ ثمانية عشر عاماً، قبل حتى أن تولد تِيَا، كانت مارين قد سألتها:

- منزل أجدادكِ في أسِدلفت: هل هو دافئ وجاف؟

فأجابت نيلا، إنه يكون رطباً أحياناً.

ولكن، انظري الآن، يا مارين، هكذا تفكر نيلا: إنه هذا المنزل هو ما يوشك على الانهيار من بين أيدينا، في المياه العكرة لقناة هيرين. وقد حرّرت ابنتكِ نفسها منه، قبلي.

وضعت يدها في جيبها تتحسس المكان الذي تحتك فيه الرضيعة المُنمنمة بالمنزل المذهب الصغير، وتمتمت" عودي إليّ" ليس لصانعة الدُمى هذه المرة، ولكن لأحب شخص لديها من بين الجميع.

هل تسمعينني، يا تِيَا؟ هكذا همست. عودي.

***

كان الوقت قبيل الفجر تماماً، حينما أدركت نيلا ما حدث. جلست في سريرها، كان جسدها متيبساً، وأصبحت الفكرة فجأة واضحة جداً، حتى أنها لا تصدق أنهم لم يفكروا فيها. في خضم ذعرهم الفوري جرّاء اختفاء تِيَا، صانعة الدُمى، التجربة القاسية في الكنيسة القديمة، وفي إثرها كشف أمر والتر وعنجهية الميليشيا، فاتهم الحل الأكثر بداهة. لقد استغرق الأمر من نيلا أن تنفرد بنفسها هذه الساعات، وعقلها في دوّامة. استغرق الأمر كاسبر فيتسن وخطاب تِيَا إليه، وذلك

المنزل الذهبي الصغير، حتى ترى.

تنهض نهلا من فراشها، وقد بلغ انفعالها ذروته. تحسُّ في داخلها بنهاية ما وبداية، قصتان تلتقيان لتكونا دائرة أبدية. إنها تعرف أين تمَا، وعليها أن تذهب وحدها لمقابلتها. لن تأخذ مركباً، لن تأخذ الطريق نفسه التي غادرت بها، قبل ثمانية عشر عامًا. سوف تستأجر حصاناً من إسطبل. أجل، حصاناً. لأنه مهما كان الوضع كارثياً، إلا أن نهلا لم تنسَ قط كيف تقود فتاة ريفية حصاناً.

ذهب أخضر

29

في صباح يوم زفافها إلى ياكوب فان لوس، قبل الفجر، وقبل أن يستيقظ أي شخص آخر في المنزل، جلست نِيا في الفراش، وراحت تجول بعينيها في الغرفة نفسها التي نامت فيها طوال حياتها. الجدران البيضاء. ألواح الأرضية الداكنة الجرداء. الرف العريض الذي كانت قد تركت عليه الكتاب المُهدى من زوجها المستقبلي، وباقة العروس التي تنتظر في مائها. وكما قال هندريكسون بالضبط: تصبح البتلات في ذروة اكتنازها، مُشرقة وزاهية حتى على ضوء الشمعة الوحيدة. بدت بريئة، لا تعرف في الظاهر أن سيقانها قد جُزَّت، وكيف حتى، أنها بحلول الغد ستبدأ في الذبول.

لم تكد نيا تغفو تلك الليلة، والصندوق الذي يحوي الدُّمى الثلاثة يستقر مفتوحاً فوق حجرها. تحدق فيه، وإحساسها باليأس يتزايد. هنا والتر ولوح ألوانه الخالي. هنا المنزل الذهبي ببابه الموصد. وهنا، الأناناسة الصغيرة. نظرت إليهم بأقصى ما يمكنها من تمعُّن، محاولة أن تفهم لغتهم. لكن ما تريده نِيا، أكثر من أي شيء آخر، هو أن توقف هذا اليوم.

إنها لا تتخيل كيف قد تشعر عندما تُدسُّ في ثوب زفافها، عندما تُؤخذ بامتداد طريق القناة إلى الكنيسة القديمة لتقابل ياكوب، عندما تقف أمام القس بيكر وتتلو نذورها. ثم عندما تعود إلى هنا مرة أخرى ويد ياكوب في يدها، امرأة متزوجة. عندما تشرب من كأس العروسين. عندما تولم، ثم تغادر.

لكنه شيء تعهدت تِيَا أن تفعله. إنه سينقذ مستقبل عائلتها، سيعيدهم من جديد إلى دائرة المقبولين. إنها على عتبة تحقيقه، لكنه يبدو مُخيفاً جداً لها، مستحيلاً جداً وخاطئاً. تفكر في كل الطعام الذي أعدته كورنيليا. تفكر في والدها، وهو يخبرها في هذه الغرفة نفسها، أن في وسعها أن تبدأ من جديد. ثم تتذكر تحذير ريبيكا، كيف أن اهتمام جريتا ريبيك بها قد لا ينتهي أبداً. لقد ظنَّت أنها ستنجو بنفسها داخل هذا الزواج، أنها ستتمكن من إقامة حواجز لعزل نفسها عن العالم. لكنه قد يجعل الأمور أسوأ حتى من الآن. كانت هذه هي بداية تِيَا الجديدة: الحياة كزوجة. وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك.

نهضت تيا من الفراش، وارتدت ملابس عادية، ثم وضعت دمية والتر والأناناسة في جيبها، مُلقية نظرة خاطفة على المنمنمة التي لم تلمسها. خطر في بالها أن تترك المنزل الذهبي داخل صندوقها، وتضع الصندوق تحت سريرها. لكنها ترددت، وهي ترفع المسكن الصغير بين أصابعها، وتُقرِّبه من ضوء الشمعة، وتحاول فتح الباب الصغير مرة أخرى: ما يزال موصداً. لا بدَّ أن داخل هذا المنزل شيء ما، ليتها كانت تعرف كيف تفتحه، كيف تقنعه أن يمنحها أسراره.

في اليوم الذي أعلنت فيه لعائلتها أن عليهم تحديد موعد لمحادثة ياكوب في أمر الزواج، كانت قد ظنَّت أن هذا المنزل أرسل إليها كإشارة. كان صورة لمنزل ياكوب، رسالة إليها بوجوب أن تحصل على أمانه الذهبي وتترك هذا المكان الذي زال لمعانه حيث قضت كل حياتها. كانت تحاول أن ترى هذه المُصغَّرات بعيني زوج خالها، مُصغَّرات مُرشدة. لكنها الآن، لا تريد هذا القصر الصغير. إنه يذكر تِيَا بفشلها، يؤذن بمستقبل

ليس لها.

وضعته على المنضدة الصغيرة إلى جوار فراشها، لكي تراه زوج خالها، أرادت أن تترك خلفها شيئاً يخبر الخالة نيلا أنها أيضاً تعرف بشأن صانعة الدمى. أما والترا والأناناسة، فهما لتيا. تخيلوا والدها يرى دمية والترا إنها تمثل كل شيء في حياة تيا تتمنى إخفاءه. أو زوج خالها، ترى الأناناسة التي تكرهها كثيراً، حتى في هذه اللحظات، تريد تيا حماية عائلتها. وسط استعجالها وتشتت تفكيرها، وبينما ترمي بوسائدها وشراشفها، وترتب فراشها لكي تصنع هيئة تشبه جسدها النائم، فإنها لا تنتبه إلى المنزل الصغير وهو يعلق وسط دفء العش الذي خلّفته وراءها.

أفرغت دولاب ملابسها، والجِلدرات التي تبقت من بيع الخريطة في حقيبة من الكتّان، غادرت غرفتها من دون أن تلتفت وراءها، وانسلّت أسفل السلم الرئيس، مُتفادية أي صرير من الخشب قد يفضحها. هبطت على رؤوس أصابعها أعمق داخل المنزل، إلى مخزن كورنيليا، فتأخذ رغيفاً، وقرصاً صغيراً من الإيدام، وقارورة كبيرة من الجعّة، وشرائح من اللحم البارد وكعك قرفة. كرهت الوجود في تلك الحجرة الصغيرة، محاطة بالتحضيرات الكثيرة لوليمة زواجها. صعدت سلم المطبخ من جديد، فعبرت الدهليز، ودست الطعام في مقدمة حقيبة ملابسها. أزاحت مزلاج الباب الأمامي بأبطأ ما يمكنها، خافت أن يسمعون صريره. سوف تستيقظ كورنيليا قريباً جداً.

قالت لنفسها:" هكذا أفضل. لقد خيبتُ آمال الجميع بما يكفي".

شعرت بحركة عند تنانيرها، ونظرت إلى أسفل فرأت لوكاس يحدِّق فيها، مُحلِقاً حول ساقيها، وهمست:

"أنا آسفة. ليتَ في وسعي أن آخذك أيضاً."

جلس لوكاس على مربع من الرخام الأبيض يراقبها، لكن تِيَا لم تستطع أن تتحمل العاطفة التي يُحاصرها بها، ولا تخيّل أنها لن تراه مرة أخرى. نظرت إلى الخارج، إلى الفجر الأزرق، ثم إلى الصالون، وتذكّرت كل أعياد الميلاد التي حظيت بها في تلك الحجرة، جالسة على ذلك البساط. البيض المخفوق، فطائر ماء الورد: الرحّالة الذين لم يتجاوزوا الهيرغراخت قط. في قلبها رضّة، وأخرى، وأخرى. تريد أن توقف الإحساس لكنها لا تستطيع. تريد أن تعود إلى سن الخامسة، مُبتهجة بألعاب الاستكشاف التي لا تفضي إلى شيء، مُحاطة بحبهم.

كفى، تقولها لنفسها. لقد ضيّعتِ كل ذلك. لقد صار في الماضي.

كانت تِيَا كالمسحورة، تعجز أن تجبر نفسها على الخروج إلى النهار. تخفي لتقبّل لوكاس، دافعة نفسها إلى إعادة التفكير في باكوب زوجاً، في إليونور ساراخون وعينيها الساخرتين. تفكر في جريتا ريبيك، وقبل كل شيء، والتر وخيانته، كلمات حبّه - وعوده: الجزء الأسوأ. لا يوجد مستقبل لها في هذه المدينة. على تِيَا أن تصنع واحداً في مكان آخر.

ولكن على الرغم من أنها تنجح في الخروج من المنزل، مُغلقة الباب بهدوء خلفها، إلا أنها تقف عند تقاطع الهيرغراخت مع الفيزوسترات، ترقّباً لرؤية ما ستفعله أسرتها. هل سينظر أحدهم من نافذة غرفتها حالما يلاحظون اختفاءها؟

إن فعلوا، فسوف أعود، هكذا فكرت تِيَا.

تمنت أن يفتحوا النوافذ وينادوا باسمها، أن يدفعوا إلى الخارج، أن يركعوا في تضرُّع ويقولوا سامحينا، نحن آسفون جداً، يا طفلتنا: لن نجبركِ على فعل أشياء كهذه مرة أخرى. لأن الحقيقة، هي أن تِيَا خائفة مما هي مُقدمة عليه. ليست هذه مسرحية. نبيلات الهيرغراخت لا يختفين وحسب. ستعود عبر ذلك الباب، وتتزوج ياكوب وتصبح زوجة في شارع البرنسغراخت.

ولكن عندما يظهر الوجه الصغير للخالة نيلا عند النافذة فعلاً، بدت لتِيَا مثل قمر صغير خائف. نبيلة حقيقية من نبيلات الهيرغراخت، تفحص طريق القناة ويدها على الزجاج مثل إيماءة وداع مُتجمِّدة. إنها مثل سجينة، تأمل أن يأتي أحدهم ويطلق سراحها هي أيضاً، فأدركت تِيَا أنه لا يمكنها أن تعود عبر ذلك الباب.

***

على جسر في مشارف اليوردان، كان العربجيون ينتظرون، يأخذون أجراً مقابل الرحلات الطارئة، ويقلون كل ما يُطلب منهم بطاطا، ذبائح، حقائب كان. كانت السماء تكشف الآن عن شرائط وردية فوق القناة، والشمس تُخضِّب السحب بالذهب. وافق عجوز على إخراجها من المدينة مقابل جِلدر إلى المكان الذي تريد الذهاب إليه، لكنهما لم يتحدثا في الطريق، فقد جلست تِيَا في العربة خلفه لا إلى جواره أمام الحصان. ما يزال الوقت مبكر جداً، ولا يبدو أنه راغب في الحديث، وقد سرها ذلك. وحدها مع حقيبتها: تدريب مبكر على حياة العزلة القادمة.

مرا أمام واجهات منازل أمستردام، بينما المدينة تستيقظ، والخدم من الرجال والنساء في طريقهم إلى السوق الباكر، وأصحاب المتاجر يرفعون حواجزهم بأيدٍ خبيرة، والموظفون يهرولون فوق حصى الطرق حتى يصلوا إلى المكاتب قبل رؤسائهم. خلفت تِيَا وراءها كل هذا النشاط، المألوف جداً بالنسبة إليها. مرت ساعة، ثم أخرى. زاد عدد الحقول، لكن المساكن تضاءلت. سألها العجوز هل هي متأكدة من المكان الذي تريد الذهاب إليه، وكل ما تملك تِيَا أن تقوله هو: نعم، لأنه لا يمكنها أن تعود، ليس الآن.

اخترقت الشمس قلنسوتها، دواليب العربة الصاخبة جعلتها تشعر بالنعاس، وباتت أمستردام حلماً فقط.

شعرت تِيَا بالخوف وهي تبتعد أكثر فأكثر عمَّا تعرفه. إنها تقطع طريقاً بطيئاً نحو العدم. لكنها مع ذلك، لا تجرؤ على النظر إلى الطريق التي جاءت منها، وكأنها لو استدارت، لتفسّخ الطريق بلا عودة. في أية لحظة، قد تهبط الأرض على الجانبين إلى قاع لا ينتهي، والعربة، والحصان، والرجل قد يسقطون أيضًا، وستدرك كيف تركت نفسها بلا دعم، بلا ذِكْر، من دون مستقبل أو ماض.

فكرت في اللحظة التي ستدرك فيها كورنيليا أنها رحلت، ويرتفع الدمع في عينيها ويهدد بالانهمار، لكنها لا يمكنها البكاء على متن هذه العربة. يجب أن تكتمه كله في داخلها، وإلا فإن دموعها قد لا تتوقف قط.

ومن خلال تحديد مكان الشمس، خمنت أن زفافها على وشك أن يبدأ. تخيل تِيَا ياكوب واقفا في الكنيسة القديمة، وعائلته، والقس، وربما حتى ريبيكا: جميعهم ينتظرون وصول

العروس. نظرت تِيَا إلى مؤخرة رأس العجوز، خصلات شعره الرمادية، تجاعيد رقبته، شامتان قرب طوقه. هذا هو المشهد الذي تطل عليه في المقابل، وتبدأ تشعر بفداحة أفعالها، وسوء التخطيط. تتساءل هل تكون الخالة نِلا هي من تذهب إلى الكنيسة لتخبرهم بنبأ اختفائها.

هي من ستذهب طبعاً. وحدها الخالة نِلا تملك القوة.

واصلت العربة سيرها. تحسست تِيَا دمية والتر والأناناسة الصغيرة اللتان تقبعان في جيبها، هذه العلامات الخاصة بحياتها التي مازالت تُحيِّرها. كانت قد ألقت برسائل ابتزاز جريتا ريبيك في عهدة ريبيكا، ونظَّفت منزل عائلتها من هاتين التعويذتين. نوع غريب من أعمال المنزل، وتِيَا تكره أنها ما زالت تحمل والتر معها. لم يكن في وسعها أن تتركه فيعثروا عليه، لكنها أيضاً ما تزال عاجزة عن حمل نفسها على تدميره. أما الأناناسة، فهي الآن أجمل المُصغَّرات الثلاث. عندما تتأكد أن العربجي يركز عينيه في الطريق، تُخرج تِيَا الثمرة الصغيرة من جيبها، وتدحرجها بين سبابتها وإبهامها. ومن العجيب أن الثمرة بدت وكأنما قد نمت قليلاً.

قطعاً لا، هكذا تفكر تِيَا، وهي تفرك عينيها لإنعاش تركيزها. لا بد أنه ضوء الشمس في منتصف صباح مشرق وليس على ضوء شمعة في الفجر، سيتبدّى للعين حجمها الحقيقي. ولأن التفكير في أنها قد نمت مُستحيل، فلا بد أنّ السبب هو عبثها بها، فانتفخت مادتها. لكن الأناناسة لم تفقد صبغتها؛ بل إنها تبدو أكثر حيوية واكتنازاً. عمرها يُذكِّر تِيَا بحماس كاسبر فيتسن لمربى أناناسه، معارفه التي قدمها على هيئة تركيبات. سوف تلجأ زوج خالها إلى تلك التركيبات المنومة الآن، كما تظن.

فكرت تِيَا، عندما تدرك الخالة نيلا أنني رحلت، فسوف ترغب في وضع المدينة بأكملها في حالة النوم لمئة عام. تنهد، وهي تعيد الأناناسة الصغيرة إلى ظلام جيبها. كانت أجراس الكنيسة القديمة ستدقّ بحلول هذا الوقت. كانت تِيَا ستصبح زوجة. سوف تغضب الخالة نيلا كثيراً.

توغلا في سفرهم داخل الريف. واختفت المساكن، وكان الحصان يمر بشجيرات الكشمش الأسود التي تكشف عن المزيد من الحقول، تسفعها الشمس إلى درجات من الأخضر الزمردي والخردلي والأصفر الياقوتي والذهبي. إنه يُشعر تِيَا وكأنها تتنقل عبر واحد من ديكورات والتر البارعة، مشاهده الريفية التي يستخدمها المسرح دائمًا للتمثيليات الكوميدية. لكنها لا تشعر بالكوميديا في أي من هذا.

قال العربجي العجوز:

- هل أنتِ متأكدة من أن هذا هو طريقك؟

نظرت تِيَا حولها، في شكّ، وهي تقول:

- نعم، ولكن كيف تكون متأكدة، وهي لم تسلك هذا الطريق من قبل؟

شدّ العجوز اللجام ونظر حوله. كل ما تسمعه أذناه هو طنين الحشرات على جانبي الطريق، وفي الأعلى، عدد كبير من الطيور. لا نوارس هنا، وإنما جوقة من النداءات التي لا تستطيع تِيَا تمييزها. لا يوجد دليل على حياة بشرية. بل هي سماء ممتدة، وأرض مُنبسطة، وعصب مهيبة، ونسيم خفيف يرفع شرائط قلنسوتها.

قال:

- أنا رجل ينتمي إلى المدينة. لا أحب هذا الصمت.

أرادت أن تقول: "ليس صامتا، ألا نسمع صوت الطيور؟ لكنه واصل القول:

- يقولون إن القراصنة يتعمقون في هذا الصعيد لإخفاء كنوزهم، ونظر حوله، وكأن جزءاً منه يتوقع أن يقفز أحد من وراء سياج ويوجه سكيناً إلى عنقه.

والغريب أن تعبير العربجي العجوز عن خوفه بهذه الصورة يهدئ من روع تيا. تخيلت رجالاً شابت شعورهم في البحر، رجالاً مثل خالها، يخرجون من الماء ليدفنوا لآلئ وسبائك تحت الأسيجة الشجرية. إنه يبدو منافياً للعقل، لكن المساحة حولهم ضخمة ومفتوحة للاحتمالات. إنها ترى أن الأرض جميلة.

قال العجوز، مُقتحمًا أفكارها:

- لن أذهب أبعد. سوف أعود. أظن وجهتكِ على بعد ميل تقريباً، عليكِ أن تقطعيه سيراً على الأقدام.

- لماذا؟ قلتَ...

- هذه هي المسافة التي يوصلكِ إليها جِلدر، تنظر إليها بتمعن: ما لم يكن لديكِ المزيد؟

ترددت تيا، وهي تفكر في الجِلدرات الكثيرة التي تبقت من بيع الخريطة مُخبَّأة في حقيبتها. في وسعها أن تحتفظ بالعربجي، لكنها لا تدري إلى متى يجب أن يكفيها هذا المال:

- تستطيع أن تُنزلني.

لكن يبدو أن فضول العربجي اشتعل أخيرًا:

- لديكِ أقارب هنا؟

تقفز تِيا من العربة وتسحب حقيبتها خلفها:

- إن جاز التعبير.

ضيّق عينيه وهو ينظر إليها:

- ما الذي يُفترض أن يعنيه هذا؟ أنتِ هاربة. هل تلاحقكِ الميليشيا؟

- الميليشيا؟

- لو ظننتِ أنكِ أول فتاة أقلُّها في عربتي، هاربة...

قالت تِيا:

- لديَّ عائلة قريباً من هنا، لكن صوتها تلعثم. ذكره للميليشيا أقلقها أكثر من أي قرصان.

قال الرجل:

- إنهن يندمن دائماً على ذلك. يحسبن أن في وسعهن العيش بمفردهن.

- من تقصد؟

- الفتيات اللاتي يهربن، ونظر إليها كما لو كانت غبيّة.

- أنا لست...

- ما الذي يجعلكِ تظنين أنكِ مختلفة.

قبل أن يتأتّى لتِيا أن ترد على هذا، رفع العربجي سوطه إلى خاصرة الحصان. كانت الفرقعة نغمة فاسدة في الصباح المشبع بالعصافير. واستدار عائداً في الطريق العريض. شاهدتها تِيا وهي تضاءل شيئاً فشيئاً، مختفية في الدرب الذي أتوا منه. لم تشعر بمثل هذه الوحدة.

بدأت تسير الميل الأخير. بدت السماء ضخمة. كان الندى قد تبخَّر فعلاً، وحقيبتها الكتان السميكة ترتطم بجانب فخذها. تجمع العرق تحت غطاء رأسها، وبدأت مؤخرة ظهرها تؤلمها، ورقبتها تكتوي، والحمولة أثقل مما توقعت. أرادت أن تقف لكنها تخاف أن تصل، امرأة شابة بمفردها على طريق زراعي. على الرغم من أنه لا يوجد أحد في الجوار، إلا أن الوقوف هنا يُشعرها أنها مكشوفة بطريقة لم تعهدها قط في المدينة. كلمات الافتراق الساخرة التي قالها العجوز ما تزال تلذعها. ما الذي يجعلكِ تظنين أنكِ مختلفة؟

فكرت تِيا، قد أكون في هذه اللحظة، المرأة الحيَّة الوحيدة هنا.

لا بأس أن تبكي الآن، هكذا تفترض، وهي تصفع ذبابة بليدة، والحرارة تبدأ تتلألأ في الطريق أمامها. لا بأس أن تحرر الدموع التي ظلت تهدد كالرعد منذ اللحظة التي خرجت فيها من منزلها، مُبتعدة عن المصير الذي لم تردْه قط. يمكنها أن تنتحب، يمكنها أن تصرخ، ولن يعرف أحد.

نظرت تِيا حولها، السماء الزرقاء الضخمة، السهول المترامية. هذه إذن هي أسِدلفت. لا تصدق أن هذا هو المكان الذي نشأت فيه زوج خالها.

كم تراها صرخت الخالة نيلا هنا؟ أم أنها كتمته في داخلها؟

قالت تِيا لنفسها، وهي تتعثر قليلاً، لقد قطعتِ شوطاً طويلاً. اصمدي. لكنها تخشى الآن من أن يكون المنزل في أسِدلفت قصة لفَّقتها زوج خالها، لتعلل هروبها إلى الحلم الأمستردامي، لتبرر مرارتها عبر السنين مع فشل ذلك الحلم.

ربما لم يكن هناك أب سكّير، ولا أم أغرقت نفسها في بحيرة. لم يكن هناك أخ ولا أخت قط. لم يكن هناك منزل ا حتى أن الخالة نيلا لم تعد إليه. كانت الحكاية كلها كذبة، وسارت إليها تِمَا بقدميها، ولا شيء تملكه سوى حقيبة ملابس ودميتين لمساعدتها في الخروج منها مرة أخرى.

لقد فكَّرت في المجيء إلى أسِدلفت لأنها كانت تعلم أن والدها لن يتخيل قدرتها على القيام برحلة كهذه، وكورنيليا لن تصدق أن تِمَا قد ترغب في القيام بها. زوج خالها لن تأتي إلى هنا أبداً للبحث عنها، لأنه المكان الذي يلاحق أحلامها، وقد أقسمت ألا تعود قط. لقد جاءت تِمَا إلى لامكان، حيث ظنت أنها ستكون في أمان. لكن كل ما تريده الآن، وبعد ساعات فقط، هو أن يجدها أحد.

في اللحظة نفسها، التي كادت أن تبكي، لمحته. ليس مكانًا مُفبركًا، ليس مجرد نسج من خيال زوج خالها، وإنما هو شيء حقيقي. نقطة سوداء لمنزل في الأفق، مداخنه ما تزال صغيرة، تشق السماء. لا بد أنه منزل طفولة الخالة نيلا، إذ لا منزل آخر في الجوار. ضوء شمس حزيران جعله يتألق مثل جوهرة من الطوب، مؤطَّراً بالسحب التي تعلوه، مُؤذنة بحقيقة وجوده، كما لو أن يداً قد أوقعته سهواً من ارتفاع كبير في هذا الفضاء الواسع، لترى كيف يُبلي.

شعرت تِمَا بدقات قلبها تتسارع. تبدأ قدماها تدقان الأرض على طول الطريق. وبدا العالم مضطرماً بالألوان. وأخذت تواصل الركض. حجم المنزل يكبر، طابقاه العريضان، جدرانه سميكة، وطوبه بلون الدم المُتخثر. اقتربت أكثر، صعقت لرؤية لجوة هائلة في سقفه، وعدد من المداخن قد وقع طوبها، وتلك

التي مازالت منتصبة تبدو وكأنها على وشك الانهيار. توقفت عند السياج المتعفن، لاهثة، كل النوافذ مغطاة بالألواح. كان بابه الأمامي قد سُدَّ بألواح خشبية متينة مُسمَّرة لا تراها العين من شدة تلاصقها. وبلوى أفرع من اللبلاب إلى الخارج من تحت نوافذ الطابق الأرضي، والحديقة الأمامية الكبيرة مقفرة.

انسلت تِيَا عبر فجوة بين أعمدة السياج المتعفن. على الرغم من الصمت الغريب الذي يغلف المنزل، كان من الصعب ألا تشعر وكأن أحدًا يراقبها. هل يُحتمل أن أحدًا يحدق فيها من خلف أحد الألواح؟ راقبت، وانتظرت. إلا أن كل ما تسمعه هو طنين النحل، والرياح عبر الأوراق، والتغريد الكثيف للعصافير في داخلها، عصافير تجهل أسماءها. لا يوجد أبقار. لا دجاج. لا خراف، لا خيول برية. توجد أشجار الفاكهة، كما وصفتها الخالة نيلا، بعضها مُتغضن، بعضها حيوي. شقائق النعمان، تنبثق من بين الحشائش السائدة، أحمر صاعق وسط الأخضر.

لكن منزل طفولة الخالة نيلا ليس كما كان ذات يوم. نظرت تِيَا إلى أعلى تلك الجدران العتيقة، وفي تلك اللحظة شعرت بخوف في قلبها. شيء، ينتظر أن تقع في شباكه.

كان الفجر في حال بزوغ فوق أمستردام، لكن هناك نجوماً تثقب السماء في الوقت الذي تجمع نيلا ملابسها الداخلية، وبلوزتين وبضعة قلنسوات قطنية في حقيبة جلدية، لن تأخذ صندوق سفر هذه المرة، ولا ببغاء في قفص كبير، كما في المرة التي قامت فيها بهذه الرحلة جيئة. أضافت إلى الحقيبة المال المتبقي من بيع لوحة الحطام التي كانت تخص مارين. قبل أن تغير رأيها، طوت خريطة منزل طفولتها، ذلك المكان التي ظلَّت

أفكارها تقبله وترفضه، منذ أن أدركت أين قد تكون ذهبت تيا، ودستها في الداخل أيضًا. قبّلت منمنمة الرضيعة ووضعتها في جيبها. كتبت رسالة إلى أوتو وكورنليا، مع أنها تعلم أن اختفاءها لن يثير القلق نفسه الذي سببه غياب تيا، لكنها تدرك أنها لا تستطيع أن تختفي أيضاً من دون كلمة. أملت أن يتمكنا من قراءة رسالتها، ويفهمان سفرها العاجل.

في الأسفل، كان أوتو نائمًا في الدهليز على الكرسي، وقد تيبّس جسده من الإرهاق. كانت شريحته من فطيرة الدجاج قد التهمت، غير أنه من خلال منظر الفتات المُتساقط على البلاط، لا بد أن من أكلها لوكاس، وليس هو. لا يسع نيلا أن تتخيل الإرهاق الذي قد يؤدي إلى مثل هذه الاستراحة المُتعبة، لكنها لوهلة، في العتمة، خشيت أن يكون أوتو يتظاهر بالنوم فقط، وأنه سيصر على مرافقتها بينما هي تريد أن تفعل هذا بمفردها. انتظرت نيلا، حابسة أنفاسها، لكن أوتو كان غارقاً في النوم، وتمنت أن تقوده أحلامه إلى مكان يمنحه استجماماً قبل أن يستيقظ ويتذكر اليوم الذي يعيش فيه. إنه سيغضب منها على الأرجح لأنها فعلت هذا من دونه، لكن نيلا ظلت مُصممة، وهي تنزل إلى مطبخ الخدمة على أطراف أقدامها حيث تترك رسالتها. وحملت أكبر مقدار يمكنها من طعام الزفاف المُغلّف ومؤونة أبسط من كرار كورنليا في حقيبتها، وأخذت سكين تقشير حاد من صندوق أدوات المائدة، دسّته في حذائها، وفتحت قفل باب المنزل الذي يستخدمونه لاستلام البضائع، وصعدت درجات شديدة الانحدار تؤدي بها إلى الهيرغراخت.

أسرعت نيلا في طريق القناة، كما فعلت تيا في الصباح السابق، تساءلت: "هل سيفترض أوتو وكورنليا أنها أيضاً قد

هربت"؟ ولكن سيكون عليهم أن يثقا بها. إنها مُتيقّنة من أن مستقبلهم محصور في أسِدلفت، متمازج بماضيها.

رأت نيلا نفسها على هذه القناة، قبل ثمانية عشر عامًا، قبل أن تصبح أرملة، تترجل من ثاني أفضل مراكب يوهانس. كانت مارين قد سألتها، ألم تستائي؟ إن ثاني أفضل مركب في هذا المنزل مازال يعني طلاءً جديدًا ومقصورة مبطنة بحرير بنغالي. ظنَّت نيلا في ذلك الوقت أن الطلاء الجديد والحرير البنغالي علامات على حبه، لكنها كانت كلمات اعتزاز ورونق، تخفي التصدعات. فكرت في الأرامل اللاتي كانت قد شاهدتهن في شوارع القنوات طوال هذه السنوات، حياتهن المرفهة، وكينونتهن الغامضة. لوقت طويل، تطلعت إلى مثل ذلك الثراء، لكنه كان حلمًا لم يكن ممكناً قط أن تحوله إلى حياة.

قصدت الإسطبلات في الريسترات باليوردان، عند لافتة الحدوات الأربعة، إلى جوار خان يحمل الاسم نفسه. تمّ استئجار الحصان ببساطة. أخبرت نيلا السائس في الاسطبلات أنها ستأخذ فرسه الكستنائي ليوم وليلة، ثم توقف، وتقول، ثلاثة أيام. بل في الواقع: خمسة.

بدا المنزل في أسِدلفت بالارتفاع، طوبة طوبة داخل صدرها، ومعه يأتي الخوف والإثارة. ستحتاج إلى وقت هناك، أكثر من مجرد يوم وليلة. وجدت نفسها تتفقد عيني الفرس ومنخاريها، والأربعة حوافر، أصابعها رقيقة على جسد الحيوان، ردود فعل قديمة تفاجئ السائس. ها هي نبيلة من الجودين بوخت، تميل على الخاصرة الوسيعة للبهيمة، مُدقّقة النظر في صحة أقدامها بحثًا عن أي عفن. لكن السائس جيد، أحصنته تتلقى عناية

كبيرة، وعضلات قوية. هذه الكستنائية مطواعة ولكن قوية، جميلة.

تناهى إلى مسامع نيلا من خلال أبواب الخان المُقفلة، أصوات ما تبقى من الرجال الذين كانوا يسكرون طوال الليل. وتذكرت إلى أين سيأخذها هذا الحصان، قبضت يديها على اللجام. وسألته:

- كم ثمن الاحتفاظ بها؟

رفع السائس حاجبيه. الوقت مبكر على الفصال، لكنه أمستردامي، معتاد على معاملات الفجر ورحلات الصباح. قالت نيلا قبل أن يُملي عليها السعر:

- سأمنحك عشرين. بما في ذلك السرج والعتاد.

- ثلاثين.

- خمسة وعشرين. لكن هذا أفضل عرض لديّ."

- إن الكستنائية تساوي أربعين على الأقل. لكن السائس أخذ تقود نيلا. وقال: ستوصلكِ أينما تذهبين. وتعيدكِ بعدها.

قادت نيلا الفرس ، وسارت بها مسافة ميل على أطراف المدينة قبل أن يتسع الطريق. فكرت، ربما يجدر بالمرء ألا يعود أبدًا، يدها رقيقة على الخطم المخملي للفرس. لكن ما قد ينتظرها في أسدلفت لا علاقة له بما جاء من قبل، وله كل العلاقة بما سيأتي بعد.

الأرض جافة، وهناك نسيم خفيف، والشمس ليست لافحة بعد. يبهرها كيف أنها تتذكر جيداً كيف تركب فرساً. كان ذلك ليذهل كورنيليا وأوتو، وتِيا أيضاً. لا يركب

الأمستردامـيون الخيول مادام في وسعهم التنقل سيراً، أو في عربة، أو عبر القنوات. لكن كيف أمكنها أن تنسى روعة الشعور؟ عندما تبدأ أمستردام في الاختفاء، وتشعر نيلا بأنه لا أعين مُستهجنة تراقبها، فإنها تهمز فرسها عبر الحقول، فتفتح تلك المخلوقة رئتيها، وتطلق ساقيها للرياح. شعرت كأنها تطير، كأن هذه الفرس لم تستأجرها من سائس متعب عمل طوال الليل في تقديم الجعة إلى رجال عجزة يتملكهم الحزن، لكن، هي بيغاسوس بذاتها، مولودة من جسد ميدوسا المُنشطر.

فكرت نيلا، في أية لحظة، سألقي بغضبي على السماء.

خففت من سرعتها، فهي لا تعرف هذه الفرس جيدًا، ولن يفيد أيًا منهما أن يبالغا في الاستعجال، أو السرعة. وحينما بدأت الفرس تخبّ، شعرت نيلا بالابتهاج. التفتت يمينها، فرأت أنها تسير في طريق القنال، أحد الأنظمة العديدة للتنقل بالمراكب إلى خارج المدينة، على طول القنوات الطبيعية والمصنوعة. كانت المراكب القوية قريبة من السطح، وكانت رؤيتها تؤلم نيلا، لأنها تذكرها برحلتها إلى أمستردام، قبل ثمانية عشر عامًا. شدت اللجام وعادت إلى الطريق. يجب أن يختلف الأمر هذه المرة. إذا لم يحدث، فجميعهم مفقود.

حينما اقتربت من المساحات الخضراء لطفولتها، استطاعت تمييزها من خلال ارتفاع السماء، وكيف تبدو الأرض وكأنها تلتصق عميقاً بالأفق، والسحب تحتشد أعلى وأعلى في الأزرق الداكن. لقد ترعرعت نيلا داخل هذا الإحساس الذي يكاد يكون كروياً بالمكان، فأزاحته لتتكيف في الغرف الأنيقة والخزائن الأكثر أناقة، وواجهات المنازل المُتراصّة وقنوات الماء الدقيقة. التناقض بينهما صادم الآن بالنسبة إليها، قالت لنفسها،

أحسنتِ جداً. لقد اعتدتِ القيود كالبطة في الماء.

ثم شعرت به. إنه يزحف إلى مؤخرة عنقها: إحساس البرودة المألوف بوجود من يراقبها. إنه ليس في عقلها فقط، لأن الفرس تشعر فيما يبدو بشيء أيضًا. على الرغم من مطواعيتها حتى هذه اللحظة، إلا أنها تنتصب على قائمتيها الخلفيتين، مُطلقة صوتاً يثير أعصاب نيلا. تداهن الفرس لتهبط وتُهدّئها، وهي تنظر أمامها مباشرة. أطلقت الفرس صهيلاً، وحركت حوافرها بتردد. الطريق أمامهما خاوٍ: إن الشيء ينتظر خلفهما.

ترقبت نيلا. إلا أنها لم تستدر. كان النسيم يصفع خصلات شعرها المُرسلة. والطيور تصدح كلها، شحارير، شراشير، حمام. زعقة بعيدة لشيهانة، حلقت بعيداً عن مجال رؤيتها. تغريدة عصفور تفّاحي، يختبئ في السياج. تحسست منمنة الرضيعة في جيبها وتصور نفسها تستدير وتمد يدها بالرضيعة الصغيرة. كادت أن تفعل ذلك، ولكن ما الذي ينتظرها حقًا في الطريق خلفها؟ إنه ليس الحب. ليس الوضوح. قد لا يكون أكثر من خيال رمادي مُبهم الحدود، يكاد يكون بعيداً جداً إلى درجة يصعب معها الجزم بأنه إنسان من الأساس. سراب، يتحرك في القيظ.

إن رؤية ذلك المشهد المبهم قد يحطم الهدف في داخل نيلا. الاستسلام إلى اللهفة لمعرفة من هناك، قيادة هذه الفرس من حيث جاءت، قد يفسد مسار هذه القصة. لا يسع المرء أن تكون له قصتان. لا يسعه ألا أن ينتهي بواحدة.

عادت نيلا لتنظر إلى الطريق أمامها، إلى حيث تعرف أن أمها تنتظر. وأختها أيضاً، كلاهما ميت منذ سنوات لكن وفاتهما مُتجاهَلة، حتى ليبدو وكأنهما ستعودان إلى الحياة. على الطريق

خلفها، تقبل مارين يوهانس، وصانعة الدُمى أيضاً. تشعر بصدرها يضيق، وأصابعها تقبض على الصلابة المؤكَّدة لمنمنة الرضيعة التي ظلَّت ملكها لسنوات عديدة. همست لنفسها:" هل تُراها ستظل تفكر في هؤلاء الأشباح"

ستفعل. ربما تشعر بهم دائمًا في مكان ما على الطريق، لأن هذا هو الحب. خلفها، تتلألأ الرغبة من بعيد. فكرت نيلا، دعي امرأة أخرى تستدعي صانعة الدمى. اسمحي لمارين ويوهانس أن يذهبا. لقد تدبَّرتِ أمركِ من دونهما لثمانية عشر عاماً. يوجد شخص واحد ينتظر أمامها، إنه تلك التي احتاجت إليكِ في كل يوم.

لم تستدر نيلا، بل أعادت الرضيعة إلى جيبها، وهمزت فرسها التي رحلت بها، وبعد مضي ثمانية عشر عاماً. لمحت مداخن أسِدلفت، بعيدة في الأفق.

30

أغمضت نيلا عينيها، وتركت الفرس تقودها. تريد أن تسمع قبل أن ترى، أن تتذكر كيف كان الأمر قبل أن يبدأ فصل جديد. كانت قد نسيت، كم كان جميلاً دائماً هذا النسيم! كم هو غريب غياب النوارس، حينما امتلأت السماء بالقُبَّرات. تريد أن تشم رائحة ورد السياج، والثوم البري. كانت الحوافر تصدر إيقاعاً مُنتظماً على الأرض، مما جعل دقات قلب نيلا تهدأ، شعرت أنها خارج الزمن، وأنها في الخامسة عشرة، إنها في الخامسة. بل إنها في الستين، امرأة أكبر سنّاً، عالمة بالأرض التي أتت منها. كانت دائماً تؤكد لأوتو أن الأرض المحيطة بأسدلفت وحل ومستنقعات، بصورة دائمة طوال العام. إن ادعاءً كهذا، في هذا الصباح الاستثنائي، أبعد ما يكون عن الحقيقة. هل حَظِيت بحزيرانات مثل هذا قبل أن تصبح في الثامنة عشرة؟ إن المرء غالباً ما يعيش طفولته في الشمس، لكنها لا تتذكرها قط هكذا.

سمعت الصوت البعيد للنحل الطنان يغوص ويطفو، راقصاً فوق زهور الخزامى. نحل العسل الخاص بوالدتها صار شارداً الآن، والخلايا مُتعفنة وخاوية. كانت أُمُّها مُربية نحل جيدة، تتحدث إلى النحل أفضل مما تتحدث إلى الناس. لم يخطر لها قط أن تقول مرة لأمها: أنتِ جيدة جداً مع النحل. أنتِ جيدة مع التربة، فعلميني أيضًا. ما كانت تشعر به يوماً كالجمر فوق لسانها، يبدو الآن تعليقات بسيطة. لم يحدث قط أن منحت نيلا والدتها كلمة إعجاب، لأنها قررت أن السيدة أورمان لاتستحقها، باكتفائها البادي في الاستغراق في تلك

السداسيات المحددة والدقيقة للشراب الحلو، مُغلقة عقلها عن الفوضى التي سادت في المنزل. السُكْر، الغضب الذي انحدر إلى بأس.

ولكن ربما لم يكن اكتفاء؟ ربما كان تسليماً، أو عجزاً؟ عندما سألت نيلا والدتها إن كانت ستحب يوهانس، رفعت أمها يديها. وقالت، إنها تريد الخوخ والقشدة، وكأن مزجاً كهذا مستحيل، مثال ليس على طمع ابنتها، بل على سذاجتها. الفتاة تريد الحب!

فتحت نيلا عينيها، وجذبت اللجام برفق. إنها تعرف شيئاً عن التسليم والعجز. ولا ترغب في معرفة المزيد بعد الآن. ترجلت من فوق الفرس، أوثقتها بلا إحكام إلى شجرة، وأطعمتها قطعتين من بسكويت الشوفان من مخزون كورنيليا.

أخذت حقيبتها تحركت عبر الحقل، لتجد نيلا نفسها فجأة على الضفة البعيدة لبحيرة أمها. وقفت في مكانها جامدة كما يقف المرء أمام قبر. ومع ذلك، لم تشعر بأي نفور مما كانت تخشاه. مساحة الماء أصغر مما تتذكر. كانت شاسعة في عقلها، لكنها الآن تبدو ممكنة التطويق في ربع ساعة. سطحها يتلألأ في الشمس مثل صفحة من معدن مرصع بالجواهر. كانت نيلا قد نسيت كم هو جميل ، لكنها تتذكر ما حكته لِنيَا عن والدتها، كيف أن السيدة أورتمان في نهاية حياتها، قد وجدت صعوبة في التمسك بما هو حقيقي.

فكرت نيلا وهي تحدِّق في الماء، ربما كانت المشكلة الحقيقية، هي أن أمي رأت ما هو حقيقي بيسر بالغ. في يوم كهذا، تحت سماء زرقاء جداً، وأرضٍ ترابية في فيضها الزاهي، ربما من السهل أن ينسل المرء تحت تلك الصفحة المرصعة باللآلئ، أن

يلتقي بالسلمون المرقط والكراكي اللذين يعيشان تحتها، أن يختار ألا يعود أبداً.

بدأ الحزن يجيش في نفسها، ولكنها واصلت تقدمها نحو الجزء الرئيس من أرض عائلتها، مُجبِرة نفسها على عدم الشرود، جاعلة تيًا في مقدمة أفكارها. لا بد أن تكون تيًا هنا، في مكان ما، لأنها إذا لم تكن، فسوف يُسقط في يد نيلا، وسيكون محتملاً جدًا ألا ترى إحداهما الأخرى مجدداً. ظهر أمامها الخط الذي تبدأ منه البساتين. وبعد البساتين، المنزل نفسه. يمكن لنيلا أن تنظر إليها، وتدرك أنها كانت تحبس أنفاسها.

اختفى المنزل مرة أخرى خلف كثافة البساتين، فاستردت أنفاسها، واستجمعت شجاعتها، وأخذت تدنو من أشجار التفاح، ويبرُز الماضي أنيابه ثانية. تتذكر نيلا أين وُضع شاهد قبر والدها، أسفل شجرته المفضلة، فتحركت نحوها وكأنما قوة مجهولة تجذبها. كانت ثمانية عشر عامًا قد أنضجت أشجاراً عديدة تتذكرها عندما كانت شجيرات، لكن شجرة والدها متينة، وبلاطة القبر تكسوها الأشنة، لكن اسمه ما يزال ظاهراً.

وقفت نيلا أمام الضريح، فتراءى لها والدها في صورتين: عندما كان منتفخًا يوم أن مات، وقبل ذلك بسنوات، عندما كان يصحب أطفاله الثلاثة إلى هذه الأيكة، حاملين سلال صفصاف ضخمة، فيجعلهم يجمعون السقط من الثمار، ليتحول التفاح إلى عصير. كان يقف مُراقباً بمتعة، مادحاً قوة أذرعهم الصغيرة النحيلة. لربما إن استدارت نيلا، فسوف تراه، وترى ثلاثة شخوص صغيرة تركض في الأرجاء، مُلقية بالتفاح في السلال.

كان قبر والدتها إلى جوار قبره. وإلى جوارها قبر أراببلا،

ثلاث وداعات مُسطحة لم يكتب عليها سوى أسمائهم وتواريخهم. لاحظت أن شقيقها، كاريل، لا يوجد على قبره علامة، وهذا جعلها تشعر بالذنب، لأن وفاته مرّت من دون تأبين، ولم يبقَ أحد ليُفسِّر لها لماذا حدث ذلك.

ركعت أمام عظام عائلتها، وهي تفكر أنه يجدر بها أن تقول شيئًا، صلاة، ربما، لكنها تصبح صدئة عندما يتعلق الأمر بالتحدث إلى هؤلاء الموتى، أو تقديم الشكر على حياتهم التي كانت. إنهم راقدون هنا منذ زمن طويل من دون تحية منها، ولا يبدو صواباً أن تحاول التحدث.

وضعت نيلا يدها على العشب عند نهاية قبر والدتها.

فكرت، ربما غداً أعود، وأخبرهم في أي أرض كنت؟ لقد مكثتُ تلك المدة في أرض واحدة، إلا أنها لم تكن حتى لتعرف كيف تبدأ في وصف السنوات التي شكلت ركيزة حياتها. لم تخبرهم أي شيء عن أمستردام. خسارة يوهانس، موت مارين، ولادة تِيا. لقد تركت أسِدلفت وتظاهرت أنها لم توجد، وكانت طريقة للتظاهر بأن الحياة التي عاشتها هنا لم توجد قط هنا أيضًا.

تركت الأضرحة، وواصلت السير خلال البساتين، صفًا تلو صف من الكمثرى والخوخ، البرقوق والسفرجل. كانت أغصانها تظللها من أشعة الشمس. على الحدود، بدأ عنب الثعلب والكشمش الأسود في الظهور. وقد دُهشت وهي ترى كل هذا وقد أزهر، لقد عدّت الأرض مواتاً كما وصفها الوكيل. هل جاء في الشتاء؟ ربما، في هذه اللحظة، لا يسع نيلا أن تتذكر وهي تمشي في وسطها. الآن، كل شيء هنا يعد بالخصوبة، لم يكن أحد هنا ليُعنى بها منذ أعوام، ليقطفها

ويضعها في فطيرة قبل أن تعفن الفاكهة الفائضة لمرة أخرى في الأرض. إنها تجاوز حقول الخزامى إلى يمينها، والتي تمتد بجموح خارج التخوم الأكثر ترتيباً لوالدتها. كانت السيدة أورتمان ستقص السيقان وتجففها، فتخيط البذور في جرابات قطنية للأطفال ليدسّوها تحت وسائدهم، ثلاثة رؤوس صغيرة تنشر العطر طوال الليل.

إن النوم قد يكون شذيًا هنا، أقرّت نيلا بذلك. لم يكن الوضع دائمًا مُترديًا وكدِرًا.

سارت نحو المنزل، مروراً بسور الفواكه الواقي الذي كان يتيح للخوخ أن ينمو. بدأ قلبها يدق بصورة أعنف. وينقبض حلقها، حتى شقّ عليها أن تزدرد لعابها. تستطيع نيلا، هنا في الهواء الطلق، أن تتحكم في الارتباط الطاغي للأشياء بالذكرى، لكن المنزل سيكون أمرًا مختلفًا. كان الوكيل محقًا بشأن حدائق الأعشاب والخضروات، كما تلاحظ، وعقلها يُمسك في هذه التفاصيل حتى لا تخيل ما ينتظرها. اختفى النعناع وإكليل الجبل، والطرخون والمريمية. البيلادونا، ونعناع الماء، كل ذلك. فكرت في كاسبر فيتسن، كيف أخبرته عن هذا المكان، حديقة أمّها. لم تخبره أنه كان جميلاً، ولكن على الرغم من إقفاره، ما زال يحمل سيماءَ تسر العين.

***

كان المنزل هو المكان الذي تتذكر مغادرته، وليس نفسه. لم تكن الشجيرات والتعريشات قط بهذا التشابك حول طوبه ونوافذه القديمة، والطلاء على المصاريع المُقفلة لم يكن متقشراً كثيراً. بدا مُهملاً جداً، وكأن إنساناً لم يلمس هذا المكان منذ مائة عام. بدا مهجوراً، بتلك النوافذ المغطاة بألواح خشبية،

والعسلة العجفاء، وأجمات الفراولة الميتة التي تطوق المبنى. إن هذا بعيد عن المنزل المُذهب الذي كانت تِيَا تحمله في راحة يدها.

كان ذلك المنزل المُصغّر، متروكاً بإهمال في فراش تِيَا: ربما من دون أن تدرك ذلك، لقد جعل نهلا تتساءل في البداية إن كانت تِيَا في أسِدلفت. ثم لاحقًا، وهي وحيدة في فراشها، خطر لها أنه ربما -ربما فقط- كان أمارة من صانعة الدمى، وسيلة لإرسال كليهما إلى مكان مليء بالذكريات، لإعادته إلى شيء حقيقي مرة أخرى. كانت الذكرى قد قادت نهلا إلى هنا، ولكن هل من الممكن أن المنزل الذهبي قد قاد تِيَا أيضاً إلى هنا؟

ولكن لا: إن تفكير نهلا، هو مجرد مثال آخر على ميلها الخيالي إلى تمني أشياء غير موجودة، خلق حبكات وخطط، حيث سيكون هناك دائماً شك. هل كان المجيء إلى هنا خطأً فادحاً؟

واجهة المنزل تصدُّها بالدّرجة نفسها. على الباب الرئيس عدة ألواح مُسمّرة كان جزء منها يقاوم إغراء الدخول للمنزل، لكن جزءاً آخر يدفعها إلى الدخول، مهما تكن الحقائق التي تكمن في الداخل. ومن ثَمّ، في نافذة الزاوية، رأت كيف أزيلت الألواح الخشبية، وكُسر الخشب المتعفن. كان الزجاج قد هُشّم، وحلّت مكانه فجوة مظلمة. خفق قلبها وأخذت تحدق في الفجوة التي تكفي ليقفز منها شخص كبير الحجم، وليس مجرد حيوان غابة يتسلل إلى مكان يعشش فيه. صدمها أن ترى هذا الدخول القسري، هذا الاجتياح. ولكن من جهة أخرى: حتى نهلا لا تملك مفتاحاً، فما الذي تتوقعه؟

لحظة، ترددت في الولوج إلى الداخل، سواء عبر الباب أم

النافذة، هل تفتح صندوقاً أبقته مغلقًا لسنوات عديدة؟ وإن فعلت، فربما لا تتمكن أبداً من الخروج مرة أخرى. كانت قد أقسمت لنفسها أنها لن تعود أبداً.

فكرت في كورنيليا وأوتو في أمستردام، لا بد أنهما خائفان وقلقان. فكرت في الدين الذي خلقوه مع مرابي تلك المدينة الضخمة، وكيف يمكن أن يدمر الطريقة التي عاشوا بها. والأهم من كل هذا، تفكر نيلا في تِيا، وهي تركض قبل الفجر، إلى من لا تعرف كيف تُسيِّره، مُلاحَقة بابتزاز وقلب مُحطَّم.

قذفت نيلا بحقيبتها عبر النافذة وصعدت خلفها، انزلقت شظية زجاج شاردة تنورتها. ليس هذا منزلاً ذهبياً، ليس بعد، هكذا فكرت نيلا، وهي تهمس بشتيمة. إنه منزل غريب قاتم. سأحتاج إلى إزالة كل تلك الألواح، تلك الشظايا الصغيرة. سأحتاج إلى إيجاد مفتاح ملائم.

جاهدت لتتكيّف مع نقص الضوء، واجهتها رائحة نفاذة، خشيت أن تكون منبعثة من جثث حيوانات نافقة. لكنها كانت رائحة عفن و رطوبة، فالمكان لا يدخله الهواء. كان بارداً ومظلماً على الرغم من حرارة شمس حزيران في الخارج. كل شيء صامت هنا كالقبر، على النقيض من أصوات العصافير، والنحل والحشرات وسط الحشائش في الخارج.

- تِيا؟ جاوبها صدى صوتها، تِيا، هل أنتِ هنا؟

لم تلقَ رداً. وحتى لا تخشى الأسوأ، أمعنت النظر حولها، مُستعينة بالقليل من ضوء الشمس القادم من النافذة المكسورة. كانت البلاطات الضخمة والباردة ترحِّب بثقل قدميها كصديق قديم. إنها في غرفة اللعب. وما تزال هناك

كل بلا ملامح لأثاث مكسو بالغبار، ولوحات مسنودة إلى الجدران، قد تمعّج قماشها في بعض المواضع. وفي الزاوية وقف أرغن صغير. عند رؤية هذه الآلة المهجورة، تذكرت نيلا البيانو القيثاري البرّاق في صالون ياكوب المثالي، وأصابعه تتحرك بخفّة، في ألحان مضللة. بدا وكأنها عبرت مرآة إلى هذه الغرفة الشقيقة، النسخة المهجورة القديمة والمُتعبَة، حيث لا يجدر أن يكون أحد.

حاولت أن تتخيل كيف كان الأمر بالنسبة إلى أرابيلا، بالعيش هنا وحدها مع أمها. ماذا كانت المرأتان تفعلان كل يوم، قبل أن تجد أرابيلا السيدة أورتمان في البحيرة وتُترك لتشبَّ هنا وحدها؟ هل كانت تتوق لعودة أختها؟ ربما تكون أرابيلا قد جلست في هذه الغرفة نفسها، تمدّ نظرها إلى الحقول، تراقب الأفق المستوي المُتناهي علّها ترى أثرًا لشقيقتها المختفية.

"لا تفكري في الأمر"، همست نيلا لنفسها، لأنها عادت متأخرة جداً الآن، بحكاياتها عن المدينة.

تتابع سيرها، وقد تركت حقيبتها، كانت تصارع دموعًا وغثيانا غريبًا، تحركت صوب بهو الدخول على امتداد الممر الأمامي. ما زالت رؤوس الوعول الخاصة بأبيها تبرزُ من الجدران، وأعينها الجامدة تكسوها بيوت العنكبوت. شقّت الشمس طريقها من حيث استطاعت زعزعة الألواح المُسمَّرة، مانحة نيلا الإحساس بأنها تمشي عبر خيوط من الضوء الذهبي، تخترق الظلام. استدارت لتفقد الصالون، وغرفة الاستقبال. لا أثر لتيا بعد.

يُفضي الممر إلى البهو، رأت نيلا المدفأة الضخمة القديمة، بطوبها المسود، والأسكفة حاملة شارة عائلتها، حرف "أوه" في

المتصف، مُتشابكاً مع تعريشات وأزهار برية. المنضدة الطويلة ذات الحاملين، والتي حولها ركضوا، وتشاجروا، وهزلوا مازالت منصوبة. وبدا لنيلا أن في إمكانها أن تراهم جميعًا، جالسين هنا كما اعتادوا. وكأن أهلها قد واصلوا الحياة من دونها، وهي الشبح. تمرر إصبعها فوق المنضدة. غبار مصفر كثيف، لم يُمس لأعوام.

أعادت النداء:

- تيَا. لكنها ظلت بلا جواب.

وفي اللحظة التي همّت نيلا بالتحرك عبر البهو، ومنه إلى الممر الجانبي الآخر المفضي إلى السلَّم الشمالي، لمحت شيئاً في الظل فوق المنضدة. مدّت يدها إليه في العتمة الخفيفة، فالتقت أناملها بشيء خشن وشوكي قليلاً، جفلت فوراً. أين كان عقلها، وهي تحاول لمس جثة جرذ قديمة؟ لكنها عندما أمعنت نظرها في الظل، لم يكن جرذاً، ترددت قليلاً، ثم لمسته مرة أخرى، كان صلباً ومكتنزاً.

إنها تعرف طبيعة هذا الشيء، ملمسه وكماله. ويمكنها أن تحس باليد التي صنعته. مع تصاعد ذعرها، ترفع نيلا الشيء في يدها وتحركت إلى النافذة الأمامية لتراه بصورة أفضل. فتجمدت في مكانها.

وتحت شرائط الضوء القليلة، رأت أناناسة مُصغَّرة تستقر على كفها.

لقد صنعت في دقة متناهية، ومن قمتها تنبثق باقة من الأوراق. أبقتها نيلا في يدها، وهي تنظر خارجاً بين الألواح التي تغطي النافذة، لترى الأرض بعيداً. عادت إلى السلم

الشمالي. تنادي، وخوفها يتصاعد:

- تِيَا؟ تِيَا، هل أنتِ هنا؟

لا أحد يجيب. دسّت الأناناسة في جيب تنورتها، وتحركت حثيثاً عبر العتمة، استطاعت أن تحدد مكان السلم بسهولة. و في أعلى الرواق، أخذت تفتح باباً تلو باب، لكن الغرف كلها يكتنفها الظلام. نادت:

- تِيَا، أنا هنا. لقد جئت.

لكن تِيَا لا ترد. لماذا لا تجيبني؟ هكذا قالت نيلا، وبدأ خوف بارد مُخثِر ينتشر عبر جسدها. لم تبقَ سوى غرفة واحدة: غرفة نيلا. اقتربت من الباب القديم، وقلبها يخفق بقوة، والأناناسة والرضيعة المُصغرتان عميقاً في جيبها.

المرة الأخيرة التي كانت فيها نيلا في هذه الغرفة، كانت صغيرة السن جداً ومتفائلة. كانت تعزف العود لتنجح. كفلت زوجاً من المدينة، رجلاً من أمستردام، وعائلته، في الهيرغراخت، ينتظرون. حزمت صندوق متاعها بنفسها، ووضعت ببغاءها في قفص لأول مرة على الإطلاق. كانت جاهلة جداً.

وفيما تضع يدها على مقبض الباب، فكرت نيلا في يوهانس، والرجل المدعو والتر ريبيك. حبيب تِيَا، الذي أخفته عنهم جميعًا، هذا الرجل الذي أخذ قلب تِيَا. هل هو أسوأ لامرأة أن تحظى بوالتر أم يوهانس؟ مثالان متطرفان لرجل. واحد أخذ كل ما في وسعه، أما الآخر، لم يرغب في أخذ شيء؟

أخذت نيلا نَفَسًا، وأدارت مقبض الباب. كان السرير حيث تركته تماماً، والستائر ماتزال مضمومة إلى أعمدته. وقفت

على العتبة وأغلقت عينيها. سمعت والدها يغني، ووالدتها تنادي، وصوت حركة كاريل وهو يزحف على البلاط. ضحكة أرابيلا. ثم تحركت صوب الستائر، خيم الصمت على كل شيء. فأمسكت بالستائر وفتحتها.

31

الحصان في حلم تِيَا يهزُّ الأرض، راجًّا حدود جمجمتها، صوت حوافره أعلى من أي شيء عرفته قط في المدينة، أعلى من العاصفة التي أتلفت سطوح المنازل وهي صغيرة. في نومها، يأتي هذا المخلوق، ضارباً الأرض عبر الحقول صوب منزل زوج خالها، واطئاً الزهور والنباتات في عقبه. يعدو حول هذا المنزل، يعدو، ويطير عرفه، من دون فارس. لا تستطيع تِيَا تحديد ما إن كان يفر من شيء، أم هو قادم ليرتاح. استيقظت مذعورة إثر سماعها صرخة، ففتحت عينيها ببطء، ونظرت إلى الأعلى.

خرّت زوج خالها إلى جوار السرير، ورأسها بين يديها، وقالت:

- آه، يا تِيَا. حمداً لله.

- الخالة نيلا. يكاد وجود الخالة نيلا يبدو محتوماً، وشيئاً كانت تِيَا تتلهف إليه، أن تكون هي أول من يكتشف مكانها.

قالت زوج خالها:

- لقد وجدتِ غرفتي القديمة.

همهمت تِيَا، وهي ما تزال نصف نائمة: -

- هل أحضرتِ حصاناً؟" مدّت يدها، فأمسكت بها زوج خالها، وتشابكت أصابعهما:

- أقسم إنني سمعتُ حصاناً.

- حسناً، لقد تركته بعيداً إلى حد ما.

فتحت تِيَا عينيها على اتساعهما، وكادت ترفع رأسها عن

الوسادة:

- جئتِ إلى هنا على حصان؟

قالت الخالة نيلا:

- لقد فعلت." أمام ذهول تيَا، مسحت دمعة من فوق خدها. لا تتذكر تيَا أبداً أنها رأت زوج خالها تبكي.

سألتها:

- كل الطريق؟

لكن الخالة نيلا نهضت عن السرير، وفتحت المصاريع. وخلف الألواح الخشبية على واجهة المبنى، شقّت أصابع طويلة من أشعة الشمس طريقها إلى الداخل. قالت:

- هذه الغرف تواجه الشرق. تخترق الشمس وجهكِ من دون مقدمات في الصباح.

نهضت تيَا جالسة إلى الوسائد العطِنة. ربما هو خدرها الصباحي، أو الدوار بسبب الشمس بعد الصومعة المخملية لهذا الفراش، لكن الخالة نيلا بدت مختلفة. ليس بسبب دموعها ولا تعابير الارتياح على وجهها. إنها تبدو أكثر إشراقاً. في وجنتيها لون، وشعرها مبعثر على غير العادة. عندما تأتي زوج خالها للجلوس مرة أخرى على جانب الفراش، شعرت تيَا بالمجهود الذي بذلته. وأعدّت نفسها للهجوم المضاد من زوج خالها، والذي سيأتي من دون شك، الآن وقد عُثر عليها حيّة، الآن وقد جاءت الخالة نيلا كل هذا الطريق على حصان.

لكن الخالة نيلا لا تبدو غاضبة على الإطلاق. بل هي في الواقع، بتصرف وكأن تيَا مُعتادة على الاستخفاء في منزل

طفولة الخالة، لتنام طوال الليل في سرير ضخم يخص الخالة في الحقيقة. قالت تِيَا:

- كيف عرفتِ أنني هنا؟

- لقد تركتِ دليلاً طبعاً، حدّقت إحداهما في الأخرى: المنزل الذهبي الصغير؟ ثم قرأتُ ما كتبتِه لكاسبر فيتسن.

لم تستطع تِيَا إخفاء دهشتها:

- أراكِ خطابي؟

- لقد فعل، جاء ليخبرني عنه، عندما أدركنا اختفاءك. كتبتِ له عن البساتين، يا تِيَا. كنتُ مُقتنعة أنكِ لم تكاتبيه لأنكِ مهتمة بباقة العروس، أو حتى التركيبات. كنتِ تفكرين في مكان كهذا.

عضت تِيَا على شفتها.

- ربما.

- وتركتِ دليلاً آخر لي، هنا، في الطابق السفلي في بهو الدخول. في البداية منزل ذهبي، ثم أناناسة.

- فكرتُ في أنكِ قد تفهمينهما. أفضل من أي شخص آخر.

رمقتها زوج خالها بنظرة ثابتة، ومدّت يدها في جيب تنورتها لتخرج الأناناسة الصغيرة. وتسألها:

- منذ متى تتسلمين هذه الأشياء؟

- منذ كانون الثاني.

إن زوج خالها الآن، هي التي تبدو عليها المفاجأة:

- كل هذا الوقت، ولم أعرف! كيف عرفتِ بشأنها؟ من

دليل سميث؟ هل كاتبتها؟

- هي؟ شعرت تِيَا لحظة بالتهيُّب من غضب زوج خالها.

حملت الخالة نيلا الأناناسة عالياً، وقالت:

- المرأة التي تصنع هذه الأشياء. اسمها بترونيلا فندبريك. لكنني أشرتُ إليها دائماً بصانعة الدُمى."

لوهلة، لا تقولان شيئاً، تحدقان فقط في الأناناسة المثالية.

قالت تِيَا:

- كانت تصلني فحسب، لم أكتب لها شيئاً قط. لا أعرف بشأنها. هل... قابلتها؟

تنهدت الخالة نيلا، وقالت:

- كدتُ أفعل. مرة واحدة.

انتظرت تِيَا لتسمع المزيد، لكن لا شيء يأتي، فقالت:

- لكنني سمعتكِ، وكورنيليا عرَضاً تتحدثان عنها.

- كنتِ تتنصتين؟

- لم أقصد ذلك!

رفعت زوج خالها حاجبيها، لكن تِيَا واصلت مُندفعة:

- لقد فهمتُ أن هذه المرأة كانت تعني لكِ شيئاً عندما كنتِ في عمري، أو ربما مازالت كذلك. قلتِ لكورنيليا أنكِ تعتقدين أنها ربما تكون قد عادت. لذا شككتُ أنها ربما تكون الشخص نفسه الذي يرسل أشياء لي. لكنني لم أكن متأكدة تماماً.

- أظن أنها نفسها. لمعت عينا الخالة، وهي تفحص الثمرة

المُصغَّرة، وتقول:

هذه الأناناسة مذهلة.

أوشكت تِيَا أن تُصرِّح لأنها تظن الأناناسة ربما ازدادت حجماً، لكنها تتذكر كيف غضبت الخالة عندما لمّحت كورنيليا إلى أن صانعة الدُّمى ساحرة.

قالت تِيَا:

- تبدو غير مؤذية أبداً.

استدارت الخالة، وقالت:

- ما الذي يجعلكِ تظنين أنها يمكن أن تكون غير ذلك؟

- حسناً... إن كورنيليا لا تثق فيها كما يبدو.

- وأنتِ؟

تأملت تِيَا القطعة المكتنزة الصغيرة، وقالت:

- يبدو لي سخيفاً أن يخطر لأحد أي قلق بشأن مغزاها.

قالت الخالة:

-هل ذهبتِ تبحثين عن صانعة الدُّمى، بعد استقبالكِ القطع؟

- ولا مرة. هل تظنين أنها عادت؟

مدّت الخالة نيلا يدها في جيبها مرة أُخرى، وببطء، فتحت يدها. رأت تِيَا شيئاً مُستلقيا هناك أوقف الأنفاس في حلقها.

همست:

- ما هذا؟ ومالت إلى الأمام لتمعن النظر، لكنها تعرف ما هو، طبعاً. إنه مُصغَّرة بارعة لرضيعة. إنها مُصغَّرتها، مسلوبة من

على صدر والدتها، الرضيعة التي اعترفت الخالة نيلا أنها أخذتها لنفسها، وذلك القرار أثار حنق كورنيليا الشديد.

قالت الخالة:

- إنها أنتِ. أو هي بالأحرى، رمز لكِ. إنها تشبهكِ قليلاً فعلاً، عندما ولدتِ. لقد أخذتها من ورشة عمل صانعة الدُّمى، واحتفظتُ بها كل هذه السنوات. سكتت قليلاً:

- تِيَا، هل خضتِ في العلية، في صندوق والدتك؟

التقت أعينهما. لقد حان وقت المصارحة. قالت تِيَا:

- لقد فعلت. رأيتُ والديَّ، لكنني لم آخذهما. تركتهما حيث كانا.

قالت الخالة:

- تصرف حكيم. في حين أني سرقتُ هذه عندما ولدتِ. لكنها منحتني عزاءً كبيراً على مر السنين."

- ظننتِ أن صانعة الدُّمى كانت في حفل ساراخون، أليس كذلك؟

"بلى. أردتُ كثيراً أن تعود. لكني ربما كنتُ مُخطئة في رغبتي تلك. لا أظن أنها كانت ستعود من أجلي أبداً. ثم بدأنا جميعاً نخشى أنها ربما عادت لاسترجاعك. ابتسمت الخالة: لكننا كنا مخطئين.

- حقًّا؟

- طبعاً، كنّا كذلك. إنني لا أراها في أي مكان، هل ترينها أنتِ؟ لقد جئتِ لاسترجاع نفسك.

حلّ الصمت لبرهة قصيرة، لكن تيا كسرته بسؤال:

- خالة نهلا، هل أنتِ غاضبة مني بسبب الزفاف؟

أخذت الخالة نفساً عميقاً:

- لا، أنا مسرورة لأنكِ في أمان.

- و... هل يعرف بابا وكورنيليا أين أنا؟

رمقتها الخالة بنظرة أكثر إمعاناً:

- لم أغادر من دون أن أخبرهما بوجهتي. تركتُ لهما رسالة، لكن كورنيليا، وربما حتى والدكِ في هذه المرحلة، ما يزالان مقتنعين أن صانعة الدمى قد أخذتكِ.

- لا أظن أنني كنتُ سأترك ذلك يحدث.

- أنتِ إذن شخصية أقوى مني. أعتقد أنني كنت سأتركها تأخذني حيثما ذهبت.

- ولكن، كيف تملك هذه المعرفة عن حياتنا؟

أجابت الخالة:

- سؤالي الدائم. كان يعجبني الاعتقاد أنها نجمي القطبي، مُرشدة حياتي، لكن كورنيليا ووالدكِ يؤمنان أنها جاسوسة مُتطفلة. وأظن فعلاً أنها راقبتنا من بعيد. أعتقد أنها أرادت أن تقدم لنا حيواتنا، كما كانت في الواقع. سكتت قليلاً، ثم قالت:

- لقد استأجر والدكِ ميليشيا سانت جورج للبحث عنكِ في أرجاء المدينة، لإنقاذكِ من براثنها.

- الميليشيا؟ تغطي تيا وجهها بيديها.

- لكنهم لن يجدوا صانعة الدُّمى. ولن يلاحقوها، أو يلاحقوكِ، طبعاً. الآن وقد وجدتُك."

تمتمت تِيَا: "ياكوب،" وشعرت بخفقان من خوف قديم. وقعِ اسمه بفتور على الشراشف. وبرز والتر وجريتا في عقلها، مهدِدين باكتساحها:

- خالة نِهلا، أنا آسفة: لم أستطع القيام بذلك.

مدّت الخالة يدها لتضعها على ذراع تِيَا، وهي تقول:

- إنني أفهم. وأنا آسفة لأنكِ شعرتِ بضرورة أن تتزوجي به من الأساس.

- هل تحدثتِ إليه؟

- لقد فعلت."

- وماذا قلتِ؟

- أخبرته الحقيقة. أننا لا يمكننا إيجادك.

- لم تلفقي شيئاً؟

- لم أفعل.

- وهل هو...

- ياكوب سيتخطى الأمر. قالت تقولها الخالة باقتضاب: كما ستفعلين أنتِ. تنهض من على الفراش، مسحوبة مرة أخرى إلى النافذة.

- لكنني ألحقتُ بالعائلة خزياً كبيراً.

- ليس مما يتجاوز العادة.

- لكني مع ذلك أومن، يا خالة نهلا، أنه ربما كان سيعاملني

أقرب إلى البيانو القيثاري الخاص به، أو زهور دفيئته، تنمو في غير موسمها، قطعة نادرة يستعرضها في بيته.

استدارت الخالة لتواجهها:

- أنتِ مُحِقَّة، لم يكن جديراً بكِ قط، يا تِيَا. تشير إلى غرفتها القديمة، ستائر الفراش المخملية المُهترئة، الأناناسة والرضيعة المقمّطة، راقدتَين على الشراشف: لستُ إلا آسفة أني استغرقتُ كل هذا الوقت لأدرك ذلك.

جاش نحيب في حلق تِيَا، لكنها تجبره على العودة.

تواصل الخالة نيلا:

- ينبغي أن أرسل خطاباً إلى الميرغراخت، أخبرهما أنكِ بأمان. لا بد أن القلق ينهشهما. هناك خان على بعد ميل. اعتاد السعاة أن يمروا عليه. سأذهب وأتأكد.

- وإذا لم تتمكني من إرسال شيء؟

- علينا أن نعلمهما أنكِ في أمان. تسكت الخالة قليلاً: تِيَا، هل تريدين العودة إلى أمستردام؟

رمقت إحداهما الأخرى، وتنتظر تِيَا. يبدو لها وكأنه عودتها إلى تلك المدينة أمر محال بكل شكل. ليس الآن، ليس بعد، وربما للأبد.

تنظر الخالة إلى تِيَا بحنان استثنائي مفاجئ. يحيط بصورتها المظللة هالة من ذهب الصباح في الخارج، تقول:

- تِيَا، إنني أعرف بشأن والتر ريبيك.

وقع صمت طويل سماع اسمه على شفتي الخالة يجعل معدتها تنقبض، وقلبها يجفّ. شاعرة بالغثيان، حدّقت تِيَا في

الشراشف، عاجزة عن رفع عينيها. ما الذي تعرفه زوج خالها بالضبط؟ هل ستطالب بمعلومات وسرد وتفاصيل؟ لقد حاولت أن تهرب من والتر، لكن زوج خالها جلبته معها من المدينة ووضعته فوق قلبها المكسور.

لكن هناك ارتياحاً أيضاً. في الحديث عن ذلك، في التخفف من عبئه. ببطء، تمد تيَا يدها داخل جِوال الكتّان بجوار السرير. وبعد أن تُفتِّش قليلاً، تأخذ نفساً عميقاً وتخرج دمية والتر، وترفعها أمام زوج خالها. تهمس:

- لا يمكنني العودة. لن أفعل.

صمتت زوج خالها تماماً، وباتت عاجزة عن إبعاد عينيها عن الدمية الرائعة في يد تيَا. لكنها لا تلبث أن تمالك نفسها وتأخذها. وتقول وهي تعاين الرجل:

- آه. أرى مشكلتك."

أغمضت تيَا عينيها، وفكرت في المرسم. أن تستطيع التحدث عن ذلك ليس وارداً. قالت بصوت متهدّج:

- لقد أحببته، يا خالة نيلا. أحببته حقًّا.

فأجابت الخالة بصوت خافت:

- أنا متأكدة من ذلك. وإلا، أشك في أنكِ كنت ستحملينه إلى هنا، بعد كل ما فعله. بدت مذهولة أمام جمال دمية والتر:

- لم يُخيَّل لي قط أنني قد أرى واحدة من هذه مرة أخرى. متى وصلتكِ؟

- كان أول شيء أرسله لي. خالة نيلا، كيف... كيف تعرفين بشأن والتر؟

ترددت الخالة نيلا:

- كانت ريبيكا بوسمان تنتظر في حفل زفافك. هي أخبرتني.

شعرت تِيَا بلحظة استياء حادة، وقالت:

- هي أخبرتكِ؟

- بعد ما رأته يتكشَّف بيني وبين ياكوب، أظنها شعرت أنها لا تملك خياراً. أنا مسرورة لأنها فعلت. إنها تهتم لأمركِ كثيراً.

أتت الخالة نيلا لتجلس على الفراش، وهي مازالت تحمل والتر. تريد تِيَا أن تأخذه من يدي الخالة نيلا، لكنها أيضًا لا ترغب في أن تلمسه مرة ثانية أبداً.

قالت الخالة نيلا:

- أخبرتني ريبيكا عن زوجه أيضاً.

فتساءلت تِيَا في سرها:" أين تُراها جريتا الآن"؟ هل هي تبحث عني؟ يبدو ذلك غير مرجح الآن، مع وجودها هنا في أسِدلفت. بكاد يبدو وكأن تِيَا أرادت من المرأة أن تسعى خلفها، بمقدار ما ادَّعت لنفسها أن هذا كان آخر شيء أرادته. إنه كشف جديد بالنسبة إليها. إن لدى جريتا ما تواجهه أكثر من تِيَا براندت.

تابعت الخالة نيلا:

- لقد أرتني ريبيكا الرسائل أيضاً، وتناولت يد تِيَا، أنا آسفة حقًّا لأنكِ اضطررتِ إلى معالجة هذا بنفسك.

شعرت تِيَا بموجة متصاعدة من الإرهاق. -

- هل بابا يعرف؟

- إنه لا يعرف، ليست قصتي لأرويها.

همست تِيَا:

- شكراً لكِ، سكتت قليلاً، لا أظنني سأخبره أبداً.

أمعنت زوج خالها التفكير في هذا. -

- حسناً، لا نحتاج إلى أن نعرف كل شيء أحدنا عن الآخر.

ابتسمت تِيَا:

- لكنني، لطالما قلتُ إنّ هذا جزء من مشكلتنا. أسرار أكثر من اللازم.

- هناك أسرار لا بأس بها. وأخرى ليست كذلك.

نظرت تِيَا نحو النوافذ، وقالت:

- يُخَيَّل إليَّ، أنه من خلال وجودي هنا، في أسِدلفت، أنني بدأتُ أخيراً أعرفُ عنكِ أكثر.

بدا التهكم على زوج خالها:

- أخبريني: هل هو الغبار؟ أم حديقة الأعشاب الذابلة؟

ضحكت تِيَا:

- لا، بل الحرية التي كنتِ تملكين.

- آه، حريتي.

- لا، إنني أشعر بها، قبل أن تُسلب منكِ.

مرّرت زوج خالها يداً على جانب وجهها. - كان جديراً بي أن أكون لكِ أفضل من ذلك. لو كنتُ وصيّة أفضل، لو كنتُ شاركتُ معكِ المزيد، فلربما حينها لم يكن والتر ريبيك

وزوجه ليحدثا أبداً. سكتت قليلاً:

- إنه خطئي، لكن ليتكِ شعرتِ أن في وسعكِ إخباري.

- ظننتني كنتُ أعرف ما أفعل.

- لا أحد منا يعرف ما يفعل.

تفاجأت تِيَا من أن يصدر هذا القول عن زوج خالها. قالت:

- باستثناء صانعة الدُّمى؟ التي يبدو أنها تعرف كل شيء.

تأملت زوج خالها المتمنمات على الشراشف: إنها تبدو فعلاً كأنها تعرف أكثر من غيرها. لكنني أتحدث عنا نحن. وليس هي، تأخذ نفساً عميقاً: تِيَا، لم يحدث وأن انفطر قلبي بالطريقة التي حدثت لكِ. لكنّي عرفتُ القلق والحزن، لأسباب مختلفة. عرفتُ ماذا يكون الشعور عندما تحبين شخصاً ويتضح لكِ أنه شخص مختلف عمّا كنتِ تظنين، عضّت على شفتها، وقالت.

- إنه ألم خاص، الإدراك، إنهاء التشبث. الألم الذي تشعرين به، في مقدوره أن يجعلكِ تفقدين الثقة في حياتك. لكنّي أعدكِ: لا شيء يبقى على حاله، لا شيء. الألم سيخف. وأنتِ، مع الوقت، ستنسين كم كان حاداً ذلك الشعور.

قالت تِيَا:

- ولكن، إلى متى؟ وانهمرت دموعها بغزارة، لم تستطع السيطرة عليها، رددت من خلال شهقاتها: إلى متى يطول ذلك؟

- لا أملك إخبارك. لكني أعرف أنكِ يوماً ما ستتوقفين عن التفكير فيه. سيصبح الأمر كأن والتر شيء خيالي. كأنه حدث لشخص آخر. كأنه لم يكن أكثر من دمية."

قالت تِيَا لِجاة:

- هل يمكننا دفنه؟

ظهرت الدهشة على زوج خالها، وقالت:

- دفنه!

- أجل. هل يمكننا دفنه في البستان؟

ابتسمت الخالة نِلا، وقالت:

- تلك فكرة جيدة. طبعاً يمكننا.

شعرت تيَا بامتنان بالغ إذ تلقت الأمر بجدِّيَّة. وبدت مفتونة جداً بمدى توهج الخالة نِلا في الضوء الذهبي المخطط لهذا الصباح الأسِدلفي. لا يهم من كانت الخالة نِلا وهي في الثامنة عشرة وفي هذه الغرفة، ولا يهم من ستصبح في السنين القادمة، لأنها سافرت على ظهر الخيل من أمستردام لتبحث عن تيَا. لقد جاءت. سحبت ستائر ربما لم ترغب قط في لمسها مرة ثانية، لتنتشل تيَا من الكابوس الذي كان يطوقها.

همست تيَا:

- شكرًا لكِ، وتركت نفسها أخيراً لتبكي. دمعات كبيرة، ثقيلة، دفقات مؤلمة من الهواء تدخل وتخرج من رئتيها. ضمتها زوج خالها، ولفترة طويلة، أطول مما يمكن لتيَا أن تتذكره.

32

قررتا تناول فطور خارجي مبكر قوامه لفائف جبن من مؤونة نيلا، تأكلانها عند أجمة الخزامى، فوق حرام قديم خلّصاه من غرفة اللعب. قالت نيلا:

- فطور من دون طاولة. ليس سلوكاً أمستردامياً تماماً.

قالت تِيا:

- لا أمانع. إنه جميل في الخارج.

- هل تعرفين ما كانت والدتك تقوله عن الريف؟ سألتها نيلا، وهي تتسلق خارجة من فتحة النافذة التي صنعتها تِيَا لتدخل:

- لا شيء يصلح عمله فيه." تضحك، وهي تقفز، تظلل عينيها لتنظر تجاه المنزل. "لكن هناك الكثير لعمله."

ماتزال سماء الصباح زرقاء شاحبة، والندى يبلل العشب في كل مكان. قالت نيلا بينما تِيَا تُخرج نفسها برشاقة من إطار النافذة الفارغ:

- كان ذلك بعد أن اكتشفتُ حملها بك. اقترحتُ على مارين أن تقضي نفاسها هنا. أو، في حال وُلدتِ في المدينة، أن يظل متاحاً أن نحضركِ إلى أسِدلفت.

رفعت تِيَا إليها عينيها في دهشة، وهي تنفض تنانيرها:

- اقترحتِ إحضاري إلى هنا؟

- أجل. أخبرتها أنها لن تجد أعيناً فضولية. وفي وسعكِ أن تعيشي بسلام.

- إن هذا لا يشبهك. دائماً ما تخبرينني كم هي رائعة المدينة.

لم تعلّق نيلا، وراحتا تبحثان عن بقعة قرب الخزامى، ابتلت حواشي تنانيرهما، قالت تيَا:

- ماذا ستقول كورنيليا عندما ترى كل الطعام الذي أخذناه؟

- سيسرها على الأرجح أن تعرف أننا نأكل.

- سيكون فتاتاً يساعدها على تقفي أثري. مثل الدلائل التي وَجدْتِها.

ابتسمت نيلا:

- أنا أتقفّى المُصغَّرات، وكورنيليا تتقفّى رغائف الخبز؟ لا تخبريها أنك قلتِ هذا.

مضغت تيَا رغيفها لوهلة، ثم قالت:

- أنتِ مرتبطة بالمدينة، أليس كذلك؟ ترين أنها المكان الوحيد الذي يمكن أن أعيش فيه.

فكرت نيلا بتمعن، وقالت:

- حقٌّ أني كنتُ أقول هذا لسنين عديدة. ما يزال هناك منطق في مثل هذه المقولة. المدينة هي أشياء كثيرة جداً.

- ولكن ليس بعد. ليس الآن.

شعرت بالقلق، وعدم الرغبة في مناقضة نفسها بعد الآن، نهضت نيلا، وقالت:

- أحتاج إلى الذهاب وإحضار الفرس من عند السياج. سأغيب لنصف ساعة. هل ستكونين على ما يرام؟

أغلقت تِيَا عينيها، وقالت

- سأكون بخير.

***

مشت نيلا عبر مساحات الخزامى الخاصة بأمها وسور الفاكهة، والبساتين التي تجاور البحيرة، خارجاً إلى الحقول. كانت الفرس مُنتظرة بصبر، قادتها نيلا ببطء لترعى عند أشجار التفاح. وبينما وقفت في الظل المرقَّط، لفت انتباهها صوت خشب يُقطَّع. رفعت بصرها. و من خلال الأشجار، رأت نيلا أن تِيَا قد وجدت فأس الصوان الخاص بخيرت أورتمان، على الأرجح.

كانت تيا تتحرك بمنهجية حول نوافذ الطابق الأرضي من الخارج، حاملة رأس الفأس على الألواح المُتعفنة، ترفعها وتنزل بها مرة تلو مرة، فتزيلها حتى يكون في الإمكان فتح المصاريع.

كان الخشب ضعيفاً جدًا، فانكسر بسهولة، وكأنما يريد أن يتخلَّع. تسمرت قدما نيلا في مكانها، الانكشاف البطيء للمكان يذكرها بالشكوك القديمة، خوفها منها لم يُقهر بالكامل. وبدا لنيلا كما لو أن المنزل يفتح عينيه نحوها. كما لو أنه، لأول مرة منذ وقت طويل، يستيقظ من سبات. وقفت أمامه، وكأنما جزء منها ظل هامداً لأعوام عديدة، يعود بدوره إلى الحياة. صفاته، وصلابته، وعيوبه. لقد مضى وقت طويل جداً قد مضى. ربما هذا المنزل كان ينتظر دائماً، مُتأثراً بالمطر والشمس، من أجل عودتها. لكن السؤال هو: هل يعني ذلك أنها كان يجب أن تعود؟

واصلت نيلا سيرها نحو المنزل. كانت تِيَا في ذلك الوقت،

قد أزالت ألواح الخشب عن الباب الأمامي، وتحركت حذو المحيط الخارجي، ومن دون أن تفطن لها تيا، نتيجة استغراقها بعمق في مهمتها بنزع الضمادات التي كان المنزل مُغلقاً بها، مشت نيلا من دون قيود داخل بهو الدخول، خلال المطبخ، وتخيلت كورنيليا تروح وتجيء هنا، تحمل مقلاتها وتأفف، ومِلدوق، وتهش لوكاس عن السطوح. تخيل أوتو، جالساً إلى الطاولة، ويقرأ في المكان حيث جلس والدها يوماً.

ومع التفكير في أوتو، أصغت نيلا لتتأكد من أن تيَا ما تزال مستغرقة في تقطيعها. تناولت حقيبتها الجلدية. وأخرجت خريطة أسِدلفت القديمة، وقد امتلأت جميع أركانها بتعليقات كاسبر فيتسن. كم غضبت عندما رأتها، كم تألمت! لكنها بعد ذلك تسترجع صورة عبارة كاسبر قابعة إلى جوار سريرها. تتذكر قلقه على تيَا، عزمه على مساعدتهم في العثور عليها. تتذكر تركيباته، كما كان الحديث معه سلساً، كيف أخبرته عن مهارة والدتها في التعامل مع الأعشاب، شيء لم تخبر شخصاً عنه من قبل. انتقلت عينا نيلا إلى باب المطبخ. لوهلة، بدا وكأن والدتها تقف هناك، تتحدث إلى النسوة اللاتي ستساعدهن، هناك تماماً عند العتبة، وأعينهن ترنو إلى السيدة أورتمان في امتنان على سرّيتها ومهارتها.

نفضت نيلا هؤلاء الأشباح، وخفضت بصرها إلى الخريطة. ها هنا رسوم كاسبر، للحق في مؤخرة المطبخ يصلح دفيئة. ها هنا ملاحظاته حول الدفيئة، أرقامه وهوامشه. لا شيء من ذلك يضايق نيلا أو يؤلمها الآن. ربما تكون هذه سطوراً تحمل وعدًا. ما الذي قاله لها كاسبر، وهو يجلس إلى طاولة مطبخ الهيرنغراخت؟ تلك الحديقة هي كل ما نحن عليه وكل ما يمكن أن نكونه.

كان أوتو قد كتب شيئاً أيضاً: شركة براندت وفيتسن، ملحوظة بخط يده إلى جانب المبنى المرسوم: متعهدو الأثاث، من أمستردام إلى العالم.

اعتدلت نيلا في وقفتها. يا للسهولة التي أغفل بها كل منهما اسمها، على الرغم من أن العقار الذي يرسمون عليه أحلامهما يعود إليها.

فكرت نيلا في تيَا، متوهجة في الشمس حاملة الفأس الذي كان لوالد نيلا. إنه مشهد مُسكِر. تعيد تذكر ما قالته تيَا، عن تشبيه نظرة ياكوب إلى زواجه منها باقتنائه بيانو فيثاري آخر، وتفكر، كدتُ أرى ذلك بعد فوات الأوان.

لكن هذا ليس بالمكان المثالي كذلك، إنها تعرف ذلك. لن تشرق الشمس دائماً بهذا الشكل. وهناك أشياء لن تزول بهذه السهولة. يأتي الماضي دائمًا ليلتقي بالحاضر، وهناك لحظات صغيرة فقط من الكمال، من السعادة. أما كيفية تجاوز الباقي فهو أكثر أهمية. كانت نيلا قد عاشت في هذه الجنة من قبل. إنها تفهم حدودها، أكثر بكثير مما يمكن لأوتو، أو كاسبر، أو تيَا. تلك اللحظات الصغيرة المشرقة تمر، ولا يبقى لك سوى أن تتسائل متى تأتي اللحظة المُشرقة التي بعدها.

لكنَّ هناك اختلافاً الآن، كما تفترض نيلا، إذ إنها تعلم أن لحظة السعادة التالية سوف تأتي. سابقاً، في هذا المنزل، وبعد ذلك في أمستردام، لم يكن في وسعها أن تتيقن قط، ثم علقت في ثنايا شكِّها الخاص.

فكرت، قد يختلف الأمر، بل يجب. عليهم أن يأخذوا في عين الاعتبار الاحتمال المُرجَّح بأن ياكوب فان لوس لن يردَّ أبداً

إليهم ذلك المال المتعلق بعقد الزواج. وبفضل جهود كلارا ساراخون، فإن سمعتهم في دوائر معينة في أمستردام ربما تكون قد تجاوزت حدود الإصلاح. ولكن أقله، بما أن ياكوب وتِيَا لم يتزوجا حقاً، فإن منزل الهيرغراخت يبقى ملكاً لأوتو، يفعل به ما يشاء. أجل، هم لن يحصلوا على نفقة تساعدهم في تسديد القرض، وصيانة المنزل. ولكن إذا اختار أوتو البيع، ووافقت نيلا على استصلاح أسِدلفت - فربما حينها يصبح كل شيء مختلفاً.

كما أن لديهم أشياء أخرى، بخلاف المال: عقل كاسبر فِيتسن، وإرادة نيلا، وشجاعة أوتو، وكورنيليا، دائماً قلب كورنيليا. وسيكون لديهم تِيَا. الطفلة التي ربما كان من المفترض أن تعيش هنا، في النهاية.

فكرت نيلا، بباقي النقود، سنصنع مستقبلاً. أورتمان وبراندت وفيتسن. إن له جرساً.

تخيلت الأسكفة في مدفأة بهو الدخول، وقد نقشه نحّات أحجار جديد. أ.ب.ف.، مكلَّلاً بأوراق أناناس. لا يوجد ما يخسرونه، في هذه المرحلة. لماذا تواصل حربها مع أمستردام؟ كان كاسبر قد كتب، نزح جزء من البحيرة لري البذور. تنظر من النافذة. ماذا كانت أمُّها لتقول يا ترى في هذا؟ وماذا كانت مارين ستقول، عندما تعرف أن منزلها الدافئ والجاف في الهيرغراخت قد بيع لإصلاح خرابة؟ وابنتها، مزارعة أناناس؟

فكرت نيلا، كان يوهانس سيستمتع بكل هذا. كان سيفعل حقاً. كان ليتسلَّى بفكرة تحدٍّ كهذا، بقدرة البشر على الأمل، والقليل من الحماقة. لقد جاء إلى هنا مرة، ليسمعها تعزف على العود، وقال إن المَطلَّ على البحيرة جميل.

- قد يكون الجبن هنا أرخص من دون هامش الربح الذي تضعه المدينة، قالت تِيَا، مُباغتة نِهلا في وسط أفكارها، ولكن، هل سيكون ذلك كافياً لإقناع كورنِليا؟

كانت نِهلا في غاية الشرود، حتى أنها لم تنتبه إلى تِيَا وهي تدخل. استدارت، والفأس يتدلى مُرتخياً من يدها، وقد تعرّق جبينها. راقبت نِهلا بانتباه. لا جدوى الآن من محاولة إخفاء مخطط فِيتسن.

قالت تِيَا، وهي تقترب:

- هذه خرائط بابا.

- بالأحرى، خرائطي.

ضيّقت تِيَا عينيها، وهي تقرأ كتابات كاسبر، وقالت:

- هل أنا حقاً السبب في عودتك؟

- طبعاً، أنتِ كذلك.

- لماذا أحضرتها معكِ إذن، مادامت قد أغضبتكِ بشدة؟

- تِيَا، لم يكن والدكِ، ولا كاسبر فِيتسن، ولا صانعة الدُّمى هو من أعادني إلى هنا. بل هو أنتِ. سكتت نِهلا قليلاً، وأردفت: وفي النهاية، كان أنتِ من أحضر الأناناسة.

اتخذت تِيَا مجلساً، ونظرت عن قرب إلى ما كتبه والدها وكاسبر. وفكرت نِهلا، يا لحاجتها إلى أن أحبها. كيف عجزتُ أن أرى هذا من قبل؟

- هذه مشروعات طموحة.

- حسناً، وكذلك أنا. وكذلك والدك، وربما نكون قد أطلنا

الإقامة في أمستردام.

رفعت تِيَا بصرها، مُستوعبة، وعيناها جاحظتان:

- هل ستفعلين هذا حقاً؟ بعد كل ما قلتِه؟

أخذت نيلا نفساً عميقاً، وقالت:

- أعتقد أننا جميعًا نستحق بداية جديدة، ألا توافقين؟

لا تجيب تِيَا في الحال. افترضت نيلا، لن تعود قريبة كثيراً من المسرح الآن. لن تكون هناك ريبيكا تلجأ إليها. لا أُبهة تستمتع بها، شبيهة بما كان ياكوب فان لوس سيقدمها ذات مرة. ولكن من ناحية أخرى، لا شيء من ذلك كان يبدو أنه يبهر تِيَا. بل كان أنا.

وعوضاً عن الإجابة، ترد تِيَا السؤال إلى زوج خالها:

- ولكن أليست هذه بداية قديمة بالنسبة إليك؟ أن تعودي إلى هنا؟

- أن أعود لأعيش في المكان الذي شهد طفولتي؟ قد يراه بعضهم فشلاً. لقد حاولتُ لوقت طويل جداً، قبل حتى أن تولدي، أن أهرب منه. لكني الآن وقد عدتُ، أرى أنه ليس المكان الذي تركته. كيف له أن يكون؟ والداي ماتا. أختي، أخي. في وسعنا أن نجعل منه ما نريد.

- لن تهربي منه إذن بعد الآن؟

تابعت نيلا بأصابعها كآبة كاسبر، وقالت:

- لن أفعل.

- يمكننا إذن أن نبقى؟

- يمكننا. قالت تلك الكلمات وهي، تشعر أن قلبها يشرق في داخلها بطريقة لم تشعر بها منذ أعوام، تِيَا؟

- نعم، يا خالة نيلا؟

- لنذهب وندفن والتر.

***

تمّ الدفن سريعاً، فقد كان جسد والتر صغيراً. وكانت تِيَا قد تخيّرت شجرة جوز قديمة للمثوى الأخير لمشيقها. ركعت تُرقده في القاع غير العميق من الأرض الذي حفرتاه بمعزقة السيدة أورتمان الصدئة.

- خالة نيلا؟ قلتِ إنك لو كنتِ وصيّة أفضل، فربما لم يكن والتر ليحدث قط. توقف تِيَا قليلاً، وتشاهد نيلا ابنة صهرتها تزفر ببطء، نافضة التراب الزائد وهي تنهض واقفة، لكن لا أظنني أتمنى لو أن والتر لم يحدث قط. لأنه لو لم يحدث، لو أن شيئاً من هذا لم يحدث، لما جئتُ إلى هنا أبداً. ولا أنتِ. وما كان شيء مما سيحدث بعد ذلك ليقع.

قالت نيلا:

- يجوز. ولكن ربما كنتِ ستأتين إلى هنا في كل الأحوال؟ لا يمكنكِ أبداً أن تكوني مُتيقنة من أن شخصاً ما تكن في داخله البذرة الوحيدة للفصل التالي من حياتك. مهما أسبغتِ على الأمر من أناقة. سكتت قليلاً، وأردفت: ولكن ما أعرفه فعلاً هو أنني سأضرب والتر، إن قابلته.

- خالة نيلا.

- على وجهه الجميل مباشرة.

- ليست هذه كلمات تليق بجنازة.

ضحكت كلتاهما، وانحنت تِيَا فوق القبر للمرة الأخيرة، لتغطي وجه والتر بالتراب.

أخذتا تشقان طريقاً متعرجاً نحو المنزل، مُكلَّلتين بعصافير الضحى، وتعاينان كومة ألواح الخشب المتعفنة التي شيدتها تِيَا. أصوات الطيور تهز الأشجار، أوراقها تكاد ترفع نفسها تناغماً مع جوقتهم. يصدم نيلا إدراك أنها قد لا تعيش بعد الآن في منزل الهيرغراخت! إن مصيرهم كمائلة معلق في الميزان. إنهم يخطون خطوات نحو شيء ما، لكنهم لا يعرفون بعدُ ما هو بالضبط. قوة الصوت المُنبعثة من الطيور أعلى من أي شيء سمعته نيلا منذ أعوام - مائة، ربما مائتا صوت، تغرد وتزقزق وتتحدث، وكأنها وأشجارها هي الأشياء الوحيدة الموجودة في هذا العالم، وكأنها هي وتِيَا أشكال صغيرة تتحرك في الأسفل كالظلال. إن هذا يدوِّخ نيلا، وكأن كل الطيور توجد في داخل رأسها، وعقلها يشرق من جديد، يتفاءل من جديد، كما لم يحدث منذ زمن طويل.

ثم سمعتا، تحت تغريد العصافير، صوت حوافر الخيل.

ركضت تِيَا إلى السياج الأمامي للمنزل، عبر الحشائش الطويلة. استدارت، وأومأت إلى زوج خالها أن تأتي، انضمت نيلا إليها عند البوابة، وتنتظران، أعينهما على الأفق، والمدينة وحياتهما القديمة في مكان ما وراءه، والسماء تتألق بألوان ذهبية وزرقاء شديدة العمق.

في البعيد، رأت المرأتان هيئتين، إحداهما أصغر من الأخرى، يترجرجان فوق المقعد العالي لعربة يجرها حصان. وإذ يشق الحصان طريقه بطول الطريق، تأكد لنيلا أن الهيئة الأصغر

تمسك جيداً بقفص من الخوص، يحوي في داخله ظلّاً واقفاً لقط كبير. تبدو العربة محمّلة بصناديق. فرس نهلا، التي كانت تجول في المحيط الداخلي للسياج، رفعت رأسها إثر مقاطعة العجلات لأصوات العصافير. وأطلقت صهيلاً خفيفاً.

على مقعد العربة، تلتفت الهيئة الأصغر إلى الأكبر. وتقول شيئاً. تُرفع ذراع، ويُوجّه إصبع، وتشرق روح نهلا أكثر عندما تلوّح تِيَا بيدها. ترد يد التلويح. التفتت تِيَا إلى نهلا، وجهها متألق، وقد اصطبغ النهار كاملاً بالأزرق. نظرتا إلى الطريق. وشيئاً فشيئاً يقترب أوتو وكورنيليا، ولوكاس في قفصه الخوص.

قالت نهلا وهي تضع ذراعها حول كتفي تِيَا:

- أتساءل هل تُراها ألبسته طوقاً مكشكشاً للمناسبة؟

ضحكت تِيَا.

- تخيَّلي. إنه يعاني من الغثيان على الأرجح.

افترضت نهلا، أنهم قريباً سيعرفون إن كان شجار سيدور حول عنق قطهم. ولكن ماذا يهم إن حدث؟ سيكون الشجار دائماً، ويكون السلام. أربعتهم، يلوحون بأيديهم، ويبتسمون، واقفين. متأهبين، في هذه البرية، ليبدأوا من جديد.

شكر وتقدير

عميق امتناني:

إلى وكيلتي الأدبية الرائعة، جوليت موشينز، على دعمها الثابت، ورعايتها ونصائحها في أثناء تأليف هذا الكتاب، ودائماً، وإلى جيني بينت على بحث حقوقه في أمريكا.

إلى محررتي، صوفي جوناثان، على توجيهها هذه القصة بانتباه وشجاعة خاصين، وإلى كيت جرين على كونها شخصاً مُراعياً.

إلى فريق التصميم في بيكادور، ولاين لونيمان أندرسون ومارتن أندرسون وديف هوبكينز، على مثل هذا الغلاف الخلاب والتفصيلي.

إلى الجميع في بيكادور، على كدِّهم وسعة خيالهم.

إلى هيلين جولد، على كرمها في مساعدتي على التفكير برقة في الشعور.

إلى مُراجعي، نيك بليك، على أحاديثنا حول أشجار المشملة والحلان المنزلية.

إلى المحررين والمترجمين الأجانب الذين رحبوا بنيلا مرة أخرى داخل لغاتهم الخاصة.

إلى بائعي الكتب والمدونين، الذين، في بحر من الكتب يومياً، وفّروا وقتاً وحماساً لمؤلفاتي قرابة عقد من الزمان.

إلى القراء الذين استمتعوا بكتبي، وشاركوا استمتاعهم سواء معي أم مع الآخرين. لا شيء يضاهي هذا!

إلى عائلتي وأصدقائي الغالين، الذين لا يفقدون الثقة أبداً.

وأيضاً:

إلى "إس"، الذي يجعل كل شيء ممكناً، ودائماً أفضل:

وإلى الصغير "آي.بي"، الذي نحبه أكثر مما في وسع الكلمات أن تعبر عنه.